اِسْتَقَام المَنْسِم

محمد محمود النجدي

وَيْهَا.. يا ابن عبد المطلب!! تطمح أنْ تكون مَلِك الحجاز؟!!
هل تُسَوِّل لك نفسك أنْ تَملك مكة؟!
مكة.. البلد اللقاح.. التي لم تذعن أبداً لمَلِكٍ من الملوك
وما أدى أهلها يوماً لمَلِك إتاوة ، ولم يملكها ملكٌ قط..
ولم يخضع أهلها يوماً لسلطان أحد!!

قد استقام المَنْسِم!

قد استبان لكل ذي عقل أنَّ محمداً ليس بساحرولا شاعر،
وأنَّ كلامه من كلام رب العالمين؛ فحق على كل ذي لُب أنْ يتبعه!!

قد استقام المَنْسِم؛ والتخاذُل جريمة!!

قد عرفتُ الحق.. ولن أحيد عنه؛ ولأنْ أكون جندي نكرة في صفوف الحق..
أحب إليّ من أنْ أكون أميراً لجيش الباطل!! قد استقام المَنْسِم.. وقضي الأمر!

قد ظهرالحق.. واستقام المَنْسِم؛ علاما الانتظار؟؟! لِمَا أبقى ها هنا غريباً.. شريداً؟؟!
عليَّ أنْ ألحق برسول الله!!

والله.. لقد استقام المَنْسِم.. وإنَّ الرجل لنبي، أذهب.. والله.. أُسلم؛ فحتى.. متى؟!

قد استقام المَنْسِم.. يا إخوتي!

اِشهدا.. أنني أسلمتُ، وأنّي أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأنَّ محمداً رسولُ الله!

اِسْتَقَامَ المَنْسِمِ

محمد محمود النجدي

المَنْسِم: هو الطريق، واستقام المنسم: أي.. تَبيَّن الطريق.

المحتويات:

القسم الأول: (الوليد) .... صفحة (٤)

القسم الثاني: (خالد) .... صفحة (٢٣٧)

القسم الثالث: (عثمان) .... صفحة (٢٥١)

القسم الرابع: (عمرو) .... صفحة (٢٨٨)

القسم الأول

الولـــيد بن الوليد بن المغيرة المخزومي

- ١ -

أنا.. الوليد: ابن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[1].

أنا قرشي.. من بني مخزوم! بنو مخزوم.. ابن يقظة بن مرة؛ عم قصي بن كلاب بن مرة، ومَن -في العرب- لا يعرف: **قصي بن كلاب**؟!!

ذلك الرجل الفذ الذي انتصر لقريش على باقي قبائل كنانة وخزاعة [2] .. حيث أجلاهم عن مكة، وجعل سُكنى مكة خاصة لقريش، وأسكن قريش في دور من الحجر.. وبيوتٍ مِن المَدَر [3].. بعدما كانوا يعيشون في خيام مِن وبر.

الرجل الذي اجتمعتْ في يديه: سدانة الكعبة.. والرفادة.. والسقاية.. ورئاسة قريش؛ فكان زعيم مكة بلا منازع، استقر له سلطانها؛ فهدم البيت العتيق.. ثم بناه بنياناً لم يبنه أحدٌ قبله، وبنى دار الندوة.. وهي بمثابة دار الحكم في مكة؛ وهي الدار التي كان يجتمع فيها حكماء مكة وشيوخها.. ليتشاوروا في شئونها وأمورها الجسام؛ فلا تقضي القبيلة أمراً إلا بها؛ فكان لا يعقد لواء حرب إلا بها

---

[1]: هو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة؛ ويسمى: قريش الأوسط، أما قريش الأكبر فهو جده النضر بن كنانة، غير أنَّ قريش تنسب إلى فهر لأن عقب النضر منحصر في فهر، أما قريش الأصغر فهو قصي بن كلاب لأنه هو من جمَّع قريش وأسكنهم مكة بعد أنْ كانوا يسكنون حولها متفرقين في بني كنانة، وكانوا يسمون حينها: بني النضر بن كنانة، وبالتالي فإنَّ قريش تعتبر قبيلة من قبائل كنانة.

[2]: كنانة: هي القبيلة الأم التي تتفرَّع منها قريش، وكانت تسكن في البوادي حول مكة خارج الحرم، وخزاعة: قبيلة –ليستْ مِن كنانة- كانت لهم ولاية مكة قبل قصي بن كلاب، ثم انتزعها منهم قصي لأنَّ قريش أحق بها منهم؛ لأنَّ قريش من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

[3]: المدر: الطين اللَّزج المتماسك.

ومنها تنطلق القوافل.. وفيها كانت تَحُطّ رحالها حين عودتها، وفيها كان يعقد زواج الرجل القرشي على المرأة القرشية.

و **قصي**.. هو أول مَن حفر بئراً في مكة.. بعد إسماعيل (جد العرب العدنانية الأكبر)؛ حفر بئر العجول.. وبئر سجلة.

لكن.. هل كان قصي يستطيع أنْ يصنع ذلك المجد كله.. وحده؟!!

بالطبع.. لا!! كيف يتسَنَّى له ذلك دون المعاونة والمساندة مِن عصبةٍ قويةٍ شديدة؛ مِنهم.. عمه: **يقظة بن مرة**.. جد بني مخزوم، وأصدق دليل على ذلك أنَّهم عندما استولوا على مكة وطردوا منها خزاعة.. تَوَلَّى إمارتها يقظة بن مرة!! لا غرو.. فهو عم قصي.. وأسن منه بعشرين عاماً، ولا جرم أنَّ قصي لم يكن ليدع إمارة مكة لعمه.. لو لم يكن له دور كبير في نصرته ومآزرته، ثم لمَّا هلك يقظة.. انفرد قصي بإمارة مكة؛ ولم ينازعه فيها مخزوم.. ولا أحد من أبناء يقظة.. لعِلْمهم أنَّ الفضل في إحلال بطون قريش بمكة يرجع إلى قصي؛ فعاش يحكم قريش ومكة.. دون مُنازع، وهم يَعُدُّون أمره فيهم ديناً مُتبعاً.. لا يجوز مخالفته، على أنَّه وَكَل إلى بني مخزوم: القُبَّةَ (وهي مجمع سلاح قريش للحرب).. والأَعِنَّةَ (وهي قيادة الفرسان في الحرب).

أَعْقَب قصي ثلاثة أولاد ذكور.. هم: عبد الدار– عبد مناف – عبد العزى،

ثم مات قصي.. بعد أنْ عمَّر زيادةً عن ثمانين عاماً.

قبل وفاته.. قَسَّم مُلْكه بين أبنائه؛ فجعل الرياسة لعبد مناف –لأنَّه الأقدر عليها- ، وجعل سدانة [1] الكعبة لعبد الدار.. وضَمَّ إليه رئاسة دار الندوة واللواء.. وضَمَّ إليه السقاية [2] .. أيضاً، وجعل الرفادة [3] لعبد العزى؛ فلم يخالفه بنو مخزوم بن يقظة.. ولا أحدٌ مِن قريش؛ فأمره فينا نافذٌ مطاع.

سار الأبناء على درب الأب، وتولى **عبد مناف** زعامة مكة، وجَلَّ قدره.. وعظم شرفه، وكان مِن حسن سياسته وتدبيره أنْ عقد حلف الأحابيش [33] مع قبائل كنانة؛ وذاك هو أول حلف تعقده قريش في مكة، كما استألف خزاعة.. بعد العداوة التي كانت بينها وبين قصي، ولا جدال في أنَّه بسياسته الرشيدة وحسن تدبيره.. استقر أمر قريش في مكة وما حولها؛ بل وأصبحتْ صاحبة السيادة والرياسة في تهامة كلها.

أما أبناء عبد مناف بن قصي.. فهم: هاشم – عبد شمس – المطلب – نوفل، وقد أراد هؤلاء أنْ تكون الرياسة فيهم –بعد أبيهم- أو في واحدٍ منهم!؟؟

---

[1] :هي حجابة الكعبة والعناية بها والقيام بشئونها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وإصلاح كسوتها واستقبال زوارها.

[2] : **هي توفير المياه للحجيج.**

[3] : الرفادة: هو خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع به طعاماً للحاجّ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش... فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه.. حتى قام الإسلام.

[33] : حلف عقده عبد مناف وقريش مع القبائل المتفرعة من كنانة على أنهم معهم يد واحدة على من عاداهم ما سجا ليل وما وضح نهار.. وما رسا جبل حُبْش، وكان ذلك عند جبل يُسمى حُبْشي؛ فسمُّوا أحابش قريش، وكانت هذه القبائل الكنانية تسكن في بوادي تهامة والحجاز حتى ساحل البحر الأحمر.

كيف.. ذاك؟!! فأين بنو مخزوم الذين كان جدهم يقظة أميراً لمكة.. قبل قصي جد هؤلاء؟! أو.. أين بنو عبد الدار؟! وقد كان أبوهم.. الابن الأكبر لقصي؟!

كان الخلاف حاداً.. والشقاق وشيكاً؛ لولا دار الندوة!!

أجل! فقد اجتمع فيها مَشايخ قريش لحسم الخلاف واختيار الأصلح لرياسة مكة وقريش.. بعد موت عبد مناف.

وائتَلَف بنو عبد مناف على مآزرة أخيهم هاشم –الذي ساد فعلاً في حياة أبيه- ضد مُنافسيه؛ فآلتْ إليه زعامة مكة ورئاسة قريش، وامتثلنا جميعاً.. وحاز **هاشم** -وبنو عبد مناف- ذلك الشرف، ولن أخجل وأنا أعترف أنَّ في ذلك الزمان الغابر.. لم يكن أحدٌ من بني مخزوم نداً لبني عبد مناف أو كفؤاً لهم؛ وكذلك.. بنو عبد الدار.. وبنو عبد العزى.

ولن أبخس هاشم وأخوته حقهم؛ فقد أحسن رئاسة مكة وسار في أهلها سيرةً حسنة؛ بل.. قام بسقاية الحجيج ورفادتهم كأحسن ما يكون كأنَّما هو المسئول عنها.. لا بنو عمومته؛ كان يُخرِج لذلك مالاً كثيراً، وكان يأمر بحياضٍ مِن أدم؛ فتُجعَل حول الكعبة ثم يسقي فيها من الآبار التي في مكة؛ فيشرب منها الحاج، وكان يطعمهم بمكة.. ومنى.. وعرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق.. ولهذا سماه الناس: هاشماً.. إذ كان اسمه قبلها: عمرو.

ولا أُنكر أنَّه أول من سَنَّ الرحلتين: رحلة الصيف إلى الشام.. ورحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ومِن قبله.. كانت تجارة قريش لا تتجاوز مكة؛ فكانوا في ضيقٍ من العيش، فنزل هاشم في مدينة بصرى بالشام.. وأخذ من قيصر الروم آماناً لقريش وتجارتها من مكة إلى الشام، وانصرف عائداً إلى مكة.. فجعل كلما مرَّ بحي من العرب.. أخذ من أشرافه الإيلاف: أيّ أنْ يأمنوا عندهم.. وفي أراضيهم؛

ولا غرو.. فإنَّ قريش هم سدنة البيت.. ورُفَّاد الحجيج، ومن حسن سياسته.. اتفاقه مع هؤلاء القبائل بأنْ يحمل لهم تجارتهم دون أنْ يلزمهم مؤنة أو نفقة؛ مما أَكَّد بينهم وبينه قوة التآلف وحسن المودة.

ثم أرسل أخاه عبد شمس إلى اليمن ونجاشي الحبشة.. ليأخذ منه أماناً مثل قيصر، وكذا.. فعل أخوه نوفل مع كسرى؛ فراجتْ تجارة قريش.. واغتنوا بعد فقر.. وشبعوا بعد جوع، وانساح تُجّارها في الأرض بين الشام والعراق واليمن والحبشة، وأصبح منهم تُجّار كبار مياسير.. يتعاملون بالذهب والفضة والدرهم والدينار.. بعد أنْ كانوا يتعاملون بالمبادلة والمقايضة.

ولعلّ الذي ساعدهم في ذلك –غير البيت العتيق- موقع مكة –ذاتها- حيث أنّها تقوم في منتصف الطريق المعبَّد للقوافل بين اليمن والشام، في وادي منبسط مِن أودية جبال السراة، تحيط به الجبال الجرداء من كل جانب.. وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ.. يصله أحدها بطريق اليمن، ويصله الثاني بطريق قريب من بحر القلزم عند مرفأة الشعيبة، ويصله الثاني بالطريق المؤدي إلى الشام.

ثم مات هاشم شاباً -في إحدى رحلات الشام- قريباً من غزة، وقام بالأمر بعده أخوه عبد شمس؛ فتبصَّر في المسألة.. فرأى أنَّ بني عبد مناف يبذلون جهدهم وأموالهم في حفظ مناصب جدهم قصي.. دون بذلٍ يُذكر من بني عمومتهم: بني عبد الدار.. وبني عبد العزى.

فطالبهم عبد شمس –وأخوته- بالتنازل لهم عن تلك المناصب؛ فنزل لهم بنو عبد العزى.. عن الرفادة، ورفض بنو عبد الدار التَخَلِّي عن ميراث جدهم وأبيهم؛ فتنازعوا.. وتصاعد الصراع بينهم حتى تحالفتْ بطون قريش ضد بعضها، وانقسموا إلى فريقين كادا يقتتلان.. لولا أنْ سعى بينهم المصلحون؛

فتصالحوا على أنْ تكون الرياسة والسقاية والرفادة لبني عبد مناف، وتبقى السدانة واللواء ورئاسة دار الندوة.. في بني عبد الدار.

على أنَّ عبد شمس بن عبد مناف مات.. بعد وقتٍ قصير؛ فانتقلتْ الرئاسة والرفادة والسقاية إلى.. المطلب بن عبد مناف، فلم ينازعه أحدٌ؛ وهذا لأنَّ الحال قد تغيَّر.. وتحوَّل اهتمام وجهاء قريش وكبرائها إلى التجارة.. والتنافس في تنمية الثروة والأموال.

لم يكن المطلب أكثرهم مالاً؛ لكنَّه كان حريصاً على شرف بني عبد مناف ألَّا يفقدوه؛ ولا جرم أنَّ هذا الشرف والسؤدد يتمثَّل في السقاية والرفادة.

ولقد ظهر في مكة أغنياءٌ كثيرون.. أكثر منه مالاً وأعظم ثراءً؛ ولا أنكر أنَّ جدي: المغيرة بن عبد الله المخزومي.. أصبح من أولئك الأثرياء.

كانوا أثرى وأغنى مِن المطلب.. لأنَّهم كانوا يكسبون الأموال دون أنْ يتحمَّلوا مغارم رياسة.. أو نفقات شرف.. أو تكاليف سؤدد، وفي غضون سنوات.. تغيَّر الحال.. وأصبح في قريش مَن يفوقون بني عبد مناف مالاً وثراءً، وصاروا يتطلَّعون إلى منازعة بني عبد مناف.. الشرفَ والسؤدد.

ثم خرج المطلب.. في تجارةٍ إلى أرض اليمن؛ و هلك بها، وآلتْ السقاية والرفادة إلى ابن أخيه: **عبد المطلب بن هاشم**.

كان عبد المطلب رجلاً وجيهاً عاقلاً حليماً، كان –أيضاً- طموحاً وسياسياً أريباً؛ جدَّد -باسمه- لقريش الأحلاف والمواثيق التي عقدها جده عبد مناف مع خزاعة.. وأحابيش كنانة.

وتميَّز بمقدرةٍ عجيبة على التعرُّف على مواضع الماء تحت الأرض؛ ومن ذلك أنَّه أُلهِم بموضع بئر زمزم.. التي حفرتْها أم إسماعيل بجوار الكعبة في قديم الزمان

ثم اندثرتْ؛ قام بالحفر في ذات الموضع.. فعثر على زمزم، فنازعتْه قريش عليها؛ ثم شاهدوا مِن الأمارات ما دفعهم إلى أنْ يُخلُّوا بينه وبين البئر.. ولا يُنازعوه فيها؛ فأوقفها لسُقيا الحجيج، وتلك منقبةٌ جديدة تضاف إلى مناقب بني عبد مناف.. ليُفاخرونا بها، بل خُصَّ بها بنو هاشم.. وعبد المطلب الذي أوحتْ إليه الآلهة بموضع زمزم مِن غير كاهنٍ ولا واسطة.

وإلى جوار نجم عبد المطلب بن هاشم الساطع.. لمع نجم ابن عمه: أمية بن عبد شمس.. الذي ورث تجارة الحبشة بعد أبيه، وأصبح مِن أغنى قريش.. ومِن أسيادها المطاعين، ومِن بعده.. ولده الشاب: أبو العاص بن أمية.

ما زال **بنو عبد مناف**.. كلما كاثرناهم كثرونا؛ فإلى متى؟؟! إلى متى يفوقوننا حسباً وشرفاً؟؟!

هنالك.. قيَّض الله لبني مخزوم: (**المغيرة**) بن عبد الله؛ جدي.. الذي أخذ على نفسه عهداً بأنْ يرفع شأن **بني مخزوم** في قريش ومكة؛ فلا يكون لأحدٍ عليهم فضلٌ ولا شرف.. حتى بني عبد مناف.

أما عبد المطلب.. فلم ينسَ يوم نازعتْه قريش في زمزم؛ وقدَّر أنَّ ذلك كان لقلة بنيه؛ فلم يكن معه يومها غير ولده: الحارث، فنذر لإنْ وهبه الله مِن البنين عشرة.. وبلغوا معه حتى يمنعوه؛ ليذبحنَّ أحدهم قرباناً لدى الكعبة، ومضى يتزوَّج النساء.. ويُنجب البنين والبنات.

ومِن نسائه اللاتي تزوَّجهن.. عمتنا: فاطمة بنت عمرو المخزومية؛ فأنجبت له مِن البنين ثلاثة: الزبير – أبا طالب – عبد الله.

كان عبد الله.. هو عاشر الأبناء بعد: الحارث – الزبير- أبو طالب – ضرار- عبد العزى (أبولهب) – الغيداق – المقوم – قثم – حجل.

ثم أصبحت مكة –ذات يوم- وعبد المطلب.. قد جمع أبناءه العشرة عند الكعبة ليَقرَع بينهم أيّهم ينحره قرباناً للكعبة.. وفاءً بنذره.
بُهِت الناس.. وتسمَّر أسياد قريش -في ناديهم- واجمين مشدوهين، ما استطاع أحدٌ أنْ يعارض سيد مكة فيما عزم عليه؛ إنَّهم يعلمون تَألُّهه.. وحسن طاعته للآلهة وتعظيمه لحرماتها؛ فلن ينثني عن الوفاء بنذره.
اقترعوا.. فوقعتْ القرعة على أصغرهم وأحبهم إلى أهل مكة: عبد الله بن فاطمة المخزومية.

صرختْ فاطمة.. وبكتْ وانتحبتْ، وما رقَّ عبد المطلب لدموعها، إنَّ وفاءه بنذره واجبٌ عليه للآلهة.. لن يتهاون فيه؛ وإنْ كان فيه التضحية بأحب أولاده إليه.

هرعتْ فاطمة مستغيثة.. إلى قومها –مخزوم- ليستنقذوا فلذة كبدها مِن الذبح على يد أبيه؛ فما قدر أحدٌ منهم أنْ ينهض معها.. إلا جدي المغيرة؛ تلك هي الفرصة السانحة ليكون لنا يدٌ على بني عبد مناف.

وبينما عبد المطلب بين إساف ونائلة [1]: المُدْيَة في يده، وولد فاطمة تحت قدمه.. ليَهِمّ بنحره؛ اندفع إليه **المغيرة** يعارضه مُستهجِناً: "أين حلمك.. يا عبد المطلب؟!! وكنّا نضرب بك الأمثال.. فنقول: أحلم من عبد المطلب!"، ثم أردف: "والله.. لا تفعل.. حتى لا تكون سُنةً في الناس من بعدك، والله.. لا تذبحه أبداً.. حتى تُعذَر فيه؛ فإنْ كان فداؤه بأموالنا.. فديناه!".

ثم اصطلحوا على أنْ يضربوا القداح عليه وعلى الدِّيَة -وكانت: عشرةً من الإبل- فإنْ كانت على الدِّيَة.. فدوه بها، أو ضاعفوا الدِّيَة حتى ترضى الآلهة.. ويخرج

[1]: إساف ونائلة: صنمان من الأصنام التي كانت حول الكعبة.. كانت تذبح عندهما القرابين.

القداح على الدِّيَة؛ فما زالوا يُضاعفون الدِّيَة حتى بلغتْ مائة من الإبل –عشرة أضعاف دِيَة الرجل الحر- نحروها.. فداءً لعبد الله بن فاطمة المخزومية، فكانت تلك.. منقبةً للمغيرة وبني مخزوم.

- ٢ -

ثم رزأتْ مكةَ.. مُصيبةٌ عظيمة!!

جاء جيش الحبشة من اليمن.. يغزو مكة!!

عسكر ملك الأحباش بجيشه العرمرم في موضع يقال له: المغمس؛ على مسيرة ثلاثة أيام مِن مكة، وبعث رجلاً مِن رجاله في كوكبةٍ من الفرسان.. مُستطلِعاً؛ فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرها.. وأصاب فيما غنم: مائتي بعير لعبد المطلب.

أحسَّ سادات مكة.. كأنَّ جبالها ستندكُّ فوق رؤوسهم، اضطربتْ القلوب في الصدور هلعاً، وطاشتْ العقول.. دهشةً وحيرة: "لماذا يغزو الأحباش مكة؟!! جاءوا بجيشٍ لا طاقة لنا به.. ماذا نفعل؟؟ ما الملاذ؟! أين المفر؟!!".

إلى دار الندوة.. لجأوا، وفيها.. احتشد الملأ منهم، أفئدتهم هواء.. وعقولهم هباء، وغِيَام الرعب راكدةٌ في السماء.. أوشكتْ تمطرهم دماراً وهلاكاً.

تَوجَّهتْ الأبصار إلى سيد مكة المتألّه، سألوه مذعورين: "ما العمل.. يا عبد المطلب؟!"، لم يزايله حلمه.. ولم يفقد شجاعته؛ بل أجابهم.. بصوتٍ تشوبه غُصَّةٌ: "سأذهب –مُسالماً- إلى ملكهم (أبرهة)، وألتمس لقاءه.. عسى أنْ نُدرك غايته ونعلم: ماذا يريد منّا ومن مكة؛ فإنْ كان يطلب مالاً؛ جمعنا له مِن أموالنا حتى يرضى.. ويرحل عنا!"، ثم أردف.. بعزةٍ وأنفة: "أما إنْ كان يتطلّع إلى غير ذلك.. بما فيه ذُلّنا وقهرنا؛ فالموت عزيزاً.. أحب إليَّ مِن الحياة ذليلاً!".

التمس عبد المطلب لقاء الملك أبرهة؛ فما سُمِح له.. وما تمكَّن مِن لقاء الملك، بيد أنَّ أبرهة أرسل إليه رسولاً من عرب اليمن.. ليقول له: "إنَّ الملك يقول لكم: إني لم آتِ لحربكم، إنَّما جئتُ لهدم هذا البيت؛ فإنْ لم تعرضوا لي بقتال.. فلا حاجة لي بدمائكم!".

انشده عبد المطلب.. وتساءل جزعاً: "لِمَ يريد الملك هدم الكعبة؛ إنَّها بيت الله العتيق.. بناه إبراهيم وولده اسماعيل، وتُعظِّمها العرب؛ هل هذا يُؤذي الملك.. في شيءٍ؟؟!"، فأجابوه: "لقد بنى الملك كنيسةً عظيمةً في صنعاء.. لم ترَ العرب مثلها.. سماها: (القليس)، ويحب الملك أنْ يصرف العرب عن الحج إلى هذا البيت العتيق.. ليحجُّوا إليها!"، تساءل عبد المطلب مُستنكِراً: "وهل أمره الله.. بهذا؟!!"، فما جاءته.. إجابة.

انكفأ إلى قومه حائراً.. يُحدِّث نفسه: "ذلك ملكٌ استكبر وتكبَّر.. وأخذته العزة بالإثم، أ يحسب أنَّه أكبر من الله: رب إبراهيم.. ورب البيت العتيق؟؟!".

رجع إلى دار الندوة ليخبر ملأ قريش بالنبأ العظيم، ويتشاور معهم؛ ويسألهم: "يا قوم!! ماذا أنتم فاعلون؟؟"، انحشرت الكلمات في الحلوق.. وانحبست الألسنة

في الأفواه، وتصاغر أكابر القوم –ومنهم جدي: المغيرة-، وحدَّثتْهم أنفسُهم: "هذا الحبشي.. يريد هدم الكعبة؟ الكعبة التي أعزّنا الله بها.. ورفعنا بها فوق العرب كافة! إنّها البيت العتيق الذي يقصده الحُجّاج والتُجّار مِن كل فج!! جاء ذاك الأسود الذميم.. يريد هدمه وهدم عزنا وشرفنا! لا ريب.. يطمع في جلب منافع الكعبة التي يَؤُمها العرب إلى بيته الذي بناه! يحسدنا على ما حبانا به الله من عزٍّ ودَعَةٍ وثراء! لا محيد عن مجابهته.. وصدِّه عن غايته!".

ثم تساءلوا بتخاذلٍ.. يحسبونه حكمة: "هل نقدر –حقاً- على مواجهة ذلك الجيش العرمرم؟! إنَّه من المستحيل أنْ نقدر على جيشٍ –كهذا- يرفل في الحديد.. ويَؤُمُّه فيلٌ شديد! وثرواتنا.. وأموالنا هل نتركها له غنيمةً باردة؟؟!".

وتخبَّط المغيرة حائراً.. وتسلَّطتْ على قلبه.. الهواجس: "لو هُدِم البيت؛ لانهارتْ معه قريش.. وتَصدَّع شرف بني عبد مناف في العرب!! لكنّي.. سأفقد مالي.. وستضيّع ثروتي التي جمعتُها –وبنو مخزوم- عُمراً طويلاً.. لنَبُزَّ بها بني عبد مناف؛ فما العمل؟!".

مرةً ثانية.. تطلَّعتْ العقول الحائرة.. والعيون الزائغة.. إلى سيد مكة الذي قرَّبه الإله إليه.. وحاباه وأوحى إليه بموضع زمزم مِن غير وساطة كاهنٍ.. ولا عَرَّاف، تساءلوا.. والتراخي واليأس مبثوثان في وجوههم: "ما العمل.. يا عبد المطلب؟!!"، غير أنَّه وَجَم.. وطال وجومه.

شَقَّ الأمر على ذلك الشاب الأَبِيّ والفارس الشهم: أبي العاص بن أمية [1]؛ وصَعُب

---

[1]: ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وهو جد الصحابي الجليل والخليفة الراشد: عثمان بن عفان بن أبي العاص.. ﷺ.

عليه أنْ يرى سادات قريش بهذا التخاذل والخنوع، وأشدّ ما أزعجه أنْ يرى عمه عبد المطلب حائراً في المسألة.. خائراً عن الذَّوْد عن عزّ قريش وشرفها؛ فقام.. خطيباً: "يا معشر قريش! ما لكم.. حائرون؟! بما تفكِّرون؟! فيما تتشاورن؟! غشيكم هذا الأسود الدميم.. يريد تدمير بيت ربكم.. وتخريب دياركم.. وهدم عزِّكم وشرف آبائكم؛ فماذا تنتظرون؟؟ أُقسم برب هذا البيت.. أنْ أقوم دونه؛ فلا يدخلها علينا وفيّ عينٌ تطرف! فمن تابعني منكم.. ووافق رأيه رأيي؛ فليلحق بي، فإنّي خارجٌ إليه.. ولن أدع قتاله ما بقي مقبض سيفي في يدي!!".

زحف الجيش اللجب إلى مكة، يتقدَّمه فيلٌ مخيف.. يدكُّ الأرض بأقدامه فيزلزلها ويُزلزل قلوب سُكانها، ومِن ورائه.. يسعى جنودٌ لا حصر لهم.. ولا قِبل لأحدٍ بهم، يضربون الأرض بأرجلهم القوية.. ضرباتٍ أثارت غباراً كثيفاً تَعبَّأت به أجواء مكة.. وتَلطَّخ به شرف قريش وسؤددها.. وكسفتْ منه شمس كرامتها.

ما تجرَّأ أحدٌ من أهل تهامة على البروز له.. سِوَى شرذمةٍ مِن فرسان قريش وكنانة.. يقودهم فارس عبد شمس وبني عبد مناف: أبو العاص بن أمية.

لكن.. لم تغنِ هذه الشرذمة القليلة عن نفسها شيئاً.. ولا عن مكة، وإنَّما دهستها أقدام الفيل، وتعاورتهم سيوف الحبشة ورماح جنودها، وقُتِل أبو العاص بن أمية.. مُكتفياً بشرف الموت دفاعاً عن كرامته وعِزَّة قومه.

ندمتْ قريش على المقاومة الضعيفة، وسُقِط في أيدي زعمائها.. فَرَقاً مِن انتقام أبرهة، وخشي السادةُ والأثرياءُ الشقاءَ.. بعد الرفاهية، وخافوا على أموالهم وثرواتهم مِن الضياع؛ فأرسلوا زعيمهم -عبد المطلب- يعتذر إلى الملك.. ويرجوه

أنْ: يعفـو عـنهم ويهبهم أنفسـهم وأمـوالهم عـلى أنْ يُخلّـوا بينـه وبـين الكعبـة؛ فـمنحهم ثلاثة أيام.. يخرجوا خلالها مِن مكة.. ليدخلها بجيشه ويهدم الكعبة.

غـادر القـوم مكـة.. وتفرَّقـوا في شِـعاب الجبـال ورءوسـها.. مُتخـاذلين مُتـرقِّبين مـا سيُفعَل بمدينتهم ومقدساتهم؟!!

وبينما يتقدَّم الجيش الحبشي مزهـواً بـقوته.. إذ أظلمتْ السـماء في وَضَح النهـار، تَطلَّعـتْ إليهـا العيـون بانـدهاش؛ فبُهِتَ القـوم.. وبرقـتْ أبصـارهم، إنَّ في السـماء طيراً كثيفاً.. ما رأووا مثله قبلُ، إنَّها تَتَّجه إليهم.. كأنَّها تهاجمهم!!؟

إنَّهـا تهـاجمهم حقـاً؛ إنَّهـا تُصـوِّب علـيهم قـذائف مِـن حجـارة، تـرميهم بهـا فتُقطِّـع أوصالهم.. وتتساقط منها أناملهم؛ ويتساقطون صرعى وقتلى، تعالتْ الصرخات المذعورة.. وذهل الجنود عن أسلحتهم وأمتعتهم، وهرع كل فردٍ منهم.. يحاول أنْ ينجو بنفسه؛ لكن.. كيف النجاة؟؟ وأين المفر؟؟

تخبَّطـوا.. وتفرَّقـوا في كـل جهـة.. لا يـدرون إلى أيـن يهربـون مِـن قـذائف الطـير الأبابيل المميتة التي قتلتْ أكثرهم، تضعضع الجيش العرمرم.. وتشتَّت جمعه، وأصبح جيش الفيل العظيم: أثراً.. بعد عينٍ!!

في جـزءٍ مِـن نهـار.. وعلـى مـرأى مِـن أهـل مكـة المُتَوَجِّسـين.. المُختبئين في رؤوس الجبال.. هلك جيش أبرهة؛ أهلكه الله.. حمايةً للبيت وإعزازاً لقريش.

على تخـوُّفٍ.. نـزل القـوم إلى الـوادي ليجـدوا الجـيش المخيـف اسـتحال أَجْثاثـاً [1] تنـزف قيحـاً، وتسـاقطتْ أعضـاؤهم أُنملـةً.. أُنملـة، نفـرٌ قليـلٌ لـم يـزل بهـم رمـقٌ ضـعيف مُتشـبِّثٌ بالحيـاة، يئنـون مـن الوجـع.. ويلهثـون مـن الرعـب.. منهم: أنيس سائس الفيل؛ ولقد رأيناه –ونحن صِبْيَة صغار-: شيخاً أعمى مقعداً يستطعم الناس.

[1] : أجثاث: جمع جُثَّة: وهي الجسد الميت.

هلك الجيش الغازي.. وبقي متاعه على حاله؛ فورثته قريش، غنيمة باردة.. أحرزتها قريش دون أنْ تستل سيفاً.. أو ترمي سهماً.. أو تقذف رمحاً.

طاف النبأ العظيم أنحاء الجزيرة.. وتحاكتْ به العرب.. وأنشد شعراؤهم فيه أشعاراً، وعَظُم قدر البيت العتيق في القلوب، وسمتْ مكانة قريش في النفوس، وتحدَّث الناس: "لقد دافع الله عن بيته العتيق.. وعن سدنته: (قريش)؛ فحقٌ لهم علينا أنْ نُعظِّم شأنهم.. ونتبع أمرهم.. ونسير في ركابهم!"، وترسَّختْ في النفوس سيادة عبد المطلب لقريش.. وزعامة بني عبد مناف لمكة وقبائل كنانة وأهل تهامة، وضرب جدي (المغيرة) كفاً بكفٍ: "ما بال بني عبد مناف.. يخرجون من كل مصيبةٍ.. فائزين؟!!".

عادتْ قريش إلى مكة.. وإلى الاستقرار حول الكعبة، وقد تعاظم شأنهم في قلوب العرب، وفي غضون أعوامٍ قليلة.. ازدادتْ قريش أمناً وأماناً.. وثراءً ورخاءً.

أما الأحباش في اليمن.. فقد تبدَّلتْ أحوالهم.. خلال بضعة أعوام فقط!
فبعد أنْ هلك أبرهة.. مَلَكَهم ولده: يكسوم، ثم أخوه: مسروق بن أبرهة، ثم استطاع سيف بن ذي يزن –بمساعدة الفرس- أنْ يطرد الأحباش مِن اليمن.. ويستردّ مُلْك آبائه؛ فأقبلتْ إليه وفود العرب.. يهنئونه بالظفر المجيد واستعادته الملك التليد؛ بين تلك الوفود.. كان وفد قريش وكنانة بزعامة بني عبد مناف.

أحسن الملك السعيد استقبال وفود العرب.. وأكرمهم.. وتقبَّل هداياهم، ومنحهم الهبات والعطايا، وفضَّل وفد قريش على الآخرين.. وأجزل لهم العطاء لمكانهم في الحرم وجوارهم لبيت الله؛ (فلن ينسى أنَّ هلاك عدوه الأكبر-أبرهة- كان منحةً ربانيةً لقريش خاصة).

ثم أَحسَّ جدي (المغيرة).. بدنو أجله!!

وكان.. قد وهبه الله مِن البنين أربعة عشر.. ومن البنات ثلاث، جمع أكابر أبنائه؛ فأنشأ يُحدِّثهم حديث أبٍ.. يُوصي أولاده قبل موته.. فقال:

"تركتُ لكم ثروةً عظيمة.. لا لتُبدِّدوها؛ بل.. لتُكثِّروها، شرف المرء في حسبه وماله.. وتعظيم الناس له؛ ولن يُعظِّموكم إلا إذا ملكتموهم، ولن تملكوهم إلا بالمال والسيف، القُبَّة والأَعِنَّة.. لمخزوم.. هي شرفكم وعزّكم في قريش؛ فلا تُفرِّطوا فيها، تَرفَّعوا عن الدنية.. واطلبوا العلية، أطعموا الأفواه.. تملكوا القلوب والعقول، ما زلنا نكاثر بني عبد مناف.. فيكثرونا، ونغالبهم.. فيغلبونا، لكن.. سلطانهم.. أوشك على الزوال، عبد المطلب أمسى شيخاً كبيراً؛ سرعان.. ما يدركه الموت، وأرى –بعين بصيرتي- أنَّ بني عبد مناف سيختلفون من بعده، وسينشق صفهم.. بين بني عبد شمس.. وبني هاشم، وهذه فرصة مخزوم؛ فرصتكم.. لنبزّهم ونغلبهم، لا أرى نداً لكم في عبد مناف.. غير حرب بن أمية.. أو الزبير وأبي طالب.. ابني عبد المطلب؛ غير أنَّهم ليسوا على قدر عبد المطلب!".

تعاقب الليل والنهار.. ومات المغيرة، وتَوَلَّى –بعده- ولده: هشام.. سيادة مخزوم.. وقُبَّة قريش وأعِنَّتها.

ثم لحق به عبد المطلب، و وَقَع ما حدَّث به المغيرةُ أبناءه؛ تَفَرَّق سؤدد عبد المطلب بين بني عبد شمس.. وبني هاشم، تَوَلّى –بعده- حرب بن أمية العبشمي[1].. سيادة بني عبد مناف.. وراية قريش وكنانة في الحروب، وورث عنه ولده الزبير بن عبد المطلب: السقاية والرفادة.. وسيادة بني هاشم.

---

[1] عبشمي: أي.. ينتمي إلى بني عبد شمس بن عبد مناف، وكذلك.. عبدري: أي ينتمي إلى بني عبد الدار.

في غضون أعوامٍ قليلة.. انساحتْ تجارة قريش في الأرض وجابتْ قوافلها الآفاق.. آمنةً مطمئنةً، وحق لها الأمن والاطمئنان؛ فمَن ذا الذي يتجاسر ويعتدي على عير قريش: سدنة البيت ورُفَّاد الحجيج.. الذين لأجلهم أهلك الله جيش أبرهة، وإنْ خدع الشيطان أحدهم فتجرَّأ.. وسوَّلت له نفسه التعدي على عير قريش؛ فإنَّ هشام بن المغيرة.. وفرسان مخزوم الصناديد له بالمرصاد؛ فرسان مخزوم.. وأبناء المغيرة الذين لم يُفرِّطوا في وصية أبيهم.. واجتهدوا في العمل بها، فتدرَّبوا على الفروسية والقيادة الحربية.. حتى أصبحوا فوارس قريش وحماة قوافلها.

نَمّى بنو المغيرة تجارتهم حتى صاروا أغنى بيتٍ في قريش، ووضعوا جناحهم لضعيف مخزوم.. وحملوا الكَلَّ منهم كأنَّ ضعفاء مخزوم عيالُ المغيرة، وصاهروا أسياد قريش.. وشرفاء قبائل العرب من تميم وكنانة.

- ٣ -

ازدهرت تجارة قريش.. واشتهرت أسواق مكة.. في بضع سنين!

وعلى أثر ذلك تضاعفتْ أرباح قريش.. وتعاظمتْ ثرواتها، واشتهرتْ أسواقها الثلاثة[1] التي تُنصَب في موسم الحج.

[1] : الأول: سوق عكاظ.. وكان موعده من بداية ذي القعدة ولمدة عشرين يوماً.. ومكانه في شمال الطائف، والثاني: سوق مَجَنَّة.. ينتقلون إليه من عكاظ ليقضوا به العشر الأواخر من ذي القعدة.. مكانه مر الظهران شمال مكة، والثالث: ذي المجاز.. ينصرفون إليه من المجنة ليقضوا به الثمانية الأولى من ذي الحجة.. مكانه شمال شرقي مكة.. قريباً من جبل عرفات، ثم ينصرفون منه إلى حجهم والوقوف بعرفة.

علا صيتها.. حتى أصبح ملوك العرب والعجم يرسلون القوافل واللطائم [1] إليها، ومِن أولئك الملوك: النعمان بن المنذر.. ملك الحيرة، أصبح يرسل لطيمةً في كل عامٍ لتُباع في سوق عكاظ أو سوق مَجَنَّة، وكانت عير الملك النعمان تسير في أراضي نجد وتهامة آمنةً.. لا يهيجها أحدٌ، إلى أنْ حدث –ذات مرة- وهاجمها بنو بكر بن مناة من كنانة؛ وذلك لأنَّ الملك النعمان اِعتدى على أخٍ لسيدهم: فأقسم سيدهم لينتقمنَّ مِن النعمان، فطفق يتعرَّض للطائمه الغادية إلى أسواق الموسم فينهبها.

تكدَّر الملك النعمان وخاف على عيره وتجارته، وفكَّر أنْ يبعث جيشاً يجوب الصحراء.. ليؤدب أولئك الرعاع؛ فنصحه مستشاريه ألا يرهق جيشه ويستنزف قوته في مطاردة أولئك الأعراب الأجلاف؛ بل.. خير من ذلك: أنْ يضرب بعضهم ببعض؛ فيمنع لطيمته ويحفظ جيشه.. بأنْ يُفتِّش بين العرب على مَن يجيزها له في أراضيهم.. حتى تغدو إلى أسواقهم وتروح آمنةً كما كانت.

وكانت وفود العرب –في كل عام- تَقدُم على الحيرة.. تلتمس لقاء الملك النعمان ليمنحهم الهبات والعطايا، برز الملك –ذات يوم- إلى مجلسٍ بفِناء قصره بالحيرة.. وقد حان بعث اللطيمة إلى سوق عكاظ، وأمر أنْ يدخل إليه كل مَن التمس لقاءه من العرب ووفودهم؛ لا يُمنَع أحدٌ منهم؛ فأُدخِلوا إليه جميعهم.

كان من بينهم.. وفد قبيلة هوازن [2] بزعامة سيدهم المُبجَّل فيهم: عروة الرحّال [3] ، خاطب الملكُ النعمان الحاضرين.. سائلاً: "مَن يجيز لنا هذه العير؟؟".

---

[1] لطائم: جمع لطيمة: وهي.. عير التجارة.

[2] هوازن: هي إحدى قبائل العرب القوية.. وتعتبر (قبيلة ثقيف التي تسكن بالطائف).. إحدى بطونها، والقبيلة الأم لهوازن هي: قيس عيلان.

[3] هو: مِن أكابر سادات هوازن.. وقيس عيلان، وسمي بالرحّال لكثرة ارتحاله ودخوله على الملوك.

فقام إليه رجلٌ مغمورٌ.. رَثُّ الهيئة، عليه بُرْدَة صغيرة.. يحمل سيفاً أُكِل غمده؛ فصاح: "أيها الملك! أنا أُجيزها، وأُجيرها لك على كنانة كلها!"، حدجه الملك باستخفافٍ، وسكت –عنه- مُشمئزاً من هيئته؛ فنهض عروة الرحَّال.. وهتف مُخاطباً الملك.. ومُزْدَرِياً ذاك الرجل المغمور: "هذا.. البرَّاض بن قيس الضمري[1] ! أ كلبٌ خليعٌ.. يُجيرها لك؟!!"، أجاب المَلِك بعدم اكتراث: "أريد مَن يجيرها على قيس عيلان وكنانة.. والعرب كافة!!"، فاستأنف عروة الرحَّال هاتفاً.. بأنفةٍ وثقة: "أبيت اللعن [2] ! أنا أُجيرها لك.. على أهل نجد وتهامة أجمعين!".

انتفض البرَّاض مغتاظاً.. وصاح حانقاً مُتحدِّياً: "أ على كنانة تُجيرها.. يا عروة؟!!"، فأجابه.. بحميَّةٍ وكبرياء: "وعلى الناس.. كلهم!!".

أشاح الملك وجهه عنهما مُستاءً لرفعهما الصوت في حضرته، وانبعث الحرس.. فقمعوا الرجلين الذيَن لولا مقامهما بين يدي الملك النعمان.. لتواثبا وتقاتلا.

ثم ارتأى الملك النعمان أنْ يدفع لطيمته إلى عروة الرحَّال؛ فخرج بها من الحيرة بأرض العراق..مُختَرِقاً صحراء العرب.. قاصداً عكاظ.

---

[1] رجل من بني ضمرة.. وهي بطن من بطون بني بكر بن مناة من كنانة، كان صعلوكاً فتَّاكاً –أي قاتل مأجور- يجني الجنايات على أهله؛ فتبرؤوا منه، فدخل إلى مكة وحالف بعض ساداتها، لكنَّه.. كان فاحشاً سكيراً غادراً؛ فكلَّما حالف سيداً من ساداتها.. خلعه لفُحشه وغدره (ولهذا عيَّره عروة الرحَّال بأنَّه خليع)، حتى لم يجد أحداً من السادة يُحالفه.. واشتدّ الموتورون في طلبه؛ لجأ إلى حرب بن أمية العبشمي –وهو يومئذٍ سيد عبد مناف- وتوسَّل إليه أنْ يحالفه؛ فحالفه على ألا يغدر بأحدٍ في مكة.. وأنْ يغادرها إلى أي بلدٍ آخر، فخرج إلى اليمن.. فلم يجد بها ملجأ؛ فقال لنفسه: "ما وجه خير من النعمان بن المنذر؛ ألحق به!"، فرحل إلى ملك الحيرة.. بأرض العراق، ثم كان.. ما كان.

[2] : كلمة كانت العرب تحيي بها ملوكها في الجاهلية، ومعناها: حاشاك مما يُذَمّ.. ومما تستحق اللعنة عليه.

تَوَعَّده البرَّاض.. لأنَّه حقَّر شأنه في مجلس النعمان وانتزع منه اللطيمة؛ على أنَّ عروة.. لم يعبأ به، ولم يكترث لوعيده.

في صحراء العرب الشاسعة.. يسحب عروة الرحَّال لطيمةَ الملك النعمان؛ وهو على ثقةٍ ويقين أنَّ أحداً مِن العرب لن يتعرَّض له أو لها بسوءٍ.. لمنعة قومه ولمكانته بينهم.

ويسعى خلفه البرَّاض.. يَحدوه حنقه وحَرَده [1]، يُحدِّثه شيطانه: "تباً لك.. يا عروة! تطمع في لطيمة النعمان.. بعد أنْ رجوتُها لنفسي؟! أ تحسب أنَّك سيداً مهاباً؟!! فاعلم أنَّ البرَّاض لا يهابك.. ولا يهاب هوازن.. ولا قيس عيلان بأسرها!!".

غَذَّ السير حتى أصبحتْ العير على مرمى بصره؛ حرَّضه شيطانه: "هل تتركه يفوز باللطيمة وأرباحها.. يا برّاض؟!! أ وبعد أنْ أهانك.. وحقَّرك في بلاط الملك؟؟"، تتلظى نيران الحميَّة في صدره.. وهو يتذكَّر ما جرى: "ينعتني أنا بالكلب الخليع؟؟ يطمع في رزقي؟؟ يُزايد عليَّ.. فيُجير اللطيمة على العرب أجمعين.. ليُجيزها إلى عكاظ، وهو يعلم أنَّ أحداً لن يتعرَّض لها بسوء.. عدا قومي: بني بكر بن مناة.. وهم من كنانة؛ وقد تكفَّلتُ أنا أنْ أجيرها على كنانة جمعاء؟!!".

استخرج زق خمره.. وطفق يَعُبُّ منه عَبّاً.. وتُحدَّثه نفسه: "ما أراد هذا الأَشِر إلا إذلالي.. وإهانة قومي.. بين يدي الملك، ولا بد أنْ أجيبه!!".

أدرك البرَّاضُ رَكْبَ عروة الرحَّال؛ رآهم.. قد نزلوا منزلاً في بعض طريقهم للاستراحة؛ وقد سُرِّحتْ الجِمال.. بعدما أُنزلتْ عنها البضائع والأمتعة.

وجد عروةَ مُنعزلاً عن فرسانه.. لائذاً بظِلّ شجرةٍ التماساً لبعض الاسترخاء.

---

[1] حرده :غضبه وتغيُّظه حتى أنَّه يريد التحرُّش بالذي أغاظه.

انتضى[1] أزلامه يستقسم بها: (هل يقتل عروة.. أم لا؟)، ثم شرع يحتسي خمره.. حتى انتشى، وأخذ يترقَّب غفلةَ عروة، حتى أصاب منه غرة؛ فقتله.. وخرج على أصحابه بالسيف يتقاطر منه الدم؛ فخافوه.. وانطلقوا هاربين.. مُخلِّفين اللطيمة والعير التي تحملها، فحاز البرَّاض.. ذلك كله.

ثم أفاق البرَّاض مِن سكرته؛ فألفى نفسه.. قد قتل زعيم هوازن.. وسيد من أكابر سادات قيس عيلان، واستولى على لطيمة الملك النعمان: "بؤساً لكِ.. يا نفسي! كم مِن مصائب أوقعتُها.. فوق رأس قومي!".

قعد يُفكِّر ويُقدِّر؛ فقدَّر أنَّه لن يستطيع أنْ يبيع اللطيمة في عكاظ -ولا في أيٍّ من أسواق الموسم- لمكان هوازن منها، فساق العير.. وتَوجَّه هارباً باللطيمة إلى خيبر حيث سوق يهود.. ليبيعها هناك.

جال بخاطره قومه: بنو ضمرة.. وحليفه: حرب بن أمية: "لقد جلبتُ الفزع والحرب على حليفي وقومي.. وعلى كنانة أجمعين!!"، أسرع واستأجر رسولاً أميناً من كنانة.. وجعل له أجراً باهظاً؛فبعثه إلى حليفه -حرب بن أمية- لينبِّئه الخبر.. ويقول: "إنَّ هوازن لا ترضى أنْ تقتل بسيدها –عروة الرحَّال- رجلاً خليعاً طريداً من بني ضمرة.. مثل البرَّاض؛ بل –لا ريب- سيطلبون رأساً مِن الرؤوس؛ فاحذروهم.. يا سادة قريش!".

عكاظ: وادٍ متسع.. ذو نخلٍ وماء، يقع في شمال الطائف.. على مسيرة ليلة واحدة منها، وإلى الشرق مِن مكة.. على مسيرة ثلاث ليال، والطائف: قرية ثقيف.. كما أنَّ.. مكة: قرية قريش، وثقيف: بطن مِن بطون هوازن.

---

[1] انتضاها: استخرجها من جرابها.

أمّا عكاظ وما حولها.. فهي الأرض التي فيها ديار قبيلة هوازن وبطونها خاصة، وهذه الأرض تقع.. وسط قبائل قيس عيلان.

وأَمَّا سوق عكاظ [1]: فليس في أسواق العرب.. ما تساميها؛ فهي السوق التجارية الكبرى لأهل جزيرة العرب؛ يُحمَل إليها من كل بلد تجارته وصناعته، وأيضاً.. أدبه وشعره، إليها يُجلَب الخمر.. مِن هجر والعراق وغزة وبصرى، والسمن من البوادي، ويرد إليها البرود الموشاة والأدم.. من اليمن، ويُباع فيها الطيب والحرير والوكاء والحذاء.. وأدوات السلاح، وفيها مِن زيوت الشام وزبيبها وسلاحها، ويُعرض فيها الرقيق والسبايا.. ويُباعون كما يُباع المتاع.

فيها ندوات الشعر والخطابة.. وحلبات المصارعة، وثمَّة.. كاهن.. وعرَّاف.. وعائف.. وقائف [2]، وأنعام تُباع.. وحيوانات نادرة تُعرض، وفي مجالسها.. يتفاخر العرب على بعضهم بالأحساب والأنساب.. ويتكاثرون بالأموال والأولاد.

وفيها –كذلك- كانت تُقضى أمورٌ كثيرة بين قبائل العرب: فمَن كان له أتاوة على قبيلة.. نزل عكاظ.. فجاؤوه بها، ومَن أراد تخليد نصر لقومه.. رحل إلى عكاظ وخلَّده فيها شعراً، ومَن أراد إجارة أحدٍ.. هتف بذلك في عكاظ حتى يسمعه عامة

---

[1] سوق عكاظ.. تُنصب في أوائل شهر ذي القعدة من كل عام.. وهي من أسواق موسم الحج.. وبعدها: مجنة وذي المجاز، وتقام السوق في موضع بعكاظ –يقال له: الأثْيَداء- فيه مياه ونخيل، وهو مكان مستو -لا علم فيه ولاجبل- إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية، وهي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة.

[2] : **الكاهن**: الذي يتولى الشعائر الدينية.. ويسوغ له تقبُّل الذبائح والقرابين.. وقيل: هو الذي يعلم الغيب، **والعرَّاف**: المُنجِّم الذي يدعي القدرة على كشف المستقبل، وعند بعض العرب: هو الطبيب، **والعائف**: المُتكِّهن بالطير أو غيرها، **القائف**: الذي يعرف نسب الإنسان بفراسته ونظره إلى الأعضاء والذي يحسن معرفة الأثر ويتتبعه.

الناس، ومَن أراد إعلان حربٍ على قومٍ.. أعلنها في عكاظ، وكذلك.. مَن أتى عملاً شائناً تأباه المروءة العربية.. يُشهَّر به في عكاظ.. وتُنصب له راية غدر يُعرَف بها.. فيتجنَّبه الناس ويلعنوه، ومَن أراد تشريف رجلٍ أوجماعة.. رفع له راية وفاء في عكاظ.. ليعرفه الناس ويوقِّروه ويمدحوا فعله، ومَن أراد التبرُّؤ من حليف أو قريب.. أعلن تبرُّؤه منه في عكاظ.

فأمّا رئاسة السوق.. فكانت لثقيف وهوازن لأنّها في ديارهم، وأما أنبه تُجّارها وأوسعهم ثراءً.. فقريش وساداتها؛ وقد كانوا يهتمون بها اهتماماً خاصاً.. ويربحون منها ربحاً جماً.
مِن أولئك التُجَّار والسادة القرشيين.. كان عمي هشام بن المغيرة المخزومي، وعبد الله بن جدعان التيمي، وحرب بن أمية العبشمي.. الذي آتاه نبأ البرَّاض ولَمَّا يحطُّ رحاله أو يعرض تجارته في السوق، كتم الخبر.. ثم أتي صاحبيه.

نبَّأهما الخبر.. ثم سأل مُستشيراً: "ما تريان أنْ نفعل؟!"، هتف هشام مُمتعضاً: "أرى أنَّ هذا الخليع الضمري.. صادقٌ في حدسه؛ لن ترضى هوازن إلا بقتل واحدٍ مِن ثلاثتنا!!"، ضغط ابن جدعان على أسنانه.. وهو يخافت مغتاظاً: "قد نصحتُك –يا ابن أمية- أنْ تخلع هذا الضمري الصعلوك؛ فما سمعتَ نصيحتي!!؟"، أجابه حرب مُتندِّماً: "ليس هذا وقت العتاب.. يا أبا زهير!".
همس هشام.. كأنَّما يُنهي تجادلهما: "يجب أنْ نغادر عكاظ الحين.. قبل أنْ يصل الخبر إلى أبي براء [1] !".
تساءل ابن جدعان مُتحيّراً مُستهجِناً: "بِمَ نُبرِّر ارتحالنا.. لأهل عكاظ ولأبي براء.. والسوق لَمَّا تُنصَب؟؟!".

---

[1] هو: عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب، سيد من سادات هوازن.. وأمير ركبها في سوق عكاظ.

أجابه هشام: "إنْ بقينا وعلمتْ هوازن بالنبأ؛ خسرنا كل شيءٍ.. وربما قُتِلنا ها هنا!!".

"نقول: أنَّ حادثاً حدث -في مكة- بين أهل نجد وأهل تهامة، وأنَّه لم تأتِنا جليَّة الأمر.. ونخشى الدوائر على أهلينا؛ لذا فإنَّا مرتحلون إلى مكة، ونلتمس من أبي براء أنْ يبقى في عكاظ ليحجز بين الناس ويقم لهم سوقهم.. حتى نذهب فنستجلي الخبر!": اقترح حرب؛ فوافقاه.. وانطلقوا إلى سيد هوازن؛ فصدَّقهم.. وأجابهم لِما أحبوا.

هرع سادة قريش.. فلملموا تجارتهم المنثورة في السوق،ثم أسرعوا عائدين إلى مكة.. لائذين بالحرم، لكن.. وفيما رَكْبهم يُهرول في طريق عودته؛ إذ بلغ نبأُ قَتْل عروة الرحَّال سوقَ عكاظ، وعلمه أبو براء، استشاط هو وقومه.. غاضبين، وصاح ساخطاً على حرب بن أمية وأسياد قريش: "قتل صعلوكهم سيدنا.. وخدعوني ورحلوا!!؟ واللات والعزى.. لأدركنَّهم وأقتل زعماءهم!!".

مِن فوره.. رَكَب فيمَن حضر معه مِن هوازن.. راكضين في آثار أسياد قريش؛ فأدركوهم في موضع –على مشارف الحرم- يُقال له: نخلة، تناوش الفريقان حتى جَنَّ عليهم الليل.. فحجز بينهم، وانسحب رَكْب قريش إلى داخل حدود الحرم.

وقف فرسان هوازن عاجزين.. مُستعظِمين أنْ ينتهكوا حرمة البلد الحرام والشهر الحرام.. لأجل قتال عدوهم والقصاص منه؛ فنادى مُناديهم بأعلى صوته.. في حَمِيَّةٍ وغَيْظ: "يا معشر قريش! إنَّا لا نترك دم عروة؛ ولنقتلنَّ به عظيماً منكم، وإنَّ ميعاداً بيننا وبينكم في مثل هذه الليالي مِن قابِل!"، فأجابوهم: "نعم! إنَّ موعدكم: قابِل.. في مثل هذا اليوم!".

كان ذاك هو اليوم الأول مِن أيام **حرب الفجار**.. وقد سمته العرب: (يوم نخلة)، وأمّا سوق عكاظ.. فانفضت ولم تقم في ذلك العام؛ بل ارتحل الناس خوفاً من هوازن وانتقامها لسيدها.

أمّا هوازن.. فانبعث أسيادها يُألِّبون قبائل قيس عيلان[1] أجمعين على قريش.

أمّا أسياد قريش الثلاثة.. فرجعوا إلى مكة؛ يُفكِّرون ويتشاورون، فقال عمي هشام: "إنَّ هوازن لن ترجع حتى تجمع لنا قيس عيلان؛ ولا قِبل لنا بهم إلا أنْ نجمع لهم كنانة [2] !!"، أقرَّه ابن أمية.. قائلاً: "صدقتَ.. يا أبا عثمان!".

على أنَّ ابن جدعان.. همس مُتوجِّساً: "تعلمان أنَّ كنانة لا تستجيب لنا عدا أنْ يكون معنا بنو هاشم.. للحِلْف الذي بينهم وبين عبد المطلب!!".

امتعض ابن أمية مُستنكِر قول صاحبه.. وهتف بأنفة: "وهل يخذل بنو هاشم.. إخوتهم بني عبد شمس؟! يا ابن جدعان! إنَّ بني عبد مناف.. لا يفترقون!!".

وانبعث عمي هشام.. يهتف بحميَّة.. مُعضِّداً قول ابن أمية: "نعم.. يا ابن جدعان! إنَّ الزبير وأبا طالب.. ابني فاطمة المخزومية.. -سيدا بني عبد المطلب وبني هاشم- لن يتخلَّيا عن بني عمومتهم ولا عن أخوالهم، وكنانة تبعٌ لهما ولبني عبد المطلب!"، أجاب ابن جدعان حاسماً: "اجلس مع ابني عمك.. يا حرب! واستوثق من مؤازتهما لنا، ثم نخرج ونجمع كنانة ومَن حالفنا.. لميقات هوازن!!".

---

[1] : قيس عيلان: هي مجموعة كبيرة من القبائل العربية التي ينتهي نسبها إلى رجل اسمه: قيس عيلان بن مضر من العرب العدنانية، وهذه القبائل تسمى: العرب القيسية –نسبةً إلى قيس عيلان؛ ويسميها بعضهم: مضر السوداء.

[2] : كنانة: مجموعة كبيرة من القبائل العربية –منها قريش- ينتهي نسبها إلى رجل اسمه: كنانة.. وهو من أحفاد رجل يقال له: خندف –واسمه إلياس- بن مضر.. من العرب العدنانية.

لم يُخيِّب الزبير بن عبد المطلب –ولا أخيه: أبو طالب- رجاء حرب بن أمية؛ بل صدحا بحميَّةٍ وكبرياء: "ورب الكعبة.. لا نرضى أنْ نسلم لهوازن رجلاً مغموراً من قريش؛ فكيف بعظيمٍ مِن عظمائنا؟! نحن وبنو هاشم معك –يا ابن العم- بأموالنا وسيوفنا.. على مَن عادا قريش وبني عبد مناف، ولك أنْ نطوف معك على أحياء كنانة وحلفائنا الأحابش حتى يجتمع لك جيشٌ تُرهِب به قلب عدوك!!"، شكر لهما وفاءهما، وسعى معهما –مُطمئناً قلبه- إلى قبائل كنانة يجمعها للقاء هوازن والذين من ورائهم.

قضى حرب وابنا عبد المطلب عاماً كاملاً.. يطوفون على قبائل كنانة يجمِّعونهم لحرب هوازن، فيما عبد الله بن جدعان يرصد الأموال ويكتنزها لتلك الحرب الموعودة، بينما عمي هشام وأخوته بنو المغيرة -ومِن ورائهم.. بنو مخزوم- يجمعون الحَلْقة والكُراع.. ويُدربون الجنود والفرسان.. استعداداً لميقات هوازن.

أما الوليد بن المغيرة –والدي- فقد كان له رأيٌ آخر.. قال: "يا سادة قريش! لا تُخاصموا هوازن.. ولا تُعادوهم؛ بل.. اعطوهم البرّاض بن قيس.. يقتلوه بقتيلهم؛ فإنْ أَبَوا.. فضاعفوا لهم الدِّيَة حتى يرضوا! فإنَّ تلك الحرب التي تريدون إنَّما هي فجورٌ في الشهر الحرام[1].. يُغضِب عليكم آلهتكم، وكسادٌ للأسواق التي ترجون بها نماء تجارتكم وأموالكم، ورب البيت.. إنَّها لحرب فجار.. تنزع هيبتكم من قلب عدوكم وقلوب العرب أجمعين!".

وجم القوم، وكاد جمعهم ينفضّ اقتناعاً برأي الوليد بن المغيرة الرشيد؛ لولا أنْ نهره أخوه هشام.. وأجبره على أنْ يخرج معهم بنفسه وماله.

---

[1] : كان موعد اللقاء في ميعاد سوق عكاظ؛ أي في شهر ذي القعدة.. وهو من الأشهر الحرم التي تُحرِّم فيها العرب القتال –تديُّناً- كي يتفرّغوا لتأدية مناسك الحج.

ثم اختلى هشام بالوليد وبأخوته هامساً: "يا وليد.. لا كُفران لحكمتك؛ لكن.. هذه الحرب هي الفرصة السانحة لنا ولبني مخزوم لنَبُزَّ بني عبد مناف.. الشرفَ والحَسَب[1] ! نحن أرباب القُبَّة والكُراع؛ وسيعلمون -غداً- مَن هم.. بنو مخزوم!".

مضتْ الأيام والشهور.. وحَلَّ الميقات، وإلى عكاظ.. أقبلتْ هوازن.. وقد جمَّعتْ للقاء قريش.. قبائل قيس عيلان ومَن والاهم؛ جاءوا –جميعاً- بقضِّهم وقضيضهم.. ونزلوا عند شَمْطة (موضع في عكاظ)، ومكثوا يومين يتربَّصون بقريش.. ويرتقبون قدوم جمعها؛ حتى ظنَّ بعضهم –غروراً بقوتهم وعددهم- أنَّ قريش خافتْ جمعهم.. وأنَّها لن تأتِ.
لكن.. سرعان ما طلع عليهم جمع قريش وحلفائها من كنانة والأحابيش.. على كل قبيلة سيدها، ورأس القوم: حرب بن أمية لأنَّه سيد بني عبد مناف.. ومعه: عبد الله بن جدعان التيمي–أعظم الناس ثراءً- الذي جهَّز من خاصة ماله مائةَ رجلٍ مِن كنانة بأسلحةٍ وأداةٍ كاملة.. سِوَى الذين سَلَّحهم مِن قومه، وعلى خيل القوم: هشام بن المغيرة.. ومعه أخوته وبنو مخزوم.

اصطف الفريقان.. وتواجها.. دون تعظيم للشهر الحرام، غير عابئين بحرمة القتال فيه، حملتهم الحَميَّة على انتهاك الحُرمات!!؟

حمل حرب بن أمية راية كنانة.. مُتمركزاً في قلب الصفوف، وعلى إحدى المجنبتين: ابن جدعان والذين معه، وعلى الأخرى: هشام وبنو المغيرة ومخزوم.

كانت صواهل [2] هوازن وقيس عيلان كثيفةً؛ فما استطاعتْ كنانة أنْ تثبت لهم،

---

[1] : الحسب: الجمع: أحساب.. وهو ما يعُدُّه الرجل من مناقبه أو شرف آبائه.

[2] : الصواهل: أي: الخيل التي تصهل، والصهيل: هو صوت الحصان.

ورغم شجاعة هشام ومخزوم.. وثباتهم، وأيضاً.. رغم ثبات بني عبد مناف: حرب بن أمية وأخوته.. والزبير بن عبد المطلب وأخوته، رغم ثبات أولئك وهؤلاء.. انكشفتْ بعض قبائل كنانة وانسحبوا مِن أرض المعركة.. مُنهزمين؛ فكانت الدَّبْرَة -في آخر اليوم- لقيس عيلان على كنانة.

ثم حجز الليل بين الفريقين.. بعد أنْ استبسل بنو عبد مناف وبنو مخزوم.. وأَجهدوا فوارسَ قيس عيلان، وحَدَّث القيسيون أنفسهم: "قاتلنا نهاراً طويلاً.. وانهزمتْ كنانة، قتلنا منهم.. وقتلوا منا؛ لكن.. لم نقتل أحداً مِن أسياد قريش بقتيلنا: عروة الرحَّال، تالله.. ما أحرزنا ثأرنا؛ وما بقي لنا قوةٌ لقتالٍ!".
تشاوروا.. ثم زعقوا على القريشيين الذين صمدوا في أماكنهم: "إنَّ ميقاتنا معكم.. مثل اليوم من العام القابل!"، فتنفَّس القرشيون الصعداء ووافقوهم؛ فهم أيضاً.. أعياهم القتال، ثم سمَّت العرب هذا اليوم: (يوم شمطة).. وهو اليوم الثاني من أيام حرب الفجار.

ثم حال حَوْلٌ ثانٍ.. اتسعتْ فيه دائرة حرب الفجار.. وتحوَّلت إلى حربٍ بين فئتين عظيمتين من العرب: قيس عيلان.. وكنانة.

حشدتْ كنانة جُلّ قوتها.. وعزموا على الثأر لهزيمة العام المنصرم، وتعاهدوا على استرداد كرامتهم التي أُهدرتْ يوم شمطة، واستعد بنو عبد مناف.. وبنو مخزوم.. وجمعوا مَن أطاعهم مِن بطون قريش، وتَجهَّزوا لإحراز نصرٍ حاسمٍ يُرهبون به عدوهم.. ويُضيفونه إلى مناقبهم بين العرب.

في عكاظ –و لدى صخرةٍ عظيمةٍ بيضاء.. تسمى العبلاء- التقى الجمعان، حماس كل منهما وافرٌ؛ كل فريق –هذه الجولة- يسعى لتمزيق خصمه.. ليُجبره على الاستسلام؛ فتكون تلك هي الجولة الأخيرة.

ثبتتْ كنانة.. وبرز فوارسها لفرسان هوازن، وأظهروا شجاعةً لم تظهر في جولة شمطة، لكن.. حملتْ عليهم قيس عيلان حملةً شديدة الوطأة؛ فانكشفتْ كنانة.. واخترقتْ خيل القيسيين صفوفهم وصفوف قريش، وانكسرتْ جماعةٌ من كنانة.. ومن قريش.

قُتِل فارسٌ من صناديد بني أسد بن عبد العزى.. من قريش؛ هو العوام[1] بن خويلد الأسدي، ثم جنَّ الليل.. فحجز بين الفريقين.

كان هذا هو اليوم الثالث من أيام حرب الفجار؛ وسمَّته العرب: (يوم العبلاء).

انسحب الكنانيون؛ فظنَّ القيسيون.. أنَّهم لن يرجعوا إلى عكاظ أبداً، غير أنَّهم واعدوهم في مثل ذات اليوم من العام القادم.

هزيمةٌ موجعةٌ.. لجولة ثانية؛ عَضَّ حرب بن أمية الأنامل من الغيظ، وقَضَّتْ الحميَّةُ مضطجع هشام بن المغيرة، وأقسم ابن جدعان أنْ يُنفِق أضعاف ما أنفقه في الأيام الخوالي: "فبئس المال في ذِلَّة؛ وحبذا الافتقار في عِزَّة!".

تعاهدتْ قريش وكنانة على حسن التهيُّؤ والاستعداد للجولة القادمة.. والثبات في أرض المعركة.. كي يتم لهم محو عار الأيام الآنفة.

---

[1] هو: العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أخو أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد، وزوج السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبي محمد ﷺ، ووالد الصحابي الجليل الزبير بن العوام.

ثم حال الحَوْل الثالث.. وما اختلف الفريقان في الميعاد، وإنَّما تلاقيا في مَوَضع مِن عكاظ قريب مِن مكة.. يقال له شرب، وبَرَّ عبد الله ابن جدعان بيمينه.. وحمل –يومئذٍ- ألف رجلٍ مِن كنانة على ألف بعير.. غير الذين جهَّزهم بالسلاح مِن قومه ومن كنانة، وقيَّد أخٌ لحرب بن أمية –اسمه: عنبسة- نفسه كيلا يفرّ مِن أرض المعركة، ومثله فعل أخٌ ثانٍ –اسمه: سفيان-، ومثلهما صنع حرب بن أمية بنفسه.. ولبس درعين وظاهر بينهما، وصاحوا بعزمٍ شديد: "لا نبرح.. حتى نموت مكاننا!"؛ فسماهم الناس –يومئذٍ- العنابس[1].

اصطفتْ الصفوف.. وهوازن وجمعها لا يَشُكّون في أنَّها ستكون الجولة القاضية على قريش وكنانة؛ ستكون الجولة الأخيرة –في حرب الفجار- التي ستعيِّر بها العربُ كنانةَ وقريش.. أبد الدهر.

تملَّكت الثقة في النصر مِن قلوب أسياد هوازن.. حتى أنَّ مسعود بن معتب بن مالك الثقفي [2] أخرج معه زوجته: سبيعة [3] بنت عبد شمس بن عبد مناف.. واصطحب معها أبناءها –فتيةً صغاراً- وضرب لهم خباءً في مَوَضع عالٍ.. يُشرِف على أرض المعركة.

نظرتْ سبيعة إلى الجمعان؛ فهالها جمع هوازن وقيس عيلان، وأشفقتْ على قومها القريشيين، ثم بكت –إذ تدانى الناس- فسألها: "ما يُبكيك؟؟"، فقالتْ: "أبكي.. لِمَا عسى أنْ يصيب قومي!".

---

[1] عنابس: المفرد عنبسة: وهو الأسد.

[2] هو سيد قبيلة ثقيف الذين يسكنون بلدة الطائف.. وأحد سادة هوازن في تلك الحرب.

[3] سبيعة: هي عمة حرب بن أمية بن عبد شمس.. وبني عبد شمس بن عبد مناف.

أحب أنْ يجبر خاطر زوجته.. فهتف مُطمئناً لها: "لكِ عليَّ.. أنَّ مَن دخل خباءك –منهم- فهو آمن!"، فأنشأتْ –ومعها أولادها الصغار- تُوسِّع في الخباء وتُوَصِّل فيه الخرقة بالخرقة؛ لا تُماري في أنَّ جمع قومها مهزومون.

بيد أنَّ عمي هشام -وبني مخزوم- كان لهم رأياً آخر.. أحسنوا الإعداد والتهيُّؤ له: "الأيام الفائتة –من تلك الحرب- كانت لهوازن! ذهبوا بفخرها؛ ولن ندع لهم فخر هذا اليوم!"، ومبالغةً منه في الحرص والحذر.. قدَّم عمي هشام –هذه المرة- بعضاً من كنانة أمامه.. كيلا يفروا، ووقف خلفهم هو وبنو مخزوم.

تواجه الفريقان.. فبرز الحليس بن علقمة الحارثي الكناني –سيد الأحابيش.. حلفاء قريش- ليمحو عار فرارٍ سابق.. ودعا إلى المبارزة؛ فبرز له صنديدٌ من هوازن؛ تصاولا ساعة.. ولم يغلب أحدهما الآخر، ثم اغتنم الهوازني غِرَّةً من الحليس.. فأصاب عضده؛ بيد أنَّهما تحاجزا ولم يقتل أحدهما الآخر، ثم هاجتْ الهيجاء.. وهاج غبارها.. واشتدّ حرها.

ثبت العنابسة وبنو عبد شمس.. والزبير وبنو عبد المطلب، غير أنَّ بعض كنانة لم يصبروا.. وانكشفتْ صفوفهم، وانحسر عمي هشام وبنو مخزوم، لكنَّهم صمدوا لعدوهم.. وما روَّعهم انكشاف كنانة عنهم، استبسلوا وقاتلوا بحماسٍ وإباء.. قتال مَن لا يهاب الموت.. حتى صدُّوا هجمة عدوهم، قاتل –يومها- عمي أبو ربيعة.. برمحين في يديه؛ فلقَّبه الناس بذي الرمحين.

ثم تقدَّم أعمامي.. وكرُّوا على العدو.. وتَوَغَّلوا في صفوفه يضربون ضرباً شديداً؛ وما روَّعهم.. تكاثر العدو عليهم؛ قُتِل ثلاثةٌ منهم، وثارتْ الحميَّة في عمي هشام؛ فانطلق وبنو مخزوم.. ليُدركوا أبناء المغيرة الأبطال، وحملوا على عدوهم حملةً

عنيفة؛ وأضحى عمي هشام يصول ويجول.. ويضرب يميناً وشمالاً، وكذا.. اندفع ابن جدعان وفريقه.. حتى انكسر لهم العدو.. وفرَّ مِن بين أيديهم.

تَلطَّخت سيوف مخزوم ورماح قريش.. بدماء هوازن وقيس عيلان، واِسْتَحَرَّ القتل فيهم، وتلطَّخت كرامتهم بعار الهزيمة.. وذعروا وهلعوا.. صارخين: "أين المفر؟؟!"، قُتِل منهم أعدادٌ كثيرة.. أضعاف مَن قتلوا في الأيام الفائتة.. حتى نادى مناديهم: "يا معشر قريش! قد أسرفتم.. في القتل!!"، فزأر ابن جدعان.. يُنغِّصه: "إنَّا معشر.. سَرَف!!".

اضطربتْ قيس عيلان.. وتضعضعتْ صفوفهم، ولاذوا بالفرار.. بيد أنَّ فوارس مخزوم لم تدع لهم فرصة فرار، وكذا.. كَرَّ حرب بن أمية –وبنو عبد مناف- على الذين أمامهم مِن ثقيف؛ فانكسروا هلعين.. وما ثبتوا لهم، ركب بنو عبد مناف أكتافهم.. حتى أنَّ سيدهم: مسعود بن معتب.. ركض –بين أيديهم- مذعوراً، أذهله الهلع عن قومه.. فما التفت لأحدٍ منهم، طرح ترسه.. ورمى سيفه.. وخلع درعه.. وحسر رأسه.. هارباً إلى خباء امرأته.
لاذ بها.. وصرخ مُرتَعِباً: "ادركيني.. يا أم عروة! أنا عائذٌ بالله.. وبكِ!!"، فقالتْ: "اجلس.. أنت آمن!"، و شدَّتْ نطاقها.. وخرجتْ مِن خبائها لترى مشهداً مُروِّعاً، شاهدتْ هوازن وقيس عيلان يتطايرون بين أيدي قريش وكنانة.. كالقصب الأجوف، السيوف تحصدهم.. والسنابك تدهسهم؛ ولا ملاذ لهم.

ارتقتْ فوق صخرة مرتفعة.. وأنشأتْ تُلوِّح وتنادي: "يا معشر قريش! يا بني عبد مناف! يا حرب بن أمية! أنا سبيعة بنت عبد شمس.. قد أجرتُ مَن بخيمتي؛ فأجروه.. لي!"، جعلتْ تُلوِّح وتنادي.. وتصرخ حتى أتاها صوت حرب بن أمية

صائحاً: "أجرنا مَن أجرتِ.. يا عمة!"، ثم أردف: "يا عمة! مَن تمسَّك بأطناب خبائك.. أو دار حوله؛ فهو آمن!!".
تهلَّل وجه المرأة.. وهرعتْ إلى ابنها عروة [1] –وكان غلاماً أمرداً.. يومئذ- وأخوته.. وأمرتهم ليأخذوا بأيدي ثقيف وهوازن إلى خبائها.. ليجيروهم؛ و ساد أبناؤها بين قومهم.. منذ ذاك اليوم.

ثم تحاجز الناس.. وقد ذهب فخر ذلك اليوم كله لقريش؛ ثأرتْ لهزيمتها الآنفة واستردَّ ساداتها كرامتهم المهدرة، على أنَّ قيس عيلان تَوَعَّدتهم.. وواعدتْ كنانة العام القادم.
كان هذا هو اليوم الرابع من أيام حرب الفجار؛ وسمَّته العرب: (يوم الشرب).. وأعدوه أعظم أيام حرب الفجار؛ بل أعظم أيام العرب.

إلى مكة.. رجع هشام بن المغيرة بنصرٍ عزيز.. وهامةٍ مرفوعة، وأخوةٍ ثلاثةٍ مقتولين.. سَطَّروا بدمائهم في ذاكرة العرب ظهور قريش على عدوها.. بعد أنْ استعادوا بسيوفهم شرف قومهم.
وكذا.. رجع حرب بن أمية –وبنو عبد مناف- مُتوَّجين بالنصر والشرف والكرامة، وتأكَّدت زعامتهم لكنانة.. وقبائل تهامة قاطبة.

أُقيمتْ الإحتفالات.. وصدح الشعراء بأشعار الفخر والنصر، وغنتْ القيّان.. ورقصتْ الراقصات.. ليالي عديدة، نُحِرت الذبائح.. كما نُحِرت قيس، وأُريق الخمر.. كما أُريقتْ دماء هوازن، ودارت الكؤوس على المنتصرين والمحتفلين.

---

[1] : أصبح عروة بن مسعود -بعد ذلك- عظيماً في قومه وفي بلده الطائف؛ حتى قيل عنه أنَّه هو أحد عظيمي القريتين المذكورين في القرآن.. فهو عظيم الطائف، أما العظيم الآخر.. فهو عظيم مكة: الوليد بن المغيرة: والد الراوي.

ثم أُذن للأرامل والثكالى ببكاء قتلاهن.. وللآباء برثاء الأبناء، ثم اقتظتْ مكة بالزائرين والحجاج.. وانشغل أهلها بموسم الحج، ثم انفضّ الموسم.. وعادتْ سحائب الحياة الراكدة تُغيِّم في سماء مكة.

ثم غدتْ الهمهمات والهمسات تمسُّ الآذان؛ ورويداً.. رويداً.. صارتْ طنيناً يلسع أسماع قريش: "إلى متى تستمر هذه الحرب؟!! تالله.. قد فجرنا في الشهر الحرام، وقتلنا أنفسنا.. وأهلكنا أموالنا؛ تمضي بنا السنون.. والحرب تسحقنا؛ لا لشيءٍ سِوَى فتكة الخليع الفاجر –البرَّاض- حليف حرب بن أمية!!؟ وأيم الله.. ما أنصفنا أنفسنا!!؟".

تنامتْ تلك الهمسات.. حتى بلغت مسامع حرب؛ فتغافل عنها، وبلغتْ هشام.. فوضعها تحت أقدامه، وما اكترث لها ابن جدعان؛ إنَّما تحمَّس للكَرَّة التالية.
تغافل أسياد الحرب الثلاثة عن رغبة عشائرهم في السلم والمسالمة؛ فكان لا بد من المواجهة، يتحتَّم أنْ يواجههم أحد شجعاء القوم.. ويُسمِعهم ما يكرهون؛ ينبغي أنْ ينبَري أحد عقلاء قريش.. فيصدح بها في وجه السادة: "كفى.. كفى! لقد أكلتنا الحرب.. وكلَّفتنا ما لم نعد نُطيق!! هَلُمُّوا.. إلى الصلح والمسالمة!!".

هل يصدح بها أبي؟! لقد أسكته أخوه هشام.. وأرغمه على المشاركة في الحرب بنفسه وماله، ولقد سَكَتَ كي يسكت غضب هشام؛ ولن ينبس الوليد ثانيةً!!؟

فمَن لها؟!! بعد أَبِي.. لن يجرؤ أحدٌ مِن مخزوم على مصارحة هشام بما يحبون، وكذلك.. بنو تيم.. لن يتجاسر أحدهم على مخالفة ابن جدعان!!؟
فما بالك بحرب بن أمية؟!! هل يقدر أحدٌ مِن عبد مناف على التلميح أمامه بها.. فضلاً عن التصريح؟؟! إذاً.. لا مناص مِن استمرار حرب الفجار!

لا مفر من الاستعداد للجولة القادمة!!

"كلا.. كلا! تباً للجولة القادمة! بُعداً لحرب نُهلِك فيها أنفسنا وأموالنا.. ونُسخِط بها ربنا!!؟ حَرِيٌّ بهذه الحرب أنْ تنتهي!": انبعث عتبةُ.. وصدح بها في وجه سيد بني عبد مناف.. وأسمعه وأسمعه.. حتى أحفظه.
ومَن عتبة؟؟ إنَّه ابن ربيعة بن عبد شمس.. أخو أمية بن عبد شمس، مات أبوه.. فتربى يتيماً في حجر حرب.. ابن عمه، أحسن حرب تربيته؛ علَّمه القراءة والكتابة.. والأنساب وتاريخ قريش وأخبار العرب.. وفنون التجارة والحساب، وتعلَّم فنون الفروسية والمبارزة والقتال، وها هو ذا –يومئذٍ- شابٌ يافعٌ.. طويل القامة.. قوي البنية؛ يجدر به أنْ يلتحق بابن عمه.. ويصطف في صفوف عبد مناف مشاركاً في تلك الحرب الشريفة.. لتسمو منزلته بين أقرانه ويسود في قومه.

ثارتْ حفيظة سيد عبد مناف.. وصاح حانقاً: "قبَّحك الله.. أيها الرعديد.. كما خذلتني!! أنت –يا عتبة- تقول هذا في وجهي؟!! وأنا الذي آويتُك يتيماً.. وأغنيتُك مِن عالة؟!! يا حسرتي عليك! واللات.. كنتُ أراك قميناً بالسيادة مِن بعدي!".

"يا ابن العم! لا تدع حميَّتك تعمي بصيرتك! إنَّ هذه الحرب الهوجاء..."، ما تركه يكمل حديثه.. وإنَّما رفع يده وصفعه على وجهه صفعةً موجعة أطارتْ عقله وأهدرتْ كرامته؛ انشده عتبة.. واستاء من الإهانة؛ لكنَّه تمالك غضبه.. ومسح خده وضرب صفحاً عن الإهانة.. وهَمَّ أنْ يُكمِل حديثه.
بيد أنَّه لم يمهله.. ولم يكتفي بالبطش به؛ بل.. نادى فتيانه وأمرهم بحبس ابن عمه.. وأقسم: "واللات والعزى.. لن تخرج معي أبداً.. ولن تُقاتل معي عدواً!!".

ثم دارتْ الأيام.. وأخرج حربُ بن أمية بني عبد مناف وقريش وكنانة، ووافقه عمي هشام.. مُخرِجاً بني مخزوم، وكذا.. أخرج ابنُ جدعان التيمي.. مَن والاه.

وحضر خامس أيام حرب الفجار؛ جاءتْ قيس عيلان بفوارسها وجنودها وحديدها.. وغيظها من هزيمتها الفائتة.. وعزمها على محو عار تلك الهزيمة.

تَوافى الجمعان في موضع بين عكاظ ومكة.. يُقال له: الحُرَيرة، استبسل شجعاء الفريقين.. وتقاتلوا قتالاً شديداً؛ جالتْ الخيول الصواهل.. تَكُرّ وتَفِرّ بأرض المعركة حتى كسف غبارُها المثار شمسَ النهار، وتقارع فرسانها.. حتى تمزَّعت الأشلاء.. و وَطِئتها السنابك، نزالٌ عنيفٌ.. أجهد الأبطالَ.. وقُتِّلوا فيه تقتيلاً؛ ومِمَن قُتِل فتى عنابس قريش: عنبسة بن أمية.. أخو حرب بن أمية!!

تجاوز النهار منتصفه.. وتجاوز الإجهاد مداه؛ ضبحتْ الخيل وأُنهِكتْ قواها.. وأعيا القتالُ الصناديدَ البواسل، فتحاجز الفريقان.. لكن لم يضعوا السلاح؛ بل مكثوا في ساحة القتال.. كأنَّها وقفةٌ لالتقاط الأنفاس، وحُمِل عنبسة إلى خيمة أخيه: حرب.

أما الشاب: عتبة بن ربيعة.. فلم يرضَ بالحبس والذِلَّة، وأشفق أنْ يخرج قومه للقتال دونه؛ ساءه أنْ ينبري للقتال أخوه شيبة.. وفتيان بني عبد المطلب: العباس وحمزة ومحمد.. ويبقى هو –وهو أسن منهم- أسير مكة.. كالعبيد والنساء.

تحايل على سجن ابن عمه.. حتى هرب منه؛ ثم هرع إلى ساحة المعركة.. عازماً على أنْ يُخمد نار تلك الحرب.. أو يموت دونها.
بلغ أرض المعركة.. فلم يعرِّج على قومه أو فريقهم؛ إنَّما ساق بعيره إلى مضارب هوازن.. ونادى: "يا معشر هوازن! جئتُكم أعزل.. لأُكلِّمكم؛ فاسمعوا مني!".

سـأله الحـرس: "مَـن.. أنـت؟؟"، فـقال: "رجـلٌ مـن عبـد منـاف؛ فـاحملوني إلى سيدكم: أبي براء!"، سأله أبو براء بفظاظة: "ماذا تريد.. يا ابن عبد مناف؟؟!".

أجابه.. بتؤدةٍ: "يا سيد هوازن! جئتُكم بحديثٍ.. فاسمعوا مني؛ فإنْ رأيتم فيه خيراً.. فخذوا به، وإنْ كان غير ذلك؛ فاجعلوه.. دُبُر آذانكم!"، ثم استطرد.. وهو يُوزِّع نظراته على الجلساء: "يا معشر قيس عيلان.. علام تتقاتلون مع كنانة؛ وأنتم جميعاً أبناء مضر؟!! يا معشر مضر.. علام تفانون؟؟!".
قالوا: "ما تدعو إليه.. يا أخ العرب؟؟"، أجابهم هاتفاً بحماس: "أدعوكم إلى.. الصلح!!"، ثم أردف: "انصرفوا.. فيعد هذا الأمر إلى أحسنه وأجمله؛ فإنَّكم في شهرٍ حرام.. وقد عَوَّرتم[1] متجركم.. وانقطعتْ موادكم.. وخاف مَن قاربكم!!".
أجابوه بحميَّةٍ وأنفة: "لا ننصرف أبداً.. ونحن موتورون.. ولو متنا من آخرنا!!".
عارضهم بتؤدة: "فالقوم.. قد وتروا.. وقد قتلوا نحواً مما قتلتم.. وجرحوا كما جرحتم!"، أَطْرَق بعضهم متفكِّرين.. وردَّ عليه بعضهم آسفين مُتحسِّرين: "قتلانا أكثر من قتلاهم!؟؟".

صمت عتبة هنيهة.. ثم هتف بأناةٍ وحصافة: "إني أدعوكم إلى خطةٍ.. هي لكم صلاح ونصفة؛ نَعُدّ القتلى.. فإنْ كان لكم الفضل وَدينا فضلكم، وإنْ كان لهم.. وَديتم فضلهم!".
أطرق القوم.. ثم نظر بعضهم إلى بعض.. كأنَّما يتشاورون.. أو كأنَّهم يستبعدون أنْ تقبل قريش بما جاءهم به.. فسألوه مستيئسين: "ومَن.. لنا بذلك؟؟!".

أجابهم.. بثقةٍ وحزم: "أنا لكم به؛ أنا: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس!!".

---

[1] عورتم متجركم: أي: عرَّضتموه للتلف.. ويقصد بذلك سوق عكاظ لأنَّه في أرضهم وتحت زعامتهم.

تفرَّس فيه سيد هوازن؛ فرآه –مع حداثة سنه- ذا وقارٍ وهيبة.. وقَدَّر أنَّه مُطاعٌ في قومه؛ فقام إليه مصافحاً.. وشدّ على يده توثيقاً للاتفاق.. وصاح في قومه: "لا يردّ هذه الخطة أحدٌ.. إلا أخذ شراً منها؛ نحن معك.. يا ابن عبد شمس!".
ثم نهض إليه القوم وصافحوه.. واستوثق من رؤساء قيس عيلان جميعاً، ثم انطلق إلى حرب بن أمية والذين معه.

ولج إلى خباء سيد بني عبد مناف؛ فألفى جثمان عنبسة –ابن عمه: أمية- مُسجّى بين أيديهم.. والوجوم يغشاهم.. والدمع مُتحجِّراً في أعينهم.. والغيظ والسخط يتقلَّب في وجوههم، شهق شهقةً حزينة.. وزعق آسفاً: "وا آخاه!! قتلتم.. ابن عمي؟!!".. وانكب على الجسد الميت.. يتحسَّسه ويُقبِّله.
حدجه حرب بن أمية حانقاً.. وجبذه من ذراعه جَبْذاً عنيفاً.. وهو يصيح زاجراً: "انهض عن أخي.. أيها الجبان! بؤساً لـمَن أطلقك مِن محبسك!!"، امتنع أنْ ينهض معه عن الجثمان؛ فقام الزبير بن عبد المطلب إلى حرب بن أمية.. هامساً: "دعه.. يا سيد بني عبد شمس.. ولا تشمت بك عدوك!".

ثم نهض عتبة.. مُلتفِتاً إلى جلساء ابن عمه، جعل يتصفَّح وجوهم.. ثم هتف باستياءٍ واستهجان: "يا سادة قريش! كم قتيلاً.. تريدون؟!! إلى متى.. تهلكون أنفسكم وأموالكم؟!! إلى متى تستمر هذه الحرب الشعواء؟؟!".

أجابه عمي هشام بحميَّةٍ وكبرياء: "إلى أنْ تخضع لنا قيس عيلان.. وتذعن!!"، وأردف ابن جدعان بأنفته المعهودة: "لن ننتهي.. حتى ينتهوا ويُسلِّموا!!".
فأجابهما بثقةٍ وحسم: "جئتُكم مِن عندهم.. بالصلح؛ إنْ كنتما صادقين!؟".

رمقه ابن جدعان.. فرآه أعزلاً من السلاح.. تعلوه آثار السفر؛ فسأله مُستعظِماً: "ذهبتَ إلى مضاربهم.. وحيداً أعزلاً؟!! إنَّك.. لرجلٌ شجاع!".

"أجل.. ذهبتُ إليهم! وعاهدتُهم أنْ نضع هذه الحرب، وصالحتُهم على أنْ يُحصى قتلانا وقتلاهم: فمَن كان له فضل وداه الآخر، وقد أخذتُ منهم المواثيق.. وأعطيتُهم!"، حملق فيه ابن جدعان باعجاب.. فيما يستطرد صائحاً بأنفة: "فوالذي نفسي بيده.. لئن لم تُطيعوني فيما عاهدتُ؛ لأبرزنَّ إليهم.. فيقتلوني كما قتلوا عنبسة؛ والأمر لكم.. إنْ شئتم نصرتموني.. أو خذلتموني!!".

فوثب إليه الزبير بن عبد المطلب.. وأمسك بكتفيه وهتف مؤازراً: "تالله.. لا نخذل رجلاً من عبد مناف –أبداً- ولا نسلمه!"، ثم أردف: "أنا وبنو هاشم.. معك على خطتك؛ فأنعم بها من خطة.. وأنعم بك من رجل!!".
وقام إليه ابن جدعان.. قائلاً بإعجاب: "رجلٌ شجاعٌ حكيمٌ –مثلك- ينبغي ألا يُحقِّره قومه؛ بل.. تعلو كلمته.. ويُؤخذ بها، أنا –ومَن تابعني من كنانة- أُقرُّ لقيس عيلان.. بما أقررتَ لهم!".
ثم قام عمي هشام متثاقلاً بعض الشيء.. وتبسَّم للرجل.. وصافحه غير مخفي إعجابه بشجاعته.. ثم قال: "لولا يوم الشرب؛ ما أجبتُك لما تريد!!".

التفت عتبة إلى ابن عمه.. وسأله بتوقير: "وأنت –يا سيد عبد مناف- ماذا تقول؟؟!"، تململ حرب في مجلسه.. ثم همس بامتعاضٍ.. مُشِيحاً بوجهه عن ابن عمه: "احصوا القتلى.. واعطوهم ما يريدون!".

تهلَّل وجه عتبة.. وانفرجتْ أساريره، خالسه عمي هشام نظرة إعجاب.. وبات وهو لا يشك في أنَّ هذا الشاب العبشمي سيسود بني عبد مناف.. ذات يوم.

ثم تحاجز الناس.. وأمَّن بعضهم بعضا.. وأحصوا القتلى؛ فوجد أنْ قتلى قيس عيلان أكثر بعشرين رجلاً مِن قتلى كنانة، فوَدتْ قريش القتلى.. ووضعتْ الحرب أوزارها، وتعاقد الناس على ألا يؤذي بعضهم بعضاً فيما كان بينهم من أمر فتكة البرَّاض بعروة الرحَّال، وانصرف الناس.. وهم يقولون: "حجز بين الناس عتبةُ بن ربيعة!"؛ فلم يزل يذكر بها آخر الأبد.

انقضتْ حرب الفجار.. ورجعتْ قريش إلى مكة.. وعادتْ سوق عكاظ إلى سابق عهدها مِن الأمان والازدهار، ولم يدع عمي هشام ذاك الشاب العبشمي حتى خطب منه ابنته: هند بنت عتبة.. إلى أخيه: الفاكه بن المغيرة، ثم تزوَّجها الفاكه.. حينما بلغتْ مبلغ الزواج.

- ٤ -

ثم دار الزمان.. وأَزِف سوقُ عكاظ؛ فاحتفل به سادة قريش وتُجّارها احتفالاً هائلاً.. ولا سيما عبد الله بن جدعان.. وهشام بن المغيرة وأخوته؛ فأطعموا الطعام.. وأغدقوا على أهل السوق من المنح والعطايا ما أسعد هوازن وثقيف وأدخل الصفاء على قلوب ساداتهم.. ونزع الحقد والإحَن من قلوب عامتهم.

ما كادتْ الرِحال تَحُطّ في مكة قافلةً مِن عكاظ.. وفيما الناس في الشهر الحرام.. والحجاج يَؤُمُّون البيت الحرام؛ إذ سمعوا بمأدبةٍ عظيمةٍ.. تنصب في دار ابن

جدعان.. احتفالاً بحلف الفضول. "وما حلف الفضول؟؟": تساءل بنو المغيرة المخزومي بازدراء.

.. إنَّه حلفٌ دعا إليه الزبير بن عبد المطلب لنصرة الضعيف المظلوم.. والتصدِّي للظالم الغادر حتى يُؤخذ الحق منه؛ فاستجاب له بنو هاشم.. وبنو زهرة.. وبنو أسد بن عبد العزى.. وعبد الله بن جدعان وبنو تيم؛ وتعاهدوا وتحالفوا بأغلظ الأيمان على: (أنْ يكونوا يداً واحدةً مع المظلوم على الظالم حتى يردَّ إليه حقه.. ما بلَّ بحرٌ صوفة وما بقي جبلا ثبير وحراء مكانهما!)، ثم قاموا مع رجلٍ غريبٍ استضعفه أحد أسياد قريش فأكل ماله.. وامتنع سادة بني عبد الدار وبني مخزوم.. عن نصرته ضد الذي ظلمه؛ فقام أصحاب حلف الفضول إلى القرشي.. وقالوا: "لن ندعك حتى تردَّ للرجل مظلمته!".. واستردُّوا حق المظلوم.

علَّق عمي هشام على ذاك الحلف.. ساخراً مُستخِفاً: "أحب ابن جدعان وابن عبد المطلب أنْ يفخرا بحلفٍ لهما في قريش.. كما لنا –وبني عبد الدار- حلف لعقة الدم.. وكما لبني عبد شمس حلف المطيبين!".
بيد أنَّ هذا الحلف أثرى الحياة بمكة وجعلها أفضل مما كانت، فعندما ذاع صيته بين العرب.. علم الناس أنَّ لا ظلم للضعيف في مكة؛ فقصدها صغار التُجّار وضعفائهم آمنين.. وباعوا واشتروا؛ وانتشرتْ لذلك دور قَرَاء الضيف في مكة؛ فانتفع أهل مكة بهذا الحِلْف أَيَّمَا اِنتفاع.. ولا سيما تُجَّارها، وعمَّتْ الفائدة أعمامي: أبناء المغيرة المخزومي.

ثم مات عبد الله بن جدعان، رثاه عمي هشام.. وأظهر الحزن عليه، بيد أنَّه تنفَّس الصعداء؛ فقد أزاح الموتُ أخطر منافسيه على زعامة مكة.

لكن.. بقي اثنان: الزبير بن عبد المطلب.. وحرب بن أمية؛ وكلاهما من بني عبد مناف.. وانقسم بينهما سؤدد عبد المطلب بن هاشم.

أما الزبير.. فقد ورث سماحة أبيه وجوده، وورث عنه سيادة بني هاشم، وورث السقاية والرفادة.. أيضاً؛ ورغم سعة ماله.. فإنَّ مسئوليتهما –لا ريب- ستُضعِف قوته، ورغم شجاعته التي أظهرها في حرب الفجار.. إلا أنَّه رجلٌ لينٌ.. لا يطرب بالفخر ويبغض الكبر؛ لن يُنازعني الزبيرُ زعامة مكة.. ولا أخوه أبو طالب.

أما حرب بن أمية.. فقد ورث رئاسة قريش.. عن عبد المطلب، وإنَّه لفخورٌ مُتغطرس، وهو –بعدُ- أكثر بني عبد مناف مالاً وثروة، ومِن وراءه.. بنو عبد شمس يُعضِّدونه ويُقوّونه؛ هذا هو الفحل الأَرِن؛ إذاً.. أُشمِّر لمنافسة حرب على زعامة مكة.. وسأسبقه.

مضتْ الأيام والسنون.. تركض بهشام وبني مخزوم خلف حرب وبني عبد مناف، لكن.. استقرتْ الأحوال بعد حرب الفجار، وذاع صيت حلف الفضول؛ فازدادتْ أسواق مكة رواجاً، وتفحَّش ثراء أهل مكة.. حتى أصبح الفقر سُبَّةً قبيحةً يُعيَّر بها الفقير، وباتت العِزَّة والشرف لأهل المال والثراء.. والذِلَّة والازدراء لذوي الاحتياج والفقراء.

غدتْ بيوتُ قريش –قاطبةً- تلهث وراء المال والثروة، وتتنافس في الفخر بالمال والانفاق؛ لكن.. استقرتْ القوة والسطوة في بيوتٍ ثلاث: بني عبد شمس بن عبد مناف.. وبني هاشم بن عبد مناف.. وبني المغيرة بن مخزوم.
ولعلَّه لم يجانب الحقيقة.. مَن قال: (مَلَك بنو عبد شمس.. رقاب الناس، ومَلَك بنو المغيرة.. أفواههم وبطونهم، ومَلَك بنو هاشم.. قلوبهم).

ثـم مـات الزبيـر بـن عبـد المطلـب؛ فـورث –عنـه- أخـوه أبـو طالـب.. السـقاية والرفادة.. وسيادة بني هاشم.

حَـلَّ ميقـات سـوق عكـاظ؛ وأقبـل مبعـوثُ كسـرى –ملـك الفـرس- يحمـل هديـة نفيسـة: (سـيفاً قـاطعاً وفرسـاً رائعـاً.. وحُلَّـةً فـاخرةً)، ثـم نـادى مناديـه في السـوق: "هـذه هديـةٌ مـن الملـك.. بعثهـا لـسيد العـرب؛ فـليأتي صـاحب السـؤدد فـيكم.. ليأخـذها!"، تهافـت إليهـا أسـياد السـوق وتنازعهـا شـيوخ القبائـل ورؤسـاؤهم.. ثـم توافقـوا على أنَّ أحـق النـاس بهـا: هـم قـريش؛ فـتطلَّع إليهـا عـمي هشـام.. فصـاحب تلك الهدية – باعتراف أهل عكاظ- هو سيد العرب قاطبةً: (يا له من سؤدد!!).

بيـد أنَّ الـذي فـاز بالهديـة.. هـو: حـرب بـن أميـة؛ أقـرّ لـه بهـا أهـل السـوق.. ولـم يُنازعه فيها منهم أحدٌ، أذعن عمي هشـام.. وهنَّأه.. ثم تنحى واختلى بنفسـه حزيناً مغمومـاً.. يُحـدِّث نفسـه مُتحسِّـراً: "لـيس الأسـى على لُعاعـةٍ مـن متـاعٍ.. أهـداها كسـرى؛ بـل.. علـى الشـرف والسـؤدد! قـد تنافسـنا وبنـو عبـد منـاف الشـرف والسؤدد: تكاثرنا في الأموال.. حتى كاثرناهم، وغالبناهم في الإطعام والانفاق وقَراء الضيـف.. حتى غلبنـاهم، وفي حـرب الفجـار.. كنّـا الأشجع والأصبر، وإنْ حاجُّونـا بالأنسـاب.. فاخرناهم بالأحساب! فبما يفوقوننا؟! وإلى متى؟!!".

مـا كـان أحـدٌ مـن آل المغيـرة ولا بني مخـزوم.. بـل قـل –إنْ شـئتَ- ولا مِـن قـريش جمعـاء.. يتوقَّـع أنْ يمـوت هشـام بـن المغيـرة.. الـذي أقسـم ألا يبيـت في مكـة جوعان.. وفيها دار بني المغيرة المخزومي.
كانوا يُعظِّمونه ويُبجِّلونه.. وكأنَّه أكبر من الموت.. كأنَّ الموت يهاب أنْ يقترب منه؛ بيـد أنَّ المـوت لا يهـاب أحـداً.. ولا يـدع أحـداً –على وجـه البسـيطة- حتـى يُهلكـه، وهلك عمي: هشام؛ (هل مات كمداً لأجل خسارته شرف الزعامة لسيد بني عبد

مناف؟! ربما.. !!).. لكنَّه.. مات، وكانت فاجعةً فُجِع بها بنو مخزوم.. وقريش كلها.. وأهل مكة أجمعون.. إلى حد أنَّهم صاروا يؤرخون حوادثهم بموت هشام.. بعد أنْ كانوا يؤرخون بعام الفيل.

بعد هشام.. انتقلتْ القُبَّة والأَعِنَّة وسيادة مخزوم لوالدي: الوليد بن المغيرة، وكان الوليد أكثر مخزوم مالاً؛ بل أصبح أغنى قريش.. حتى أنَّه صار أوسع ثراءً من حرب بن أمية نفسه.

غير أنَّ سعة ثراء الوليد لم تمنع حرب من أنْ يتجبَّر في الأرض.. ولا سيما بعد هلاك هشام بن المغيرة؛ غدا ابن أمية يرفل في حُلَّته الفارسية.. وكأنَّه عظيمٌ من عظماء الأرض.. كأنَّه ملكٌ من الملوك؛ يمشي في الطرقات والأسواق.. فتنحني له الرقاب، ولا يجوز أحدٌ الطريق قبله.. ولا يمر بعيرٌ قبل بعيره، يُذعن له الناس.. ويأتمرون بأمره.

استاء بنو المغيرة.. وانفضُّوا إلى الوليد: "ألا ترى ما يصنع حرب بن أمية؟؟ هل كان يقدر أنْ يفعلها.. وهشام حيٌّ؟!!"، فأجابهم: "قد مات هشام؛ فذروه يصنع ما يصنع، ستَئُول السيادة لأطولنا عمراً.. وأوسعنا مالاً!".

انفضُّوا مِن حوله مستهجنين.. يتخافتون: "تالله.. قد ضيَّع الوليد سؤدد آل المغيرة؛ تخاذل وخشي سطوة حرب بن أمية.. وخاف على أمواله!".

اتهموه.. وظنُّوا رَوِيَّته وحلمه جبناً وتقاعساً، لكن بعد بضع سنين فقط.. تكشَّف الغيب، وأسفر القدر عن وجهه الذي يوافق بصيرة الوليد؛ فقد هلك حرب بن أمية.. كما هلك هشام بن المغيرة؛ وبقي الأطول عمراً: الوليد بن المغيرة.. وساد الأوسع مالاً: الوليد بن المغيرة.

مات حرب بن أمية؛ فخلفه -على سيادة بني عبد شمس- عتبة بن ربيعة.. كما خلف أبو طالب على سيادة بني هاشم، غير أنَّ الرجلين كانا مُملِقين.. ولم يسد في مكة مُملِقٌ غيرهما؛ فسبقهما الوليد بماله الواسع وثراءه الفاحش.. فضلاً عن كَوْنه أَسَنّ منهما، وأنَّ القُبَّة والأَعِنَّة لقومه مخزوم؛ فصار هو عظيم مكة بلا منازع، ورضي بهذا بنو المغيرة ومخزوم.. وخضعوا لأخيهم وأذعنوا لحكمته.. وعملوا بها؛ فأضحى أبناء المغيرة المخزومي قُرَّة عين مكة:

منهم.. (أبو حذيفة) صاحب الحكمة والمشورة.. والثراء والسخاء.

ومنهم.. (أبو ربيعة) الذي كان يقاتل في حرب الفجار برمحين؛ فلُقِب: ذو الرمحين.. هو فارس قريش الذي لا يُبارَى، وقد وَكَل إليه الوليد أمر القُبَّة والأَعِنَّة.

ومنهم.. (أبو أمية) الذي كان إذا سافر يكفي رفقته زاد الطريق؛ فلا يحمل مَن سافر معه زاداً.. ولذا لقبه الناس: زاد الركب، وهو من أجواد قريش المشهورين.

ومنهم.. (الفاكه بن المغيرة) الذي كان له بيت ضيافةٍ –خارج سور دار آل المغيرة- يغشاه الناس بلا استئذان.. فيُطعَم فيه الجائع ويأوي إليه الضائع.. مِن غير أنْ يُسأل عن اسمه ولا نسبه.

ورأسهم.. **أَبِي**: (الوليد بن المغيرة).. عظيم مكة وأغنى أثريائها.. حتى أنَّ قافلة تجارته لا يسعها أنْ تدخل من باب واحد.. بل من أبواب مكة جميعها، وهو قاضي مكة، وهو بطل من أبطال حرب الفجار.. وصنديد من صناديد قريش في شبابه، وهو حكيم من حكماء دار الندوة.. وأحد القلائل الذين حرَّموا الخمر على أنفسهم، من أخباره: أنَّه كان يكسو الكعبة –وحده- عاماً؛ بينما قريش مُجتمِعةً تكسوها عاماً.. فسَمَّاه الناس: الوحيد، ومن أخباره -أيضاً- أنَّه كان يذبح للحجيج -في كل يومٍ- عشرةً مِن الإبل طوال أيام موسم الحج.. رغم أنَّ الرفادة كانت لأبي طالب وبني هاشم بن عبد مناف.

ما أستطاع بيتٌ من بيوتات قريش أنْ يطاول بني المغيرة في السخاء والإنفاق، وما أستطاع سيدا عبد مناف –عتبة.. وأبو طالب- أنْ يُدانيا الوليد بن المغيرة.. لسِنّه وثراءه، ولقد كانا أعقل وأرشد مِن أنْ يُنافساه أو يخاصماه، وكذلك.. كان الوليد أحكم وأحلم من أنْ يتكبَّر عليهما.

كياسة زعماء قريش الثلاثة.. غَشَّتْ دار الندوة وقراراتها؛ فعَمَّ الاستقرار والرخاء أرجاء مكة، وعاش أهلها في رغدٍ ورفاهة.. لم ينعموا بهما قبلُ، استقرتْ الأحوال حتى أفضى هذا الاستقرار إلى أنْ صار المال دُولَةً بين الأغنياء وأقطاب الثروة، وسيطر التُجَّار الأثرياء على أسواق مكة.. وتفشى الربا والربا الفاحش؛ فازداد الغني غنىً وثروة.. وازداد الفقير فقراً واحتياجاً.

- ٥ -

صفتْ الحياة –في مكة- لأسيادها وأثريائها، ولم يكن شيءٌ ليُكدِر هذا الصفاء؛ لولا نبأٌ جَلل كاد يدكّ جبال مكة.. ويُسقِط سماءها كِسَفاً فوق رءوس قريش:

(الفاكه بن المغيرة.. سَرَّح امرأته –هند بنت عتبة- واتهمها بالفاحشة! يا للمصيبة!! إنَّها حادثةٌ شنيعةٌ.. تشتعل –منها- البيوت ناراً على أهلها، حادثةٌ.. قد تُؤجِّج حرباً ضروساً بين الحيين القرشيين: بني عبد مناف.. وبني مخزوم، حربٌ.. قد تأكل قريش.. فلا تذر منها أحداً!!؟).

سأقُصّ عليكم الخبر.. كما حدَّثتني به أمي: عاتكة [1] :

وذلك أنَّ الفاكه وزوجته –ذات يومٍ شديد الحر- التمسا الرَّواح ونسمات الهواء اللطيفة؛ فما وجدا –في دار آل المغيرة- ألطف مِن بيت الضيافة الخارجي الذي كان يُعِدُّه الفاكه لضيوفه الذين يدخلونه بغير استئذان؛ فأعجبهما المكث فيه.. ولم يكن به أحدٌ آنذاك، ثم لبثا به ساعة.. حتى غلب النعاس جفون هند؛ فنامت.. وخرج الفاكه من الدار لبعض حاجته، ثم عاد –بعد حين- فرأى رجلاً خارجاً مِن بيت ضيافته.

ولج إلى البيت.. فوجد هنداً نائمةً كما كانت؛ فأيقظها.. وأنَّبها صائحاً:

"مَن هذا الخارج مِن عندك؟؟!"، أجابته مُستنكِرة: "لا أدري! ما رأيتُ أحداً قط، والله.. ما انتبهتُ حتى أنبهتني!!"، فصرخ زاجراً: "بل رأيتُه بعيني.. يا فاجرة!".. ثم دفعها دفعةً عنيفة.. وهو يصيح حانقاً: "الحقي بأمك.. يا امرأة السوء!!".

انسلّتْ هند من دار زوجها تتعثر في خطاها؛ قدماها لا تكادان تحملاها.. غبَّش الدمع عينيها.. وأظلمتْ الدنيا في وجهها، هرعتْ إلى دار أبيها، ارتمتْ في أحضان أمها، طفقتْ تبكي حتى كاد صدرها ينشرخ.. ولَمَّا يفهم أبوها ماذا جرى؛ رفق بها.. ووضع لها جناحه حتى هدأ نحيبها.. وشرعتْ تتكلَّم، فلمَّحتْ.. وما صرَّحتْ؛ فأمر أبوها أمها أنْ تختلي بها لتعلم منها حقيقة الأمر.

علمتْ أمها بما كان.. وأعلمتْ أباها؛ فوثب غاضباً.. وصاح ممتعضاً:

"أوبنت عتبة بن ربيعة العبشمي.. يقال لها هذا؟!!"، وأرسل –على وجه السرعة- إلى الوليد بن المغيرة أنْ: انتظرني في دارك.. واجمع لي الفاكه وأخوته.

---

[1] : عاتكة: امرأة من قبيلة بجيلة، وذكر الإخباريون لها أسماء أُخَر: أميمة .. وصخرة.

استدعى الوليدُ الفاكه ومَن كان حاضراً من إخوته، ثم سألهم مُندهِشاً: "هل يعلم أحدكم ما شأن عتبة؟؟"؛ فحدَّثه الفاكه بما كان منه مع هند؛ تكدَّر وجه الوليد.. واستهجن: "تباً لك سائر اليوم! أ وتتَّهم بهذا امرأةً من عبد مناف؟!!".

بعد حينٍ قصير.. دلف إليهم عتبة –معه أخوه شيبة.. وابنه الوليد- يَتّقد وجهه غضباً، ولج الدار وأقدامه تعصر حصى أرضها عصراً ساخطاً، لم يُلقِ عليهم تحيةً ولا سلاماً، وإنَّما أبصر الفاكه.. فبرق الغضب في عينيه.. وصاح: "كيف تجرَّأتَ.. وقلتَ لابنتي ما قلتَ.. أيها الفَظّ؟؟! إنَّك رميتها بشيءٍ عظيم؛ فإمّا أنْ تُبيِّن ما قلتَ وإمّا.. !".

أشاح الفاكه عنه.. وقام إليه الوليد وإخوته.. يُسكِّنون فورته، قال الوليد مُتلطِّفاً: "نعم مساؤك.. يا أبا الوليد.. ومرحباً بك!"، فأجابه عتبة مُتسخِّطاً: "بل ساء مساء أخيك –يا ابن المغيرة- ولا مرحباً به!"، وتكلَّم شيبة.. معاتباً: " كيف ترضى –يا شيخ مخزوم- أنْ يصنع أخوك ما صنع؟!".

أَوْحى الوليد إلى إخوته أنْ احلموا عليهم وتلطَّفوا معهم، وأشار إلى سيد عبد شمس ورفيقيه أنْ سَكِّنوا ثورتكم، وأَلَحَّ عليهم في القعود.. فقعدوا.

جلس الجميع.. فهتف الوليد يجيب عم هند: "واللات –يا شيبة- ما علمتُ سِوَى الحين، وما رضيتُ بعد أنْ علمتُ!"، التقط أنفاسه.. ثم التفت إلى الفاكه.. واستأنف: "وإنَّ أخي نادمٌ على ما بَدَرَ منه.. وسيردُّ زوجته إلى بيته!".

تململ الفاكه.. وأنشأ يعارض أخاه في إباء: "كيف أفعل.. بعدما رأيتُ بعيني؟!!"، صاح أبوها في حميَّةٍ واستنفار: "أ وتعيدها على سمعي؟! تالله.. إنَّ مقالتك هذه

لسُبَّةٌ لا يمحوها إلا الدم!"، وهَبَّ عمها شيبة مُتوعِّداً: "واللات والعزى.. لنُهيِّجنَّها حرباً جذعة.. حتى تعلموا: مَن نحن!".

رغم أنَّه عظيم قريش وأسنُّ القوم.. انبعث الوليد مُتودِّداً مُعتذِراً: "على هَوْنك.. يا شيبة! أين حلمك.. يا عتبة؟!!"، يُجيبه نافراً: "الحلم في غير موضعه جهلٌ.. يا شيخ مخزوم! وإنَّ أخاك هو الأظلم!!"، يستطرد الوليد بالحاح: "رويدك –يا أبا الوليد- وأمهلنا حتى الصبيحة.. وستُردُّ هندُ إلى دارها عزيزةً مُكرَّمة!".

"لئن انتظرتُ إلى الصباح؛ سيعلم بالأمر بيوت عبد شمس، وحينها.. لا أرضى أنْ ترجع إليه حتى يُكذِّب مقالته فيها.. أمامهم وأمام بني المغيرة أجمعين!": أجابه عتبة آنفاً، فتبرم الفاكه.. وهَمَّ أنْ يتكلَّم؛ فأسكته أخوه.

انصرف بنو عبد شمس مُنذِرين الفاكه وأخوته إلى صباح الغد؛ لكنَّ الفاكه يُصِرُّ على رأيه.. غير راضخٍ ولا مستجيب لنصائح أخيه الوليد، يقول له الوليد: "لا تعجل باتهام امرأتك.. يا أخي؛ فإنَّها امرأةٌ عفيفةٌ من بيتٍ شريف! وأَنَى لامرأةٍ مثلها أنْ تفعل ما رميتها به؟!!"، بيد أنَّ الفاكه يجيبه مُتضجِّراً مُغتاظاً: "لقد رأيتُ بعيني؛ فكيف أُكذب عيني؟؟ كيف أعيش مع امرأةٍ تخونني؟؟!".

يوبِّخه الوليد.. هاتفاً: "يا أرعن! إنَّ الذي حكيتَ لنا لا يزيد على أنْ يُؤوَّل: أنَّ رجلاً غريباً رغب في طعام بيت ضيافتك.. فدخل إليها -كما تَعوَّد الناس- دون استئذان؛ فوجد امرأتك نائمةً.. ولم يجد أحداً يُكلِّمه؛ فبادر بالخروج بسلام، ورأيتَه أنت حينها؛ فظننتَ ظَنَّ السوء الذي ظننتَ!!".

أجابه الفاكه مُتأفِّفاً: "هكذا؟!!"، ثم أردف.. مُعاتِباً: "أ ترضى -يا عظيم مكة- أنْ تدوس امرأةٌ فاجرةٌ شرف أخيك بقدميها الآثمتين؟؟!".

زجره أخوه أبو ربيعة: "يا فاكه.. إنْ كان الذي ظننتَه بامرأةٍ حُرَّة من بني عبد شمس بن عبد مناف صحيحاً؛ فإنَّ على الدنيا العفاء!!"، بينما استأنف الوليد مُقرِّعاً: "إنَّ إصرارك على ما تزعم.. يُشعِل ناراً ستحرق قريش.. ومكة بأسرها؛ فارتدع و تُبْ إلى رشدك.. يا ابن أبي!!".
غير أنَّ الفاكه عاند واستكبر.. وفارق الدار مُغاضِباً.

بات **والدي** ليلةً طويلةً حائرة.. يتدبَّر القضية ويتفكَّر فيها، لم تُحفِظه مقولةٌ انفلتتْ من لسان أحدهم..هامساً: (لو كان هشامٌ حيّاً لوَأَدَ الفتنة في مهدها.. وأجبر الفاكه على استرجاع امرأته تَواًا)؛ بل.. تَفكَّر فيها وتدبَّرها؛ ثم أَسَرَّ أمي بالحديث.. كأنَّما يجيب صاحب المقولة: "أخشى لو أكرهتُ الفاكه على استرجاعها أنْ يُهينها ويظلمها؛ فتتفاقم الأزمة.. وتكون جفوة بين البيتين، وتشتعل فتنةٌ بيننا وبين عبد مناف.. تحرقنا جميعاً!!"، أطرق ملياً.. ثم هتف مُتحيِّراً: "لا مناص من اقتلاع الفتنة من جذورها؛ لكن.. كيف؟!!".

قبل أنْ تنشر الشمس شعاعها على دار آل المغيرة.. كان عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة.. يقرعان بابها بفروغ صبر، دلفا إليه.. فاستقبلهما باشّاً مُرحِّباً؛ على أنَّهما لقياه مُتجهِّمين.. وبادره عتبة سائلاً: "ماذا وراءك.. يا سيد مخزوم؟؟".
تردَّد الوليد قبل أنْ يجيبه: "أمهلني –يا سيد عبد شمس- ريثما تهدأ غضبة الفتى ويثوب إلى عقله!!".
هتف عتبة مُستهجِناً مُستاءً: "ما عاد في قوس الصبر مَنزَع! ذلك أمرٌ لا يُسكَت عنه.. ولا يُنتظَر فيه!"، واستطرد شيبة لائماً: "أراك تميل إلى تصديق افتراء أخيك –يا سيد مخزوم- وتحب أنْ ننتظر حتى تلوك ألسنةُ الناس شرفَ بني عبد شمس!!"، جاوبهما الوليد مُترفِّقاً: "حاشاني أنْ أفعل! بل أقطع الألسنةَ التي

تخوض في شرفكم؛ فما نحن وأنتم لقريش إلا كركبتي البعير؛ ولا غنى للبعير عن ركبتيه؛ فكيف –إذاً- أرضى لشرفكم أنْ يُدنَّس؟؟!".

تضجَّر عتبة: "وما جدوى عدم رضاك.. وقد دنَّس أخوك شرفنا بافترائه الشائن؟؟".

سكن الوليد برهة –كأنَّه يستجمع حلمه وحكمته- ثم قال بتُؤدَة: "اسمعا مني.. أيها السيدان! إنَّ ما نحن فيه لأمرٌ جَللٌ.. حقاً؛ ولكنَّا لن ننجو منه بالغضب.. والحميَّة.. بل بالعقل والرويَّة، فلا تجعلا فعلة هذا الفتى الأرعن تفسد علينا ودنا وصفاءنا!!"، أجابه عتبة مكابراً: "زمام أخيك بيدك.. لا بأيدينا!!؟".

"صدقتَ.. يا أبا الوليد! وإنِّي أراه يعاند ويكابر.. وأخشى إنْ أكرهتُه على ردِّها أنْ يظلمها؛ فالرأي عندي أنْ يَتَفرَّقا دونما يُذكَر ما كان بينهما!".

انزعج عتبة.. وانبعث مُؤنِّباً: "هل تحسبني أقبل هذا.. كأنَّ ابنتي مُتَهَمةٌ؟! وهل تحسب أنَّ بيتاً –في قريش- لم يبت البارحة.. وقد عرف من الخبر شيئاً؟؟ والذي يُحلَف به.. لا أدع أخاك حتى أحاكمه فيما ادعى.. أو هي عداوتكم أبدا!".

"وأنا قاضي مكة.. كما تعلمان: فإنْ ترضيا بحكمي ..."، قاطعه شيبة هاتفاً: "نرضى بحكمك –يا قاضي مكة- إلا في هذه!!": فيما أردف أخوه حاسماً: "إنَّ بني عبد مناف وبني مخزوم.. صنوانٌ في الشرف ورفعة الشأن؛ فكيف –في قضيةٍ كهذه- نُحكِّم رجلاً منكم.. يا بني مخزوم؟؟".

استجاب لهما الوليد بـرويَّةٍ واصطبار: "كما تشاءان.. انظرا الحَكَم الذي ترضيانه!"، فقال عتبة: "نُحاكمكم إلى بعض كهان اليمن!"،

فوافقه الوليد مُلَبِّياً: "ذلك.. لك!".

انصرف عتبة وأخوه.. ليتهيَّأ بنو عبد شمس للتحكيم، واختلى بنو المغيرة بالوليد.. ليسألوه مُستنكِرين: "كيف ترضى –يا أبا المغيرة- أنْ يحكم الكهان في شرف أخينا؟!!".

عَضَّ عليهم أنامل الغيظ.. وهتف مُتصبِّراً: "لو أنَّكم تفكِّرون.. كما أُفكِّر؟!!".. ثم أردف: "إنَّا لا نُحكِّم الكهانَ في شرف أخينا.. بل في عِفَّة بنتهم؛ فإنْ حُكِم أنَّها عفيفةٌ شريفةٌ عادت إلى زوجها.. وعاد الود بيننا وبينهم، وإنْ حُكِم بغير ذلك.. كانت وصمة عارٍ يُعيَّر بها بنو عبد مناف أبد الدهر؛ فتَخلُص لنا زعامة مكة.. ونستأثر بسؤددها من دونهم!!".

أطرق الأخوة.. مبهورين بدهاء أخيهم الأكبر.. وحسن قراءته للأحداث.

توافق البيتان على أنْ يخرج من كل بيتٍ وفدٌ ليشهد التحاكم.. ويكونون شهوداً على حكم الكاهن؛ فخرج عتبة بن ربيعة في لفيف مِن رجال بني عبد مناف.. وأخرج ابنته معه وبعض نساء عبد شمس، وخرج الفاكه.. وبعض أخوته في لفيفٍ من رجال مخزوم.. وبعض نساء آل المغيرة بينهم: أمي.

قُبيل الرحيل.. عَرَّج الرَكْب على الكعبة.. وطافوا حولها أجمعون، وفيما يطوف النساء تحيَّنتْ أمي السانحةَ واقتربتْ من هند هامسةً في أُذنها: "اعلمي –يا هند- أنّي لا أُصدِّق ما رماكِ به.. الفاكه!"، ابتسمتْ لها هند في مودةٍ وانشراح.. وأجابتها: "يعلم الله.. أنّي بريئةٌ.. يا عاتكة!"؛ فقد كانتا متآلفتين في دار آل المغيرة، ثم انصرفتا كل واحدةٍ إلى هودجها.. وانطلق الرَكْب راحلاً عن مكة.

سار الرَكْب بفريقيه المتخاصمين إلى كاهن اليمن.. يقطع الوهاد والفجاج، وكلما نزلوا منزلاً يلتمسون فيه الراحة؛ تغتنم عاتكةُ السانحةَ وتجلس إلى هند

تواسيها وتشاطرها مصابها، وهند تؤكِّد لها كذب افتراء الفاكه، وتتأسَّف لِما آل إليه حالها، وتُشهِدها أنَّها تأنَف أنْ يُحتَكم في عِفَّتها إلى عَرّافٍ أو كاهن.

أمسى بيت الكاهن على مسيرة يومٍ أو بعض يوم، وأوشكتْ براءة هند أنْ تتَّضح جليةً للناس؛ فحق لهندٍ أنْ تبتهج.. وينشرح صدرها، غير أنَّها لم تبتهج.. بل تكدَّرتْ، ولم ينشرح صدرها.. بل انقبض قلبها.

نزل الرَكْبُ مستراحه الأخير.. وأقبلتْ عاتكة على هند –كدأبهما أثناء الرحلة- فألفتها مُتكدِّرةً مُتجهِّمةً؛ فاهتمتْ لأمرها.. وسألتها بشيءٍ من الجزع والارتياب: "ماذا بك.. يا هند؟! ألا كان هذا قبل أنْ يشتهر في الناس أمرك!!؟"؛ نهرتها هند.. ثم همستْ والدمع يتلألأ في عينيها: "والله.. ما هذا المكروه قِبَلي؛ ولكن.. هذا الكاهن الذي سنأتيه بشرٌ يُخطيء ويُصيب؛ ولعلَّه أنْ يسمني بسِمَةٍ خاطئةٍ تبقى على ألسنة العرب.. ويُعيَّر بها قومي!".

تحسَّرت أمي لحال صديقتها.. والتقطتها في أحضانها.. هامسةً في أسى: "أصبتِ! وإنّي أشهد أنّي لو كنتُ مكانك لخشيتُ على نفسي وقومي.. كما تخشين!".
سألتها مُستشِيرة مُستغِيثة: "فما العمل.. يا عاتكة؟؟"، فأجابتها: "صارحي أباكِ بمخاوفك.. وأحسبه سيُحسِن التصرُّف!".
ثم استدعتْ هند أباها.. وجلسا يتناجيان ساعة.

ثم نزلوا على الكاهن؛ فأكرمهم ونحر لهم، ثم اجتمعوا عنده؛ فقال له عتبة: "أيها الكاهن.. إنَّا أتيناك في أمرٍ؛ لكن.. أحب أنْ أختبرك قبل أنْ نسألك فيه!".

تَجهَّم الكاهن مُستاءً.. وهتف مُستهجِناً: "وهل مثلي.. يُختبر.. يا سيد قومه؟!!"، أجابه عتبة مُلاطِفاً: "قَدْرك معلوم.. والناس يشهدون بعلمك؛ لكن.. كي تطمئن

قلوبنا، فقد جئناك في أمرٍ خطير!"، فهتف الكاهن مُمتثِلاً: "هات.. ما عندك.. يا سيد قومه!!"، فقال عتبة: "قد خبَّأتُ لك خبيئةً.. فما هي؟؟".

صمت الكاهن مُتأمِّلاً.. وطفق يحملق في سماء المجلس.. ثم يدور ببصره في أرجاء المكان، ثم أرهف سمعه.. كأنَّما يُسرُّه أحدٌ بحديثٍ، ثم قال: "ثمرة.. في.. كمرة!!".

التفتتْ الأبصار إلى عتبة.. وتربَّصوا مُترقِّبين إجابته، أطرق عتبة هنيهة.. ثم قال: "أريد أَبيَّن من هذا!"، عاد الكاهن لتأمُّله وإرهاف سمعه.. ثم هتف: "حبة بر.. في إحليل مهر!"؛ فهلَّل عتبة.. هاتفاً: "والذي يُحلَف به.. أَصبتَ!!"؛ وذلك أنَّ عتبة لمَّا حدَّثته هند بهواجسها.. قال لها: "صدقتِ.. يا بُنية، سأختبر لكِ.. الكاهن!"، وحينما أظلم الليل قام إلى فرسه.. وعمد إلى حبة بر.. فأدخلها في إحليله.. ليختبر بها الكاهن؛ فكان من الكاهن ما كان.

ثم إنَّ عتبة أشار إلى النساء جميعهنَّ.. وقال للكاهن: "انظر في أمر هؤلاء النسوة!"، وكانت هند.. وأمي عاتكة بينهنَّ، أنشأ الكاهن يقترب من كل امرأةٍ منهنَّ.. ثم يمسح على رأسها وهو يرهف السمع إلى مُحدِّثه الخفي.. ثم يقول للمرأة: "قومي.. لشأنكِ!"، بلغ أمي.. ففعل معها مثل بقية النساء.. حتى إذا بلغ إلى هند ومسح بيده على رأسها وأرهف سمعه وتأمَّل.. ثم أرهف سمعه وتأمَّل.. ثم صاح: "قومي.. غير رسحاء ولا زانية!"، ثم استَوْقفها.. وبشَّرها بنُبوءةٍ هاتفاً: "وإنَّك.. ستلدين ملكاً!".

تَنفسَّتْ هند الصعداء.. وكأنَّما عادتْ إليها الروح من جديد، رمقها أبوها باعتزازٍ وافتخار، بَشَّتْ لها أمي مُهنِّئةً.. ثم التفتتْ إلى الفاكه ولامحته كأنَّما تقول: قُمْ إلى

امرأتك.. فاعتذر إليها وطيّب خاطرها؛ فأقبل الفاكه على هند.. يتودَّد إليها؛ صَدَّتْه.. وهتفت صارمةً: "والله.. لأحرصنَّ أنْ يكون ذلك الولد من غيرك!".

أذاع بنو عبد شمس نبأ براءة ابنتهم حتى علم بالخبر أهل مكة.. ومَن حولهم، وتَندَّم الفاكه على سوء ظنِّه بزوجته.. وحاول مراراً أنْ يسترجعها، وساق –لذلك- الوسطاء والشفعاء؛ من بين أولئك الشفعاء كانت أمي عاتكة.. التي أوصاها الوليد بن المغيرة بمخالطة هند –في تلك الرحلة- والتقرُّب منها والتودُّد إليها.. فربما يحكم الكاهن ببراءتها.. فتكون أمي واصلة الود الذي انقطع.. وشفيعة الفاكه عند امرأته وأهلها ليردَّها، وقد أحسنتْ أمي أداء دورها في خطة زوجها؛ الوليد بن المغيرة الذي قَدَّر أنَّ براءة هند تَشين سمعة بني المغيرة –إنْ لم ترجع للفاكه أخيه- كما أنَّ ثبوت الاتهام عليها يَشين بني عبد مناف ويطعنهم في شرفهم طعنةً نافذة؛ لذا.. فقد حسب للأمر حسبته.. وحبَّذ أنْ يفتح باباً خلفياً للود.. فرسم لأمي أنْ تكون هي ذلك الباب: (يا لك مِن ماكرٍ داهيةٍ.. يا أبا المغيرة!!).

بيد أنَّ هند رفضتْ مساعي عاتكة.. وغيرها مِن الشفعاء والوسطاء، تأبَّتْ على الفاكه.. وامتنعتْ عن الرجوع إليه، وضنَّتْ عليه أنْ يكون ولدها -الملك الذي بُشِّرت به- من نسله.

تهافتْ عليها الخُطَّاب من أشراف بيوتات قريش، جعل أبوها أمرها في يدها؛ فاختارتْ –من بين الخاطبين- ابن عمها.. أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية.. ليكون بعلاً لها؛ فتحدَّث الناس: "أراد بنو عبد شمس ألا يخرج الملك -ابن هند- من غيرهم؛ فزوَّجوها لرجلٍ منهم!"، وكذَّب بنو المغيرة النبوءة.. قائلين: "إنَّما طمع الكاهن أنْ يحظو عند سيد عبد شمس.. وأنْ ينال منه مكافأةً سخية؛ فزعم.. ما زعم!".

احتفل بنو عبد شمس وبنو عبد مناف بزواج هند احتفالاً عظيماً.. دعوا إليه جميع الناس: أسياداً وأتباعاً.. رجالاً ونساءً.. أحراراً وعبيداً، وأعتذر الوليد.. وإخوته.. وبعض مخزوم عن الحضور.. مراعاةً لخاطر الفاكه؛ فعذرهم عتبة.

كان عرساً فخماً جليلاً.. تحدَّثتْ به الركبان زمناً؛ نُحِرت الجُزُر.. وأطعم الطعام الكثير، وأُفرِغتْ دنان الخمر في الكؤوس.. وضُرِب بالدفوف.. وغنتْ القِيَان.. ورقصتْ الراقصات، وُصِل الليل بالنهار.. وازدانتْ دروب عبد شمس وطرقاتهم بالمشاعل المتوهِّجة.
كانت مشاعل العرس هذه.. كأنَّها تَضْطَرِم نيرانها بين جنبي الفاكه.. فتكوِي قلبه؛ وما استطاعتْ كؤوس الخمر التي تجرَّعها –على كثرتها- أنْ تُطفئها!!

تكدَّر حاله؛ فنصحه أخوه الوليد أنْ يخرج في أول قافلة راحلة عن مكة.. لعلَّه يعالج لواعج قلبه الذي انجرح.. وكبرياءه الذي انكسر؛ فغادر في قافلة -إلى اليمن- صحبه فيها بعض تجَّار قريش.. منهم: عوف بن عبد مناف بن عبد الحارث بن زهرة.. وابنه: عبد عمرو [1]، وكذلك.. صحبهم في رحلتهم رجلٌ من بني جذيمة بن عامر [2]، تمت رحلتهم بسلام.. وربِحوا من تجارتهم.. وقفلوا عائدين إلى مكة؛ لكنَّ المنية فاجأتْ الرجل الجذيمي؛ فأوصى أصحابه القرشيين أنْ يحملوا

---

[1] هو الصحابي الجليل بعد ذلك: عبد الرحمن بن عوف الزهري.. وكان سنه في هذه الرحلة يتجاوز العشرين عاماً بقليل.

[2] هم: بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وهم بطن من كنانة؛ وكنانة هي القبيلة الأم لقريش.. كما أشرنا سابقاً، أما بنو جذيمة فكانوا يسكنون منطقة تسمى: الغميصاء.. وهي تقع جنوب مكة بالقرب من ميناء الشعيبة الذي على البحر الأحمر.. في أول طريق القادم من مكة إلى اليمن، وهي حالياً أحد مراكز محافظة الليث في المملكة العربية السعودية.

ماله إلى ورثته.. وحذَّرهم أنْ يسطو عليهم رجلٌ غادرٌ من قومه.. اسمه: خالد بن هشام الجذيمي.

حمل الفاكه وأصحابه أموال تجارتهم الرابحة.. وأمانة صاحبهم الجذيمي يُزمِعون ايصالها إلى ورثته كما أوصى، قبيل الغميصاء –التي بها ديار جذيمة- اعترضهم الجذيمي الغادر -خالد بن هشام- في عصبةٍ من رجال.

قطع عليهم طريقهم إلى الغميصاء، وادعى مال الجذيمي الذي معهم لنفسه.. وطالبهم به؛ فأبوا عليه.. فشهر سيفه وسيوف رجاله في وجوههم يريد قتالهم؛ فقاتلوه.. فقتل الغادرُ عوفَ بن عبد مناف الزهري، وقُتِل الفاكه، على أنَّ عبد عمرو بن عوف ثار لمقتل أبيه، وأخذته الحميَّة.. فقاتل ذاك الفاتِك الغادر وتمكَّن منه وقتله، ثم فَرَّ رَكْب قريش إلى مكة.. مخافة غدر بني جذيمة.

وصل الرَكْب الملهوف إلى مكة.. يلهثون من الهلع، وأبلغوا خبرهم مع الجذيمي الغادر إلى حكماء دار الندوة؛ فانتفض الوليد حَرَداً.. وحزن لمقتل أخيه، وهَبَّ أخوه ذو الرمحين.. يُقسِم بآلهته ليُقتِّلن جذيمة تقتيلاً.. انتقاماً لأخيه، وهاج بنو المغيرة كلهم حميَّةً لأخيهم.. واستنفروا مخزوم.. فلبُّوا نداء الثأر والانتقام، وأقبل عتبة بن ربيعة.. وأبو طالب بن عبد المطلب.. إلى الوليد.. ليهتفا: "نحن ومِن ورائنا عبد مناف معكم –يا سيد مخزوم- على مَن سفك دماء إخوتنا بغير حق!!"؛ فشكر لهم حميَّتهم ونصرتهم، ومضتْ قريش تتهيَّأ لغزو جذيمة!

ثم إنَّ بني جذيمة.. لَمَّا عرفوا بالنبأ.. أنكروا فِعلة أخيهم خالد بن هشام، وقالوا لأنفسهم: "لإنْ كابرتم.. وعاندتم قريشاً –وهم مَن تعلمون: أرباب الحرب والحرم- لخسرتم؛ فإنَّكم لا قِبَل لكم بمعاداة قريش، فهَلُمُّوا إلى الوليد بن المغيرة: شيخ قريش وقاضي مكة؛ نعتذر إليه ونرضى بحكمه.. على ألا نحاربهم!".

أتى وفد جذيمة إلى أَبِي مُتنصِّلين، نكَّسوا رءوسهم.. وأظهروا الندم، واعتذروا: "يا سيد قريش! ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منّا، إنّما عدا عليهم قومٌ بجهالة؛ فأصابوهم ولم نعلم، فنحن نعقل لكم ما كان قبلنا مِن دم أو مال!".

انتهرهم ذو الرمحين.. بأنفةٍ وإباء، وصاح مُستنكِراً: "أخي.. يقتله صاحبكم ظلماً.. وتعرضون الديَّة والمال.. تحسبون أنَّا نُفرِّط في دمه؟! هيهات..!!".

بيد أنَّ الوليد سكَّن غضبة أخيه، وآثر العقلَ والرويَّة.. وقَبِل مصالحة جذيمة.. واسترجع أموال رَكْب قريش.. وقبض منهم دِيَّة قتلى قريش.. وصرفهم بسلام.

أقرَّه على رأيه عتبة بن ربيعة.. وملأ قريش، وأثنوا على حلمه ورشده، بينما تبرَّم أخوه ذو الرمحين.. وعاتبه: "كيف تقبل المصالحة دون أنْ نُعمِل فيهم السيف.. حتى يرهبوا جانبنا.. ويعلموا قدرنا؟!!"، يُجيبه الوليد بحلمه المعهود ورويَّته: "قد فعلها سفيههم الغادر بغير علمهم، وقد مات أخونا؛ ولن يرجع إلى الحياة.. وإنْ قتلنا جذيمة جمعاء، فلِمَ لا نقبل الدِيَّة.. فنتجنَّب حرباً بيننا وبينهم نُضيّع فيها أموالنا وأنفسنا بلا جدوى؟!!".
لم يملك ذو الرمحين سِوَى الرضوخ لقرار أخيه رغم اعتراضه واستيائه.

أُعلِن الحداد على الفاكه، وبكته نساء آل المغيرة.. وبني مخزوم، وأخذنَّ يندبنَّ مُتحسِرات.. ويولولنَّ قائلات: "لو كان عندنا.. ما مات وما قُتِل؛ يا ليته لم يخرج في سَفْرَةٍ قط.. ولم يرتحل أبدا!!".
ولم يسع الشامتين بآل المغيرة إلا التهامس من وراء الجدران: "قُتِل الفاكه.. وذاك جزاء مَن افترى الكذب على بنات عبد مناف.. ربات الشرف والعفاف!".

- ٦ -

ادلهمتْ السماء.. وتكاثفتْ الغيوم فكأنَّها أطفأتْ الشمس، وهطلتْ أمطارٌ غزيرة؛ (هل تبكي السماء على الفاكه بن المغيرة؟!!)، كلا.. كلا! إنَّما هو السيل؛ سيل عرم جرف الوادي.. فهدم بيوتاً.. وأغرق أُخْرَيات، بل وانحدر إلى البيت الحرام.. فتصدَّعتْ منه الكعبة.. وأوشكتْ جدرانها على الانهيار.

هرع أهل مكة إلى آلهتهم مرتاعين.. يجأرون إليها مُتوسِّلين أنْ تُقلِع السماء وينحسر الماء؛ بيد أنَّ آلهة الأرض لم تسمعهم.. ولم تستجب لهم.. وما انفكتْ السماء ترجمهم بصواعقها.. وتقذفهم بوابلها.
لا ملجأ –إذاً- إلا الإله الذي في السماء.. رب البيت العتيق، رفعوا أكف الضراعة إلى السماء.. وراحوا يسترحمون ويتوسَّلون ويستغيثون: "اللهم.. ارفع سخطك عنّا! اللهم.. ارفق بسدنة بيتك وعُمَّاره! اللهم.. ارحم أَجْوَار كعبة إبراهيم وإسماعيل!!"؛ فما لبثتْ السماء أنْ أقلعتْ.. وانقشع الغمام.. وانكشفتْ الغُمَّة.

ثم أصبحتْ مكة.. وقريش –أهل بطاحها وظواهرها- يعالجون آثار السيل المدمرة.. واجتهد أثرياؤهم في ذلك أيما اجتهاد.. وبذلوا جهداً مشكورا.

ذات نهار.. وفيما يجلس الوليد بن المغيرة في نادي قريش بالحرم.. إذ تطلَّع إلى الكعبة؛ فساءه منظرها.. وأحزنه ما فعلته بها السنون والعوادي التي أوهنتْ بنيانها وصدَّعته.. وآخرها ذاك السيل الذي لم يشفق على بيتٍ في مكة.
شرع يحملق فيها ويتأمَّلها:

إنَّها رضمٌ [1] يابس ليس بمَدَر [2].. لا يزيد ارتفاعها عن تسعة أذرع [3]، لا سقف لها.. تُدَلَّى الكسوة على الجُدُر مِن خارجها وتُربَط من أعلى الجُدُر من بطنها؛ لطَّخها السيل وأمطاره، ومزَّعتْ الرياح أجزاءً منها.. وأحرقتْ الصواعق أجزاءً أُخَر، ودبَّتْ الشروخ والشقوق في جدرانها.. كما يَدِبُّ الشَيْب في رأس شيخٍ هرم.

تألَّم أبو المغيرة لِمَا آل إليه حال البيت العتيق.. وزفر زفرة ضيقٍ وأسى، وقضى سحابة نهاره مُتكدِّراً؛ سأله القوم عن باعث تجهُّمه.. فصارحهم بما يُحزنه: "الكعبة.. وما اعتراها مِن وهن!! إنَّها عزنا وشرفنا بين العرب؛ فكيف يأتون إليها من كل فج.. ويرونها بهذا المنظر الكريه؟!!".

تساءلوا فيما بينهم: "بيت ربنا الذي بناه آباؤنا.. كيف نبصره يتداعى أمام أعيننا.. ونقف عاجزين؟! أ نُمسك عن إصلاحه حتى يتهدَّم.. ويندثر معه شرفنا وعزنا بين العرب؟!! لا محيص عن إصلاحه وترميمه!!".

تعاهد ملأ قريش على ترميم الكعبة وإصلاحها.. وشَمَّروا لها سواعد الجد والعمل؛ على أنَّ الحيرة تملَّكتْ عقولهم.. وثارتْ في أذهانهم تساؤلاتٌ دَهِشةٌ تائهة؛ فراحوا يتناظرون ويتشاورون: "كيف نصلح ذلك البنيان العتيق؟؟ لم تمتد يد بنَّاء إلى هذه الكعبة مذ بناها قصي بن كلاب في الزمن الغابر، مضتْ عشرات من السنين وعشرات.. وهي على حالها القديم؛ فهل مِن اللائق أنْ تمتد لها أيدينا بالتغيّر؟؟

---

[1] : رضم: أي: حجارة منضد بعضها فوق بعض من غير مِلاط، والمِلاط هو الطين يجعل بين كل لبنتين أو حجرين في البناء ليلصقهما.

[2] : مَدَر :هو الطين اللزج المتماسك.

[3] : أي: حوالي ما بين الأربعة أو الخمسة أمتار تقريباً.

هل يجوز أنْ ندعي الإصلاح بينما نُعدِّل ما بناه قصي بن كلاب وآباؤنا؟؟ كيف نجرؤ أنْ نفسد ما بناه الآباء والأجداد؟؟".

فيما هم –على تلك الحال- حائرون مُتردِّدون؛ إذ سمعوا بسفينةٍ لتُجَّارٍ من الروم رستْ بمرفأ الشعيبة الذي على بحر القلزم؛ قد تكسَّرتْ ولم تعد صالحةً للإبحار، فركبوا إليها لينظروا بضائعها وما كانت تحمله من متاع وتجارة.
ثم رأووا أنْ يعرضوا على أصحابها أنْ يشتروا منهم أخشابها وينقلوها إلى مكة، وكذا.. اقترحوا على تُجَّارها أنْ يأتوا معهم إلى مكة، وأذنوا لهم أنْ يدخلوها ويبيعوا –فيها- بضاعتهم ومتاعهم دون أنْ يعشروهم [1]، وكان من بين هؤلاء الروم رجلٌ نجارٌ بنَّاءٌ.. يقال له: باقوم.

خاطبوه ملتمسين: "أيا باقوم! هل تستطيع أنْ تُصلِح لنا بناء بيت ربنا؛ ولك أجرٌ عظيم.. ومكافأةٌ سخية؟!"، فأجابهم: "أجل! بل.. أُشيِّده لكم خيراً مما كان؛ لكن.. أعينوني بقوةٍ!"، قالوا مُتحمِّسين: "نعم! يعاونك في بنائها أشرافنا وأبناء أشرافنا؛ وإنَّها لمَكْرَمَةٌ.. وأنعم بها من مكرمة!!".

شَمَّر باقوم الرومي ساعديه للتخطيط والعمل؛ فأشار عليهم أنْ يستعينوا بأخشاب السفينة في البناء.. فوافقوه، ثم أمرهم أنْ يجمعوا له الحجارة من جبال مكة؛ فجعلوا يُقطِّعون الحجارة مِن الجبال وينقلونها إلى جوار الكعبة؛ يقوم بهذا العمل أشرافهم وأبناء أشرافهم بحماسٍ وتألُّه.. حتى جمَّعوا له من الحجارة أكثر من التي قَدَّر أنَّها تلزمه.

---

[1] : يعشرونهم: أي.. يأخذون منهم العشار؛ وهي ضرائب تمثل ١٠% من قيمة البضائع، وقد كان أهل مكة يأخذون العشار من التجار الغرباء عنها.

ثم بدأ باقوم –يعاونه أبناء أشرافهم- ينحت الحجارة ويُسوِّيها ويُهيِّئها للبناء.. ويُقرِّبها إلى موضعها، ثم أمرهم بنقض البناء القديم.. وهدمه إلى القواعد ليبدأ في البنيان الجديد!!

هنالك.. انتبه أسياد قريش وأشرافهم: "هل سنهدم بناء قصي؟؟ هل سنهدم بيت ربنا.. بناية آبائنا؟!! كلا.. كلا! هذه جِنَايةٌ عظيمة! كيف نتجرَّأ عليها؟!! ألا نخشى نقمة ربنا؟!! ليس فيل أبرهة والطير الأبابيل.. منّا ببعيد!".

انتكس الحماس.. وانقطع العمل، وغشيتْ الكآبة والوجوم.. وجوه الناس؛ لكن.. انبعث **أبي** (الوليد بن المغيرة).. ليبعث فيهم الأمل من جديد:

"يا قوم! ألستم تريدون بهدمها الإصلاح؟؟"، قالوا: "بلى.. والله!"، فاستأنف: "فإنَّ الله لا يُهلِك المصلحين!"، ثم استدرك: "ولكن لا تُدخِلوا في عمارة بيت ربكم إلا من طيب أموالكم؛ فلا تُدخِلوا فيه مالاً من ربا.. ولا مالاً من ميسر.. ولا مهر بغي، جنبوه الخبيث من أموالكم؛ فإنَّ الله لا يقبل إلا طيبا!"، أقرُّوه على رأيه.. وقالوا: "نعم.. نفعل!!"، وشرعوا يجمعون النفقة من الكسب الطيب.

ثم إنَّهم ما انفكوا يتهيَّبون أنْ يهدموها؛ فصارح بعضهم بعضا: "إنَّا نخاف أنْ ينزل بنا العذابُ!؟؟"، ثم تساءلوا.. وَجِلين: "فمَن ذا الذي يبدأ.. فيهدمه؟؟!".

ما تجاسر أحدٌ أنْ يتصدَّى لها؛ فانبرى **أَبِي** (الوليد بن المغيرة) –وكان أوانها شيخاً تجاوز السبعين- وهتف: "أنا أبدؤكم في هدمه؛ أنا شيخٌ كبير، فإنْ أصابني أمرٌ.. كان قد دنا أجلي، وإنْ كان غير ذلك.. لم يرزأني!".

اشرأبتْ الأعناق المُترقِّبة.. وحملقت العيون المتربِّصة إلى سيد مكة وهو يلتقط العتلة [1].. ثم يتقدَّم في خطواتٍ ثابتة صوب الكعبة.. ثم يتسلَّق بنيانها المتهاوي،

---

[1]: العتلة: عمود قصير من الحديد له رأس عريض.. يهدم به.

رفع عتلته.. ضرب ضربته الأولى بقوة؛ فتزعزع منها حجرٌ تحت رجله.. فارتجف وارتجفتْ معه قلوب الناظرين إليه.
رفع الوليد يديه ضارعتين إلى السماء.. وجأر: "اللهم.. لم ترع! إنَّما أردنا الإصلاح!!"، ثم انقض بالعتلة والمعول يهدم وينقض حجراً حجرا.. بلا كلل ولا تعب.. حتى أمسى، ثم نزل.. وانفضَّ الناس إلى بيوتهم يتعجَّبون من شجاعة ذاك الشيخ الكبير وإقدامه على التضحية بنفسه؛ غير أنَّ بعضهم همس في رهبة: "ربما ينزل به العذاب ليلاً.. وهو بائتٌ في مضجعه!".

لكنَّ الوليد أصبح غادياً إلى عمله في هِمَّةٍ ونشاط.. ليس به بأس؛ حينئذ تسابق سادة قريش وأشرافها إلى العمل معه.. وهدموا البناء حتى أبصروا أحجاراً ضخمة لا يطيق حمل إحداها الثلاثون رجلاً، وقد تشبَّك بعضها ببعض؛ إذا حرَّكوا واحدةً منها.. ترتجّ جوانبها؛ فقدَّروا أنَّ هذا هو الأساس الأول.. الذي أنشأ عليه إبراهيم وإسماعيل البيت، وأمسكوا عن الهدم تحت ذلك.

ثم أخرجوا النفقة الطيبة التي جمعوها.. وأحضروا باقوم الرومي.. ودفعوها إليه قائلين: "اشرع في البناء.. يا باقوم! وارفع لنا بيت ربنا عمَّا كان عليه آنفاً؛ اجعله ثمانية عشر ذراعاً في السماء، وارفع البابين عن الأرض حتى لا تدخلها السيول.. ولا تُرقا إلا بسُلَّم فلا يدخلها إلا مَن أردنا، واجعل لها سقفاً مسطحاً واجعل له دعائم في صفوف.
أجابهم: "أصنع ما تحبون! لكن هذه النفقة.. لا تكفي؛ ينبغي أنْ تضاعفوا لي الأجر؛ فإنّي سأرفعها عالياً.. وسأجعل بناءها ساف [1] من حجر.. وساف من

---

[1] الساف: هو كل صف من الطوب اللَّبِن أو الآجر من حجارة في الحائط وهو: المدماك.

خشب بين الحجارة.. وسأدعمها بالملاط!".
جاوبوه مستيئسين: "تقاسمنا.. ألا يدخل فيها إلا النفقة الطيبة.. ولا نملك غير تلك النفقة؛ فانظر ماذا أنت فاعل!!؟".

تَوقَّف العمل مؤقتاً، ولبث ملأ قريش يتفكَّرون ويتشاورون: "هل نزيد النفقة؟؟ فلدينا الأموال كثيرة.. لكنَّها ليستْ من الكسب الطيب؛ فهل نأمن أنْ يسخط ربنا.. فينقض ما بنيناه.. أو يصيبنا بعذابٍ من عنده؟؟"، حسم الوليد الخلاف.. صائحاً: "كلا! لا تُدخِلوا فيها غير الطيب!"، تساءلوا متحيِّرين: "فما العمل؟!!".

بعد التدبُّر والتشاور.. قَرَّروا أنْ يقصروا عن القواعد.. ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت.. ويتركوا بقيته في الحِجْر[1] ويجعلوا عليه جداراً قصيراً.. مُدار يطوف الناس من ورائه، وأنْ يجعلوا البابين باباً واحداً.. يُرقى إليه بسُلَّم؛ وذلك على قدر ما تكفيه النفقةُ الطيبة.

شرع باقوم في البناء، ومضى يبني ساف من حجر.. ثم فوقه ساف من خشب.. ثم فوقه ساف من حجر.. وهكذا، و**أَبِي** وأعمامي وسادات قريش.. يتابعون العمل باهتمامٍ وحميَّة، ويُباشر أبناؤهم معاونة باقوم بأنفسهم.. تَديُّناً وتَبرُّكاً.

الحميَّة والحماس أخذا **والدي** كل مأخذ؛ فأجهد نفسه في مباشرة العمل.. حتى أعياه الجهد، وحق له أنْ يفعل؛ فهو أول مَن خاطر بنفسه لإتمام هذا العمل العظيم.. وإنَّ ربع النفقة التي أُنفِقتْ على هذا البنيان من ماله هو وحده.

لكن أصابه إعياءٌ شديد؛ فاستبدّ به المرض.. وألزمه الفراش أياماً.

---

[1]: هو حِجْر اسماعيل المشهور، ومن المعلوم أنَّه جزءً من الكعبة.

على أنَّه أمر أخويه –أبا أمية.. وأبا حذيفة- أنْ ينوبا عنه في الإشراف على ذلك العمل المبارك.. وألا يسمحا بتقصيرٍ أو إهمال: "إنَّه السؤدد والشرف الذي سنسبق به بني عبد مناف.. وقريش أجمعين!".

ما انفك العمل يدور على قدمٍ وساق، باقوم ومعاونوه يبذلون جهداً مشكوراً، والبنيان يرتفع يوماً بعد يومٍ كما يحبون.. حتى انتهوا إلى موضع الحجر الأسود، صاحوا في باقوم زاجرين: "حسبك –أيها الرومي- هذا الركن لا يضعه إلا أشرفنا!!"، فأجاب بعدم اكتراث: "هاكم الركن.. فافعلوا ما تحبون!".

غير أنَّهم اختلفوا.. واعترض بعضهم على بعض.. وتنازعوا: أيهم أحق بوضع الركن، تخاصموا.. حتى أنَّهم عَطَّلوا العمل أياماً.
دون جدوى.. يجتمعون –في كل يوم- إلى البناء، يجلسون مُترِبّصين ببعضهم، ينظرون إلى الحجر الأسود تارة.. وإلى موضعه الخالي منه تارة، ولا يجسر أحدهم على مَدِّ يدٍ إليه؛ فلَمَّا طال عليهم الأمد –دون حَلٍّ- كادوا يتقاتلون.. لولا أنْ عَنَّ رأيٌ لعمي أبي أمية؛ فأشار عليهم قائلاً: "يا قوم! إنَّما أردنا البر.. ولم نُرد الشر؛ فلا تحاسدوا.. ولا تنافسوا، فإنَّكم إذا اختلفتم.. تَشتَّت أمركم وطمع فيكم غيركم؛ لكن.. حَكِّموا بينكم أول مَن يطلع عليكم من هذا الفج!".

تلبَّثوا برهة.. يتدبَّرون هذا الرأي، ثم انقادوا له.. وتربَّصوا منتظرين أول مَن يطلع عليهم؛ فكان محمدٌ بن عبد الله بن عبد المطلب؛ أبصروه.. فهتفوا مُجمِعين: "هذا الأمين.. قد رضينا به حكماً!"، وحكّموه فيما شجر بينهم.

بسط محمدٌ رداءه، ثم وضع فيه الركن.. ودعا من كل قومٍ رجلاً؛ فأخذوا بأطراف الثوب.. ورفعوه إلى موضعه، وقام محمدٌ على الجدر.. فناولوه إليه..

فوضعه في موضعه، شكروا له حكمته وحسن صنيعه.. وانصرفوا لاستكمال العمل مع باقوم.

في المساء.. مكث أبو أمية وأبو حذيفة إلى جوار فراش الوليد.. ليقصُّوا عليه ما جرى، فحكى له أبو أمية أنَّه كان صاحب الرأي السديد الذي جمع أشراف قريش على كلمة واحدة.

وحكى أبو حذيفة ما كان من حكمة محمدٍ وحسن تصرُّفه.. وأشاد بعدالته بين أسياد قريش ومساواته لهم ببعضهم.. حتى أنَّه ساوى بين عتبة بن ربيعة.. سيد عبد مناف –الذين هم عِترَة محمد- وبين الآخرين.. حيث جعله يمسك بطرف الرداء -مثله مثل الآخرين- كما كان أبو حذيفة هو الذي أمسك بطرف الرداء نيابةً عن مخزوم.

اكفهر وجه الوليد، وذَرَعه السعال.. فاعتدل في مضجعه، ثم هتف مُوبِّخاً أخويه ومُسَفِّهاً عقليهما: "تعساً لكما.. ولأسياد قريش معكما! أ تعمدون إلى رجلٍ من بني هاشم بن عبد مناف.. ومِن أصغركم سناً؛ فتُرأِّسوه عليكم في مكرمتكم.. كأنَّكم خدمٌ له ؟!! واللات والعزى.. قد أذهبتم ما أنفقتُه –في هذا العمل- سدى، وفاز بالشرف غلام بني هاشم.. من دونكم!!".

اغتمَّ أخواه.. وقضوا جميعهم ليلةً من شر الليالي.

تلاحقتْ أيام العمل الجاد.. حتى أتم باقوم بنيان الكعبة على أحسن ما يكون؛ رفع بنيانها ثمانية عشر ذراعاً [1].. في ستة عشر ساف من الحَجَر وخمسة عشر من الخشب، وسدَّ بابها الغربي.. ورفع بابها الشرقي عن الأرض عدة درجاتٍ.. كما

---

[1] : أي حوالي تسعة أمتار.

أرادوا، وجعل لها سقفاً مسطحاً مرفوعاً على ست دعايم في صفين.. كل صف ثلاثة دعايم من الشق الشامي الذي يلي الحِجْر إلى الشق اليماني، وجعل لسقفها ميزاب [1] يسكب في الحِجْر، وجعل في بطن ركنها الشامي درجات من خشب يُصعَد بها إلى ظهرها، وزوَّق[2] لهم سقفها وجدرانها من الباطن.. وكذلك دعايمها، ثم جعل لهم على جدرانها ودعايمها –من الداخل- التصاوير؛ فمنها صور للملائكة.. وصورة لإبراهيم وهو شيخ كبير يستقسم بالأزلام.. وصورة لعيسى بن مريم وأمه.

نظر الناس إلى البنيان الشامخ مُنبهِرين.. لا يكادون يُصدِّقون أنَّه تَمَّ لهم بسلام، ونهض **أَبِي** من فراش مرضه متماثلاً للشفاء.. وغدا إلى البيت الحرام ليرى الكعبة وقد تَمَّ بناؤها وتَجمَّلت للناظرين؛ رمقها بعين الرضا.. وكساها من ماله وحده دون شريك، وأمر قريش أنْ تحتفل باتمام هذا العمل المبارك؛ فكان احتفالاً مهيباً.. تحادثتْ به العرب زماناً.

- ٧ -

ويَأبَى بنو المغيرة إلا أنْ يُؤَلِّهوا **الوليد**؛ فحينما تَمَّ حملُ أمي بي وولدتني.. سَمَّوني: **الوليد**.. إجلالاً له وتعظيماً؛ فصرتُ أُدعى: الوليد بن الوليد بن المغيرة.

---

[1] : الميزاب.. هو المزراب: قناة يجري فيها الماء منصرفاً من أسطح الدور أو المواضع العالية.. فينسكب على الأرض بعيداً عن جدرانها.

[2] : زوَّق الشيء: أي.. زيَّنه ونقشه وزخرفه.

كنتُ زهرة الدار، وقُرَّة عين أمي.. عاتكة، رغم أنْ سبقني إلى الحياة أخوةٌ كُثُر.. منهم: عمارة.. وخالد.. وهشام.. وفاطمة.. وناجية.. وفاختة.

لا أكاد أذكر من طفولتي المبكرة.. شيئاً!! على أنّي نُبِّئتُ أنني حُمِلتُ إلى البادية.. وأتممتُ رضاعي في هوازن -كعادة سادات قريش مع أطفالهم- فترعرتُ في تلك البادية، ولو حاولتُ أنْ أتذكَّر منها بعض الذكريات؛ فلا أكاد أذكر سِوَى طَيف خيال لامرأةٍ شابة قوية البنية كانت تهتم بي وترعاني.. ربما تكون أمي التي أرضعتني.. ولكنّي لا أذكرها، وأذكر شيئاً ثان.. أذكر غُنيمات كنتُ ألعب معها وأركض خلفها، وكذا.. جرو صغير كنتُ أحتضنه وأداعبه.. ربما كان أحد جِراء الراعي، والحق.. إنّي لا أذكر شيئاً آخر عن تلك الفترة من حياتي المبكرة.

وكذا.. لا أذكر سِوَى النَّزْر عن الأيام الأولى بعد عودتي إلى مكة؛ أذكر -إذ دلفتُ إلى دار آل المغيرة المخزومي.. آنذاك- أنّه انتابني شعورٌ بالرهبة، وَجَف قلبي انبهاراً بذلك البيت الواسع الفخيم، وخشيتُ على نفسي من المُكْث فيه.. لولا الحنان الوافر والشوق الجارف الذي لقيتُه من أمي الحقيقية.
ولقد استغرقتُ زمناً -ليس بالقليل- لكي أُدرك أنَّ هذا البيت.. بيتي، وأنَّ هؤلاء الناس.. أهلي؛ فعمري –آنذاك- لم يكن تجاوز سنوات قليلة.

الحقيقة –التي أدركتُها بعد حين- أنَّ دار آل المغيرة المخزومي لم تكن بيتاً واحداً؛ وإنَّما كانت عدداً من الدور الواسعة المتراصَّة بجوار بعضها.. لها أفنيةٌ رَحْبةٌ، ثم يحيط بها وبأفنيتها سورٌ يزيد عُلُوُّه عن قامتين أو ثلاث قامات؛ فتبدو الدار.. كأنَّها قصرٌ مُشيَّد –بدورها وبيوتها وحجراتها وأفنيتها وسورها المُلتَفّ-.

أما الدار من داخلها.. فقد بُثَّ -في بيوتها وحجراتها- الأثاث الفاخر.. والفُرُش الوَثِيرة.. وبسطتْ على أرضها البُسُط اللينة.. وسُتِرت نوافذها بسجائف ناعمة.. وعُلِّقت على جدرانها النجود المزيّنة.. وتناثرت حولها –هنا وهناك- الطنافس والنمارق والزرابِيّ، وتزيَّنت أفنيتها بنخلاتٍ باسقات، وأُلحق بها حجرات العبيد والإماء، وحظائر الخيل والإبل والأغنام ومختلف الحيوانات، وكذا.. مخازن للأمتعة والغلال والبضائع والأموال.

أشدّ ما جذب انتباهي –في تلك الدار الواسعة- كثرة سكانها: بنو المغيرة وأبناؤهم وزوجاتهم، والخدم والعبيد والإماء الذين لا يَقِلّون عدداً عن الأحرار أصحاب الدار؛ تساءلتُ في خاطري الطفولي الساذج: "هل هؤلاء كلهم.. أهلي؟!! كيف سأتعرَّف عليهم؟! كيف سأعيش معهم؟!!".
غير أنّي سرعان ما تعايشتُ معهم.. واندمجتُ فيهم.. وسعدتُ بالمرح واللعب مع أطفالهم، وما أسرع أنْ أدركتُ أنّي فردٌ منهم.. فهم إخوتي وبنو عمومتي؛ بل.. إنني صغير شيخهم (**الوليد**) وسميه.. وذلك يرفعني عنهم درجة.

خلا أثاث الدار الفاره.. وسكانها من الأحرار والعبيد.. رأيتُ أشياءً أُخَر.. كانت مقدسة؛ أول ما أثار دهشتي منها: تمثالٌ من الصخر على هيئة إنسان.. وله ذراعٌ مكسورة، كان يتوسَّط الفناء الفسيح المواجه للوالج إلى الدار، ولاحظتُ أنَّ كل إنسان يهمُّ بالخروج من الدار.. يُعرِّج عليه –قبل خروجه- ويُطوِّف به ويُعظِّمه، وكذا.. العائد إلى الدار من خارجها.. يبدأ بالطواف به قبل أنْ يُسلِّم على أهله؛ تساءلتُ: "ما هذا؟!!".
أجابوني: "إنَّه.. صنمٌ للإله.. هُبَل!"، استفسرتُ: "ما الإله.. هبل؟؟!".

أجابوني: "هو إلهنا الذي نتبرَّك به.. ونطوف حوله.. فيمنحنا الخير والبركة.. ويدفع عنّا الشر!".

من الأشياء المقدسة –أيضاً- التي رأيتُها.. فأعجبتني.. كانا رمحان عظيمان مسندان على جدار ومُحرَّزان عن العَبَث بهما، وقعتْ عيني عليهما.. فراقني منظرهما.. ونَزَعتْ نفسي إلى اللعب بهما أو حتى لمسهما؛ لكن.. نهتني أمي.. هاتفةً بصوتٍ حاني: "إنَّهما رمحا عمك أبي ربيعة اللذان كان يقاتل بهما الأعداء في حرب الفجار، وإنَّ لمسهما محرمٌ عليك وعلى الأطفال أمثالك، ومثلهما.. شِكَّة [1] أبيك الوليد!"، استخبرتُها: "وما شِكَّة أَبِي.. هذه؟؟!"، جذبتني من ذراعي.. وانسلّتْ بي إلى حجرةٍ مغلقة، دخلناها.. ثم أوصدتْ بابها، ثم توجَّهتْ بي إلى خزانةٍ كبيرة.

قبل أنْ تفتح الخزانة.. نظرتْ إليَّ نظرة تحذير، ثم بنبرةٍ رهيبةٍ مريبةٍ اقشعر منها بدني.. همستْ تشترط عليَّ.. وكأنَّها تُسرِّني بسِرٍّ خطير: "سأجعلك تنظر إلى شِكَّة الوليد.. لكن لن تلمسها، ولن تراها -بعد الآن- إلى أنْ تكبر.. وتبلغ مبلغ الرجال!!".

أومأتُ برأسي أنِّي أقبل الشرط.. بينما عيناي تجحظان وجسدي يرتجف تَلهُّفاً إلى رؤية ذلك الكنز المقدس الذي لم يره غيري من أطفال الدار؛ فتحتْ أمي الخزانة.. فأبصرتُ: درعاً فضفاضة.. وسيفاً.. وبيضة [2]، ولم أعِ –وقتها- أهمية هذه الأشياء ولا سر قداستها؛ بيد أنَّ منظرها بهرني وأثار إعجابي، واعترتني رغبةٌ مُلِحّة في أنْ أبلغ مبلغ الرجال المحاربين لأمتلك شِكَّةً كشِكَّة الوليد.. ورمحاً كرمحي أبي ربيعة.

---

[1] : الشِّكَّة: ما يُحمَل أو يُلبَس من السلاح.

[2]: البيضة: هي خوذة فولاذية تلبس لوقاية رأس المحارب

على أنَّ أعظم شيءٍ قداسة –وأعتذر لأني نعتُّه بـ. شيء- رأيتُه في الدار.. كان شيخ الدار: **الوليد بن المغيرة**.. ذاته؛ شيخاً مهيباً.. طويلاً جسيماً.. لم تستطع السنون الطويلة التي عاشها أنْ تحني ظهره أو تكسر كبرياءه!!
يجلس في أُبهته وخيلائه.. ويلتف حوله مريدوه؛ فلا يقعد قائمٌ منهم بغير إذنه، ولا يغادر المجلسَ مُنصرِفٌ دون إشارةٍ منه، ولا يتكلَّم مُتكلِّمٌ إلا عن أمره، تخشع بين يديه الأصوات.. وتُغَضُّ الأبصار؛ فإذا تنحنح ليُحدِّثهم.. اشرأبتْ إليه الأعناق وتطلَّعتْ إليه العيون؛ الحق.. أنّي كنتُ أراه أكبر قداسةً من هُبَل الذي في فناء الدار، وكلما نظرتُ إليه.. أحسستُ أنَّه هو الإله.. لا هُبَل، ورغم أنّي كنتُ أُناديه: أَبتِ؛ إلا أنّي أشعر أنَّه أعظم من مجرد أب.

مضتْ بي الشهور؛ فازداد إدراكي.. وسمعتُ عن الكعبة التي بناها أبي وأعمامي.. وقومي مخزوم الذين صرتُ أخرج من دار المغيرة لألعب مع صبيانهم في حي مخزوم، ولفت انتباهي –ذات مرة- لفظة: (قريش.. التي شيَّدت الكعبة)؛ فاستنبأتُ أمي: "ما قريش؟! أليس مخزوم.. هم مَن شيَّدوا الكعبة؟!!".
ابتسمتْ.. وهمستْ بصوتٍ رؤوف: "قريش هي أم مخزوم.. كما أنَّ مخزوم هي أم آل المغيرة، وكلهم اشتركوا -معاً- في بناء الكعبة؛ لكنَّ أباك سيدهم وأوسعهم ثراءً.. لذا فقد تحمَّل -وحده- بناء ركن مِن أركان الكعبة الأربعة، ويكسوها وحده.. عاماً، وقريش –مجتمعة- تكسوها عاماً!!".
هتفتُ مُتوسِّلاً: "أود أنْ أشاهد الكعبة.. يا أمي!!؟".
قَبَّلتْ رأسي وربتتْ على كتفي، ووعدتني أنَّها ستستأذن لي الوليد.. لأذهب معها إلى الكعبة، ثم أغرتني.. هاتفةً: "وسأجعلك تدخلها لتشاهد باطنها، وتشاهد هُبَل العظيم أيضاً!!"، تعجَّبتُ متسائلاً: "هل هُبَل في داخلها؟! أليس هو ذاكِ الذي في فناء دارنا؟!!".

أجابتْ مُترفِّقةً بجهالتي: "الذي في فناء الدار صنمٌ نضاهي به هُبَل؛ أما هُبَل العظيم.. فهو في جوف الكعبة، وسأصطحبك معي كي تراه على حقيقته!!".

قضيتُ أيامي ولياليّ التالية في انتظارٍ وترقُّب.. مُتشوِّقاً أنْ تفي أمي بوعدها وتصحبني إلى الكعبة؛ وكلما سألتُها: "لِمَ التأخير؟؟ لماذا التلكُّأ؟!"، أفادتْ باقتضاب: "لم يأذن أبوك.. بعدُ!"، ثم جاء اليوم الموعود.. وأخبرتني أنَّ الوليد أذن، وأنني سأذهب معها باكراً إلى الكعبة؛ والحق.. لم أستطع النوم ليلتها.. من فَرْط شغفي وفرحتي.

في ضحى اليوم التالي ألبستني أمي أفضل ثيابي.. وبالغتْ في تحسين هيئتي، ثم صحبتني –ومعها أَمَتان من إمائها- إلى صحن الكعبة؛ بناءٌ شامخٌ.. يتجلّى للرائي من بعيد، وإذا اقتربتَ منه.. تأخذك الرهبة والجلال؛ هذا ما شعرتُ به.. في أول مرة وقع عليها بصري، أمسكتْ أمي بيدي.. وطافتْ بي مع الطائفين حول البناء، وتمتمتْ بكلماتٍ لم أفهمها، ثم أمرتْ الجاريتين بالمُكْث.. وأخذتني إلى حيث ينتظرنا رجلٌ وقور، علمتُ بعدها أنَّه مِن بني عبد الدار.. وهم السدنة الذين يمسكون بمغاليق الكعبة.

فتح لنا الرجلُ العبدري بابَ الكعبة، ساعدتني أمي حتى صعدتُ بضعة درجات عالية، ثم ولجنا إلى جوفها، غَدَوتُ أتلفَّت باندهاشٍ وإعجاب، وأتطلَّع إلى التصاوير المعلَّقة على الجُدُر؛ على أنّي لم أفهمها، ثم التفتُّ.. فأبصرتُ صنماً ضخماً منحوت من صخرٍ أحمر –عَرفتُ بعدها أنَّه العقيق- على شكل إنسان وله ذراعٌ من ذهب.. يقف على شفير جُبٍّ في جوف الكعبة؟! وَجِلتُ منه.. وتشبَّثتُ بأمي، همستُ في أُذنها: "ما هذا.. يا أماه؟؟"، أجابتْ: "هذا الإله العظيم: **هُبَل**.. أعظم آلهة العرب!".

انسللنا من جوف الكعبة.. ومشينا عائدين إلى دار المغيرة، وفيما نمرُق في طريقنا.. لاحظتُ أصناماً كثيرة –لا يمكنني إحصاء عددها- مُتبعثرة حول الكعبة؛ تساءلتُ في خاطري باستعظام: "هل هذه كلها.. آلهةٌ؟! لستُ أدري: لماذا نعبد كل هؤلاء؟!!".

تكرَّرتْ زياراتي للكعبة، بيد أنَّ شعوري تجاهها -في الزيارات التالية- لم يكن بذات الرهبة والروعة التي كانت في الأولى، وحينما كنتُ ألج إلى جوفها.. كنتُ أتأمَّل هُبَل العظيم ملياً.. وأتساءل في دخيلتي: "لماذا هُبَل الذي في فناء دارنا مكسور الذراع.. بينما هُبَل العظيم –الذي هنا- ذراعه من ذهب؟؟!".

تجاسرتُ –ذات مرة- وسألتُ أحد كبار دارنا؛ فتبسَّم وأجابني: "في قديم الزمان عندما أتوا بهُبَل العظيم إلى مكة.. كانت ذراعه اليُمنى مكسورة، وأحب أحد أجدادنا الكبار أنْ يَتَّخذ تمثالاً لهُبَل في بيته؛ فصنع هذا الذي تراه في فناء الدار مثيلاً له.. مكسور الذراع، ثم بعدها بزمن.. أحبتْ قريش أنْ تجبر كسر ذراع هُبَل الأصيل الذي في جوف الكعبة؛ فصنعتْ له ذراعاً مِن ذهب!!".

تمتْ إجابة سؤالي.. وكانتْ مرضيةً لفضولي، والحق أنّي لم أهتم: "لماذا جاء هُبَل إلى مكة؟ ومَن هم الذين جاءوا به؟ وهل يجوز أنْ نتبرَّك بصورةٍ له كالتي في فناء دارنا.. دون أنْ يغضب منا؟!! وهل الإله ذو الذراع المكسورة.. هو الذي يهبنا الخير والنماء.. ويمنع عنّا الشر والبلاء؟!! كيف.. وهو لم يستطع أنْ يمنع ذراعه أنْ تُكسَر؟!!"، أقول أنَّ هذه التساؤلات الحائرة وأمثالها لم تخطر على عقلي؛ والحق أنّي لم اكترث لها حينما أثارها **عَيَّاش** في ذهني.

مَن عَيَّاش؟؟ إنَّه ابن عمي أبي ربيعة.. صاحب الرمحين، هو أقرب إخوتي لي في المودة.. والسِّنِّ أيضاً فهو يكبرني بأعوامٍ قليلة، وأقول: أقرب إخوتي.. لأني أحسّ –حقيقةً- أنَّه أخي.. وليس ابن عمي.

- ٨ -

لا جرم كانت طفولتي.. سعيدة؛ أمنٌ وأمان.. وطعامٌ شهي وحلوى لذيذة.. ثيابٌ جديدة وألعابٌ مُسلِّية.. ولهوٌ.. ولعبٌ مع الأتراب والأقران: عياش.. وغيره، أضف إلى ذلك.. حفلات السمر والأعراس؛ ولقد كانت أعراس مخزوم -ولا سيما أعراس آل المغيرة- أعظم أفراح قريش وأشدَّها بهجةً.. وأكثرها سخاءً.

قطعاً.. لم أشهد زفاف أختيي: فاطمة وفاختة إلى ابني عمي هشام: الحارث والعاص؛ غير أنّي كنتُ ألعب مع أم حكيم بنت فاطمة والحارث.. وهي صبية؛ فهي قرينتي في السِّنِّ.. رغم أنّي خالها، على أني كنتُ فَتىً يافعاً إبان زفافها إلى ابن عمها: عكرمة بن أبي الحكم [1] بن هشام؛ (وليس كفءٌ لإم حكيم.. خيراً من عكرمة!): كما قال أخي خالد [2]، ولقد كان أخواي –خالد وهشام- وعكرمة.. أقراناً، ويكبروننا –أناوعيّاش.. وأم حكيم- ببضع سنوات.

[1] : اسمه: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، وهو أبو جهل –بعد ذلك- عدو الإسلام، وهو ابن عم الراوي.

[2] : هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي.. سيف الله المسلول.. بعد ذلك.

ومن أعظم حفلات الأعراس التي شهدتُها: كانا عرسان عظيمان لامرأتين مِن بنات المغيرة.. زوَّجناهما خارج دار المغيرة.

أما العرس الأول: فكان زفاف (قريبة الصغرى) ابنة عمنا أبي أمية –زاد الركب- إلى عمر [1] بن الخطاب.. سيد بني عدي وعزيزهم، وعمر.. ليس غريباً عنّا؛ فهو ابن عمتنا: حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، وكان عمر شاباً وسيماً في عينيه حور.. وكان طوالاً جسيماً.. شديد البأس، وكان –على حداثة سِنّه- جباراً من جبابرة قريش، وفارساً مغواراً.. إذا وثب على فرسه فكأنَّما خُلِق على ظهره، ولفرط شجاعته وبأسه.. لقَّبوه: أبا حَفْص.. وهي كنية الأسد، ولم أعلم أحداً يُدانيه في شيءٍ من هذا.. سِوَى أخي خالد؛ على أنَّ خالد.. أصغر منه بسنوات.
لقد كان زفاف قريبة إلى عمر.. احتفالاً كبيراً فخيماً، استمر أياماً وليالي.. عَرفتُ خلالها فتياناً من بني عدي -قوم عمر- منهم: سعيد [2] بن زيد العدوي؛ هو فتى يكبرنا بأعوام، أصبح –بعد ذلك- صديقاً مُقرَّباً لعيّاش ابن عمي.

أما العرس الثاني: فكان زفاف هند [3] بنت عمنا زاد الركب.. إلى عبد الله [33] بن عبد الأسد بن هلال المخزومي؛ وهلال المخزومي.. هو أخو جدنا المغيرة.

---

[1] : هو الصحابي الجليل.. وفاروق أمة الإسلام.. وأمير المؤمنين.. بعد ذلك.

[2] : هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.. ابن عم عمر وزوج أخته فاطمة، وفيما بعد كان هو وزوجته من السابقين الأولين في الإسلام، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وأبوه هو زيد بن عمرو.. المشهور بحنيفيته واتباعه لدين إبراهيم، وكان يعيب على قريش عبادتها للأصنام؛ وكان أخوه الخطاب يؤذيه ويُعذِّبه على ذلك، ومات قبل بعثة النبي ﷺ ببضع سنين.

[3] : هند بنت أبي أمية: هي السيدة أم سلمة؛ زوجة النبي محمد ﷺ وأم المؤمنين بعد ذلك بزمن.

[33] : هو أبو سلمة المخزومي: الصحابي الجليل فيما بعد، وكان أخو النبي محمد في الرضاعة.. فضلاً عن أنه ابن عمته: برة بنت عبد المطلب، بعد أنْ مات عن أم سلمة.. تزوجها النبي ﷺ.

كان ذاك العرس من أعظم حفلات مخزوم.. واستمر ليالي وأياماً؛ شَهِده أقوامٌ وعشائر من قريش.. من غير مخزوم، رأيتُ منهم.. سيد بني هاشم بن عبد مناف: أبا طالب بن عبد المطلب؛ فهو خال العَريس عبد الله، ورأيتُ -أيضاً- فلذات أكباد بني هاشم: العباس بن عبد المطلب.. ومحمد.. وحمزة!
ولقد كان محمدٌ.. أوجه رجال قريش.. حقاً، وحمزة.. كان أعزّ رجالها.

الحياة يومان: يوم فرح.. ويوم ترح.. ولن تنتهي الأيام!؟
فكما كانت لنا أيام أفراح؛ فلا محيد عن أنْ تداهمنا الأتراح، فما برحتْ الأحزان تعصف بنا؛ سلبتنا المنايا.. أعمامي: أبا أمية.. فأبا حذيفة، ثم.. أبا ربيعة.

ابتأستُ كثيراً لموت عمي أبي أمية؛ لا –كما يظنون- لفراقه أو ذهابه بغير رجعة، وإنَّما إشفاقاً على أختي: هند.. لِما لمستُه من شدة حزنها وجزعها على أبيها، ولا غرو في هذا؛ فإنَّ هند هي أحب بنات أعمامي إليّ.. وأقربهم إلى قلبي؛ هي لي بمثابة الأخت الكبرى، ونعم الأخت كانتْ.. في حُنُوِّها وحدبها عليّ، ولا أبالغ.. إنْ قلتُ أنَّ محبتها لي لا تقل عن محبة أمي ذاتها؛ فلا غرو –إذاً- إنْ جزعتُ لجزعها.. وابتأستُ لاغتمامها.

بيد أنّي –في تلك الأثناء- شاهدتُ عجباً؛ شاهدتُ امرأةً شمطاء[1] من خادمات الدار تجزع –مثلي- لجزع هند، بل.. كانت أشدّ جزعاً مني، وكانت تهرع إلى هند.. تحدب عليها وتُسكِّن ألمها وتفجُّعها، والأعجب: أنَّ هند كانت لا تسكن إلا إلى هذه الشمطاء ذات الأسمال البالية، ولا يهدأ جزعها.. إلا في أحضانها؟!!
بل.. سمعتُ هند –ذات مرة- تناديها: (يا.. أمي!!).. ؟!!

---

[1] : الشمطاء: التي اختلط بياض المشيب بسواد شعرها.

"مَن هذه الخادمة الشمطاء.. ذات الأسمال البالية؟؟!": سألتُ أحدَهم؛ ولعلّي استخبرتُ عنها غَيْرةً منها لـقُربها –الذي لاحظتُه- من أختي المُحبَّبة إلى قلبي، فعلمتُ أنَّها: أم عَمّار[1]، زوجة ياسر[2] بن عامر العنسي.. حليف عمي أبي حذيفة، وقد كانتْ أَمَةً مملوكة لأبي حذيفة؛ فأهداها إلى ياسر.. فأعتقها وتَزوَّجها وأنجبتْ له عمار؛ هي وزوجها وولدها مِن موالي بني المغيرة.. وهم كُثُر.

"لكن.. ما بال هند.. تناديها: أمي؟!!"، "تجبر خاطرها.. فهي أمها التي أرضعتها!!": الآن.. فهمتُ: لماذا تنازعني هذه السمراء الشمطاء قلب أختي المحبوبة.

في مأتم عمي أبي حذيفة.. رأيتُ أم عمار؛ وقد كانت شديدة الجزع والتفجُّع على عمي، ما انفكتْ تُعدِّد محاسنه.. وأياديه السخية عليها وعلى زوجها وولدها، ومكثتْ على ذلك أياماً.. حتى بُحَّ صوتها، وظنّناها ستنقطع روحها مِن النحيب، قلتُ في نفسي: (هذه امرأةٌ وفيةٌ؛ لا يفتقد أهلُ المعروف معروفَهم عندها.. وكذلك زوجها وولدها!).

وفاة عمي أبي ربيعة.. كانتْ الفاجعة الكبرى والمصيبة العظمى لدار آل المغيرة عامة.. ولأخي وخليلي ورفيق دربي: **عيّاش**.. خاصةً، همس.. وكلماته يخنقها النشيج: "ليستْ مصيبةٌ –يا وليد- أعظم مِن فقد أبٍ.. كذي الرمحين!".
أجبتُه: "صدقتَ.. يا أخي!!"، وما استطعتُ أنْ أملك دموعي، وما استطعتُ أنْ أمسح دموعه المسفوحة؛ لكن أم عمار.. استطاعتْ مسحها.

---

[1] : هي.. السيدة سمية بنت خياط، وبعد ذلك.. أصبحت صحابية جليلة.. مِن السابقين للاسلام.. هي وزوجها ياسر العنسي.. وولدهما عمار.

[2] : هو الصحابي السابق للإسلام.. فيما بعد: ياسر بن عامر بن مالك العنسي.

وما لبثتْ أنْ خَفَّفتْ عنه جزعه، وغمرتْه بحنانٍ فاق حنان أمه: "أنعم بك من امرأةٍ عطوف.. يا أم عمار!".

ما فتيء عياش يزورها في كوخ زوجها.. فيأنس بها وبحنانها؛ لأنَّ أمه –بعد وفاة أبيه- انشغلتْ عنه بأموالها وتجارتها، كان يستمع –بإصغاء- إلى أساطير وحكايات الأقدمين اللاتي يقُصُّها عليه زوجها؛ فيطرب ويبتهج، شرعتُ أتردّد معه إلى بيتهما، وأَنِستُ لهما، وانقلب ما كنتُ أحمله لهما من ازدراءٍ.. إلى احترامٍ ومودة.

أما أم عيّاش.. فهي: أسماء بنت مخربة النهشلية.. من قبيلة بني تميم، كانتْ امرأةً جميلةً عاقلةً قوية الشكيمة.. تزوَّجها عمي هشام؛ فولدتْ له: عمرو بن هشام (والد عكرمة).. والحارث بن هشام (والد أم حكيم).
كان هشام شديد الإعجاب بعقلها وعلمها وحسن درايتها بالتجارة.. حتى أنَّه وهبها مالاً لتُتاجر به لنفسها؛ فتاجرتْ في العطور اليمنية، وتكسَّبتْ الكثير من تجارتها وضاعفتْ أموالها، ثم مات عنها هشام، وأعرض الوليد عن الزواج منها.. تَوَقِّياً مِن قوة شكيمتها وحسن درايتها بأمور التجارة، فتزوَّجها عمي أبو ربيعة، وأنجبتْ له: بجير.. وعيّاش، وكانت تُكنَّى: أم عمرو.

ذات مساء.. جاءتْ أم عمرو إلى **أَبِي** تبكي.. وتقول: "أيا أبا المغيرة.. يا ريحانة قريش! أطال الله بقاءك، وأبعدتْ عنك الآلهةُ.. المنايا! هلك هشام.. وهلك أبو ربيعة؛ فمَن لأولادي سِوَاك، ومَن لآل المغيرة.. إلاك! أطال الله عمرك.. يا شيخ مخزوم!!"، فطن الوليد لمغزى كلماتها، ما كان لمثل الوليد بن المغيرة.. ألا يدرك ما ترمي إليه امرأةٌ أريبةٌ.. كأسماء النهشلية: (إنَّها تُعَرِّض بكبر سنه.. ودُنُوِّ أجله؛ كأنَّها تقول: الموت.. أوشك قريباً منك.. يا سيد قومك!).

فطن لمأربها؛ أراد أنْ يختصر عليها الكلام.. فهتف: "صرِّحي بما تريدين.. يا أم عمرو.. خلاك ذم!!"؛ فانبعثتْ تسترسل في حديثٍ أعدّتْه آنفاً: "أما آنَ الوقت لسدِّ الثغرات اللواتي أصبنَّ دار الندوة بموت إخوتك: أبي ربيعة.. وأبي حذيفة.. وأبي أمية؟؟ ألا ترى أنَّ عمرو.. ابن أخيك هشام.. لائقٌ بسدِّ ثغرةٍ من أُولاء؟؟!"، تساءل مُستعظِماً: "تحبين أنْ يدخل ولدك عمرو.. دار ندوة قريش؟!".

أجابتْ بافتخارٍ وأنفة: "وما يعيبه؟!! إنَّه ابن هشام بن المغيرة المخزومي، وأعمامه: ذو الرمحين.. والوليد؛ هل رجلٌ في قريش أجدر بها منه؟!!".

اعترض عليها.. لكن بنبرةٍ رفيقة: "إنَّه خليقٌ بها؛ لكنَّه أحدث سِنّاً مِن أنْ يُلحَق بدار الندوة، وإنَّك تعلمين أنَّها لا يدخلها –من غير بني قصي بن كلاب- إلا من تجاوزتْ سِنُّه الأربعين!"، احتجتْ عليه هاتفة: "يا سيد مكة! ألم تُدخِلوا إليها حكيم[1] بن حزام.. وهو ابن خمس عشرة سنة؟؟!".

"يا أم عمرو! أدخلناه تبرُّكاً لأنَّه مولودٌ في جوف الكعبة؛ فضلاً عن أنَّ أبويه كليهما من بني قصي!"، أجابته بنبرة تودُّد واستعطاف: "يا ريحانة قريش.. وصلتك رحم! ألا تُحسِن إلى ابن أخيك؟! ألا تصل به عيال هشام وأبي ربيعة؟!!"، وما برحتْ تُجادله وتُلِحُّ عليه في الرجاء، وتتوسَّل إليه.. إلى أنْ أذعن لها ووعدها بإقناع أرباب دار الندوة بقبول ابنها.. رغم حداثة سِنّه التي لم تتجاوز الثلاثين.

دخل عمرو بن هشام دار الندوة.. بعد أنْ أقنع **أَبي** ملأ قريش باستثنائه من شرط السِّنّ.. لحكمته وجودة رأيه وحسن تدبيره، فقبلوه نزولاً على رغبة شيخ مكة.. ولقَّبوه: أبا الحكم؛ فأصبح اسمه مِن آنذاك: أبا الحكم عمرو بن هشام،

---

[1] هو: حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وأمه –أيضاً- من بني عبد العزى بن قصي؛ كانت تطوف بالكعبة وهي حبلى فيه.. فجاءها المخاض وولدته في جوف الكعبة، وحدث ذلك قبل عام الفيل بحوالي عشر سنين، عمته هي: أم المؤمنين.. خديجة بنت خويلد.

كان أبو الحكم رجلاً طويل القامة.. عريض المنكبين.. مفتول العضلات.. كبير الرأس.. حاد الملامح.. غزير الشعر.. حنطي البشرة.. جهوري الصوت، وأشبه الناس به.. كان ولده: عكرمة؛ بيد أنَّ عكرمة ألين منه عريكة.

- ٩ -

لـمَّا انتبه عقلي.. وبلغتُ سِنّ التمييز؛ ابتدروني بتعلُّم القراءة والكتابة والحساب وتاريخ قريش.. وأنساب العرب.. كدأب آل المغيرة مع صبيانهم: "نحن تُجَّارٌ.. وتجارتنا كبيرة.. وأموالنا كثيرة؛ فلا محيص من تعلُّم هذه الفنون.. حرصاً على أموالنا وتجارتنا!".

لَـمَّا شَبَبْتُ عن الطوق.. كُلِّفتُ بأول وظيفةٍ في حياتي؛ وكم كانت فرحتي بها شديدةً، واهتمامي بالنجاح فيها.. كان أشدَّ.
كُلِّفتُ أنْ أتَوَجَّه مع أخوتي -وأبناء عمومتي ورجال الوليد- إلى مِنَى في موسم الحج.. لنُشرِف على إطعام الحجيج؛ ومِنَى.. وادٍ بين الجبال يقع إلى الشرق من مكة.. يمكث به الحُجاج –وهم أناسٌ كثيرون جاءوا مِن شتى بلاد العرب- ثلاثة أيام بعد أنْ يقفوا بعرفة اتماماً للنسك.. كما كان يفعل الآباء والأجداد، ويقولون: إنَّ هذا هو دين إبراهيم.

لبثتُ في مِنَى –مع أخوتي وعبيد أبي- ثلاثة أيام.. لم أنعم فيهن بنومٍ إلا غرارا، كان منادي أبي ينادي في الحجيج: "أَلَا.. لَا يُوقِدَنَّ أَحَدٌ تَحْتَ بُرْمَةٍ، أَلَا.. لَا يُدَخِّنَنَّ أَحَدٌ

بِكُرَاعٍ، أَلَا.. وَمَنْ أَرَادَ الْحَيْسَ فَلْيَأْتِ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ!!"؛ (والحَيْس: هو طعامٌ لذيذ نصنعه من التمر والأقط والسمن)، فنستمر –طيلة أيام الحج- نذبح الجزائر.. ونصنع الحَيْس.. ونطبخ الثريد، ونُقدِّم الطعام للحجاج حتى ينتهي الموسم؛ والناس يثنون على بني المغيرة والوليد، ويمدحون سخاءه وحسن ضيافته لأهل الموسم؛ وعلمتُ أنَّ النفقة التي ننفقها على الحجة الواحدة.. تتجاوز العشرين ألفاً.
ورغم أنَّ الرفادة لبني هاشم.. إلا أنَّهم لا يعترضون على فعل أَبِي؛ بل يُعاوننا بعضُهم في العمل.

اشتدَّ عُودي؛ فألزمني الوليد بتعلُّم ركوب الخيل.. والرماية.. والمقارعة بالسيف، وأوصى إخوتي بحُسن تعليمي والاهتمام بتدريبي، انخرطتُ في ساحات التدريب على الفروسية والرماية.. مثلي كمثل أقراني من فتيان آل المغيرة وبني مخزوم.

اغتبطتُ –في البدء- لأني بلغتُ مبلغ الرجال.. وأني أتدرَّب مع الكبار لأكون فارساً مثل عمي أبي ربيعة؛ على أنّي ينبغي أنْ أعترف أنَّها كانتْ تدريبات شاقة مضنية، وفي بعض الأحاين.. كنتُ أتضجَّر وأنفر منها؛ ولولا خوفي من عقاب أبي الحكم بن هشام الرادع.. لكنتُ انصرفتُ عنها.
لكنَّها حُبِّبت إليَّ.. بعد حين؛ فأقبلتُ عليها بحماسٍ وشغف، وسبقتُ فيها كثيراً من أترابي، وأشهد أنَّ الفضل في تشجيعي وإغرائي بالنبوغ في فنون الفروسية.. يرجع إلى أخي: خالد.
أخي خالد: فتى فتيان مخزوم.. لا جدال، وفارسهم الذي لا يُشقّ له غبار، وأحسبه –حينما تواتيه الفرصة- سيكون قائد جيش قريش.. وصاحب قُبَّتها وأَعِنَّتها، القُبَّة والأَعِنَّة التي وكلتْها قريش لبني مخزوم؛ فكانت لهشام بن المغيرة، وبعد أنْ هلك هشام.. وكلها أَبِي إلى ذي الرمحين، ثم وَكلها –بعده- إلى أبي الحكم.

ولا أُنكر أنَّ أبا الحكم اجتهد أيما إجتهاد ليُعِدَّ جيشَ قريش وفرسانها أحسن إعداد، وأنَّه تعهَّد بأنْ يُجهِّز جنودها بأفضل سلاح؛ فصدق وعده.
ولا غَرْو أنْ يخصّ أبو الحكم.. بني مخزوم –ولا سيما فتيان آل المغيرة- بأعظم اهتمامه؛ لتبقى عشيرته –دائماً- هم خيرة فرسان قريش.. وأجدرها بحيازة القُبَّة وقيادة الأعِنَّة.
كان يُنظِّم لنا.. المنافسات في ركوب الخيل والرماية والمصارعة، ويَهَب الفائزين جوائز ثمينة، وأُقِرُّ له بإجادته إغراء فرسان قريش وأبطالها الكبار.. بشهود التدريبات والسباقات، بل.. والمشاركة في بعضها.

ولقد شاهدتُ أخي خالد.. وهو يحصد جوائز تلك المنافسات، لا يكاد يدانيه أحدٌ -من بني مخزوم- سِوَى عكرمة، وإنْ لحق بهما أحدٌ -مِن قريش-.. فهو عمرو بن العاص السهمي.. على قِصَر قامته.
وإنْ شارك عمر بن الخطاب.. فتكون سجالاً بينه وبين خالد، أما إذا حضر بنو هاشم بن عبد مناف؛ فإنَّ المنافسات تشتدّ.. ويكون يوم عسير على منافسيهم، وإنْ حضر معهم حمزة؛ فلا يثبت له أحدٌ.. ولا حتى خالد!!

على أنَّ خالد.. هو أكثر مَن أثار إعجابي –هو مَن زيَّن ليّ الفروسية- حتى أنّي اتَّخذتُه قدوةً لي.. وتَأسَّيتُ به في كل شؤوني، تراه شاباً طويلاً بائن الطول.. واسع الصدر.. قوي البِنْية والعضلات.. شديد البأس.. مهيب الطلعة، ومحارباً سريع الحركة.. مُتوَقِّد الذِّهن.. واسع الحيلة والدراية المبكرة بفنون الفروسية والمصارعة؛ حتى أنَّه يصرعِ مَن يفوقونه في السِّنّ والجسم.
وأشبه الناس به –في هذا- عمر بن الخطاب؛ بيد أنَّ عمر أسنّ منه.. وأهيب منه.

ما اكتفى خالد بالتدريبات التي نتمرَّس عليها في شِعاب مخزوم.. أو في ظاهر مكة؛ بل أراد الاستزادة.. فدأب على الخروج إلى الصحراء والتجوُّل فيها –وحده- أياماً وليالٍ.. يوطِّن نفسه على شظف العيش والجوع والعطش وحياة الجندية القاسية.. ومواجهة الوحوش في البَرِّيَّة وقتالها واصطيادها، ولا يقف عند هذا الحد.. بل يجوب قبائل العرب وبلادهم ليتعرَّف على كيفية قتالهم وتاريخ حروبهم وخطط معاركهم.. وحيلهم في خداع أعدائهم؛ وحينما سمع بما حدث في ذي قار وهزيمة الفرس أمام العرب.. رحل إلى هناك ليُعاين أرض المعركة.. ويسمع مِمَن شهدها تفاصيل المعارك وأحداثها.

زُبْدَة القول: كان خالد يؤهِّل نفسه لإمارة جيش مكة.. وهو حريٌّ بها.

- ١٠ -

مفاخر أَبِي –الوليد بن المغيرة- على قريش.. كثيرةٌ، غير أنَّ أعظم ما يفخر به على ملأ قريش: أنَّه ذو مالٍ ممدود وبنين شهود؛ أجل.. كان أخوتي وبنو عمومتي فتياناً ورجالاً أشداء ذوي سطوةٍ وبأس.. يشهدون معه مجالسه في نوادي القوم، يقومون وراءه بقُدود ممشوقة وعضلاتٍ مفتولة وسيوفٍ مشهورة.. يتبعون قوله.. ولا يخالفون عن أمره.

وكان ماله مدوداً.. في مكة والطائف: أموال وأنعام تسيل في أودية مكة، وفي الطائف.. جنات وحدائق تؤتي ثمارها صيفاً وشتاءً؛ لذا لُقِّب: (عظيم القريتين).

وحسبه ما له من ربا فاحش -لدى شتى قبائل تهامة- تأتيه أرياعه ليلاً ونهاراً.

بعدما كبرتْ سنه.. لم يعد أَبِي يحتمل لفحات صيف مكة؛ فحبذ أنْ يأوي إلى جناته في الطائف.. أثناء شهوره الهاجرة، واعتاد اصطحاب بعض أهله معه.

ذات أُمسيَة -بُعيد ما رجعتُ معه أنا وأمي من الطائف- اتكئ في مجلسه مُجتَمِعاً مع رجال الدار ليستمع إلى أحداث مكة التي جرتْ في غيابه وليعلم أخبارها.. وجلستُ معهم، هتف أبو الحكم: "لقد حدث أمرٌ جلل.. يا عم! واللات.. ليُعَيَّب به بنو عبد المطلب وبنو هاشم وبنو عبد مناف.. أبدا!!".
تساءل الوليد مُتشغِّفاً: "وما ذاك.. يا ابن أخي؟؟!"، أجابه.. بصوتٍ ضحوك: "منذ أيامٍ.. قام محمد بن عبد الله.. على جبل الصفا.."؛ قاطعه مُستوضِحاً: "ابن عبد المطلب بن هاشم؟؟!"، فأجابه: "أجل!!".

ثم استأنف مُسترسِلا: "ارتقى أعلى صخرةٍ في الصفا، ثم جعل يُنادي: "يا صباحاه.. يا صباحاه!".. فتعجَّب الناس واجتمعوا حوله مُستفِهمين: "ما هذا؟؟"، فقال لهم: "إنْ أخبرتُكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل.. تريد أنْ تغير عليكم؛ أكنتم مُصدقِيّ؟!"؛ فقالوا: "ما جرَّبنا عليك كذباً!"؛ فقال هاتفاً: "يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله؛ أنقذوا أنفسكم من النار؛ فإني لا أُغني عنكم من الله شيئاً، إني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، إنَّما مثلي ومثلكم.. كمثل رجلٍ رأى العدو.. فانطلق يَرْبَأ أهله؛ فخشي أنْ يسبقوه.. فجعل ينادي: يا صباحاه!".. والناس يستمعون.. مندهشون!!".
تساءل الوليد مُستعجِباً مُشمئزاً: "ما هذا؟! ما الذي يقصده.. بهذا الهراء؟؟!".
"يزعم أنَّ الناس سيبعثون بعدما يموتون، ثم يحشرون إلى الإله الأعظم.. فيُدخِل مسيئهم ناراً، وأنَّ الله أرسله إلى الناس نذيرا!!؟".

تساءل أبي مُستنكِراً: "هل يتفوَّه محمدٌ الأمين الرشيد.. بمثل هذه الخرافات؟!!"، فصاح العاص.. ابن عمي هشام: "لقد جُنَّ الرجل.. يا عم!".

"صدقتَ.. واللات! لا يهذي بهذه الحماقة إلا مجنون! لكن ألم يَكُفّه قومه؟؟"، أجابه أبو الحكم: "بلى! صاح فيه عمه أبو لهب.. مُوبِّخاً: "تباً لك سائر اليوم! أ لهذا جمعتنا؟!!".. واستهزأ به؛ وسخر منه الناس وانفضوا من حوله!".

خفتوا هنيهة.. قبل أنْ يستطرد الحارث –أخوهما- بشيءٍ من التردُّد: "لكن.. أبو طالب قال له: "يا ابن أخي! امض لما أُمرتَ به؛ فوالله.. لا نزال نحوطك ونمنعك ما بقينا"؛ فامتنع بعمه أبي طالب.. مِن الناس!؟".
امتعض أبي وسأل مُتأفِّفاً: "هل صَدَّقه أبو طالب.. ووافقه على هذيانه هذا؟؟!"، فأجاب الحارث: "كلا! بل.. قال مُجاهِراً: "إنَّ نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب!" .. !!".
ضرب أبي يده في الهواء.. وهتف: "محمدٌ يدعو إلى دينٍ جديدٍ.. إذاً!!؟"، ثم وجم.. و وجمتُ.. و وجم جلساؤه مُترقِّبين رأيه في المسألة.

ثم قطع العاص الوجوم.. هاتفاً: "تعلم –يا عماه- أنّي نديمٌ لأبي لهب، سمرتُ معه –ذات ليلة- وعاتبتُه قائلاً: "يا أبا عتبة! ما هذه السخافات التي يَهذِي بها ابن أخيك؟؟ وما بال أبو طالب شجَّعه على ما قال.. أمام الناس؟!!".. فأجابني بحسرة وخجل: "واللات والعزى.. كنّا نتوسَّم فيه الرشد والكياسة؛ لكن.. –يا حسرتاه- قد أصابه ما أصابه!!'، فقلتُ: "ألا تأخذون على يديه –يا رجل- قبل أنْ يُسفِّهكم الناسُ.. ويسخروا منكم؟؟!"؛ فصاح والحنق يجحظ في عينيه: "قد قلتُها لأبي طالب.. إذ جمع هذا السفيهُ بني عبد المطلب وبني هاشم في صعيدٍ واحد ليقول لهم مثل الذي زعق به فوق الصفا، قلتُ له وللمجتمعين عنده:

هذه والله هي السوأة.. خذوا على يديه قبل أنْ يأخذ غيركم؛ فنهرني أبو طالب وأخرسني.. صائحاً: والله.. لنمنعه ما بقينا!!؟" ..!".

ثم قال أبو الحكم: "لم يَكُفْ محمدٌ –بعدها- عن التعرُّض لملأ قريش؛ بل ظَلَّ يغدو إلى كل عشيرةٍ في ناديهم.. ويقول: "يا معشر بني عبد مناف، يا بني كعب بن لؤي، يا بني.. فلان! أنقذوا أنفسكم مِن النار؛ فإنّي لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً" .. وما زال يهذي بهذا الهراء في منتديات قريش.. حتى سَئِمه الناس!!".

تساءل أَبِي.. والاندهاش لم يزايل وجهه: "وهل صدَّقه أحدٌ.. فيما يقول؟؟".

هتف الحارث: "أبو بكر بن أبي قحافة التيمي.. يقول: "أُصدِّقه! وآمنتُ به رسولاً مِن عند الله".. !"، وأضاف أخوه العاص: "بل.. تجاوز أبو بكر الحد؛ وقام عند الكعبة في الناس خطيباً.. يدعوهم إلى تصديق محمدٍ واتباع دينه!!".

هتف أَبِي جَزِعاً: "ويحكم!! هل سكتم عنه؟؟ وماذا فعل الناس؟!!"، استأنف العاص مُتفكِّهاً: "واللات والعزى.. ما سكتنا عنه، بل.. فعلنا مايسرك؛ قمنا إليه.. وما برحنا نضربه ضرباً شديداً.. حتى كدنا نقتله، ومعنا عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين على وجهه.. حتى تورَّم وجهه، ثم جاء قومه بنو تيم.. فاستنقذوه مِن أيدينا!!".

تفكَّر أَبِي.. هنيهة، ثم قال.. مُعقِّباً: "إذاً.. عتبة لا يرضى عما يقوله محمدٌ!!؟ ذروه لعتبة بن ربيعة –إذاً- يكفنا إياه.. كما كفانا الخطابُ بن نفيل.. زيدَ[1] ابن أخيه!".

---

[1]: هو: زيد بن عمرو بن نفيل، أحد حنفاء قريش المشهورين قبل الإسلام، كان ينبذ عبادة الأصنام وينهى قريش عن عبادتها ويقول: يا معشر قريش.. والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحدٌ منكم على =

توالتْ الأيام.. وما انفك محمدٌ يتعرَّض لـقريش في مجالسهم ونواديهم.. يدعوهم إلى تصديق مزاعمه.. والإيمان بأنّه رسولٌ بعثه الله إلى الناس كافة، وينذرهم –إنْ لم يؤمنوا له- بعذابٍ أليم بعد الموت.

لم يَأبَه أَبِي له في بداية أمره.. وقال: "ذروه لبني عبد مناف يكفونا إياه؛ ولا تعادوا أبا طالب لأجل رجلٍ أصابه الجنون!"، لكن رويداً.. رويداً.. تكشَّفتْ وقائع مُقلِقة؛ أعلن صهيب الرومي –مولى بني تيم- أنَّه يؤمن بما يؤمن به أبو بكر، وبلال بن رباح -عبد بني جمح- لم يستحِ أنْ يجهر بها في وجه سيده أمية بن خلف الجمحي، وخباب بن الأرت –غلام أم أنمار الخزاعية- حليف بني زهرة.. وكذا المقداد[1] بن الأسود -حليف الأسود بن عبد يغوث الزهري-.. أظهرا الإيمان بمزاعم محمد.

ثم كانت الدَّاهية ذات أصبوحة.. إذ أتتْ أم عمار إلى أم عمرو -ونساء الدار جلوسٌ معها- لـتشتكي لها ابنها أبا الحكم.. أنَّه ضرب ولدها عمار.. حتى أدماه وشَجَّ رأسه؛ اندهشتْ أم عمرو واندهشتْ النساء.. وتساءلنَّ: "لِـمَ يبطش أبو الحكم بولدك.. يا امرأة؟!!".

فأجابتهنَّ دون خجلٍ ولا تهيُّب: "رآه.. يُصلي صلاة المسلمين!!"، استبهمتْ عليهن

= دين إبراهيم غيري، وكان يذم الأصنام وعابديها حتى استاء منه الخطاب بن نفيل وضيّق عليه وعذَّبه على ذلك، وهو والد الصحابي الجليل: سعيد بن زيد، وعم الفاروق: عمر.. كما أسلفنا.

[1] : هو الصحابي الجليل: المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك، من بهراء إحدى بطون قبيلة قضاعة.. في حضرموت، قديماً.. أصاب أبوه دماً في قبيلته بهراء؛ فهرب إلى قبيلة كندة.. فحالفهم وتزوّج منهم امرأةً أنجبتْ له المقداد، ثم أصاب المقداد دماً في كندة؛ فهرب إلى مكة.. وحالف الأسود بن عبد يغوث من عشيرة بني زهرة، واتخذه الأسود ولداً بالتبني.. فأصبح يدعى: المقداد بن الأسود، ثم جاء الإسلام وبلغته دعوة النبي محمد ﷺ فآمن وكان من المسلمين الأولين.

الكلمةُ: "وما صلاة المسلمين؟؟"، أجابتهنّ بقولةٍ صريحةٍ ليس فيها إبهام: "أبو الحكم ينقم على عمار.. أنَّه آمن بدين محمد!".

انشده النساء.. وضرب بعضهن صدورهن من المفاجأة، وزجرتها أم عمرو: "ألا تستحي يا أَمَة السوء.. مما تقولي؟! يجهر ولدك باتِّباع ذلك المجنون الصابئ.. وتعتبي على أبي الحكم أنَّه يؤدبه؟!! خيرٌ لكِ من هذا أنْ تُعَنِّفي ابنك وتَرُدِّي إليه عقله!"، ثم طفقتْ تذمّ محمداً ومَن اِتَّبعه.. حتى أحفظتْ المرأةَ؛ فهتفتْ دون اكتراث لسخط أسيادها: "وأنا.. -كعمار.. ولدي- آمنتُ بمحمدٍ وصدَّقتُه!!".

بُغِتتْ أم عمرو.. وبُهت النساء وعجزنَّ عن إجابتها؛ فأشاحتْ عنهنَّ.. وغادرتْ مجلسهنَّ في أنفة وكبرياء.

علم أَبِي بخبر أم عمار وولدها؛ فضرب كفاً بكفٍ.. مُتعجِّباً: "كيف تسربتْ أباطيلُ محمدٍ المجنونة.. إلى موالي آل المغيرة؟!!".

ثم جاء أبو الحكم –عشاءً- إلى الدار.. ليعلم بِما كان من أم عمار؛ فيستشيط غاضباً: "بؤساً لموالي السوء! واللات.. لنمنعنَّ عن زوجها ما كنّا نمنحه من مؤنة، ولن تلج –هذه الأَمَة السوداء- الدار بعد اليوم.. لا لحاجة ولا حتى لخدمة!!".

سمعه أَبِي.. يَتألَّى أنْ يقطع عطية آل ياسر؛ فلم ينهِه.. بل تجاوز عن عدم استئذانه قبل حكمه عليهم، وأنفذ له يمينه.. وعطَّل عطاياه إلى آل ياسر العنسي.. وحظر عليهم دخول الدار بعد يومهم هذا.

بيد أنَّ القضية لن تنتهي عند هذا الحد؛ لقد أثارتْ أمُ عمار -بتجرُّؤها على نساء الدار.. ومجاهرتها بمخالفة الأسياد- هواجسَ ومخاوف في صدر والدي.. أباح بها لأمي، وصرَّح بها لرجال الدار وفتيانه.. ونحن جلوسٌ حوله ذات مساء.

أَقَرَّه أبو الحكم على رأيه، وخوَّفه مَغَبّةَ السكوت على مزاعم محمدٍ المجنونة.. وصدح بها صراحةً: "يجب أنْ نأخذ على يديه قبل أنْ يستفحل أمره.. ويُفتَن به سفهاؤنا!!"، وأَدْلَى العاص أخوه برأيه، ثم الحارث.. وآخرون، بينما أنا وعيّاش صامتان، نشاهد ونسمع.. دون تعليق أو إبداء رأي؛ على أنّي لاحظتُ أمارات الامتعاض على وجه سلمة.. ابن عمي هشام، ثم انتهى الجدال على أنْ يُثير أَبِي نقاشاً -بشأن محمدٍ بن عبد المطلب- في دار الندوة.

لم أكن شغوفاً بالتعرُّف على رأي حكماء دار الندوة.. حول مزاعم محمدٍ، ولم أكترث لمعرفة ما أزمعوا عليه حِيَاله.. لولا الاهتمام المُفرِط الذي لاحظتُه من سلمة.. ومِن عَيّاش؛ فقد التمسا مني أنْ أسأل الوليد عنه.. بل تَوسَّلا إليَّ!! أذعنتُ لتوسُّلاتهما.. وحاولتُ استدراج أَبِي.

الوليد بن المغيرة.. أَفطَن مِن أنْ يستدرجه غلامٌ غِرٌّ مثلي، ولولا أنَّه أحب أنْ يخبرني؛ لَمَا صَرَّح لي قائلاً: "أَوصينا عتبةَ بن ربيعة بأنْ يمضي إلى محمدٍ، ويُفاوضه.. على أنْ يدع هذه الأباطيل التي أزعجتْنا وفتنتْ سفاءنا!!".
سألتُه.. وقد انتقلتْ إليَّ عدوى الشغف بالأمر كابنيّ عمي: "وبما رجع إليكم عتبةُ.. يا أبتِ؟؟"، رمقني بنظرةٍ ذات مغزى.. أثارتْ الرهبة في قلبي؛ لكنَّه.. استكمل حديثه.. قائلاً: "جاءنا عتبة في اللقاء التالي.. بغير الوجه الذي ذهب به؛ فقلنا: "ماذا وراءك.. يا أبا الوليد؟؟".. فقال كلاماً عجباً!!؟".
جأرتُ مُتلهّفاً: "بِمَ حدَّثكم.. يا أبتِ؟!!"، تفحَّص وجهي بارتياب.. ثم سألني بصرامةٍ: "ما سِرّ اهتمامك بهذا الأمر.. يا غلام؟!!"؛ لو تلعثمتُ في الإجابة.. لظَنَّ بي السوء، ولأذاقني من العقاب.. ما لن أُطيق.

لم أتلعثم.. وإنَّما أجبتُه بثباتٍ يشوبه كثيرٌ من التزلُّف: "كيف لا أهتمُّ لشيءٍ يُعنَى به الوليد بن المغيرة.. سيد مكة؟!"، ربت على كتفي مُشِيداً باهتمامي.. ثم قال: "ذهب عتبة إلى محمدٍ وانفرد به يُكلِّمه.. فقال له: "يا ابن أخي! إنَّك منّا حيث قد علمتَ من السِّطَة[1] في العشيرة والمكان في النسب، وإنَّك قد أتيتَ قومك بأمرٍ عظيم؛ فَرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ به مَن مضى من آبائهم!؟ يا ابن أخي! إنْ كنتَ إنّما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإنْ كنتَ تريد به شرفًا؛ سَوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإنْ كنتَ تريد به مُلكًا؛ مَلَّكناك علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رِئْياً [2] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك؛ طلبنا لك الطب.. وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنَّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوَى منه!"، وأيم الله.. لقد عرض عليه أموراً؛ لو قَبِل محمدٌ أحدها؛ لأمسى وهو أعزُّ رجال قريش منزلة!!؟".

تساءلتُ مُستعظِماً: "أ ورفض محمدٌ.. هذه العروض كلها؟!!"، فاستأنف أبي: "كَفَّ عتبة عن الكلام؛ فسأله محمدٌ: "أ قد فرغتَ.. يا أبا الوليد؟؟" قال: "نعم!"، قال: "فاسمع مني!"، ثم يقول عتبة: "فتلا محمدٌ عليّ كلاماً.. فَزِعتُ منه، وشعرتُ كأنَّ صاعقةً ستنزل –الآن- من السماء.. تضرب مكة وقريش جميعاً؛ ارتعدتُ.. ووضعتُ يدي على فمه كي أُسكته، وصرختُ: أنشدك الله والرحم! أنشدك الله والرحم!.. ولا أعلم ماذا دهاني؛ لكنّي.. خفتُ مما سمعتُ، وغادرتُ مجلسه!" .. !؟؟".

تردَّد الوليد.. هنيهة، ثم أستطرد.. بصوتٍ مُتحشرج:

---

[1] : السِّطَة: أي.. المنزلة والمكانة الطيبة.

[2] : يقصد: مس من الجن.

"ثم قال عتبة: "يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي.. وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه؛ فاعتزلوه! فوالله.. ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيمٌ، فإنْ تصبه العرب.. فقد كفيتموه بغيركم، وإنْ يظهر على العرب؛ فملكه ملككم وعزه عزكم.. وكنتم أسعد الناس به!"، ذاك –والله- أعجب ما سمعتُ.. اليوم!!".

سألتُه مُستغرِباً: "وماذا تقول في هذا.. يا أبتِ؟؟"، أجابني.. والحيرة بيِّنةٌ في قسماته وصوته: "ماذا أقول؟! عتبة بن ربيعة.. سيد قومه وأشجعهم وأحلمهم.. يَرهَب محمداً إلى هذا الحد؛ إنَّ هذا لشيءٌ عجيب!!؟"، سألتُه بدافع الفضول: "وملأ قريش.. ماذا قالوا؟ وما رأي أبي الحكم.. ابن عمي؟؟!".
أجابني: "أسياد قريش يتعجَّبون مثلي!! أما عمرو ابن عمك.. فأسرَّني –ساخراً من عُتبة-: "يا شيخ مخزوم! إنَّ هَوَى ابن ربيعة.. مع محمدٍ، وأُقسِم بآلهتي.. أنَّه يسعى لأنْ يُسوِّد محمداً.. تشريفاً لبني عبد مناف علينا؛ وقد خاب سعيه!".. !!".

- ١١ -

أَظَلَّنا موسم الحج، وتوافد الحجيج على مكة.. من كل فج؛ فانشغلنا عن محمدٍ ودعوته المشؤومة، غير أنَّه باغت أسيادَ قريش.. وبدأ يطوف –ومعه صاحبه أبو بكر- على مضارب الوافدين إلى مكة.. من قبائل العرب، وأخذ يجوب أسواقَ الموسم... يُكلِّم الناسَ ويُحدِّثهم بأباطيله المزعومة: (يا معشر العرب! إنَّ هذه الطواغيت –التي تعبدون من دون الله- رجسٌ من عمل الشيطان، وإنَّ إلهكم

لواحدٌ؛ الله.. لا إله إلا هو.. خالقكم وخالق السموات والأرض.. وخالق كل شيء، وأنا رسوله إليكم، وأيم الله.. لتموتنَّ كما تنامون.. ولتُبعثنَّ كما تستيقظون، ثم تحاسبون.. على ما كنتم تفعلون؛ فإما جنةٌ أبدا.. وإما نارٌ أبدا، إني نذير الله إليكم؛ مَن أطاعني.. دخل الجنة، ومَن عصاني.. دخل النار، ولا أسألكم عليه أجراً؛ إنْ أجري إلا على الله!!).

ضجَّ منه ملأ قريش.. وهرعوا إلى الوليد يشتكون: "انظر إلى هذا المجنون الذي أفسد علينا موسمنا، وسَبَّ آلهتنا.. وسَفَّه أحلامنا!؟؟"، أجابهم الوليد بكياسة: "لن يردعه إلا قومه؛ فابعثوا إلى أبي لهب.. إني أعلم أنَّه يكره ما يفعل محمدٌ!".

حضر أبو لهب.. فلامه الوليد بنبرةٍ حادة: "يا ابن عبد المطلب! كيف تذرون سفيهكم هذا يُحدِّث الناسَ بأباطيله تلك.. ويفسد علينا موسمنا؟؟!"، ثم أنذره بلهجةٍ حاسمة: "واللات والعزى.. يا بني عبد المطلب.. لئن لم تأخذوا على يديه؛ لزجرناه نحن حتى ينتهي، أو ينفض الناس.. من حوله!!".
طأطأ أبو لهب رأسه خجلاً، ثم هتف مُعتذِراً: "اِعلم –يا شيخ مخزوم- أنّي لا أرضى عما بَدَر من محمدٍ، وإنَّما أبو طالب هو الذي يمنعه؛ لكنّي أعدك أنّي سأفعل ما في وسعي حتى ينصرف عنه الناس.. كيلا يفسد علينا الموسم!".

"يجدر بك أنْ تفعل! وبعد أنْ ينفض الموسم.. لنا معه ومعكم شأن!!": أجابه الوليد بصرامة، ثم أشاح عنه.. وأمره بالانصراف.

انصرف أبو لهب.. ليتتبَّع خطوات ابن أخيه.. ويمشي وراءه حيث يمشي؛ وكلما مرَّ على حيٍّ من العرب.. يُبادر هاتفاً: "لا تسمعوا له! لا تصدِّقوه.. إنَّه صابئ!"، فينفضّ الناس عنه قائلين: "عمه.. أعلم به!"؛ وهكذا.. لبث أبو لهب يُكذِّب

محمداً بين الناس، ويصرفهم عنه حتى انتهى الموسم، ولم يكتفِ بذلك؛ بل أمرّ ولديه أنَّ يُطلِّقا بنتي محمدٍ.. وكانا متزوِّجين بهما قبل أنْ يهذي محمدٌ بهذيانه، وما دفعه إلى هذا إلا ليتنصَّل أمام سادة قريش.. حتى لا يؤاخذوه بجريرة ابن أخيه، أما أبو طالب.. فقد ثبت على مساندته لابن أخيه، وتابعه بنو هاشم على ذلك؛ فامتنع محمدٌ بهم.

اِنفَضّ الموسم.. وما نفض محمدٌ يده من تكدير صفو قريش؛ وإنَّما ابتدع بدعةً جديدة: صلاة غريبة.. يتلو –فيها- كلاماً عجبا، ويسجد.. فيُعفِّر جبينه في الأرض؛ وما انفك يُصلّيها.. عند صحن الكعبة بالعَشِيّ والليل، على مرأى ومسمع من ملأ قريش.. في منتدياتهم.
اغتاظ منه أكابر السادات –ولا سيما أبو الحكم-، واحتاروا: كيف يتصرَّفون حياله؟! كيف يغيظونه.. كما يغيظهم؟! إنَّ هذه الصلاة التي ابتدعها، وهذه القراءة التي يقرأها.. تؤذيهم، تُكدِّر عليهم صفو مجالسهم!
إنَّ سكوتهم عنه.. وتهاونهم في ردعه.. سيُجرِّأ عليهم العبيد والسفهاء الذين اتَّبعوه؛ لابد مِن مَنْعه عن تلك الصلاة.. التي يصلّيها في صحن الكعبة!!؟

لكن.. إنْ مَسّوه بسوءٍ؛ سيتصدَّى لهم أبو طالب وبنو هاشم، ولا تُؤمن العواقب!!؟ أوعز إليهم أَبِي: أنْ ذروه يُصلِّي.. وذيَّل كلامه: "متى كنّا نَنَهى أحداً عن صلاةٍ في الكعبة؟؟!"، بيد أنَّ أبا الحكم عارض عمه.. وأقسم: "واللات والعزى.. لئن رأيتُه.. يُعفِّر وجهه كذلك؛ لأطأنَّ على رقبته.. ولأعُفِّرنَّ وجهه في التراب!!".

والعجب.. أنَّ أبا الحكم لم يستطع –ولا أحدٌ ممَن وافقوه على هواه- أنْ يَنْهَى محمداً عن صلاته؛ بل تمادى محمدٌ في صلاته.. كأنَّهم أُلجِموا عنه.

مضتْ بضعةُ شهورٍ.. على تلك الحال؛ وكلما مضى يومٌ أو أسبوعٍ.. رُصِد رجلٌ جديد يتَّبع محمدا، ليس من العبيد والموالي فقط؛ بل.. فُتِن به فتيانٌ وشباب من أبناء السادة والأشراف؛ من بني عبد شمس: عثمان بن عفان.. وخالد بن سعيد بن العاص، ومن بني عبد الدار: مصعب بن عمير، ومن بني زهرة: سعد بن أبي وقاص.. وعبد عمرو بن عوف، ومن بني جمح: عثمان بن مظعون، ومن بني أسد بن عبد العزى: الزبير بن العوام، ومن بني تيم: طلحة بن عبيد الله؛ وغيرهم من العبيد والدهماء والأحلاف.

أما الطَّامَّة.. فهي ما بلغنا عن ابن عمومتنا.. (زوج هند بنت عمي زاد الركب)؛ لقد اتَّبع محمداً!! تُرى هل اتَّبعه لأنَّه ابن خاله؟!! آه.. آه.. قد تسلَّلتْ فتنةُ محمدٍ إلى بني مخزوم؛ يا أسفاه عليك.. يا زوج أختي! يا حسرتي عليكِ.. يا أختاه! كيف ستعيشين مع هذا المفارق لدين قومك؟!!

أصبح أمر محمدٍ أكبر من أنْ يتجنَّب الوليد -وبنو المغيرة- خوضه، وما عاد للسكوت عنه جدوى؛ لقد كاد أنْ يُفسِد علينا الموسم، وفضحنا بين الحجيج.. وسَفَّه أحلامنا.. وسَبَّ آلهتنا، واتَّبعه الأغرار من أبنائنا؛ قرَّر الوليد أنْ يذهب إلى محمدٍ بنفسه ويُحاوره.. آملاً أنْ يُجدي الحوار معه نفعاً.

غادر الوليد البيت ضُحًى.. عازماً على أنْ يلقى محمداً عسى أنْ يردَّ إليه رشده ويُجنِّب قريشَ بوائق هذيانه.

مضتْ سويعاتٌ من النهار.. ثم ألفيناه عائداً إلى الدار، لم يُكلِّم أحداً منّا غير أنْ أجاب أمي -إذ سألتْه: "هل التقيتَ محمداً.. يا أبا عبد شمس؟؟"- قائلاً باقتضاب: "كلا!!".. ولم يَنبِس بعدها بكلمة، اِتَّكأ عليَّ حتى ولج مخدعه.. وأغلق بابه دونه، وقضى سحابة نهاره –هكذا- وحيداً في مخدعه.

ما برحتْ أمي ونساء الدار.. يتاهمسنَّ قَلِقات: "ما بال الشيخ لا يُكلِّم أحداً؟؟! هل هو مريضٌ؟! هل أحزنه شيءٌ؟!"؛ لم تكنَّ مُنفكاتٍ حتى تعلمنَّ طَوِيَّة الأمر.
رجع أبو الحكم –ابن أم عمرو- إلى الدار مُبكِراً عن موعده؛ فبادهتْه أمه –ومن ورائها أمي والنساء- بالسؤال: "هل تعلم ماذا أصاب عمك؟؟"، تصنَّع الغفلة.. وهو يجيبهنَّ: "ما الذي أصابه؟!!".
"عاد مُبكِراً؛ ومذ عاد لم يُكلِّم أحداً، ولم يفارق مخدعه!؟؟"، جأر بتضجُّر.. كأنَّما يخاطب نفسه: "إذاً.. فما قالوه صحيح!!؟".

تضاعف قلق النساء.. وتعاظم الوَجل في قلب أمي؛ فصاحتْ أمه بانزعاجٍ وتبرُّم: "أخبرنا –يا ولدي- ما الذي جرى؛ قد جزعنا ونفد صبرنا!؟؟".
زفر زفرة تأفُّف.. ثم قال: "مررتُ على منتدى مخزوم.. وسألتُهم عن عمي؛ فقالوا: "لبث معنا برهة.. وانصرف مُتعجِّلاً!"، ثم هتف أحدهم مُمازِحاً: "ألا تدري.. يا أبا الحكم؟! لقد صبأ عمك الوليد.. واتَّبع محمداً!!؟"؛ فغضبتُ وهممتُ بالرجل.. لولا أنْ حجزني عنه القوم، وأخبروني بما كان!!".

"وما الذي أخبروك به؟؟!": جأرتْ أمي بتلهُّفٍ وهلع؛ فاستأنف: "أراد عمي أنْ يُكلِّم محمداً ليردَّه عن غَيِّه، لكنَّه عَرَّج على ابن أبي قحافة قبله.. وسمع منه الكلام الذي يزعم محمدٌ أنَّه من وحي ربه؛ فذهل.. وتغيَّر حاله، ثم شخص مِن لدن ابن أبي قحافة.. يمشي في الطرقات شارد الذهن.. حتى بلغ نادي القوم؛ فارتابوا في أمره وسألوه: "أين كنتَ.. يا أبا المغيرة؟؟ وما هذه الحال التي أنت عليها؟؟"؛ فحكى لهم أنَّه سمع مِن ابن أبي قحافة قرآن ربه؛ وإنَّه ليس من كلام الإنس ولا كلام الجن.. وإنَّ له لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة.. وإنَّ أعلاه لمثمر.. وإنَّ أسفله لمغدق.. وإنَّه ليعلو ولا يُعلى عليه!!"، ثم انصرف عنهم وهم مبغوتون

مندهشـون!"، تسـاءلتْ أمي بارتيـاع: "أ حقـاً.. قـال أبـو عبـد شـمس ذلـك؟!! يـا ويحي!!"، وشرعتْ تولول وتضرب فخذيها بكفيها.. تحسُّراً وارتياعاً.

اِتَّجه أبو الحكم إلى مخدع الوليد.. وأخذ يقرع الباب وينادي: "يا عم! افتح فقد جئتُك من منتدى مخزوم بنبأٍ عظيم!!"، ولَمَّا لم يستجب له؛ بدَّل نبرة صوته.. وجعل يتباكى: "يا عم! تركتُ قريش يجمعون لك النفقة.. يقولون نعينه بها على كبر سِنّه، ويزعمون أنَّك دخلتَ على ابن أبي قحافة لتنال مِن فضل طعامه!!"، غضب أَبِي.. حتى أَنَّا سمعناه يَدُقّ الأرض بقدميه.
ثم فتح الباب بعُنْفٍ.. أحدث صَرِيراً أدخل الرعب في قلوبنا؛ وصاح مُتسخِّطاً: "فُضّ فوك!! ماذا تقول؟؟ لقد علمتْ قريش أني أكثرها مالاً!؟"، أجابه أبو الحكم مُتصنِّعاً الحزن والتباكي: "فما ذاك الذي قلتَه لهم عن قرآن محمدٍ؟؟!".

هتف بإصرار: "والذي يُحلَف به.. ما قلتُ غير الحقيقة؛ إنَّه ليس من كلام الإنس.. ولا من كلام الجن؛ رغم أنف مَن رغم!!".
تمادى أبو الحكم في التباكي.. وتظاهر كأنَّه يحثو تراباً على رأسه، وبصوتٍ كأنَّه ولولة.. جعل يقول: "وا ثكلاه! ليتني مت قبل هذا اليوم!! أ تَتَّبع غلامَ بني هاشم.. يا شيخ مخزوم؟!! الوليد بن المغيرة.. عظيم مكة.. ريحانة قريش.. يتَّبع مجنوناً يهذي.. مثله مثل أوغاد العبيد والدهماء؟!!".

لستُ أدري هل فطن أَبِي لمخادعة أبي الحكم –كما فطنتُ لها- أم.. لا! وأحسب أنَّ رجلاً أريباً –مثل الوليد- لا يخدعه هذا التصنُّع الفَجّ؛ لكنَّه أظهر التأثُّر والتألُّم لجزع ابن أخيه المتكلّف، وربت على كتفه.. وهتف مواسياً: "اِرْبَع على نفسك.. يا أبا الحكم! فإنَّ الوليد بن المغيرة لن يُخزي قومه أبداً!".

فأجابه بإصرارٍ صفيق: "واللات.. -يا عم- لا أطمئن حتى تقسم أنَّك لا تُكلِّم محمداً ولا صاحبه، ولا تسمع.. لقرآنه أبدا!!".
تَريَّث الوليد هنيهة؛ ثم طاوعه.. وأقسم بآلهته ألا يُكلِّم محمداً.. وألا يستمع إلى تراتيله؛ واندهشتُ -أنا- في سريرتي: لِمَ يُذعِن أبي -هكذا- لابن أخيه؟!!

مضتْ أيامٌ أُخَر، ثم -ذات ضحى- جاءنا خبرٌ يقول أنَّ أبا الحكم قتل أحدَهم لدى الكعبة، خشيتْ أم عمرو على ولدها.. وما هدأتْ حتى عاد أبو الحكم إلى الدار آمناً؛ سألتْه مُتوجِّسة: "مَن ذاك الذي قتلتَه.. يا ولدي؟؟".
زفر زفرة ضيق.. ثم صاح: "آه.. يا أماه.. آه! يا ليتني -حقاً- قتلتُه؛ لكنَّهم أغاثوه من يدي.. وبه رمق!"، قالت: "أيا بني.. أخشى عشيرته عليك!!؟".
شمخ أنفُه.. وهتف مُتغطرِساً: "إنِّي أعزّ قريش.. وأكثرها نادياً؛ فلا تخشين عليَّ.. من أحدٍ!"، ثم ضحك مُقهقهاً.. وأردف: "ولا عليكِ.. فالذي ضربتُه غلامٌ ليس له عشيرةٌ يمنعونه؛ إنَّه.. راعي الغنم.. ابن أم عبد [1] !".
استهجنتْ أمه.. قائلةً: "وما شأنك بغلامٍ ضعيفٍ كهذا.. يا أبا الحكم؟!!"، أجابها بلهجةٍ حادة.. كأنَّما عاوده غضبٌ قديم: "لقد تجرَّأ هذا الوغد الحقير.. وتَربَّع عند المقام، وعلى مسمع مني ومن ملأ قريش.. غدا ينهق بقرآن محمد!!؟".
ونبأٌ آخر.. أشدُّ وَطْأة من سابقه: اِنسلَّ نفرٌ من أولئك الصابئين -فيهم: سعد بن أبي وقاص الزهري- إلى شِعب من شعاب مكة.. يريدون أنْ يصلّوا صلاة محمدٍ، فأبصرهم نفرٌ من أصحابنا؛ فعابوا عليهم ما يصنعون، وأغلظوا لهم القول وقاتلوهم؛ فضرب سعد -ذلك الصابئ- رجلاً من أصحابنا.. فشَجَّ رأسه!!

---

[1]: هو الصحابي الجليل: عبد الله بن مسعود الهذلي، أبوه: مسعود بن غافل.. من بني سعد بن هذيل.. استقر في مكة -قديماً- وحالف رجلاً من بني زهرة.. فزوَّجه إحدى حفيداته.. -وهي: أم عبد- فأنجبت له عبد الله، وكان عبد الله هزيلاً ضعيف الجسم، وكان يرعى الغنم لعقبة بن أبي معيط.. من بني عبد شمس.

يا للرَزِيئة! إلى هذا الحد.. يتبجَّحون؟! إلى هذا الحد.. تنامى خطرهم؟!! ليس في وسعنا الاصطبار على ذلك!!

انبعث أبو الحكم يؤلِّب حكماء دار الندوة على محمدٍ وأتباعه، مضى يخطب فيهم والشر يبرق في عينيه: "لقد أفسد علينا محمدٌ الرقيقَ والدهماء.. بل أفسد الأخوة والأبناء، لقد لوَّث عقول العبيد حتى حسبوا أنَّهم وأسيادهم سواسية.. وطمعوا في مكانتنا وأموالنا، لابد أنْ نستأصل هذه الفتنة من جذورها، إنْ كان محمدٌ ماضٍ في غَيِّه.. ممتنعاً ببني هاشم؛ فلا تثريب علينا في تأديب الذين أتَّبعوه من سفهائنا!"، "يا سادة قريش! فلتأخذوا هذه الشرذمة الصابئة بالشدة والقهر.. حتى يثوبوا إلى رشدهم!".

وما زال يُغري ملأ قريش بالعَسْف بأصحاب محمدٍ من العبيد والحلفاء والأبناء.. حتى وافقوه على رأيه.. في غيابٍ من والدي وأبي طالب بن عبد المطلب.

بدأ أبو الحكم -أول ما بدأ- بآل ياسر العنسي حليف عمي أبي حذيفة؛ اقتلعهم –عنوة- من دارهم الحقيرة.. وأحرقها أمام أعينهم، ثم أمر رجاله.. فعتَلوا ياسر –الشيخ الهَرِم- وامرأتَه العجوز وولدَه الضعيف، أوثقوهم.. وساقوهم ليُذيقوهم ألوان العذاب على أنْ يتبرَّؤوا من محمدٍ.. ويسبُّوه.. ويكفروا به.

حينئذ تشجَّع الآخرون؛ وأخذ كل سيدٍ يفعل مثل أبي الحكم مع عبيده وإمائه الصابئين، وكذا.. شدَّدوا على الأحلاف، أما الأبناء: فمنهم مَن قطع عن ابنه القوت.. ومنهم مَن طرد ابنه من الدار.. ومنهم مَن حبس ابنه في سجنٍ مظلم وجوَّعه وعطَّشه.

بيد أنَّ النتيجة كانت واحدةً عند الجميع: تَمسُّك أصحاب محمدٍ بدين محمدٍ.. وتأبّيهم جميعهم علينا.

ما عتَّم الخبر أنْ نمى إلى مسامع أَبِي.. وعلم بتعذيب قريش لعبيدها وأحلافها وأبناء أشرافها بأَزٍّ من أبي الحكم.. ابن أخيه: استاء لاتخاذهم قراراً كهذا –في دار الندوة- مِن غير مشاورته ودون إعتبارٍ لرأيه، استدعى أبا الحكم.. وعاتبه: "ويحك.. يا ابن أخي! قد أَحدثتَ في الحرم ما ليس له عهدٌ به!! كان ينبغي أنْ تشاورني فيما فعلتَ؛ لا أنْ تتبع هواك أنت والذين معك.. دون نُصحٍ مني!".

تصنَّع أبو الحكم الاندهاش قائلاً:"ما أعجب أنْ تقول مثل هذا القول -يا شيخ مخزوم- وقد أصابنا من محمدٍ ما أنت عليمٌ به؟!!".
أجابه: "يا عمرو! لقد أتيتَ أمراً عظيماً؛ أخشى أنْ يُهيِّج علينا الناس، إنَّ لهذا الحرم في نفوس العرب مكانة؛ يأمنون به من خوف.. ويطعمون به من جوع؛ فماذا إذا تسامعتْ العرب أنَّ الأحلاف الذين يأوون إليه.. لا يجدون أمناً ولا عافية؟!"، ثم استأنف بلهجةٍ أشدّ حدة: "فكيف تُحرِّق على حلفائنا: آل ياسر العنسي دارهم؟! كيف تصفِّدهم في الحديد.. وتعذِّبهم؟!! إنَّك لم تحفظ للجار ولا للحليف عهده؛ يجب أنْ تُطلقهم فوراً!!".
صَدَّه هاتفاً بمكابرة: "كلا.. واللات.. لا أطلقهم! ولن أُسَرِّحهم.. قبل أنْ يكفروا بمحمدٍ ويسبّوه، ويُظهِروا الخضوع لهُبَل واللات والعزى.. وسائر آلهتنا!".

امتعض الوليد.. وصاح حانقاً: "أ تخالف عن أمري –يا ابن هشام- وأنا سيد مخزوم.. وقريش أجمعين؟؟!".
تلطَّف أبو الحكم.. وأجابه بنبرةٍ لينة: "حاشاني أنْ أفعل! كيف أخالفك.. يا عمُّ.. وأنت أنت؟!!"؛ ثم استطرد بتماكر: "يا عمُّ.. خبِّرني؛ فأنت وحيد قريش.. وعدلها حكمةً ورُشْدا! أيهما أشرّ: أنْ تتسامع العرب بأنّنا نزجر سفهاءنا؛ أم تتسامع أنَّ

الرقيق والرعاع قد أصبحوا سادةً.. وأنَّ السادة قد أصبحوا رقيقاً، وأنَّ الآلهة التي يَحُجّون إليها من أقصى الأرض.. قد أصبحتْ هُزُؤًا وسخرية؟!".

جاوبه الوليد بلهجةٍ اهدأ حدة.. وأفضل رويَّة: "كلا الأمرين شرّ.. يا عمرو! ولا أحب أنْ تتسامع العرب بهذا الأمر.. أو ذاك! كيف نُعذِّب أحلافنا في مكة؟؟! كيف نُحْدِث –مثل هذا الفعل- في الحرم؟!!".

رَدَّ عليه أبو الحكم.. وقد تملَّكتْه الجلافة والصلف: "إنْ كنتُ قد أحدثتُ في الحرم ما لا عهد لأهله به؛ فقد سبقني إلى ذلك محمدٌ!"، عارضه الوليد مُحتَدّاً: "ويحك.. يا أبا الحكم! إنَّ محمداً لم يحرق داراً.. ولم يَعنُف بأحدٍ!!؟".
"بل فعل شرّاً من ذلك! عاب آلهتنا.. وسفَّه أحلامنا.. وأطمع الوضعاء فينا! هل تأمن –يا عظيم القريتين- أنْ يخرج أبناؤك بتجارتنا إلى الشام أو اليمن غداً.. ثم يعودون -بعد أشهر- وقد أزالك أصحابُ محمدٍ عن مكانتك؟!! كيف تربح تجارتنا ونحن لم نحفظ ظهرها؟! إنَّنا نُصانع العرب لكي نحمي طريق تجارتنا إلى الشام واليمن؛ فكيف إذا عجزنا عن حماية تجارتنا في مستقرها هنا في مكة؟!!".

"وَيْلك.. كأنّما أطرتُ بما قلتُ طائراً كان في صدرك، ما الذي يُخيفكم من محمدٍ وأصحابه؟!! إنَّهم لم يُبادؤوكم بشرٍّ.. ولم يرزؤوكم في مالكم قليلاً أو كثيرا!!؟".

صاح أبو الحكم مُتأفِّفاً: "هل تريد منّا أنْ نصبر عليهم.. حتى يفعلوا؟!"، ثم استطرد بنبرة ملامةٍ لاذعة: "كأنّي بك –يا شيخ مخزوم- تريد أنْ نُخلِّي بين أصحاب محمدٍ وبين ما يريدون؛ فتصبح أموالنا نهباً لعبيدنا والطارئين علينا من أوشاب العرب وأخلاط الناس، ويفقد هذا البيت حرمته.. وتصدّ العرب عن الحج إلينا!!".

أطرق أَبِي؛ فاستطرد أبو الحكم بلهجةٍ حاسمةٍ قاسية: "واللات.. ستمضي قريش بتجارتها حيث شاءتْ؛ وعليَّ أنْ أحمي ظهرها.. وأنْ أحفظ مكة لأهلها كما يحبون أنْ تكون، ولن أدع أصحاب محمدٍ حتى ينزجروا.. أو يهلكوا؛ ولن يصل إليهم أحدٌ بعَفْو.. وقائم سيفي في يدي؛ شاء مَن شاء.. وأبى مَن أبى!!".
أجابه أَبِي معاتباً بكبرياءٍ مكسور: "أ تقولها في وجهي.. يا ابن أخي؟!!"، عَدَّل أبو الحكم مِن نبرة صوته لتكون أكثر تأدُّباً مع عمه الشيخ.. وقال: "يا عمُّ! إنَّ أمر محمدٍ وأصحابه.. أمسى كشوكةٍ في جنب قريش.. ولن يستقيم لقريش أمرٌ حتى تُنتزع هذه الشوكة من جنبها؛ وإنّي لمُنتزِعها.. فطب خاطراً، و دَعْ هذا الأمر لي!".

هنالك.. طأطأ والدي رأسه وقبض لسانه، وطال سكوته –أو هكذا ظننتُه- فانصرف أبو الحكم يجرجر أذيال كبره وعنفوانه.
كان جدالهما على مرأى ومسمعٍ مني؛ فانتابني شعورٌ بغيض.. أزعجني، شعرتُ أنَّ أَبِي –الوليد بن المغيرة- انكسر وانهزم أمام ابن أخيه، ورغم عمري الصغير الذي تجاوز العاشرة بقليل.. حدَّثتني نفسي أنَّ الوليد استسلم لتلك الهزيمة؛ فتساءلتُ: (لماذا؟؟! هل لأنَّ أبا الحكم في عنفوان السطوة والسلطان؟! أم لأنَّ الوليد.. قد أَشْفَى على المآل؟؟!)، (وما معنى هذا؟ أ يعني أنْ يرث أبو الحكم الوليدَ.. وهو لم يزل حيّاً؟!!)، (وهل يموت أَبِي؟؟! ذاك شيءٌ.. لا أتصوَّره أبداً! أم.. هل ينقلب الوليد بن المغيرة -كهُبَل الذي في فناء الدار- إلى شيءٍ مقدسٍ.. نطوف حوله للتبرُّك به دون أنْ نلقي بالاً لأمره أو نهيه؟!!).
ابتأستُ يوماً أو بعض يومٍ لهذه الهواجس المزعجة؛ لكن.. سرعان ما تأفَّفتُ.. وألهتني –عنها- مشاغل الصِّبَا.

مضى أبو الحكم في عزمه، واستشرى أسياد مكة.. في قهر عبيدهم الذين اتَّبعوا محمدا، وبُثَّتْ مرابض التعذيب في أرجاء مكة.. حتى صرنا نصبح ونمسي على ألوان من الخسف والاضطهاد تُقطِّع نياط القلب الرحيم.

ما انفك الأسياد يبالغون في الجبروت والإذلال، وما تزحزح الصابؤون عن ولائهم لدين محمدٍ؛ وإنَّما يزدادون عزّاً وثباتاً، ويزداد الحنق والغيظ في قلوب السادة؛ فيزداد إصرارهم على إخضاع الصابئين.. أو إبادتهم.

سمعتُ.. ورأيتُ أمية بن خلف الجمحي يضع في عنق مولاه بلال حبلاً.. ثم يُسلِّمه إلى الصبيان يطوفون به جبال مكة ويجرونه بالحبل حتى يؤثر الحبل في عنقه.. ويوشك أنْ يخنقه.

وكان يُخرِجه إذا حميتْ الظهيرة.. وفي رجليه قيد من حديد، ويأمر رجاله فيجردونه من ثيابه، ثم يطرحونه على ظهره في الرمضاء [1].. في بطحاء [2] مكة، ثم يأمر بصخرةٍ عظيمةٍ –يحملها العدد من الرجال- فتُوضَع على صدره، ويزعق فيه زاجراً: "واللات –يا عبد السوء- لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمدٍ.. وتعبد اللات والعزى.. أو تموت!".

فلا يزيد العبد الأسود على أنْ يقول بثباتٍ –عجزنا عن إدارك مبعثه-:

"أَحدٌ.. أَحدا!"؛ ويعني بتلك الكلمة –وفق ما فهمتُه من عَيَّاش- أنَّه لا يعبد إلا الله.. الواحد الأحد.

وسمعتُ أنَّ أم أنمار بنت سباع الخزاعية.. كانت تُعذِّب مولاها –خباب بن الأرت- بالنار؛ كانت تأتي بالحديدة المحماة.. فتجعلها على ظهره أو رأسه، وتأمُر زبانيتها..

---

[1] : الرمضاء: الرمل الذي اشتدّت سخونته من حر الشمس.

[2] : بطحاء: مؤنث أبطح، وهي أرض مسطحة واسعة مفروشة بالرمل ودقاق الحصى.

فيلوون عنقه ويجذبونه من شعره.. ويلقونه على النار، ثم يسحبونه عليها.. حتى يُطفئها وَدَك ظهره.
ولم يتوقَّف تنكيل الأسياد عند العبيد الصابئين فقط؛ بل تجاوز إلى الإماء؛ فقد سمعتُ عن جارية لبني زهرة -اسمها أم عُبَيْس- كان سيدها (الأسود بن عبد يغوث الزهري) يُعذِّبها عذاباً مُنكراً، وسمعتُ عن -النهدية وابنتها- جاريتين لامرأةٍ من بني عبد الدار.. كانت تُنكِّل بهما تنكيلاً أليما، وجاريةٍ أخرى.. لبني عدي.. رأيتُ عمر بن الخطاب يضربها بنفسه ضرباً شديداً.. حتى يملّ.

أما الصابؤون من موالي مخزوم.. فقد كان أبو الحكم يتعهَّد تعذيبهم بنفسه.. ومعه أخواه: الحارث والعاص: رأيتُهم –أياماً طوالاً- يأمُرون زبانيتهم أنْ يُخرِجوا ياسر العنسي وأم عمار وولدهما.. حين تَحمَى الظهيرة.. إلى أبطح مكة.. ليُرقِّدوهم على الرمضاء حتى يمسوا.. دون اكتراثٍ لكبر سِنّ الشيخ الهرم ولا امرأته العجوز؛ وكانوا يمنعونهم الطعامَ والشرابَ أياماً متواصلة.. حتى يُغشَى عليهما، ويجلدون ولدهما –عمار- حتى يُغشَى عليه.. هو الآخر.

ذات يومٍ.. رأيتُ هند –بنت عمي أبي أمية- تبكي بكاءً حاراً وهي تتوسَّل لأمي ولأم عمرو أنْ يشفعا لدى أَبِي.. أنْ يأمُر أبا الحكم فيُخفِّف عن آل ياسر العذاب، أو يأذن لها فتسقي سمية شربةَ ماء؛ سمعتُها تقول.. ونشيجها يُمزِّق قلبي: "سميةُ.. ألقمتْني ثديها ووهبتني الحياة؛ أ أعجز عن أنْ أسقيها شربة ماءٍ.. تصرف عنها الموت؟!!"، تبكي لبكائها عيون النساء.. ولا تَرِقّ القلوب الغِلاظ!!؟

أحسب أنَّ قلب أبي الحكم –ابن عمي- قُدَّ من جُلْمود الصخر.

عَفْواً.. سمعتُ سلمة.. ابن هشام –أخا أبي الحكم لأبيه- يهمس في إذن هند: "يا ابنة عمي! نصبر ونحتسب.. ريثما يأتي الفرج، اذهبي مع زوجك.. يا هند!!".
ظننتُه يعني أنْ تذهب إلى دار بني عبد الأسد المخزومي، بيد أنَّ ذهابها كان أبعد من ذلك بكثير؛ فقد انفلت زوجها الصابئ –سِرّاً- راحلاً عن مكة بابنة عمي.. إلى بلادٍ بعيدة.. لا أنيس فيها ولا سند.
حمل عبد الله بن عبد الأسد المخزومي.. أختي هند إلى بلاد الحبشة.. مع رهطٍ من الصابئين منهم: عثمان بن عفان العبشمي، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمي، ومصعب بن عمير العبدري، وعثمان بن مظعون الجمحي.
اِنكوى فؤادي لفارق أختي الحبيبة، وجُنَّ جنون آل المغيرة: "كيف يحمل هذا الصابئ بنتنا.. إلى تلك البلاد البعيدة.. رغم إرادتنا؟؟!".

فرار زوج هند بها من مكة.. ذكَّرني بهمس سلمة في إذنها يومئذ؛ فارتبتُ في أمر سلمة، ربما صبأ مثل زوج هند: (ياللفاجعة!؟ لقد أصاب آل المغيرة شرٌّ عظيم.. إنْ كنتَ فعلتَ.. يا ابن عمي!!؟)؛ شرعتُ أتلصَّص عليه؛ فشاهدتُه –ذات مرة- يُسِرّ أمه ضباعة [1] بالحديث، تسمَّعتُ.. فسمعتُه يهمس بحميّة مُستنكِراً:
"يا أماه! الشاةُ.. خلقها الله.. وأنزل لها من السماء الماء.. وأنبت لها من الأرض؛ ثم تذبحونها على غير اسم الله؟!! هل هذا دين إبراهيم؟!".
أَسمعُ أمه تجيبه بنبرةٍ حائرة: "يا بني! كل الناس يفعلون ذلك، ومن قبلُ.. الآباء والأجداد كانوا يفعلون؛ فهل نَحِيد عن دين آبائنا؟!!"، ثم أردفتْ بلهجةٍ لائمة:

[1] : هي ضباعة بنت عامر.. من بني قشير، ثم من بني عامر بن صعصعة، كانت زوجة لعبد الله بن جدعان التيمي، ثم تزوَّجها هشام بن المغيرة، فأنجبتْ له ولده: سلمة بن هشام، وكانت من شاعرات العرب في الجاهلية، أسلمتْ مع الذين أسلموا من آل المغيرة المخزومي.. بعد فتح مكة.

"يا ولدي.. إنَّك تُردِّد ما كنّا نسمعه من زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، ولقد كان عمه الخطاب يُعذِّبه على ذلك.. حتى طرده من مكة، وأخشى عليك -إنْ سمعك أخوك أبو الحكم- أنْ يُصيبك.. مثل ما أصاب زيد بن عمرو!!".

هرعتُ إلى عيّاش.. لأبُثّه النبأ، انزويتُ به عن آذان الدار.. وهمستُ مُستعظِماً:
"أ تدري.. يا عيّاش؟ سلمة ابن عمنا هشام.. على دين زيد بن عمرو العدوي!!".
لم ينزعج.. كما كنتُ أحسبه سيفعل، وإنَّما بادرني بالسؤال: "وما دين زيد بن عمرو؟؟"، أجبتُه: "لستُ أدري! لكنَّه دينٌ يخالف دين الآباء؛ وأراك تُخالل سعيد ولده.. وأخشى عليك أنْ يصيبك منه شرٌّ!".
ضرب صفحاً عن تعريضي بصداقته لسعيد بن زيد.. وقال مُخافِتاً: "هو دينُ إبراهيم.. يا ابن عمي!!".
"ويحك.. يا عيّاش! وأنت –أيضاً- تقولها؟؟!".
أجابني بنبرةٍ واثقةٍ صارمة: "يا ابن العم! إبراهيم كان نبياً.. يُوحَى إليه من عند الله.. ويعبده وحده، ولم يكن -أبداً- يعبد الأصنام.. وما استقسم –يوماً- بالأزلام؛ لكن.. أجدادنا وآباؤنا هم الذين بدَّلوا دينه!".
"بما تهذي.. يا عيّاش؟! هذا والله.. ما كنتُ أخشى عليك منه!!".
لم يعبأ بكلامي.. بل استرسل قائلاً بصوتٍ مُشبَّعٍ بالحماس.. حتى أنّي خشيتُ أنْ يسمعه سامعٌ: "وإذا كان الوحي نزل إلى إبراهيم من لدن الله؛ فلِمَ لا يكون محمدٌ نبياً.. يُوحَى إليه؟؟!"، لحظتها.. أقبلتْ أمه –أم عمرو- علينا.. وهتفتْ ساخرةً: "وهل يُوحِي الله إلى بشرٍ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.. يا أحمق؟!! إنْ هي إلا كهانة [1]!".. ثم استطردتْ بلهجةٍ صارمة: "هيا!! انصرفا.. كلا لشأنه!".

---

[1]: الكهانة: هي إدعاء معرفة الأسرار والمستقبل إعتماداً على أخبار الجان.

فَضَّتْ أم عمرو مجلس جدالنا الساذج.. وأنا قانعٌ بحُجَّتها.. مُشفِقٌ على ابن عمي، غير أنَّي جعلتُ اختلس لحظات الخلوة لأَنزوِي بعيّاش عن أهل الدار.. عسى أنْ أَنتشله من حيرته قبل أنْ يغرق مع الصابئين؛ ولقد كان إثناؤه -عن ذاك الضلال الذي بدأ يتسرَّب إلى عقله- عسيراً.

على أنّي لم أيأس من المحاولة.. حتى غشيني –ذات مرة- ليُكرِّر نفس سؤاله الحائر: "ماذا لو كان محمدٌ نبياً.. حقاً؟؟! ماذا لو كان قرآنه.. وحياً يُنزَّل إليه مِن عند الله؟؟!"؛ لحظتئذ.. اقتحم أَبِي علينا خلوتنا.. وصاح بصوتٍ مُرعِب: "أيها الأبله! لو كان مِن عند الله.. لنُزِّل عليّ أنا: الوليد بن المغيرة.. عظيم القريتين!!"، ثم زجره.. ونهرني؛ وانقطعتُ –بعدها- عن الاختلاء بعيّاش مخافة غضب الوليد.

كما يُخيِّم الليل البهيم على السماء فتستكين له الخلائق.. خيَّم خَطَر محمدٍ ودعوته على مكة؛ فانشغل به كبراؤها، لم تُجدي شدة أبي الحكم نفعاً.. ولم يتزحزح صابئٌ عن تشبُّثه بدين محمدٍ، بل هرب الأبناء.. وفارقوا الآباء والأمهات والأهل؛ ها هو ذا عتبة بن ربيعة العبشمي يقبع في دار الندوة مُتكدِّراً مُغتاظاً لهروب ولده أبي حذيفة إلى الحبشة.. وكذا ابن عمومته: عثمان بن عفان.

ينبغي على أَبِي -شيخ دار الندوة- أنْ يتحرَّك.. ليستعيد الصدارة؛ منزلته التي كاد يفقدها.. لصالح أبي الحكم.

اجتمع شيخُ مخزوم ونفرٌ من حكماء دار الندوة مع أبي طالب بن عبد المطلب، فقالوا له: "يا أبا طالب! إنَّ لك سِنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك؛ فلم تنهه عنا، وإنَّا –والله- لا نصبر على هذا.. مِن شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا.. حتى تكفه عنا؛ أو ننازله وإياك في ذلك.. حتى يهلك أحد

الفريقين!"، عَظُم على أبي طالب ذاك التهديد والوعيد.. ورضخ لهم واعداً إياهم أنَّه سيُكلِّم محمدا.

ثم رجع أبو طالب إليهم ليقول: "قد كلَّمتُ محمداً، وقلتُ له: "يا ابن أخي.. ابق عليَّ وعلى نفسك.. ولا تُحمِّلني من الأمر ما لا أطيق!".. فأجابني: "يا عمُّ! والله.. لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أنْ أترك هذا الأمر –حتى يُظهره الله أو أهلك دونه- ما تركتُه!".. ثم استعبر وبكى؛ فقلتُ له: "اذهب يا ابن أخي.. فقل ما أحببتَ؛ فوالله.. لا أُسلمك لشيءٍ أبدا!"..!".
بُهِت الوليد وعتبة.. وألجمتْهم المفاجأة عن أنْ يُجيبوه؛ فاستأنف صائحاً بحزم: "والله.. لن تصلوا إليه بجمعكم.. حتى أُوَسَّد في التراب دفينا!"، ثم انصرف عنهم.. وهم يُقلِّبون أكفهم حسرةً وحيرة.

على أنَّ الوليد بن المغيرة –ذلك الشيخ الداهية- لا يُعجزه أحد؛ فما برح يُفكِّر.. ويُفكِّر.. حتى هُدِي إلى فكرةٍ لم تخطر على بال أحدٍ قبله، وقدَّر أنَّ محمداً لن يرفضها؛ فجمع رهطاً من أشياخ دار الندوة.. وعادوا إلى أبي طالب.. ليقول الوليد: "يا أبا طالب! إنَّا ندعو ابن أخيك لأمرٍ فيه صلاحٌ لنا كافة؛ ندعوه أنْ نُشركه في أمرنا كله.. ونتَّبِع دينه ويتَّبِع ديننا، نعبد إلهه سنة.. ويعبد آلهتنا سنة؛ فإنْ كان الذي جاء به خيراً.. كنّا قد شاركناه فيه وأخذنا حظنا منه، وإنْ كان الذي بأيدينا خيراً.. كان قد شاركنا في أمرنا وأخذ بحظه منه!".
ها هو ذا أبي يستعيد مكانته؛ لن يقدر كائنٌ –مَن كان- أنْ يُزحزحه عن سيادة قريش.. ولا عن زعامة مكة.. وإنْ كان أبو الحكم بن هشام بن المغيرة، لا يملك أحدٌ عقل ورشد ودهاء الوليد؛ لقد حَلَّ المعضلة.. التي عجز ابن هشام وسادة مكة -ببطشهم وجبروتهم- عن حلّها.

لكنَّ محمداً خيَّب رجاء الوليد.. وأفسد عليه مأربه.. وأرسل مع عمه أبي طالب كلماتٍ تقول: "لا أعبد ما تعبدون.. ولا أنتم عابدون ما أعبد؛ لكم دينكم.. و ليّ ديني!!"، انزعج **أَبِي**.. وصدمه الردُّ الجازم؛ فلم يجد مناصاً من متابعة أبي الحكم على رأيه.. والاستمرار في التنكيل بالمستضعفين من أتباع محمدٍ، بل.. وإيذاء محمدٍ نفسه؛ فاشتدّ البلاء على محمدٍ وأصحابه.. أكثر من ذي قبل.

مضى شهران أو ثلاثة، ثم انكفأ الفارُّون.. عائدين من الحبشة، وما استطاعوا دخول مكة إلا في جوار بعض الأسياد: أجار أبو طالب.. عبدَ الله بن عبد الأسد المخزومي لأنَّه ابن أخته؛ فدخل –ومعه هند- في جوار أبي طالب.
وكذا فعل آخرون.. حتى أنَّ **أَبِي** -شيخ مخزوم.. ذاته- أجار عثمان بن مظعون الجمحي؛ فدخل مكة دون أنْ يمسه أحدٌ بسوء.
لا أدري: لماذا أقدم أبي على هذا الفعل؟! أ تُراه غير راضٍ عن اضطهاد قريش لأبنائها؟! أم.. هل فعلها نِكايةً بأبي الحكم؟! لكن.. لماذا؟؟ إنَّه ابن أخيه هشام.. ولا أُنكر أنَّه ساعده الأيمن ومحل ثقته.. رغم طموح أبي الحكم المُتطلّع للزعامة.

كلا! لا أعتقد أنَّ الوليد يُناطح أبا الحكم.. وإنْ ناطحه، إذاً.. فلِمَ يُجير ابنَ مظعون؟! ربما لسابقةٍ له عنده!؟ أم.. تُراه يُصدِّق محمدا ويكتم عنّا؟! كلا.. كلا.. إنَّها بَلِيَّةٌ لا أَظنّ أنَّ أَبِي يرزأ بها بني مخزوم.

أَظَلَّنا موسمٌ جديد.. وأقبل أبو الحكم إلى أبي صائحاً: "يا شيخ مخزوم! إنَّك ريحانة قريش.. وعظيم مكة، وقد أظلّنا موسم الحج.. وسيَفِد إلينا العرب من كل حدب؛ فيجب أنْ تقول في محمدٍ قولاً يعلم به الناس أنَّك مُنكِرٌ له وكاره!"، جاوبه الوليد بعزم: "نعم! ينبغي.. أنْ أفعل!".

مكث أَبِي ليلته يُفكِّر.. ويُقدِّر، ثم أضحى ذاهباً إلى دار الندوة.. فقال: "يا قوم! إنَّكم ذوو أحسابٍ وذوو أحلام، وإنَّكم تزعمون أنَّ محمداً مجنون؛ فهل رأيتموه يُجنّ قط؟؟"، أجابوه: "اللهم.. لا!!".

"وتزعمون أنَّه كاهنٌ؛ فهل رأيتموه يتكهَّن قط؟؟"، "اللهم.. لا!".

"وتزعمون أنَّه شاعرٌ؛ فهل رأيتموه ينطق الشعر قط؟؟"، "اللهم.. لا".

"وإنّكم تزعمون أنَّه كذّاب؛ فهل جرَّبتم عليه شيئاً من الكذب؟؟"، "لا.. لا!".

تملَّكتهم الدهشة.. وإشرأبَّتْ أعناقهم إليه متسائلين في حيرة: "فماذا تقول فيه أنت.. يا أبا عبد شمس؟!!".

جعل يُفكِّر ويُقدِّر.. ثم قال في تُؤْدَةٍ: "تالله.. إنَّ لكلامه سحراً يؤثر الألباب!"، زمجر القوم.. وحجظتْ عيونهم اشمئزازاً من مقولته وارتياباً؛ فعبس وبسر.. واستأنف هاتفاً: "لكنَّه ليس وحياً من عند الله؛ إنّما يُعلِمه بشرٌ، وما هو إلا سحرٌ يؤثر، فالقول عندي: إنَّ محمداً ساحرٌ!!".

انفرجتْ أساريرهم.. وهلَّلوا فرحين برأي عظيم مكة في محمدٍ وقرآنه، ثم صاح أبو الحكم: "يا معشر قريش! أجمعوا رأيكم في محمدٍ على قَوْلةٍ واحدةٍ تقولونها -قبل أنْ تقدم عليكم وفود العرب- لتصدّوهم عنه بها، ولا أرى خيراً من أنْ نقول فيه مقالة وحيد مكة وعظيمها: إنَّ كلامه سحرٌ.. وإنَّه لساحرٌ!".

ثم استطرد: "وأرى أنْ نُثبت لوفود العرب القادمة إلينا.. أنّنا قادرون على كَفّ شر هذا الساحر عنّا وعنهم، وذلك بأنْ يشاهدوا بأعينهم تنكيلنا وبطشنا بمَن سحرهم واتَّبعوه من عبيدنا وأراذلنا.. حتى تطمئن قلوبهم ويستقر في نفوسهم أنَّ قريش كانت –ولا تزال- حامية الكعبة.. وحافظة دين الآباء والأجداد، وإنْ أبيتم أنْ نُعذِّب السفهاء من أبناء الأشراف؛ فلا جناح –إذاً- أنْ نُضيِّق عليهم في تجارتهم وأموالهم، ولا إثم على أهليهم في أنْ ينهبوا أموالهم!".

أخذتْ قريش بقَوْل الوليد.. وأشاعوا بين الوافدين: أنَّ محمداً ساحرٌ، وعملتْ برأي أبي الحكم في إظهار البطش بالذين اتَّبعوه، وطاف أبو لهب على مضارب الوافدين.. يمشي وراء محمدٍ.. يُحذِّرهم منه هاتفاً: "إياكم أنْ تسمعوا لهذا الصابئ؛ إنَّه ابن أخي –وأنا أعلم به- وإنَّه لساحرٌ!"؛ فاشتدّ الكرب على محمدٍ وأتباعه، ثم انتهى الموسم.. وانفضّ الناس عن محمدٍ وعن مكة، وبقيتْ السياط تضرب.. والنيران تحرق.. والجوع ينهش الأكباد.. والعطش ينشّب في الحلوق، الصرخات والتأوُّهات تصدح في أرجاء مكة.. والأجساد تنزف الدم.. والعيون تذرف الدمع؛ ولا قلب يَرأَف.

قام أبو الحكم يُباشر بنفسه تعذيب آل ياسر، أمسك السوط بيده، وطفق يَجلِد ياسر.. وولده عمار ويسُبّهما، ويسُبّ محمدا.. ويسُبّ إله محمد؛ فما احتملتْ سميةُ أنْ يُسَبّ إلهها الذي تؤمن به؛ فأجابتْ أبا الحكم بما أساءه، التفت إليها.. ومضى يلفحها بالسوط غير مبالٍ بصرخاتها.. ولا مُقدّرٍ لضعف جسدها ولا كبر سِنّها، شتمها.. ثم شتم محمداً وإله محمدٍ، تصبَّرتْ على لسعات السوط.. وتغاضتْ عن إهانتها وإهانة زوجها وولدها؛ بيد أنَّها لم تصبر على سَبّه محمدٍ وإلهه؛ فردَّتْ عليه الإهانة، وشتمتْه وشتمتْ آلهته.. إلى أنْ أحفظتْه، تفاقم سخطه.. حتى أعمى بصيرته، أخذتْه سكرة الغضب كل مأخذٍ.. ولم تعد ضربات السوط المُلهِبة وصرخات سمية المستغيثة ترضي غضبته؛ فانتزع حربةً –من أحد رجاله- وطعنها بها.

سكتتْ العجوز سمية إلى الأبد، لكن.. لم تسكتْ غضبة أبي الحكم: تَوَجَّه إلى ياسر –الرجل الهرم الذي شرع يبكي كمداً ويصرخ حزناً على امرأته التي قُتِلتْ تَوّاً أمام عينه- وطفق يضربه ويضربه ويضربه.. حتى أزهق روحه.

سكنتْ انتفاضات جسد ياسر الضعيفة؛ لكن.. لم يسكن غضب أبي الحكم؛ فاستدار إلى عمار.. وما رحم تفجُّعه على أبويه المقتولين.. وما رقّ لنحيبه ولا شهقاته، وإنَّما استرسل في جلده وتعذيبه وكَيِّه بالنار، وزعق فيه.. زاجراً مُتوعِّداً: "يا ابن الأَمَة! واللات والعزى.. لا أدعك حتى تسُبّ محمداً.. وتذكر هبل واللات والعزى بخير.. أو أُلحِقك بأبويك!".

ما زال يبطش به وينكِّل به نهاراً كاملاً –وجثتا أبويه أمام عينه- حتى أمسى، ونال من محمدٍ.. وذكر هُبَل بخير؛ آنئذ.. سُرِّي عن أبي الحكم وهدأتْ غضبته.. بعد أنْ سَرَت الفواجع إلى نفس عمار.

أمر رجاله أنْ يفكوا وثاقه.. ويطلقوه، وفي حلكة الليل.. أنشأ قلب عمار المكلوم يُغسِّل جسدي أبويه بدموع عينه الذارفة ودماء جراحه النازفة.

إلى الدار.. عاد أبو الحكم مُنتشِياً بنصره المبين.. مزهواً بظفره الباهر، خاطب أمه ونساء الدار: "أخيراً!! اليوم.. وبعد جهدٍ ومشقة.. رضخ أحد أتباع محمدٍ إلينا.. وشتم محمداً.. وذكر آلهتنا بخير!"، ثم حكى لنا إنجازه العظيم بقتل سمية وزوجها.. وإرغام عمار على سَبّ محمدٍ.

سمعه **أَبِي**؛ فانتفض غاضباً.. وماج وهاجتْ فورته، وصاح مُعنِّفاً: "قبَّح الله وجهك.. يا سيد السوء! تقتل ياسر وامرأته؟!! تقتل أحلافنا؟!! تقتل امرأةً عجوزاً بيدك؟! ماذا يقول عنّا الناس؟؟ بما يتحدَّث العرب؟!! أ يقولون: بنو مخزوم.. يقتلون حلفاءهم؟؟ أ يقولون: بنو مخزوم يقتلون النساء العجائز؟!".

ثم استأنف بصوتٍ صاخب.. وقد احتدَّتْ ثورته: "أيها الغضوب الجهول! تزعم أنَّك.. أبو الحكم؟! كلا.. والله.. بل أنت أبو جهل! أُخرجْ من الدار –أيها الغضوب- تالله.. لن تبيت فيها الليلة!".

وجمتْ نساء الدار، وأطرق أبو الحكم.. كأنَّما أحسّ بفداحة جرمه، ثم لملم أذيال خيبته، وفارق الدار مُذعِناً لقرار عمه، صفع أَبِي البابَ.. خلفه صفعةً أرجفتْ قلوبنا.

- ١٢ -

غاب أبو الحكم عن الدار يوماً أو يومين.. ثم عاد بهدوء، استقبله أبي كأنَّ شيئاً لم يكن، وكأنَّه لم يقتل حليف مخزوم.. ولم يطعن امرأةً عجوزاً ضعيفة.

.. وكأنَّما قَتْلُ سمية وزوجها إيذانٌ لتنُّور أنْ يفور؛ كان يَغلِي في صدر سلمة ابن عمي هشام؛ فقذف –في وجوهنا- حميماً مُستعِراً: "ماذا تنقمون من محمدٍ؟!! تزعمون أنَّه ساحرٌ؛ فلِمَ لم يسحركم.. كما سحر الذين اتَّبعوه؟؟! ألا إنَّ محمداً رسولٌ يُوحَى إليه من الله، وإنَّكم تعلمون صِدْقه؛ لكنَّكم تُكابرون!!".

انتهره أخوه -أبو الحكم- صائحاً: "بما تهذي.. يا أرعن؟!! تتكلَّم كأنَّك صبأتَ؟؟"، انبعث سلمة يجيبه صادحاً بها: "بل –والله- اهتديتُ.. وما صبأتُ! وإنَّك تعلم أنَّ محمداً على الحق.. وأنَّك على ضلال!!".

هـاج أبـو الحكم.. كالسـيل الجـارف، وانقـضّ عليـه يصـفع ويركل، ومـا قـدر أحـدٌ من أهل الدار أنْ يستنقذه من بين يديه.
لحظتها.. فَزَّ عَيَّاشُ ليفجعنا في نفسه هو أيضاً.. ويعترف صائحاً: "وأنا آمنتُ بأنَّ الله أحدٌ.. لا إله غيره، وبأنَّه أرسل محمداً إلينا بشيراً ونذيرا!!".
اسـتدار إليـه أبـو الحكـم.. وصـفعه صـفعةً غاضـبةً.. وهـمَّ بـه لـولا أنْ حالـتْ أم عمرو –أمهما- بينهما.. صارخةً: "ارفع يدك عن أخيك.. يا أبا الحكم!"، والتقطتْ ابنها عيّاش في أحضانها.. رأفـةً لـبكائه؛ بينمـا تمسـح ضبـاعة -أم سـلمة- دم ابنها الذي سال على وجهه.

بيـد أنَّ أبـا الحكـم لـم ينصـرف عـن أخويـه [1]؛ بـل حبسـهما.. وصـفَّدهما في غُـلٍّ واحدٍ، وتَأَلَّى على أهل الدار ألا يُفكّ وثاقهما.. ولا يُطلقا حتى يسُبّا محمدا.

سُقِط في أيدي الأمهات، وهرعتْ الأرملتـان إلى أَبِي.. تتوسَّلان أنْ يأمر أبـا الحكم بإطلاقهما، غير أنَّ الوليد امتعض، وذمَّ الفتيين.. وهتـف مغتاظاً: "أ تخرِق فتنـةُ محمدٍ دارَ المغيـرة، ويتَّبعه هـذان الأحمقـان.. دون علمي؟؟! مـاذا أقـول للنـاس؟! سَحَر محمدٌ أبناء أخوتي!!؟".

انهمرتْ دموع أم عيّاش وهي تستعطفه: "يا أبا المغيرة! نُكِبتْ بيوتات قـريش كمـا نُكِب بيتنا، لكن لا تفجعني بأنْ أرى ولدي يبطش بأخيه الأصغر على مرأى مني ومسـمع!"، واسـتطردتْ أم سـلمة بصوتٍ مُتـأوِّه: "هـل ترضـى الـذُّل والهـوان لـبني إخوتك.. يا شيخ مخزوم؟!! أ يُعذَّب ابن هشام.. وابن أبي ربيعة.. في بيتك؛ وأنت تسمع وترى.. ولا تمنعهما؟!!".

---

[1] : سلمة: أخوه لأبيه.. هشام، وعيّاش: أخوه لأمه.. أم عمرو.

وطفقتا تبكيان –وأمي.. تبكي معهما- وتتوسَّلان إليه أنْ يرفع يد أبي الحكم عن ولديهما؛ غير أنْ قلب الشيخ لم يلن لهما.. ولم يُشفق على بني إخوته!!؟

.. إلى أنْ تساءلتْ أمي.. قائلةً: "يا أبا عبد شمس! إنَّك قلتَ –وأنت الصادق- أنَّ محمداً ساحرٌ، وإنَّه سَحَر أبناءنا؛ فهل المسحور يحبس ويُعذَّب.. أم يُطبَّب؟!".

استبشرتْ المرأتان بكلام أمي.. وهتفتْ إحداهما: "لا فُضَّ فوك.. يا أم الوليد! نلتمس لأبنائنا الطِبَّ –يا سيدي- ولا نعذِّبهم!!".

تساءل مُترفِّقاً.. بعد أنْ كان مُنافِراً: "وكيف.. ذلك؟!!"؛ فاقترحتْ أمي هاتفةً.. بحماس: "نزوِّجهما!!".

وكأنَّما يستعجلون الاستشفاء من سحر محمدٍ؛ بادر آل المغيرة إلى تزويج الفتيين الصابئين؛ فزوَّجوهما، زوَّجتْ أمُ عمرو.. ولدها عيَّاش من -سميتها وبنت أخيها- أسماء بنت سلامة بن مخربة التميمي.

وبينما آل المغيرة وبنو مخزوم مُنشغِلون في الاحتفال بالعرس.. إذ انسلَّ زوج هند –بنت عمي- هارباً بها.. إلى الحبشة.. مرةً ثانية!؟

انزعج أبو الحكم.. حين علم بالخبر، وأقسم ليُرسلنّ خلفه مَن يستعيد منه هند.. رغماً عنه ورغماً عنها؛ بيد أنَّهم لم يتمكَّنوا من إدراكهما.

مرتْ أيامٌ.. أظهر فيها ابنا عميّ أنَّهما سعيدان بعروسيهما، وسُرّ بذلك نساء الدار، وتناسى أبو الحكم ما كان منهما آنفاً.

لكن -بعد فترةٍ يسيرة- أقبلتْ السيدة ضباعة إلى أمي.. تضرب صدرها فَرَقاً.. وتُخافتها: "أخبرتني زوجة ولدي سلمة أنَّها رأتْه يصلّي صلاة محمدٍ خُفْيَة؛ إنَّه مازال على دينه!!"، وَجِلتْ أمي.. وقالتْ مُحذِّرة: "لو علم أسياد الدار.. لزلزلوا الأرض تحت أقدامنا، ولهدموا سقف الدار فوق رأسك ورأس ولدك!!".

لطمتْ المرأة خديها.. وشرعتْ تولول في جزعٍ وحيرة: "فما العمل.. يا أم الوليد؟!!"، جعلتْ أمي تُفكِّر.. ثم همستْ في أذنها: "أكِّدي على كَنَّتكِ أنْ تكتم الخبر، واقنعي ولدكِ أنْ يسلك مع قافلة أم عمرو الراحلة –بعد أيام- إلى اليمن؛ عسى أنْ يُنسيه بُعْده عن مكة.. محمداً وتُرَّهاته!".

ما أسرع أنْ اقتنع سلمة بالخروج -من مكة- إلى اليمن، ورحَّبتْ أم عمرو بالفكرة؛ بل.. وحبَّذتْ أنْ يذهب ولدها –عيّاش- مع القافلة.. هو أيضاً.
رفض عيّاش في البداية، ثم أقنعه سلمة بالرحيل معه؛ فوافق بشرط أنْ يصطحب معه زوجته، وافقتْه أمه؛ لكن.. على مَضَض.

غادر بجير –ابن أم عمرو.. من عمي أبي ربيعة- بالقافلة إلى اليمن، واصطحب معه سلمة ابن عمنا هشام.. وشقيقه عيّاش.. وزوجته، ورفض أبي خروجي معهم؛ فخلَّفوني في مكة.. بلا أخِلّاء، فانكببتُ على متابعة أخي خالد في تدريبات الفروسية، ومضيتُ أقتدي به.. في كل شيء.

شيءٌ ما حدث.. لم أتبيَّن حقيقته؛ لكنَّه دفع أبا طالب أنْ يجمع بني هاشم.. وانضم إليهم بنو المطلب بن عبد مناف، ثم دعاهم إلى حفظ محمدٍ؛ فأجابوه جميعهم.. وتعاهدوا عليه عند الكعبة.. إلا ما كان من نفور أخيه أبي لهب.

نَفَّر هذا الموقف ملأ قريش، وقالتْ جماعةٌ منهم: "قد ناصبنا أبو طالب وبنو هاشم العداء.. ورزأونا بأنفسهم!"؛ فأشار إليهم الوليد أنْ سَكِّنوا غضبكم.. وهتف بصوتٍ مُشبَّع بالفداء: "لن يُرزأ –اليوم- أحدٌ غيري!!"، ونهض من مقامه.. وقد عزم على أمرٍ عظيم.

أخي عمارة بن الوليد.. أوسم شباب مكة.. وأنهد فتى في قريش، ليس بين فتيان مكة شابٌ يضارعه في ذلك؛ وكان بنو مخزوم يفخرون به على قريش!

استدعاه الوليد.. وهمس في أُذنه بأُبُوَّةٍ حانية: "أيا ولدي! تعلم أنَّك أحب أبنائي إليّ! وتعلم أنَّ السمع والطاعة تجب على الولد لأبيه؛ فإذا أمرتُك بشيءٍ فيه نَجاء قريش؛ فهل تُجيبني؟؟".

أجابه عمارة.. بثبات: "مُرني.. يا أبي.. بما تحب؛ فستجدني طوع بنانك!!"، تبسَّم الوليد.. وربت على كتفه مُثْنياً: "بُوركتَ.. يا ولدي، ولا عدمتُ برك وحنانك!".

ثم اصطحبه ونفراً من ملأ قريش.. وانفضُّوا إلى أبي طالب؛ فقالوا له: "يا أبا طالب! هذا عمارة بن الوليد.. أنهد فتى في قريش وأجمله؛ فخذه.. فلك عقله ونصره.. واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك؛ هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك.. وفرَّق جماعة قومك.. وسفَّه أحلامهم؛ فنقتله.. فإنّما هو رجلٌ برجلٍ!".

حدجهم أبو طالب مُتعجِّباً مُستنكِراً: "والله.. لبئس ما تسومونني! أ تعطونني ابنكم أَغْذُوه لكم.. وأُعطيكم ابني تقتلونه؟!! هذا -والله- ما لا يكون أبدا!!".

استهجن القوم جوابه.. ونابذوه، ثم رحلوا عنه.. وقد حميتْ العداوة بينهم.

علم أبو الحكم بما كان من أبي طالب؛ فثار.. ونفرتْ أنفته، وأقسم أنْ يفجع بني هاشم في محمدٍ.. هاتفاً في منتدى مخزوم: "إنّي أعاهد الله لأجلسنّ له –غداً- بحجرٍ ما أطيق حمله.. فإذا سجد في صلاته تلك.. فضختُ به رأسه؛ فأسلموني عند ذلك.. أو امنعوني، وليصنع –بعد ذلك- بنو عبد مناف ما بدا لهم!".

فأجابه القوم في حميَّة: "والله.. لا نسلمك لشيءٍ أبدا؛ فامض لما تريد!"؛ بيد أنَّ محمداً امتنع على أبي الحكم.. بسِحْره، لكنَّ أبا الحكم لم ييأس.. وما انفك يتعرَّض –وأصحابه- لمحمدٍ بالذمّ والإيذاء.

إلى أنْ جاء يومٌ عاصف.. كاد يعصف بقريش أجمعين؛ وذلك أنَّ أبا الحكم نال من محمدٍ –كما دأب أنْ يفعل- وسَبّه.. وآذاه إيذاءً شديداً، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش لدى الكعبة.. فجلس معهم يتندَّر بما صنع.
وبينما هو كذلك.. إذ أقبل حمزة بن عبد المطلب يسعى إليه حانقاً.. وصاح مهتاجاً: "تشتم ابن أخي.. وأنا على دينه؟!!"، ثم ضربه بقوسٍ كانت في يده.. فشجّ رأسه.. وأردف: "ردها عليّ.. إنْ استطعتَ!!".
فثار رجالٌ من بني مخزوم حميَّةً لأبي الحكم.. وقام آخرون -من بني هاشم- حميَّةً لحمزة، وكادوا يتعاركون.. لولا أنْ قال أبو الحكم بشيءٍ من الخنوع: "ذروا أبا عمارة؛ فإنّي سببتُ ابن أخيه.. سبّاً قبيحاً!".

لبث أبو الحكم في الدار –لم يغادرها- يوماً أو يومين.. مُتكدِّراً من إهانة حمزة له على أعين الناس، ورغم محاولات أهل الدار للتخفيف عنه.. لم يقدر أحدٌ أنْ يُطيِّب خاطره.
ثم خرج وجه النهار، وعاد آخره بغير الوجه الذي ذهب به، ثم حسبناه سيذهب -مساءً- إلى سامره ؛ فما خرج.. وما كلَّم أحداً، وإنَّما قعد.. كأنَّما يتربَّص بأمرٍ ما.
تَوَجَّستْ أمي من حاله.. وسألتْ أمه عن شأنه؛ فكانت –مثلها- جاهلةً به، قصدتا إليه.. وكلَّمتاه.
ثم انفردتْ به أمه.. وطفقتْ تواسيه لعلّها تُطيِّب خاطره وتنسيه إساءة حمزة؛ على أنَّه أجابها: "هَوِّني عليكِ.. يا أم عمرو! واللات.. ما منعني عنه إلا أنّي كرهتُ

أنْ يتنـازع الحيّـان.. فـتفترق كلمـة قـريش، وعسى عمر بن الخطـاب العـدوي.. أنْ يثأر لـخاله!!"، ضربتْ أمه صدرها وَجَلاً.. وتسـاءلتْ: "بِمَ أمرتَ ابن حنتمة [1].. يا عمـرو؟!!"، أجابها بشيءٍ من التضجُّر: "لـم آمره بـشيءٍ؛ بل هـو الـذي تطوَّع أنْ يفعـل.. أنفـةً لي، ولـيُخلِّص قـريش مـن ذلـك الصـابئ الـذي فـرَّق كلمتهـا.. وعـاب دينها!!"، أجابتْ أمه مُندهشة: "تباً!! ماذا عزم أبو حَفْص أنْ يفعل؟!!".

ردّ بـنبرةٍ عميقـةٍ مُخيفـة: "الليلـة.. سـيقتل محمـداً!"، شـهقتْ أم عمـرو مُرتاعـة: "بئس مـا عمـدتما إليـه؛ أ تحسـب أنَّ بني عبـد منـاف تـاركوه يمشي على الأرض.. بعد أنْ يقتله؟؟!"، نهض مِن بين يديها مُتأفِّفاً.. كأنّما سئم الحديث معها، وفيما يغادر مجلسها.. هتف بإصرار: " يا أم عمرو! سنقتل محمداً؛ ولا نبالي بما يكون بعد ذلك!!"، تابعتْه بأبصارٍ شاخصة وقلبٍ ملتاع.. وهمستْ: "يا ويحي! لـبئس ما غررتما به أنفسكما! تالله.. لئن فعل؛ لتُسفَكنَّ دماءٌ غزيرة!!".

سمعتُها تقُص على أمي ما نبَّأها به أبو الحكم؛ انكربتْ أمي.. وخافتتْ في جزع: "إنَّ قَـتْل محمـدٍ لـشيءٌ عظيم!؟؟"، ثـم غَشِـيهما وجـومٌ مـلأ الكونَ مِـن حولنـا.. وانتابهما سكونٌ وترقُّب.

مكثتـا عـلى تلـك الحـال مـدة.. حتـى انقضى هزيـع الليـل الأول، ثـم هتكـتْ سـتر وُجُومنـا طرقـاتٌ صـارمةٌ.. وقعتْ على بـاب الـدار كانحطـاط سيلٍ.. وعلى أفئـدتنا كصاعقة بليلٍ، ارتجفتْ قلوبنا.. وارتعدتْ فرائسنا.

انـتفضّ أبـو الحكـم إلى بـاب الـدار.. يفتحـه؛ فانكشـف عمـر مـن وراء البـاب.. كشبحٍ طويلٍ جسيمٍ.. تحيط به هالةٌ من ظلالٍ ذات رهبة.

---

[1]: هي: حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي؛ تزوجت الخطاب؛ فأنجبتْ منه: عمر، وهي بنت عم أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، لذا.. كان عمر يدعوه: يا خالِ.

تطلَّعتُ –وأمي وأم عمرو- إليه.. من خَلْف أبي الحكم؛ فكانت هيئته مهيبةً مخيفة، بَشّ له.. وهتف مُستبشِراً: "مرحباً.. يا ابن أختي! أُدخل!!".
أومأ رافضاً.. وصاح بصوتٍ زلزل الأرضَ تحت أقدامنا: "يا خالِ! جئتُ لأخبرك أنّي آمنتُ بالله.. وبرسوله محمدٍ، وصدَّقتُ بما جاء به!!".
سُقِط في أيدينا، واكفهر وجه أبو الحكم، وضرب الباب في وجهه.. صائحاً في سخط: "قبَّحك الله.. وقبَّح ما جئتَ به!".

ما عتَّم نبأ إسلام عمر أنْ شاع في أرجاء مكة، فاغتَمّ أهلها له اغتماماً شديداً.. ولا سيما أنّنا لم نفق –بعدُ- من صدمة حمزة، ولا جرم أنَّ أصحاب محمدٍ فرحوا بإسلامهما فرحاً جماً، وما لبثوا أنْ جاهروا بشعائر دينهم الجديد.. حيث طَلَعوا يمشون خَلْف محمدٍ في صفين –على رأس أحدهما عمر.. وعلى رأس الآخر حمزة- إلى صحن الكعبة، وعلى مرأى ومسمع من نادي قريش وملأها.. طافوا بالبيت.. وصَلّوا صلاتهم المبتدعة؛ كنتُ لم أزل شاباً أمردا، وقد كنتُ هناك -في ذلك اليوم- وشاهدتُهم؛ كان منظراً مهيباً.. غرز في نفسي رهبةً لم ينطمِس أثرها.

مضتْ أسابيعٌ.. ولم يزل أمر محمدٍ في صعود، وشجَّع إسلام حمزة وعمر بعض الصابئين على الجهر باتِّباعهم لمحمدٍ، وباتتْ مكة كأنَّها تتلظى فوق أتون مستعر.

مما زاد الكَرْبَ على آل المغيرة.. كان انكفاءُ بجير –شقيق عيَّاش- إلى مكة.. عائداً بعير أمه من اليمن قبل الموعد المقدَّر له؛ عاد إلينا مُنكَّس الرأس.. ليقول في انكسار: "هرب سلمة ابن عمي.. وأخي عيَّاش وزوجته.. إلى الحبشة!!".
شهقتْ أمه في هلع، وصرختْ أم سلمة مُوَلوِلة.. وبكتْ زوجته، وطفر الدمع من عين أمي تحسُّراً على آل المغيرة الذين أوشك عقدهم أنْ ينفرط!!

علم أبو الحكم بالبليَّة؛ فهاج وماج.. وأقسم ليُرسلنَّ خَلْفهم مَن يأتيه بهما مُكبَّلَيْن في الأغلال.. وليُعذِّبنَّهما عذاباً مهينا.

خلال أيامٍ قليلة.. أصبحنا نكتشف أنَّهما لم يكونا الوحيدين الذين هربا منّا إلى الحبشة؛ بل فرّ إلى الحبشة العشرات مِن رجال قريش الذين اتَّبعوا محمدا.. وكذلك بعض النساء، لا جرم.. في طليعتهم عبد الله بن عبد الأسد.. ومعه: هند، ورجالٌ من قومه: بني عبد الأسد بن هلال المخزومي، ومن بني عبد مناف: جعفر بن أبي طالب.. وعثمان بن عفان.. وزوجته بنت محمدٍ، وغيرهم.. كثيرون!!؟

ما برحتْ قريش تفتقر إلى حكمة الوليد بن المغيرة؛ فأقبلوا.. يلتمسون منه الرأي والمشورة، لبث برهةً.. يتأمَّل الأمر ويُفتِّش في جعبة أفكاره ويبحث في غزير تجاربه.. ثم قال لهم: "نرسل وفداً إلى نجاشي الحبشة، ونرسل معهم الهدايا المستطرفة.. للنجاشي وبطارقته؛ ثم نطلب منه أنْ يُسلِّمنا الصابئين مِن أبنائنا الذين فارقوا ديننا ولم يدخلوا في دينه!".
انفرجتْ أسارير القوم.. وهتفوا مُشيدين: "نعم الرأي! قد أحسنتَ القول.. يا أبا المغيرة!!"، تفكَّر هنيهة.. ثم قال: "وليكن ولدي عمارة.. على رأس وفدكم هذا، وسأبعث معه إلى النجاشي وبطارقته هدايا من الأدم الذي يستظرفونه!".

عملاً بمشورة والدي.. قرَّر سادة قريش إرسال وفدٍ إلى النجاشي، واتفقوا أنْ يترأَّس أخي عمارة.. ذلك الوفد، وأنْ يصحب معه عمرو بن العاص السهمي لعلاقته الوطيدة بالنجاشي، وغدوا يجهّزون المبعوثَيْن بالهدايا والرَشاوَى اللازمة لإنجاح مهمتهما.

أما أبو الحكم.. فلَمْ يكن منفكاً.. حتى يقتل محمداً!!؟

وكأنَّما أبو طالب علم بما يجيش في نفس أبي الحكم؛ فأصبحنا –ذات يومٍ- لنَجِده قد جَمَّع بني هاشم وبني المطلب حول محمدٍ في شِعْب أبي طالب.. ليحفظوه أنْ تمتدّ إليه يدٌ بسوء.

ضرب أبو الحكم الأرض بقدمه امتعاضاً، وما فَتِئ يتلظَّى تغيُّظاً لفوات فرصة اغتيال محمدٍ، لكنَّه رجلٌ.. لا يعرف اليأسُ إلى قلبه طريقاً؛ فصبَّر نفسه.. ومَنَّاها بأنَّه: لا ريب ستواتيه فرصةٌ.. ولن يضيِّعها.

- ١٣ -

افتقدتُ عيَّاش بشدة؛ فهو إلفي وخليلي.. الذي –طالما- لعبتُ معه.. وتسامرتُ معه، لبثتُ أياماً –بل.. أسابيع- أُمنِّي نفسي: بأنَّه –لابد- سيشتاق إلى أهله وبيته.. وإلى مكة ومراتع الصبا، بأنَّه.. لن يتحمَّل الغربة.. وسرعان ما سيعود إلينا.

لكن.. حينما تأمَّلتُ سَمْته –خلال الفترة الأخيرة- وحياته معنا؛ وجدتُ أنَّه قد تباعد عني.. وعن أهله، أبعده عنَّا نَبْذه لدين قومه، وفَرَّق محمدٌ بينه وبيننا.. وهو بين أظهرنا؛ لقد تباعد عنّا.. قبل أنْ يهرب منّا إلى الحبشة، وا أسفاه.. يا عياش!؟ كيف يكون محمدٌ ودينه أحب إليك.. مِن أهلك وقومك وبلدك؟!!

آيستُ من عودة عيَّاش وسلمة، وتشاغلتُ بالتدريب مع أخي خالد؛ لم يزل خالد هو قدوتي، لم يزل هو أكثر شباب مخزوم –وإنْ شئتَ قل: قريش جميعاً- إبهاراً لي.. بذكائه وشجاعته وفروسيته ونشاطه وحيويته.. وترفعه عن دنايا الأمور؛

لذا.. فقد استمررتُ في الانخراط وراءه فيما يهتمّ به، وعزمتُ على نفسي أنْ أتعلَّم منه.. حتى أصير فارساً شديداً مثله.
صارحتُه بإعجابي بفروسيته.. وبرغبتي في أنْ يُعلِّمني لأكون مثله؛ ابتسم ابتسامته.. المحبَّبة إليّ، وربت على كتفي.. وقال: "دعنا –أولاً- نختبر صدقك فيما عزمتَ عليه!!"؛ فقضيتُ معه أياماً عصيبة في تدريباتٍ وإختباراتٍ شاقة، خَصَّني بها دون غيري من الفتيان.. ليمتحن –كما قال- صدق عزمي وقوة صبري.

أذكر أنني كنتُ أُجهَد جهداً شديداً.. حتى أقنط مِن قدرتي على احتمال ما يكلِّفني به، أحياناً.. كنتُ أشعر بالندم على أنّي صارحتُه بما أردتُ، وكثيراً ما سَوَّلتْ لي نفسي أنْ أهرب منه.. وأدع ما كلَّفني به، وأحياناً.. كنتُ أشعر أنَّ الشياطين تدور حولي.. وتكاد تتخطَّفني من كل جهة؛ بل وتُلقي في روعي: (أنَّ خالد –أخي- يُعذِّبني.. لا يُدرِّبني، وأنَّه لئيمٌ شرير.. يتلذَّذ بعذابي لأنَّ أمي لا تحب أمه!؟)؛ وساعتها.. كنتُ اختلي بنفسي –حينما يجنّ الليل- وأظلّ أبكي وأبكي.. حتى يَشُقّ البكاء صدري.. ويَشُقّ نور الصبح كبد السماء.
لكنّي أنهض –مِن جديد- نافضاً عن رأسي أفكار الليل السوداء.. وعائداً إلى خالد؛ ذلك الأخ الذي يريد أنْ يجعلني فارساً صنديداً.. أو أموت.

ذات ليلةٍ.. وبينما أعالج جراحات وآلام تدريباتي الشاقة، وأعالج وساوس نفسي التي تُقنِّطني من بلوغ الغاية؛ إذ سمعنا بعودة عمرو بن العاص ووفد النجاشي، لكن.. أخي عمارة لم يرجع بعدُ، تسلَّل الريب إلى قلوبنا؛ بيد أنَّ أَبِي آثر التصبُّر إلى أنْ ينبلج الصباح.

انبلج الصبح، وسطعتْ الشمس حتى ألهبتْ الرءوس.. وما ظهر عمارة، وما أتى عمرو ليطمئننا عليه.. أو حتى يُسلِّم على شيخ مكة؛ فاستدعاه الوليد.

حضر مُتباطئاً.. يُقدِّم رِجْلاً ويؤخِّر أخرى؛ حيّاه تحيةً فاترة.. وطأطأ رأسه على غير عادته؛ ليس هذا هو عمرو الذي نعرفه.. ماذا دهاه؟! ما الخطب؟؟!
سأله أَبِي.. بنبرةٍ مُشبَّعةٍ بالريبة: "ماذا وراءك.. يا عمرو؟؟ أُخمِّن أنَّ النجاشي رفض سِعايتكم!؟".
أجابه بنبرةٍ مُنكسِرة: "بل.. وردَّ علينا هدايانا.. يا شيخ مخزوم!"، ثم أردف: "والأسوء من هذا.. أنَّه قال لأصحاب محمدٍ: اذهبوا.. فأنتم آمنون في أرضي!".
قطَّب أَبِي جبينه امتعاضاً.. وأطرق مُتفكِّراً، وكنّا وُقوفاً حولهما.. حينما تساءل بتَوَجُّس: "وولدي.. عمارة؟! ما باله.. لم يرجع معك؟؟!".
وجم عمرو.. ونكَّس رأسه، وطال صمته حتى شقّ علينا وعلى أَبِي.. فاستحثّه صائحاً: "أين ولدي عمارة.. يا ابن العاص؟؟!".
تردَّد عمرو.. ملياً، ثم أجاب -وكأنَّ كلماته تصعد من بئر سحيق- هامساً.. بصوتٍ مُبتئس: "استهوى عمارةُ زوجةَ النجاشي.. فهَوِيتْه وواصلتْه، واطَّلَع على أمرهما النجاشي؛ فغضب.. وحبس عمارة عنده؛ لينتقم منه، وطردني مِن عنده، ولستُ أدري: ما هو صانعٌ به!!".
ارتجف أَبِي.. وسقطتْ عصاه من يده، وأدركناه -قبل أنْ يَهوِي على الأرض- فأسندناه.. وأجلسناه على مُتَّكأ، واعتذر عمرو.. وبادر بالانصراف.

كاهِل الوليد -الذي ما ناء بحمل سنوات عمره التي تجاوزتْ التسعين- لم يحتمل النبأ العظيم، وثَقُل عليه ضياع ولده الوسيم.. منه؛ فرقدتْ في فؤاده الهموم.. وركدتْ على وجهه الكآبة؛ فبدا.. وكأنَّ سِني عمره قفزوا من التسعين إلى المئة والتسعين، اعتزل الناسَ والابتسام.. والتزم السكوتَ والاغتمام.

لم يكترث أبو الحكم لضياع أخي عمارة مِنّا.. بقدر ما اهتمّ وابتأس لامتناع الصابئين المهاجرين عليه؛ وكأنَّما تُحدِّثه نفسه: (بؤساً لبني هاشم! غلبني أبو طالب هنا، ويغلبني ولده جعفر.. في الحبشة!!؟ كلا! لن أنهزم لكم.. يا بني هاشم!!).

جمع حكماءَ دار الندوة.. وخطب فيهم: "يا معشر قريش! إنَّ أبا طالب -ومِن ورائه بنو هاشم- قد عاندوا.. وتكبَّروا علينا، وفارقونا.. واعتصموا بشِعَب أبي طالب.. رافضين أنْ يُسلِّمونا ذلكم الساحر الذي عاب آلهتنا وسفَّه أحلامنا وفرَّق جماعتنا، ومِن قبلُ.. امتنعوا عن قبول ما عرضناه عليهم للتوفيق بيننا!".

زفر زفرةً ساخطة.. وتَوهَّج الشر في عينيه.. واستطرد صائحاً: "قد بدأونا بالعداوة؛ فلا تثريب علينا –إذاً.. بعد أنْ فارقوا جماعتنا- ألا نناكحهم.. ولا نبايعهم، ولا نجالسهم.. ولا نخالطهم، ولا ندخل بيوتهم، ولا نكلِّمهم.. حتى يُسلِّموا إلينا محمداً.. فنقتله!".

وَجِل القوم.. واستصعبوا المسألة، و شقَّ عليهم أنْ يفعلوا هذا ببني هاشم.. قُرَّة عين قريش، بيد أنَّ أبا الحكم لم يبرح يجادلهم ويغريهم ويحضّهم.. حتى إنقادوا لأمره، ولكي يضمن ألَّا يتراجعوا فيما وافقوه عليه.. أصرّ أنْ يكتبوا بذلك صحيفةً فيها عهودٌ ومواثيق: "ألا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبدا، ولا تأخذهم بهم رأفةً حتى يسلِّموا محمداً.. للقَتْل!!".

.. ثم عُلِّقتْ الصحيفة في جوف الكعبة ..

لم أُبالِ بالأحداث التي تجري في قريش ومكة، ولم أعد أعبأ –كثيراً- لغياب الذين هجرونا إلى الحبشة، ولم أكترث لمقاطعتنا بني هاشم.. ولا لتضوُّر جَوْعاهم،

وكـذا.. لـم أبتـأس للـعَبرات الصـامتة.. اللاتـي تـذرفهنّ أم زهيـر [1] -كل ليلـة- علـى عشيرتها، وعلى حالهم.. التي آلوا إليها.

إنَّمـا انشـغلتُ –عـن ذلـك كلـه- بـغايتي العظمـى؛ ألا.. وهي أنْ أكـون فـارسـاً كـأخي خـالـد، ولقـد اعتَـدتُ –مع تـوالي الأيـام.. والأسـابيع- على تلـك التـدريبات القـاسـية.. التي تعهَّدني بها خالـد، وأحسستُ –خلالها- أنّي أزداد طولاً وجسامة.. وأَشتدّ قـوةً وجسارة، نظرتُ إلى نفسي.. فألفيتُها تزخـر ثقـةً وبأسـاً ورشـاقة؛ فـتفاقم إقبـالي على التـدريبات، وعكفتُ على مـا يكلَّفني بـه خـالـدٌ.. لأقـوم بـه كأحسـن مـا يكـون، وأصبحتُ أفوق أقراني؛ غير أنّي ما زلتُ لا أقدر أنْ أَبُذّ خالدا.

أحسستُ أنّ شيئاً ما ينقصني.. كي تكتمل فروسيتي؛ ما زلتُ أتفكَّر في ماهية هـذا الشيء.. حـتى أيقنـتُ أنّي ينقصـني: جـوادٌ خـاص بي.. كـفرس خـالـد الأدهـم [2].. أو كفرس أبي الحكم: (مِجَاح [3])، ولئن سألتُ أَبِي أنْ يهبني واحداً؛ لا شـك سيقول: "حظائر الدار مَلأى بالخيل العِتَاق؛ اختر إحداهن.. تكن لك وحدك!".
لكنّي أريد غير هذا؛ إنّي أشتهي أنْ أقتني جـواداً.. أكون أنـا الـذي اخترتُه واشـتريتُه، أريد جواداً.. لم يبت في الدار قبل أنْ يكون ملكي!!؟
شـغلني الأمـر واهتممـتُ لـه.. واحتـرتُ: "هـل سـيحقّق لي الشـيخ رغبـتي؟! أم سيصدّني.. وينهرني؟!! فكَّرتُ أنْ أستشفع عنده بأمي، لكنّي.. تراجعتُ؛ فـفي مثل هذه المسائل.. لا يقبل أبي وساطتها!!؟ إذاً.. ليس لها سِوَى: أخي خالد.

[1]: أم زهير: هي عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم –فهي من بني هاشم.. وأخت أبي طالب- تزوَّجها أبو أمية بن المغيرة المخزومي.. المُلقَّب:بزاد الركب؛ فأنجبتْ له زهير بن أبي أمية.. وآخرين، وهي عمة النبي محمد ﷺ، وليستْ أم هند بنت أبي أمية (السيدة أم سلمة)؛ وإنّما زوجة أبيها.

[2]: كان لخالد فرس أدهم أغر محجل.. يحارب عليه المسلمين -في غزوة أحد- قبل أنْ يُسلِم.

[3]: مِجَاح: معناه في المعجم: المُتكبِّر، وهذا اسم فرس أبي جهل الذي كان معه في غزوة بدر.

أظلنّـا الموسـم، وفيمـا نسـتعد لسـوق عكـاظ -كدأبنا كل عـام- ونُجهِّـز بضـائعنا.. قصدتُ إلى خالد، وبكلماتٍ تتعثَّر تـردُّداً وخجلاً.. التمستُ منه أنْ يشفع لي عند أبي لأبتاع جواداً كريماً.. من عكاظ، أجابني: "هل لك في خيرٍ من ذلك؟! تسابقني إلى عكاظ، فـإنْ سبقتني... كان لـك الجـواد الـذي تبغي هديـةً مني! وإنْ سـبقتُك.. رضيتَ بحصانٍ مِن حظيرة أبيك!؟".

تردَّدتُ.. وطلبتُ منه مهلةً لأفكِّر، وبت ليلتي.. حائراً: (المسافة مِن مكة إلى عكاظ ثلاث ليالٍ ؛ كيف أسابق خالد في مسافة كهذه؟!! أنَّى لي أنْ أسبقه؟؟!).
ثم شجَّعتُ نفسي قـائلاً لهـا: (لا بـأس عليّ .. إذا سـابقتُه؛ فـإنّي إنْ فـزتُ حصَّلتُ مغنماً، وإنْ خسـرتُ.. لـم أتكلَّـف مغرماً!)، ثـم أصبحتُ.. وأبلغتُـه قبـولي عرضـه، غير أنّي اشترطتُ عليه: ألّا يسابقني على حصانه الأدهم؛ فأجابني لما أريد.

اخترتُ لنفسي أقوى وأسرع حصان أعرفه.. في حظيرة أَبِي؛ أطعمتُه.. واجتهدتُ في إعداده للسباق أياماً، وأعلم أنَّ خالد يراقبني.. مِن بعيد!!
بـاكراً –يوم بدء السباق- أسرجتُ الحصـان.. وحملـتُ متـاعي.. وخرجتُ مِن بـاب الـدار؛ فألفيتُـه ممتطياً جـواده -وقد أتمّ استعداده-، وينتظرني.. لنبتـدأ السـباق، ابتسم ابتسامته الودودة.. وهتف: "هل نبدأ.. يا فارس مخزوم؟؟".
وقلبي يضطرب رهبةً ومهابة.. أومأتُ: أنْ.. نعم!

نكز حصانه.. وانطلق يعدو.. وهو يهتف بثقة: "سأنتظرك.. عند سُرادِق أبيك في عكاظ!"، صيحته الواثقة.. ألقتْ اليأس في قلبي؛ أحسستني أنّي خسرتُ السباق قبل أنْ يبدأ، على أنّي طردتٌ اليأس عن قلبي، واستجمعتُ شَعَث نفسي مُشجِّعاً إياهـا: (لا بـأس مـن المحاولـة! ولا تثريـب علـيّ.. لـو سـبقني خالـدٌ؛ فمـن ذا الـذي يستطيع أنْ يسبقه؟!! فقط.. عليّ أنْ أُظهِر أفضل ما عندي).

انطلقتُ.. أعدو، اجتهدتُ.. واصلتُ الليل بالنهار، طاردني النوم.. فطردتُه عن جفوني، عمدتُ لأنْ تكون وقفات الراحة قصيرة، كنتُ أُجهِد الحصان ليلاً ونهاراً.. إلا في أوقات الهواجر، حاولتُ تلمُّس آثار خالد.. في الطريق؛ فلم أعثر له على أثر، شعرتُ أنَّه سبقني -مِن أول ليلة- وأنهى السباق لصالحه.

كنتُ أُكابد مشاعر الاحباط والرهبة.. أكثر مما أُكابد وعثاء السفر؛ كانت أطول رحلة في حياتي، وها هي ذي –أخيراً- تنتهي!!

أبصرتُ فسطاط أَبِي.. ولم أَرَ أثراً لخالد، دفعتُ الحصان -الذي كاد يهلك مني في نهاية الرحلة- ووثبتُ.. واقتلعتُ قصبةَ السبق، شعرتُ كأنّ نياط قلبي تتقطَّع، تركتُ الحصان المُجهَد لأحد عبيد أبي؛ وأنشأتُ ألتقط أنفاسي رويداً.

انتبهتُ إلى القوم.. وهم يُصفقون لي.. ويهنئونني، جاؤوني بماءٍ.. شربتُ، ثم سألتُ مُتوجِّساً: "أبو سليمان.. هل سبقني؟!!"، سمعتُ الإجابة التي طار بها قلبي فرحاً: "لا ترتاع.. يا وليد! إنَّك احرزتَ قصب السبق [1]؛ أنت.. الفائز!!"، هلَّلتُ سروراً وطرباً؛ والحق.. أنَّ فرحتي لم تكن بالجائزة التي أصبحتْ مِن حقي؛ إنَّما فرحتُ.. لأنّني –أخيراً- سبقتُ **خالد**!!

لم تكد ثورة فرحتي تهدأ.. ولَمَّا ألتقط أنفاسي؛ وإذا بخالد يُقبِل علينا.. ويترجَّل عن جواده، ثم يقترب مني.. ويربت على كتفي.. ويُهنِّئني هاتفاً أمام الحاضرين: "قد فزتَ.. أيها الفارس الهمام!! وقد وجبتْ لك الفرس النجيبة التي تبتغي!".

شكرتُه.. بتواضعٍ وامتنان، بيد أنّي حين تطلَّعتُ إليه، وتأمَّلتُ مظهره؛ لم أجده لاهثاً.. ولا مُجهَداً، وكذا.. حصانه لا يبدو عليه الإعياء؟!!

---

[1]: يقال للفائز بالسباق: أَحْرَزَ قصبَ السَّبْقِ، وأصلُه أنهم كانوا ينصِبون فى حلبة السِّباق قصبةً؛ فمَن سبق.. اقتلعها وأَخذها ليُعْلَمَ أنَّهُ السَّابِقُ.

آنئذ.. أُلقي في روعي: (أنَّ أخي خالد تعمَّد أنْ ينهزم لي!!؟)، تساءلتُ في دخيلتي: (لماذا يفعل ذلك؟؟! لماذا يخسر السباق أمام الجميع.. وهو قادرٌ على الفوز به؟!!)، لا إجابة على هذا السؤال سِوَى أنَّ خالد يُحبني، وأنَّه أراد أنْ يرفعني بين الناس بهذا الفوز، وكذا.. أراد أنْ يُهديني الجوادَ الذي أريد دون أنْ يجرح كبريائي!! (يا لك مِن أخٍ كريمٍ.. يا ابن أبي!!)، لقد تعاظمتْ محبته في قلبي.. أكثر وأكثر.

فيما نباشر أعمالنا المعتادة في السوق، وبينما أستحي أنْ أسأله: (متى سنشتري الجواد الذي وعدتني به؟؟).. إذ أخذني خالدٌ إلى شيخٍ نجدي اشتهر بأنَّه أفضل مَن لديه نجائب الخيول، وهمس في أُذني: "سيعرض عليك هذا الشيخ الأعرابي أَحْصِنَةً؛ فاختر أجودها! وسأُشِير عليك فيما تحب!!".

رحَّب بنا شيخُ نجد.. واحتفى بنا احتفاءً خاصاً؛ ولا غرو.. فنحن ابنا الوليد بن المغيرة المخزومي، استعرضنا جِياده.. وشار[1] بعضها أمامنا؛ راق لي حصانٌ كُمَيْت[2]؛ عاينتُه –وأخي خالد- فألفيناه: عظيم الرأس.. رحب الجبهة.. واسع الشدق، عيناه واسعتان.. صافيتان برَّاقتان، مستقيم الأنف.. متسع المنخران، مجلجل الصهيل، عنقه مستقيم طويل.. دقيق لين قليل اللحم، رحيب الصدر، صلب الحوافر.. رقيق السنابك، رقيق الجلد.. ناعم الشعر.

أبصر شيخُ نجد الإعجاب في عينيي.. فهتف: "أحسنتَ الاختيار.. يا فارس مخزوم!! إنَّه حصانٌ نجيب.. مِن خيلٍ عِتَاق!".

التزمتُ الصمت.. وتكلَّم خالد فقال: "دعنا نُجرِّبه بأنفسنا.. أيها النجدي!؟".

أومأ برأسه مُجيباً: "لك ما تحب.. يا سيد مخزوم!"، دعا عبيده.. فأسرجوا لي الجواد، ثم تَوَجَّهتُ إليه؛ طُفتُ حوله.. تفحَّصتُ سَرْجه.. ومسحتُ –مُتودِّداً-

---

[1]: شار الدابة: أجراها عند البيع ليُظهر قوتها.

[2]: الكُمَيْت: هي الفرس لونها بين الأحمر والأسود.. يُطلق على المذكر والمؤنث.

على عنقه ومَعْرَفَته، ثم وثبتُ فوقه.. وهممتُ أنْ أنطلق به، فصاح الشيخ النجدي ناصِحاً: "احذر.. أيها الفارس! إنَّه فرسٌ سريع العَدْوِ.. كأنَّه الظَّلِيم[1] !!".

لم أكترث لنصيحته.. ثقةً في نفسي، وانطلقتُ بالجواد الأَرِن، لم تستعصِ عليَّ قيادته.. رغم شدة عَدْوِه، ازددتُ تَمسُّكاً به.. وهامستُ خالد: "هذا الذي أريد.. يا أخي!"، اتفقنا مع النجدي على الثمن.. واشتراه خالد لي؛ وتحقَّقتْ أُمنيتي!!

إلى مكة.. رجعتُ مُمتطياً صهوة جوادي الذي اخترتُه لنفسي، أدخلتُه حظيرة الدار.. وبات ليلته الأولى –في الدار- وأنا أول مالكٍ له مِن آل المغيرة المخزومي.. كما كانت رغبتي، فرحتُ به كثيراً.. وما أُحِب أنَّ لي به حُمْر النِّعَم.

تَقبَّلتُ التهاني مِن الأهل والأصحاب.. وأولهم: شقيقي هشام الذي عاتب خالد قائلاً: "وددتُ لو أشركتني معك في تلك الهدية؛ فإنَّك لستَ أشدّ حباً للوليد مني!!؟"، هزَّ خالد كتفيه بلامبالاة؛ لكنّي شكرتُ هشام على محبته.. وطيَّبتُ خاطره، ثم سألني بملاطفة: "يا وليد! هل اخترتَ لجوادك اسماً؟؟".

تفكَّرتُ هنيهة.. ثم أجبتُه: "هو سريع العَدْوِ.. كالظَّلِيم؛ لذا.. سأُسميه: الظَّلِيم!"، ومِن حينها.. وهذا الجواد العتيق يُدعى: (**الظَّلِيم**).. جواد الوليد بن الوليد!

بعدها.. نسيتُ كل نعم الحياة وملذاتها.. إلا الظَّلِيم ومداعبته واللعب معه؛ مكثتُ أُطعمه وأسقيه بيدي.. وأُحَمِّمه بنفسي، كنتُ أنظف له مربضه –كل يومٍ- بنفسي، وأخرج به للتريُّض في الشِعَاب.. كل يوم، صار صاحبي وخليلي.. حتى أنّي أصبحتُ أُحدِّثه.. وأبوح له بأسرار قلبي، وأشعر أنَّه يسمعني ويفهم كلامي، ثم أنشأتُ أخرج معه للصيد في الصحراء؛ ولقد خضنا -معاً- مُغامراتٍ خطرة.. لصيد الأوابد والوحوش، ولقد كان نَعِم الجواد الوفي لفارسه.

---

[1] : الظَّلِيم: هو ذَكَر النعام.. وهي طائر كبير الجسم طويل العنق قصير الجناح شديد العَدْوّ.

مضيتُ على هذا الحال –شهوراً.. وشهور- مُهتَمّاً بجوادي الأثير.. ساهِياً عن مكة وأحوالها، مُعتقِداً أنَّ نار الفتنة انطفأتْ.. وصارتْ رماداً، وحسبتُ أنَّ القضية انتهتْ على ذلك: أذعنتْ قريش لرأي أبي الحكم.. وحُصِر بنو هاشم في شِعَب أبي طالب، ولن يخرجوا حتى يُسلِّموا محمدا.. أو يهلكوا، واعتزل الوليد بن المغيرة.. كمداً على ولده الوسيم؛ وبات وحيدُ مكة.. وحيداً مُبتئساً.. كأنَّما زهد في الحياة.. وفي الموت أيضاً!!

ولا جرم أنَّ زعامة مكة.. قد صفتْ لأبي الحكم بن هشام؛ فلا عودة للمغيَّبين في الحبشة.. ولا للمغيَّبين في شِعَب أبي طالب.

بيد أنَّ زهير.. ابن عمي أبي أمية –الذي لم تجف دموع أمه: عاتكة بنت عبد المطلب- نفث في الرماد؛ فعادتْ النار.. وتأجَّجتْ!

ذات نهار.. لاحظتُ الاضطراب على زهير.. ورأيتُ العبوس في وجهه؛ كان يطوف بجنبات الدار.. ولا يستقر على حال، يدخل ويخرج.. ولا يكاد يجلس على متكأ حتى ينتفض قائماً، ثم ارتدى حُلَّةً فاخرة، وحمل سيفه.. وانسلّ مُسرِعاً.. لا ندري: إلى أين؟!!

ثم علمتُ أنَّه قصد الكعبة.. فطاف بها سبعاً، ثم أقبل على الناس.. صائحاً: "يا أهل مكة!! أ نأكل الطعام ونلبس الثياب.. وبني هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم؟!! والله.. لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!!".

نهض إليه أبو الحكم –وكان في ناحية الكعبة- مُمتعِضاً.. مَبغوتاً بقول ابن عمه، ثم هتف نافراً: "كذبتَ! والله.. لا تُشقّ!".

فقام بضعة رجالٍ من قريش يُناصرون زهير على أبي الحكم.. ويهتفون: "أنت –يا أبا الحكم- أكذب؛ ما رضينا كتابتها حيث كُتبتْ، ولا نرضى ما كُتِب فيها.. ولا نُقِرّ به، ونبرأ إلى الله منها.. ومما كُتِب فيها!!".

حدجهم أبو الحكم بنظراتٍ مستريبة.. وقال: "هذا أمرٌ دُبِر بليل، وتُشُووِر فيه بغير هذا المكان!!؟"، لم يكترثوا لمقولته.. وهَمَّ أحدهم ليلج إلى جوف الكعبة ليُمزِّق الصحيفة؛ فاعترضه أحد أنصار أبي الحكم، فقام أقوامٌ لنصرة هذا.. وأقوامٌ لنصرة ذاك.

تباغض القوم وتشاحنوا.. وكادوا يقتتلون؛ لولا أنَّهم أبصروا أبا طالب قادماً إليهم -من بعيد- يلوِّح لهم بعصاه: أنْ اسمعوا مني؛ فأقبلوا عليه بآذانٍ صاغية، فقال: "إنَّما جئتُكم لأنَّ ابن أخي قال: أنَّ الله أطلعه على أمر الصحيفة، وأنَّه أرسل عليها الأرضة؛ فأكلتْ جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم.. إلا ذكر الله، فإنْ كان كاذباً.. خلَّينا بينكم وبينه، وإنْ كان صادقاً.. رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا!!"، فهتف زهير.. والقوم من وراءه: "قد أنصفتَ.. يا خالِ!".

دخلوا إلى جوف الكعبة.. وأقبلوا على الصحيفة؛ فوجدوا الأرضة قد أكلتْها إلا: (باسمك اللهم)؛ انفرجتْ أسارير أبي طالب.. وهلَّل زهير والذين معه، و وَلَّى أبو الحكم.. مغاضباً.

في الدار.. لم يسلم زهير من سخط أبي الحكم، ثار عليه ثورةً طائشة.. وأهانه أمامنا جميعاً، ووبَّخه صائحاً: "يا لُكَع! كيف تصنع الذي صنعتَ؟؟! أ تنصر بني هاشم على بني مخزوم؟! وا أسفاه عليك.. يا ابن زاد الركب.. وا آسفاه!!".

أجابه زهير بتؤدة: "لا تعتب عليّ.. يا أبا الحكم! لقد تصبَّرتُ ثلاث سنين؛ كنتُ فيهنّ ابتلع الطعام والشراب كأنّه الحنظل.. لعلمي أنَّ أخوالي وعيالهم جوعى وعطشى، لكنّي كنتُ أتصبَّر -وفاءً لك ولبني مخزوم-.. وأقول لنفسي: (شهرٌ أو شهران.. وسيرضخ أبو طالب ويُسلِّمنا محمداً.. فنقتله؛ فتنطفئ نار الفتن!)،

لكن.. طالتْ المدة –يا ابن العم- وما أذعن أبو طالب، ولم أعد أطيق.. وعجزتُ عن التصبُّر!".

صاح أبو الحكم حانقاً: "يا عدو أهلك! هل تناصر أخوالك على عصبتك وأعمامك؟!!"، جأر زهير مُبتئساً: "ما نصرتُ أحداً على أحد؛ إنَّما شقّ عليّ أنْ أرى ذوي أرحامي يموتون جياعاً.. وهم مَن هم، حرَّكتني المروءة.. يا ابن عمي!!".

"إنَّك بالذي فعلتَ.. قد شجَّعتَ قريش على نقض الصحيفة، وبنقضها.. لن نملك أنْ نقضي على محمدٍ بعد ذلك أبدا.. ألا تفهم؟؟!".

جاوبه زهير بنبرةٍ مُشبَّعةٍ بالدهشة: "إنَّ الذي لا أفهمه: هو هذا البغض الذي تضمره لمحمدٍ.. وحرصك الشديد على التخلُّص منه!!؟".

"أ حقاً لا تفهم؟! ألم تدرك –بعدُ- سبب عداوتنا لمحمد.. وخصومتنا لبني هاشم.. وبني عبد مناف؟!".

هزّ زهير كتفيه كالمستنكر الحائر؛ فاستطرد أبو الحكم صائحاً في حميّة فائرة: "تنازعنا –يا ابن زاد الركب المخزومي- نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا.. فأطعمنا، وحملوا.. فحملنا، وأعطوا.. فأعطينا؛ حتى إذا تجاثينا على الركب.. وكنّا كفرسي رهان.. قالوا منّا نبي يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك هذه؟؟ متى يكون مِن بني مخزوم.. نبيٌ؟!!"، زفر زفرة مصدور.. ثم أردف صارخاً في حنق: "والله.. لا نؤمن به أبداً، ولا نصدِّقه.. أبدا!".

ثم غادر صافقاً باب الدار.. والغيظ يأكل أحشاءه.

شعرتُ كأنَّ رياح الغضب والكآبة تعصف بالدار؛ فانسحبتُ إلى حظيرة الدواب.. وسحبتُ الظَّلِيم.. وانطلقتُ راكضاً خارج شِعاب مكة، ثم تَوَقَّفتُ لأُريح الجواد الأصيل، وكدأبي مذ اتَّخذتُه صاحباً.. جعلتُ أبُثُّه الحديث وأتفكَّر معه فيما

صرَّح به أبو الحكم: (نعم! قد أصبتَ كبد الحقيقة.. يا أبا الحكم! تكلَّمتَ.. فأوجزتَ وأفصحتَ، حقاً.. إنَّ محمداً رجلٌ صادقٌ أمين.. ما عهدنا عليه كذبٌ قط، وربما يكون نبياً حقاً.. وربما يوحي إليه الإلهُ الأعظم، لكن.. إنْ سلَّمنا له بذلك ووافقناه عليه؛ فذاك يعني أنْ نكون تبعاً له.. ويصبح بنو مخزوم أتباعاً لبني هاشم وبني عبد مناف، وأنَّى لنا أنْ نرضى بهذا؟!! أ وبعد كل ما كان؟ أ بعد هذا الصراع الذي استمر سنواتٍ طويلة.. وشقي في سبيله أجيالٌ من الآباء والأجداد.. تنافُساً مع بني عبد مناف على الشرف والسؤدد.. وزعامة مكة؟؟ هل يأتي رجلٌ من بني هاشم بن عبد مناف –بعد كل هذا التاريخ- فيقول: أنا رسولُ الله إليكم.. فصدِّقوني واتّبعوني؛ فنجيب: أجل.. صدقتَ؟!! أ نُضيّع كفاح الآباء والأجداد وسؤددهم؟!! كلا.. والله.. هذا لا يجوز!!).

- ١٤ -

رغم معارضة أبي الحكم.. مُزِّقتْ الصحيفة ونُقِض ما فيها، وخرج بنو هاشم من شِعَب أبي طالب، وخرج محمدٌ.. وعاد يعمل على شاكلته ويدعو الناسَ إلى تصديقه واتِّباع دينه، ولم يَحُلْ تَرْكُ قريش للمقاطعة.. دون تَصدِّي أبي الحكم –ومَن وافقوه- لأتباع محمدٍ.. وصَدّهم وإيذائهم.. كما كانوا يفعلون، ولم يزل أبو طالب يحوط ابن أخيه ويحميه.

بيد أنَّ الزمان وحوادث الدهر أكلتْ أبا طالب –كما أكلتْ الوليد- فوهن جسده.. وانكسر صلبه؛ فلم يمض على خروجه من الشِعب سِوَى أشهر معدودات حتى لاحقه المرض.. وألَحَّ عليه.
علم أبو الحكم بثقل المرض على شيخ بني هاشم.. وظَنّ أنّها ستكون نهايته؛ فخشي أنْ يموت الشيخ قبل أنْ يأخذوا على يد محمدٍ.. فتعيِّرهم العرب ويقولون: تركوه حتى إذا مات عمه.. تناولوه.

جمع أبو الحكم أشراف القوم.. ومشى بهم إلى أبي طالب، ألفوه يكابد آلام المرض.. كأنَّها سكرات الموت؛ فاندفعوا يقولون: "يا أبا طالب! إنّك منّا حيث قد علمتَ، وقد حضرك ما ترى.. وتخوَّفنا عليك، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيك؛ فادعه.. فخذ له منّا وخذ لنا منه؛ ليَكُفّ عنّا ونَكُفّ عنه، وليدعنا وديننا.. وندعه ودينه!".
وافقهم.. وبعث إلى محمدٍ؛ فجاءه.. فقال له: "يا ابن أخي! هؤلاء أشراف قومك؛ قد اجتمعوا لك.. ليعطوك ويأخذوا منك!"، ثم عرض عليه ما عرضوه من المهادنة، فأجابهم محمدٌ: "أ رأيتم إنْ أعطيتُكم كلمةً تكلَّمتم بها.. ملكتم بها العرب.. ودانتْ لكم بها العجم؟؟".
فأجابه أبو الحكم مُتفائلاً: "كلمةٌ واحدة؟!! ما هي؟؟ وأبيك.. لنعطيكها وعشر أمثالها!!"، فهتف: "تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه!".
تذمَّر القوم.. وصفَّقوا بأيديهم.. وقالوا: "أ تريد –يا محمد- أنْ تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟؟ إنَّ أمرك لعجبٌ!!"، وانتفض أبو الحكم.. وقام صائحاً: "والله.. ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون؛ فانطلقوا.. وامضوا على دين آبائكم.. حتى يحكم الله بينكم وبينه!"؛ فقام القوم مُتفرِّقين.

وما لبث أبو طالب أنْ مات؛ فسقطتْ الحِياطة والمنعة عن محمدٍ.. وانهدم الحصن الذي كان يتحصَّن به، بيد أنَّ أبا الحكم تهيَّب أنْ يحاول قتله؛ فتستقبح العرب فعلته.. ويُعيِّرون قريش بها؛ فأحجم عن قتله.. لكن لم يمتنع عن إيذائه وإيذاء أصحابه.

بل.. وأغرى الكبراء والسفهاء بمحمدٍ وأصحابه؛ فاشتدّتْ وطأة قريش وأهل مكة عليهم، وأذاقوهم –بعد هلاك أبي طالب- مُرَّ العذاب.. حتى أنَّ أبا بكر بن أبي قحافة –رفيق محمدٍ وخليله- التجأ إلى الفرار إلى الحبشة؛ لولا أنْ أجاره ابن الدُّغُنَّة –أحد سادة أحابش قريش- وأرجعه إلى مكة.

وماتتْ خديجة بنت خويلد –زوجة محمدٍ- فاستبشرنا بموتها.. شماتةً في محمدٍ، وتحدَّث ملأ قريش يُعَشِّمون أنفسهم: "آنَ لمحمدٍ أنْ يرتدع ويَكُفّ عنَّا وعن آلهتنا.. بعد أنْ هلك عمه ونصيره.. وفَقَد زوجته ذات المال والنسب!"، غير أنَّ العَجَب –الذي لم يتفهَّمه أحدٌ منّا- هو إصرارُ محمدٍ على بلوغ غايته المستحيلة.. وثباتُ أصحابه على الولاء له ولدعوته.. رغم التنكيل والاضطهاد.

ثم اختفى محمدٌ بضعة أيامٍ، وعلم ملأ قريش أنَّه انفلت -خُلْسَةً- إلى الطائف.. ليدعو أهلها –كما يزعم- إلى دينه، لكنَّهم أهانوه وطردوه من قريتهم؛ فارتدّ مخزياً إلى مكة؛ فأقسم أبو الحكم ألا يدخلها.

مكث محمدٌ بحِراء –على مشارف مكة- كأنَّما يتلمَّس أحداً يُجيره من أبي الحكم؛ فكان المطعم بن عدي[1].. إذ أقبل وبنوه وقومه يلبسون السلاح.. وأحاطوا بأركان الكعبة، ثم قام على راحلته ونادى:

---

[1]: هو: أبو وهب.. المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، وهو سيد بني نوفل بن عبد مناف بن قصي –بني عمومة بني هاشم- وسيد مطاع من سادة قريش في الجاهلية.

"يا معشر قريش! إنّي قد أجرتُ محمداً.. فلا يهجه أحدٌ منكم!"، ثم دعا محمدا.. فدخل على أعين قريش -ومعه ولده زيد [1]- حتى إذا انتهى إلى الركن استلمه.. وطاف بالبيت وصلى صلاته، ثم انصرف.. والمطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح.. حتى دخل بيته، وما جَرُؤَ أحدٌ من قريش أنْ يتعرَّض له بسوء.. سِوَى أنْ صاح أبو الحكم في المطعم بن عدي.. سائلاً: "يا مطعم! أ مجيرٌ.. أم مُتابع[2]؟؟"، فأجابه شيخ بني نوفل بن عبد مناف: "بل.. مُجير!!"، فما زاد أبو الحكم عن أنْ قال باستسلام: "قد أجرنا مَن أجرتَ.. يا أبا وهب!".

ثم انقضى عامٌ.. وبعض عام، ورغم التضيق والمضايقات.. لم يَكِل محمدٌ عن دعوته.. ولم تَفتُر همته، وما برح يتعرَّض لوفود قبائل العرب القادمين إلى مكة.. يعرض عليهم نفسه ويُعرِّفهم بدعوته ودينه الجديد، ولم يُثنه عن عزمه.. تكذيبُ عمه أبي لهب له أمام الناس.. ولا استهزاءُ بعضهم به.. ولا تهديداتُ أبي الحكم ولا أذاه، وعلى الرغم من تحرُّزه –هو ومَن وافقوه- إلا أنّنا لم يعد يساورنا شكٌ في استجابة بعض هؤلاء إليه وتصديقهم لكلامه؛ لكنّهم.. كانوا يتكتَّمون.

ثم أظلّنا يومٌ.. كان من أسعد أيام دار آل المغيرة: رجعتْ هند بنت عمي -مع زوجها-.. من الحبشة، وكذا.. رجع معهما سلمة بن عمي هشام، استبشرنا بعودتهم.. وانقشعتْ –بقدومهم- سحب الكآبة التي أظلتْ الدار مذ تغيَّب أخي عمارة عنها؛ حتى أنَّ الوليد –نفسه- فرح بعودتهم.. كأنَّ الروح رُدّتْ إلى جسده، أو.. كأنّما عودتهم بعثتْ فيه أملاً جديداً في عودة عمارة الذي فُجِع بغيابه.

---

[1]: هو: زيد بن حارثة.. ﷺ، وكان قبل تحريم التبني في الإسلام يُدعى: زيد بن محمد.

[2]: أي: متابع محمدٍ على دينه.. مسلم.

أَذِن زوجُ هند لها أنْ تقضي معنا -في الدار- يومين كاملين؛ فابتهجنا بمكثها معنا.. ولا سيما حين رأينا ولدها الصغير الذي أنجبتْه في الحبشة.. والذي أسمتْه: (سلمة)، تساءلتْ أمي سؤالاً عفوياً.. بنبرة عتاب لطيفة: "لِمَ لَمْ تسميه: الوليد.. يا هند؟؟!"؛ لم تجبها.. ولم يهتم أحدنا بالإجابة.. حتى الوليد ذاته، بل.. حمل الطفل بين ذراعيه.. وأخذ يداعبه ويهدهده.. حتى ضحك وضحكنا.

وفرحتْ زوجة سلمة بالتئام شملها مع زوجها الذي غاب عنها سنوات؛ وكذلك فرحتْ أمه.. وأرملة أبيه -أم عمرو- التي تساءلتْ بوَجل: "لِمَ لَمْ يرجع ولدي عيّاش وزوجته معكم؟!!"؛ فطمأنوها أنَّهما بخير.. وسيرجعا إليها عمّا قريب.

كانت فرحتنا غامرة.. حتى أنَّ أبا الحكم استحى أنْ يفسدها علينا؛ فكتم غيظه.. وتغافل عن أخيه (سلمة) الذي كان يتسلَّل ويُصلِّي صلاة محمدٍ خِفْيَة؛ وتغافلنا عنه -نحن أيضاً- راجين ألا تعود بهجة الدار.. فتنقلب نكداً.

أصبحتْ هند تُنادَى: (أم سلمة).. حتى نسى كثيرٌ من الناس أنَّها: هند، وما أسرع أنْ انقضى اليومان في لمحٍ من بصر، وغادرتْ هند –أعني: أم سلمة- وصبيها الجميل إلى دار بني عبد الأسد بن هلال المخزومي.. على موعدةٍ ألا تقطع عنّا الزيارة لنسعد بها.. وبطفلها المحبوب الذي تعلَّقتْ به قلوب الدار، وظنّنا أنَّ دين محمدٍ لن يُفرّق جماعتنا مرة أخرى.

بيد أنَّ أبا الحكم لم يدع زوج هند –الذي صار يُكنى: أبو سلمة- مُطمئِناً.. سِوَى أيام معدودات، ثم انتهز موت أبي طالب –الذي كان يجيره- وطفق يُضيِّق عليه ويؤذيه.. حتى ضجّ منه أبو سلمة –ورهطه: بنو عبد الأسد- وامتنعتْ أم سلمة عن زيارة دارنا.. ولاءً لزوجها.

حبي لأم سلمة وولدها ورغبتي في ألّا تنقطع بهجة الدار بانقطاعها عن زيارتنا.. دفعاني أنْ أهمّ فأخاطب أبا الحكم في شأن زوجها، وأسأله أنْ يرفع يده عنه تَودُّداً لأختنا أم سلمة.. و صِلةً لبني عمومتنا بني عبد الأسد؛ على أنّي تهيَّبتُ، ولا أُنكر أنّني خشيتُ أنْ يبطش بي؛ فتراجعتُ عمّا هممتُ به.

أما أبو الحكم.. فلم يتراجع، ولم يغفل عن محمدٍ.. وعمّا يدبِّره أتباعه، وما انفك يراقب ويترصَّد؛ فتسرَّب إلى عِلْمه أنَّ أخاه سلمة.. وأبا سلمة –زوج هند- يُزمعان الرحيل إلى يثرب سراً؛ فتربَّص بسلمة.. إلى أنْ حَلَّتْ الليلة التي تواعدا على الخروج فيها؛ فأمسك أبو الحكم ورجاله به.. فيما يتسلّل مِن الدار.
قبض عليه.. وشدّ وثاقه.. وحبسه، ثم انطلق -ورجاله- في الطريق إلى يثرب.. ليُدركوا أختنا وزوجها قبل أنْ يرحل بها في البلاد.
لا أدري كيف تناهى الخبر إلى دار آل عبد الأسد المخزومي؛ فحملوا سيوفهم.. وانبعثوا –حميّةً- وراء أبي الحكم الذي يطلب أخاهم ليبطش به، وعلم آل المغيرة بخروجهم؛ فحملنا سيوفنا وأسرجنا خيولنا.. وانطلقنا في أثرهم –أنا وأخوايا خالد وهشام.. وآخرون من رهطنا- أنفةً لأبي الحكم.

مع بزوغ النهار.. أدرك أبو الحكم أبا سلمة يحمل زوجته وولده على بعيره، ويمشي الهُوَيْنا رجاء أنْ يلحق بهم سلمة بن هشام؛ لكنّه تباغت بحضور أبي الحكم ورجاله.. بدلاً منه.
صاح أبو الحكم مُبكِّتاً: "يا لئيم! هذه نفسك غلبتنا عليها، أ رأيتَ صاحبتك هذه علاما نتركك تسير بها في البلاد؟؟!"، وأمر رجاله أنْ ينزعوا خطام البعير من يده؛ فامتنع عليهم أبو سلمة.. وهمّ بقتالهم، ساعتئذ.. بلغ إليهم بنو عبد الأسد وشاهدوا ما يجري؛ فجعلوا يتدافعون ورجال أبي الحكم.. حتى انتهى ركبنا

إليهم، وكاد الفريقان يقتتلان.. لولا أنْ خاف أبو سلمة على زوجته وولده؛ فأناخ بعيره.. وأنزلهما وسلَّمهما إلينا.. ليرحل من دونهما.

حملنا أم سلمة وطفلها.. غير عابئين بدموعها ولا صراخ طفلها؛ بيد أنَّ بني عبد الأسد أبوا إلا أنْ ينزعوا الصبي منّا.. وصاحوا غاضبين: "لا –والله- لا نترك ابننا عندها.. إذ نزعتموها من صاحبنا!!".

رفضنا.. وتشبَّثنا بالصبي، وتشاجرنا معهم، وأخذنا –وإياهم- نتجاذبه.. حتى خُلِعتْ يده؛ فصرختْ أم سلمة مذعورة.. وقالت وهي تنتحب: "ارحموا بُنيّ.. وذروه لهم!"، فاستأثر به بنو عبد الأسد؛ ورجعنا بها.. فحبسناها في الدار.

تنكَّدتْ أم سلمة.. وانطفأتْ الحياة في عينيها، وانطفأتْ –معها- بهجة الدار، لا شك أنّي كنتُ مُشفِقاً عليها؛ وكنتُ أعتب –في سريرتي- على زوجها الذي فارقها وطفله.. مُؤْثِراً دين محمدٍ على امرأته وولده: (كيف لرجلٍ شريفٍ –من بني مخزوم- أنْ يتخلّى عن زوجته التي يحبها وولده الذي ليس له في الحياة غيره؟!! ولأجل.. ماذا؟!! لأجل التشبُّث بدينٍ جديدٍ.. ليس بدين قومه؛ بل دين ينبذ آلهتهم ويُسفِّه أحلامهم؟!! إنَّ أمره لعجيب!!)، (لكنّ.. الأعجب: هو محمد.. وإصراره على إزدراء آلهتنا.. وتفريق جماعتنا، ليت شعري.. لماذا يُصِرّ هذا الرجل على ذلك.. رغم ما فيه من صدقٍ وكياسةٍ وحسن خلق؟! لستُ أدري: لِمَ اختار أنْ يُعادي قريش وملأها.. رغم ما هو عليه من شرف نسب وسعة ثراء؟!)، (حقاً.. لقد عجزتُ عن أنْ أفهم: كيف يُفكِّر هذا الرجل.. وكيف يُفكِّر الذين اِتَّبعوه!!).

ما برحتْ أم سلمة تبكي.. وتنتحب.. حتى خشينا عليها الهلكة، وصرخ –فينا- سلمة بن هشام.. من محبسه.. شفقةً عليها: "تالله.. إنَّ قلوبكم لأشدّ قسوةً من الحجارة التي تنحتون منها طواغيتكم!!".

آلمتنا كلمته.. بقدر ما أحزننا نحيب هند؛ آنئذ.. انطلقتْ سيداتُ الدار تتوسَّلنّ إلى الوليد ليشفع لها لدى أبي الحكم أنْ يسمح لها.. فتخرج من الدار تتنسَّم هواءً غير الهواء.. عسى أنْ يُخفِّف ذلك –عنها- شيئاً من جزعها؛ على مضض.. أجاز لها أنْ تذهب إلى الأبطح[1] في حراستي.

كانت تخرج –كل غداة- فتجلس بالأبطح.. فتُصلِّي صلاة محمدٍ.. ولا تزال تبكي حتى تُمسي، ثم ترجع معي إلى الدار.. دون أنْ تنبس بكلمة، وكلما حاولتُ أنْ أُؤانسها الحديثَ أو أُوَاسيها.. تَصُدّني وتُعرِض عني.

لبثتْ على هذا الحال -قريباً من عام- حتى شَقّ عليّ الأمر، ولم أعد أحتمل أنْ أراها تَذبُل.. وتموت موتاً بطيئاً؛ سعيتُ إلى أخيها –زهير- فقلتُ: "يا ابن زاد الركب! ألا تَرِقّ لحال أختك؟!! تالله.. أحسبها لا تنفك تبكي حتى تكون من الهالكين؛ فنُعيَّر بها!!".

وكأنَّما كان ينتظر كلمتي هذه.. لكي ينهض بالأمر، ويقف في وجه أبي الحكم صائحاً: "ألا تطلقون هذه المسكينة؟؟ فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها!!"، وما زال به وبالوليد.. ويسوق عليهما أهل الدار.. حتى قال أبو الحكم مُكرَهاً: "إنْ شئتم.. ذروها تلحق بزوجها، لكن.. فلترحل وحدها!".

لم نراجعه.. وهرعنا إلى بني عبد الأسد.. وردّدنا إليها ولدها سلمة، حملناهما على بعيرٍ.. وخلّينا بينها وبين الطريق إلى يثرب، احتضنتْ طفلها.. والفرحة تتلألأ في عينيها.. غير عابئةٍ لفِراقنا.. ولا مكترثةٍ لمخاطر الطريق التي ستسافر فيها وحدها، حزني لفراقها.. كان شديداً؛ لكن.. تألُّمي لتَرْكها تسافر وحيدةً في الصحراء.. كان أشدّ، غير أنّي لم أملك الشجاعة لأواجه أبا الحكم.. وأرافقها

---

[1]: الأبطح: موضع بين مكة ومنى، والأبطح هو كلُّ مسيل فيه دقاق الحصى. وقيل: الأبطح والبطحاء.. هو الرمل المنبسط على وجه الأرض. وقيل: الأبطح أثر المسيل ضيِّقًا كان أو واسعًا.

حتى تلحق بزوجها؛ على أنّي علمتُ –بعد ذلك- أنَّ سادن الكعبة: عثمان بن طلحة العبدري لقيها.. عند التنعيم؛ فصحبها.. إلى أنْ أَبْلَغها مأمنها.

خلال أسابيع قليلة تالية.. تكشَّف لأبي الحكم أنَّ أبا سلمة لم يكن الوحيد -من أصحاب محمدٍ- الذي يَؤُمّ يثرب، بل قصدها آخرون.. أمثال: مصعب بن عمير العبدري.. وصهيب الرومي (فتى بني تيم).. وعامر بن ربيعة (حليف بني الخطاب بن نفيل العدوي) وامرأته.. وعبد الله بن جحش الأسدي ورهطٌ من حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف، كل أولئك رحلوا عن مكة متخفيين؛ بيد أنّ وجهتهم كانت نفس الوجهة، جميعهم ذهبوا إلى يثرب؛ ففطن أبو الحكم إلى أنّها وجهةٌ مقصودة.. والذهاب إليها أمرٌ مخطط له.

غدا الأمر أشدّ خطراً من ذي قبلُ؛ "ما بال يثرب؟! لماذا يقصدها أصحاب محمدٍ دون غيرها؟!!": مضى أبو الحكم يتساءل حائراً باهتمام.
قلنا: "على هونك.. يا أبا الحكم! قد خرج بعضهم –قبلُ- إلى الحبشة؛ فما يضير إنْ خرج آخرون إلى يثرب؟!"، بيد أنَّه كان أبصر منّا بالمسألة.. فهتف: "الذين تسلَّلوا إلى الحبشة.. قصدوها مُستجيرين بمَلِكها لائذين ببلاده، وهي بلادٌ بعيدةٌ عنّا.. لا نخاف منها بأساً!"، ثم استطرد: "أما يثرب.. فهي ديارٌ قريبة من ديارنا.. ومن طريق تجارتنا إلى الشام، وأهلها وقاطِنوها.. عربٌ –مثلنا- ويهود يعلمون الكتاب؛ فماذا لو مال هؤلاء إلى محمدٍ.. وصدَّقوا دعوته، واللات.. ليكونون أشدّ خطراً علينا!!".

أثارتْ شكوكُ أبي الحكم مخاوفَ ملأ قريش، وشرع حكماءُ دار الندوة يتفكَّرون: كيف نواجه هذا الخطر المحتمل، ثم قرَّروا مَنْع أصحاب محمدٍ من الرحيل إلى

يثرب، وصَدّ حجيج يثرب عن لقاء محمدٍ، ثم التَواصُل مع سادات يثرب.. والتَوَثُّق من عدم موالاة أحدٍ منهم لمحمدٍ ودعوته.

بحلول موسم الحج الجديد.. تحوَّلتْ مكة إلى وادي من التربُّص والترصُّد؛ غير أنَّه لم يظهر من وفد يثرب ما يُريب، لكن.. ذات ليلة من أيام التشريق –وبينما أوشك الموسم على الانفضاض- سمعنا زاعقاً ينادي بصوتٍ نافذ: "يا أهل الجباجب –المنازل- هل لكم في مُذَمَّمٍ والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم!".

قرع الصوت آذان قريش؛ فهرع أبو الحكم.. وهرعنا معه نُفتِّش عن محمدٍ والذين اجتمعوا به، ولم نعثر لهم على أثر، ضَجّ القوم لذلك.. وساورتهم القلاقل والأحزان.
بيد أنَّ أبا الحكم لم يساوره شكٌّ في أنَّ أولئك الصباة من حجيج يثرب؛ فانطلق إليهم –في الغداة- وانطلقنا معه، وصاح –في وفدهم- مُحْتَجّاً: "يا معشر الخزرج[1]! إنّه قد بلغنا أنّكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنّه -والله- ما من حي من العرب أبغض إلينا من أنْ تنشب الحرب بيننا وبينهم.. منكم!"؛ فانبعث القوم يحلفون بالله: "ما كان من شيءٍ وما علمناه!"، ويهتف سيدهم -عبد الله بن أبي بن سلول- مُؤَكِّداً: "هذا باطلٌ، وما كان هذا! وما كان قومي ليفتاتوا[2] عليّ بمثل هذا، ولو كنتُ بيثرب.. ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني!"، فصدَّقناه.. وانصرفنا حائرين.

لم يزل أبو الحكم –بعدها- يُدقِّق في المسألة.. ويستقصي خبرها ويبحث فيها..

---

[1]: كان العرب –في الجاهلية- يسمون العرب من أهل يثرب: الخزرج.. سواء كان أوس أو خزرج.

[2]: يُفتات عليه: أي يُفعل الأمر من غير مشورته.

حتى تيقَّن.. وتأكّدنا –معه- من صحة الخبر: (تمتْ بيعةٌ سرية بين محمدٍ وفريقٍ من حجاج يثرب)؛ لكن.. قد نفر الحجيج إلى أوطانهم.

شمّر أبو الحكم للأمر.. وسارع؛ فبعث فرساناً لمطاردة اليثربيين.. وكنتُ واحداً من أولئك الفرسان، لكن.. قد فات أوان اللَحاق بهم؛ فما أدركنا غير رجلين منهم.. فطاردناهما، أعجزنا أحدُهما.. وقبضنا على الآخر؛ فربطنا يديه إلى عنقه بنسْع[1] رَحْله.. وجعلنا نضربه ونَجُرّه من شعره، وسقناه إلى مكة.
أدخلناه مكة.. ابتغاء استجوابه وتعذيبه حتى يُقِرّ بمبايعتهم السِّرّيَة لمحمدٍ ويُعرِّفنا بالذين عليها من قومه؛ غير أنَّ المطعم بن عدي -ورجلاً آخر من بني حرب بن أمية- أقبلا إلينا.. وأجاراه وخلَّصاه من أيدينا هاتفَين: "هذا سعد بن عبادة.. سيد الخزرج، وإنّه يجير لنا قوافلنا المارة بيثرب.. وبيننا وبينه تجارة!"؛ فأجرناه لهما.. وخَلَّينا سبيله دون أنْ نعلم حقيقة بيعة محمدٍ ومَن بايعوه من أهل يثرب.

أثناء هذا الاضطراب الذي أصاب مكة.. علمتُ أنَّ عيَّاش قد عاد من الحبشة؛ لكنَّه لم يأتِ إلى دار المغيرة لمّا علم حبس أبي الحكم لسلمة –ابن عمنا هشام- واستجار بعمر بن الخطاب.
ثم –وفيما ملأ قريش مُتحلِّقين في أنديتهم بفناء الكعبة- طلع عليهم عمر بن الخطاب.. ذات يومٍ؛ وقد تقلَّد سيفه.. وتنكَّب قوسه.. وانتضى[2] في يده أسهماً؛ فطاف بالبيت سبعاً.. وصَلَّى صلاة محمدٍ عند المقام[3] وهو متمكِّنٌ.. لا يخشى أحدا، ثم وقف –وكان طويلاً.. ذا هيبة- يُنذر القومَ صائحاً:

---

[1]: النسع: سير عريض طويل تشدّ به الحقائب أو الرحال أو نحوها.

[2]: انتضى: استخرج من كنانته.

[3]: مقام إبراهيم.. عليه السلام.

"شاهتْ الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، مَن أراد أنْ تثكله أمه.. و يُؤَتَّم ولده.. وتُرمَّل زوجته؛ فليلقني وراء هذا الوادي!".. في إشارةٍ منه إلى أنَّه راحلٌ إلى يثرب، ولم يجرؤ أحدٌ على التصدِّي له؛ وقد علمنا –فيما علمنا- أنّ عشرين رجلاً -من أتباع محمدٍ- انطلقوا معه.. منهم: عيّاش.

ولأشدّ ما انزعج أبو الحكم من ذلك؛ حتى أنّه أزمع على استرجاع عيّاش.. وأقسم: ليأتينّ به وليُكبّله بالأصفاد.. ويسجنه مع سلمة بن هشام، وطاوعه -على هواه- أخوه: الحارث بن هشام؛ فانطلقا إلى يثرب.. ونحن لا ندري: كيف سيستحوذا عليه من دون أصحاب محمد؟!! ولا.. كيف سيرجعان سالمين؟!!

مضتْ أيامٌ.. ثم سرعان ما أبصرناهما –نهاراً- داخلَين مكة يسوقان عيّاش –بين أيديهما- مُوَثَّقاً.. ويهتفان: "يا أهل مكة! هكذا.. فافعلوا بسفهائكم.. كما فعلنا بسفيهنا هذا!"، ثم ولجا به إلى الدار.. وصفَّداه مع سلمة في قيدٍ واحد، وما انفك أبو الحكم يضربهما.. ويُجوِّعهما.. ويُعطِّشهما؛ وما ملك أحدٌ من أهل الدار أنْ يخفِّف عنهما.

بعد عدة أيامٍ.. وفيما نحن جلوس.. نتسامر –في غياب أبي الحكم وأخيه الحارث- تساءل أَبِي مُتعجِّباً.. وبصوته الذي لم يعد يفارقه السعال: "كيف استطاع أبو الحكم وأخوه أنْ ينتزعا ذلكم السفيه من بين أصحاب محمدٍ اليثربيين؟؟!".

فأجابه أخوهما –العاص بن هشام- مُتفكِّهاً: "نزلا بعيّاش حيث يقيم في يثرب، ثم قالا له: "إنَّ محمداً يأمر ببر الوالدين.. وقد تركنا أمك[1]؛ فأقسمتْ أنْ لا تطعم ولا تشرب.. ولا تأوي بيتاً حتى تراك، وهي أشدّ حباً لك منّا؛ فاخرج معنا وبر قسم

---

[1]: كما أسلفنا.. أمه هي: أسماء بنت مخربة النهشلية التميمية.. وهما أخواه لأمه.. حيث كانت زوجة لهشام بن المغيرة.. وأنجبتْ له: أبا الحكم عمرو بن هشام.. وأخاه الحارث، ثم مات عنها هشام.. فتزوَّجها أخوه أبو ربيعة.. فأنجبتْ له: عيّاش.. وبجير الذي تسمى: عبد الله بعد أنْ أسلم بعد الفتح.

أمك!"، فاستمهلهما حتى استشار عمر بن الخطاب.. فنهاه عن الذهاب معهما وقال: "هما يخدعانك!"، لكنَّهما ما برحا يُرقِّقان قلبه على أمه.. ويُخوِّفانه هلاكها إنْ لم يرجع إليها معهما؛ حتى لان لهما.. وعصى نصيحة عمر وانصرف معهما، على أنَّ عمر –ذاك الشيطان- أعطاه ناقةً نجيبة.. ليفرّ عليها إنْ رابه منهما ريبٌ، ثم انطلق ثلاثتهم إلى البيداء.. حتى إذا كانوا ببعض الطريق احتال عليه أبو الحكم –ذلك الداهية- قائلاً: "يا ابن أمِ! والله.. لقد اسغلظتُ بعيري هذا؛ أ فلا تعقبني على ناقتك هذه؟!".. قال: "بلى!"، ثم أناخ.. وأناخا ليتحوَّل أبو الحكم على ناقته.. كما أوهمه؛ فلمّا استووا بالأرض.. عَدَوا عليه.. فأوثقاه وربطاه.. ودخلا به مكة كما رأيناه!".

كان العاص يحكي ويقهقه.. وأَبِي يضحك ويَسعُل؛ وقلبي ينقبض مرارةً وأسفاً.. مُتسائلاً في سريرتي: (ما الباعث وراء كل هذا البغض والحقد؟!! فلنذر عيّاش.. وسلمة وهند وزوجها وأمثالهم.. يختارون دينهم -وربهم الذي يعبدون- كما يشاءون؛ ما الفارق بين هُبَل –الذي في جوف الكعبة أو الذي في صحن دارنا- والأصنام الأُخر التي تملأ صحن الكعبة.. وبين رب محمدٍ؟! فليعبد كلٌ منّا الرب الذي يريد؛ لكن.. ينبغي ألا نُفرِّط في أحبابنا.. في أرحامنا؛ هذا هو الأهم!!).

غير أنَّ نفسي تُجيبني: (لا تُغالِط! محمدٌ وأتباعه هم الذين يرفضون أنْ يُعبَد ربٌ آخر في مكة غير ربهم؛ وأنّى لهم ذلك!؟؟).

على أنَّ سؤالاً حائراً عَنَّ بخَلَدي: (أليس ربُ محمدٍ هو نفسه رب الكعبة التي نُعظِّمها ونُطَوِّف حولها؟!! أليس هو الرب الذي أرسل الطير الأبابيل دفاعاً عن بيته.. وعن قريش الذين هم سدنة هذا البيت؟!! أليس محمدٌ رجلاً من قريش؟؟! فلِمَ لا نصدِّق أنَّ ذلك الرب قد يرسل إلى الناس رسولاً.. كما أرسل الطير الأبابيل؟؟! ألا يمكن تصوُّر ذلك؟ ما الذي يمنعه؟!!).

تجـاوبني شـكوكٌ: (ومـا حاجـة الـرب لأنْ يبعـث رسـولاً؟!! إنَّ العـرب لا يزالـون يمجِّدونـه.. ويعظِّمـون بيتـه ويُقدِّسـونه، وقـريش لـم تـزل قائمـةً علـى خدمتـه وضيافة حجاجه وزواره كأحسن ما يكون.. والقاصي والداني يشهدان بهذا؛ فما حاجته لأنْ يبعث رسولاً –كمحمدٍ- ليُفرّق جماعتنا.. ويُسفِّه أحلامنا؟!!).

تخاطبني نفسي زاجرة: (ولو كان رب البيت مُرسِلاً رسول؛ أ يبعث محمداً.. ويترك الوليد بن المغيرة؟؟ الشيخ الحكيم.. ذا العقل الرشيد.. الذي حرم الخمر على نفسه وعلى عياله لأنَّها تُذهِب العقل والمروءة!؟ هل يختار الرب رجلاً من بني عبد مناف.. ولا يختار سيد مخزوم.. عظيم القريتين؟! هل يذر وحيدَ مكة.. الذي غامر بنفسه إذ أرادوا هدم بناء البيت القديم؟؟! شيخ مخزوم.. عدل قريش الذي بنى ركناً من أركان الكعبة الأربعة وحده، ويكسوها –وحده- عاماً.. وقبائل قريش مجتمعةً تكسوها عاماً، إنَّ أحداً لا يُطعِم الحجيجَ أربعين ليلةً في كل موسم غير **أَبِي**؛ فكيف يختار الربُ لرسالته رجلاً سواه؟؟!).

أتأسَّف على عيّاش وسلمة وهند وزوجها، واغتاظ من عدم إدراكهم لهذه الحقائق.. ومن بخسهم لحق **أَبِي**.. الرجل العظيم الذي لولاه لضاع شرف بني مخزوم.. ولضَلَّ ذكرهم.

حبي لوالدي أعظم من أنْ أسامح هؤلاء على تفريطهم في جَنْبه؛ ورغم هذا.. فإنَّ حبي لعيّاش.. وعجزني عن استنقاذه من العذاب والهوان الذي يتجرَّع ألوانه –كل يومٍ- على يد أبي الحكم ورجاله.. أضجراني من خضوع **أَبِي** لأبي الحكم.. وزهَّداني أنْ أمكث في الدار؛ فدأبتُ أتجنَّب المُكْث فيها.. وأتجنَّب مخالطة أبي الحكم، وغدوتُ أغادر الدار –مع تباشير الإصباح- ولا أعود إليها إلا ليلاً.

إلى أنْ رجعتُ –ذات ليلة- فوجدتُ أمي تنتظرني لتُخبرني أنَّ أَبِي عازمٌ على السفر إلى الطائف.. وعلى أنْ يبقى هناك حتى يشهد سوقَ عكاظ هذا العام، سألتُها مُندهِشاً: "وهل يتحمَّل الشيخ مشاق السفر.. يا أمي ؟!!".

أجابتْ: "يزعم أنَّه يجد في نفسه قوة، ويحب أنْ تصحبه أنت.. وأخوك هشام؛ فما تقول؟؟"، أجبتُها بحماسٍ فاتر: "ومَن منّا يملك أنْ يخالف أمر شيخ مخزوم.. أو رغبته!"، قبَّلتْ رأسي بامتنانٍ.. وقالتْ: "تجهَّز –إذاً- وتَهيَّأ للرحيل؛ إنَّ أباك يُزمِع السفر خلال يومين!".

رؤية **الوليد**.. كمَن نشط من عقال.. أسعدتني، وأدخلتْ السرور على قلوبنا، باشر إعداد القافلة بنفسه، وألزمنا بحمل أمتعةً كثيرةً.. كأنَّه سيمكث أعواماً في الطائف؛ وكم ابتهجتُ.. وأنا أُبصره كسابق عهده في الجِدّيّة والنشاط.

آن وقتُ السفر؛ فاتَّكأ عليَّ وعلى أخي هشام.. وانطلقنا إلى الطائف، حينها.. كان الربيع يحتضر؛ الصيف يخنقه –ويخنقنا- بقيظه وحرارته؛ لذا.. فقد كانت جنات الطائف مُتنفَّساً طيباً.. ومندوحة استشفاء للوليد، و لي.. كانت مهرباً مِن تألُّمي لحال عيّاش وسلمة.. ومِن ضعف حيلتي أمام اضطهاد أبي الحكم لهما، وكذا.. فراراً من حيرتي في شأن محمدٍ ودينه وأتباعه.

وصلنا الطائف.. وحططنا الرحال، ولم نكد نتنشَّق نسيمها الطيب، ولم يكد أَبِي يستريح من وعثاء السفر.. حتى أتانا أسياد البلدة وكبراؤها ليُحيّونا ويُرحِّبوا بشيخ مخزوم، نشط للقائهم والترحيب بهم، وأَوْلَم لهم.. وأطعمهم.

وما فتئ يشخص للحدائق.. ويتريَّض ماشياً بين زراعاتها، ويتنسَّم هواءها، ويأكل من ثمارها الطازجة.. ويطعمنا منها، وما لبث أنْ استردّ عافيته.. كأنّما زالتْ

عنه الكآبة وتبدَّلتْ بهجةً؛ حتى أنَّه خضَّب لحيته ورأسه.. ليُغير شَيْبه؛ فأصبح الرائي يراه.. فيظنّه كهلاً ابن أربعين أو خمسين.. لا شيخاً هرماً قد شارف المئة.

أوشك ميقات سوق عكاظ، وتدانتْ إليه الناس من شتى أحياء العرب؛ فأمرنا أَبِي بحسن التهيُّؤ والتجهُّز له، وأرسل هشامَ –إلى مكة- ليجلب له أغراضاً وأمتعةً وبضائع.. استعداداً للسوق.

بدا لي الوليد بن المغيرة.. وكأنَّ شمس عمره التي قاربتْ المغيب.. قد عادتْ لتُشرق –من جديد- في الطائف.. في سوق عكاظ، أحسب أنَّ الزمان دار دورته الكاملة؛ وما قدر على سلب حياة أَبِي.. ولن يقدر!!
الوليد بن المغيرة المخزومي.. حيٌّ، وسيبقى حيّاً.. مهما تعاقبتْ السنون وتَطاوَل الزمان: (أجل! أَبِي ليس أقل شأناً من هُبَل الذي في صحن دارنا؛ بل.. أجلّ منه قدراً، إنَّه ليس أقل من هُبَل الأصيل الذي في جوف الكعبة ذاته، وإنْ شئتُ أنْ أقول أنّه أجلّ من الكعبة.. لقلتُ؛ لكن.. تعظيمه هو لها يمنعني!).

غشي الناسُ عكاظ.. وازدحمتْ السوق، وقَدِم أخواي هشام وخالد بقافلةٍ عظيمة، وصحبهما بجير.. ابن عمي أبي ربيعة، وزهير.. ابن عمي أبي أمية، وكذا.. الحارث.. ابن عمي هشام؛ وقيل: "أيها الناس! افسحوا لقافلة الوليد بن المغيرة!".

نُثِرتْ تجارتنا في السوق، وبُسِطتْ موائد إطعامنا؛ ولعلّ هذه هي المرة الأولى التي ألحظ فيها: (أنَّ موائدنا يُدعى إليها الأغنياء والوجهاء فقط.. دون الفقراء والمحتاجين!؟)، بل.. سمعتُ أَبِي يأمر بطرد الضعفاء والبائسين من أمامها.

في وسط السوق.. ضربنا للوليد خباءً يليق بقَدْره، وما انفك التُجّار والوجهاء يفدون إليه.. ويتواردون إلى متجرنا؛ من بينهم كانت جماعةٌ من ثقيف.. وفدوا

يلتمسون من شيخ مخزوم بضاعةً على أنْ يؤخِّروا ثمنها عاماً أو عامين، تمنَّع عليهم؛ فأخذوا يُلِحّون ويتوسَّلون.. حتى أجاز لهم على أنْ يدفعوا الثمن المؤجَّل بربا فاحش، شكروه.. وحملوا بضاعتهم وانصرفوا.
وعلى تلك الحال.. غدونا نبيع ونشتري، وتربو تجارتنا.. وتتضاعف أرباحنا، وأَبِي –بين أظهرنا- يشاهد وينتشي.

ذات ضحى.. دلف إليه العرَّاف[1] ليطمئن على صحته؛ فطمأنه أنَّه في خير حال، ثم سأله أَبِي أنْ يقرأ له طالعه؛ فجعل الرجل يُحدِّث نجومه وشيطانه.. ويغمغم بكلماتٍ لم نفهمها،ثم بشَّره أنَّه سيكون من ولده.. فارسٌ يقهر العرب والعجم.. ويُقتِّلهم تقتيلاً.
لم يُساورني شكٌ في أنَّ ذاك العرَّاف يتملَّق الوليد طمعاً في عطاءٍ جزيل، بل.. ويتملَّقنا –أنا وأخوتي- تائقاً إلى عطائنا نحن أيضاً؛ غير أنَّه التمس أنْ يُسِرّ الشيخَ بحديثٍ من دوننا، أمرنا.. فانصرفنا عنهما، اختلى ذاك العرَّاف بالوليد ساعة؛ ثم انصرف.. وقد حَمَّله الشيخُ جائزةً سخية.

في الأيام التالية.. مضى أَبِي يتجوَّل في السوق مُتكئاً على ذراعي، وجعل يُطوِّف بمنازل أسياد القبائل وأكابر التُجّار.. وكأنَّه يُفتِّش عن شيءٍ ما.
حتى نزل على أبي أُزيهر بن أنيس الدوسي -سيد من سادات قبيلة الأزد- ثم أمرني.. فتركتُه عنده؛ فقضى معه.. متن النهار[2]، ثم رجع.. ليقول لنا: "قد زوَّجني سيد دوس ابنته، وسيأتي بها إليّ –غداً- ليقبض مهرها.. ويُخليها عندي؛ فأحسنوا استقباله واستقبالها!".

---

[1]: العرَّاف: المُنجِّم.. الذي يدعي القدرة على كشف المستقبل، وعند بعض العرب: هو الطبيب.

[2] : متن النهار: أي.. النهار كله.

تبادلنا نظرات الريبة والامتعاض، لكن.. لم يستطع أيّ منّا أنْ يُظهِر رفضه أو استياءه؛ وإنَّما هتفنا جميعاً في صوتٍ واحدٍ: "زواجٌ مباركٌ.. يا سيدنا!"، وقلتُ في نفسي: "تباً لذاك العرَّاف الأثيم! لا جرم هو الذي أوحى بها إلى هذا الشيخ المتصابي!"؛ غير أنّي كتمتُها عنه.. وعن أخوتي.

في اليوم التالي.. أتى أبو أُزيهر -معه ابنته.. وجاريةٌ لها- ونفرٌ من قومه، هبّ إليه الشيخ مُرحِّباً مُحتفِياً.. وأولم له ولمَن معه، لبثوا حيناً.. ثم انصرف أبو أُزيهر الدوسي -وقومه- بعد أنْ قبض مهراً باهظاً، وبقيتْ الفتاة.. ومعها جاريتها.
في المساء.. انفرد الوليد بعروسه، وتَولّينا عنه.. مُتشاغلين بشئون تجارتنا، مضتْ ساعة.. ثم صَكَّ سمعي صراخُ الجارية، هرولتُ تجاه خبائه.. فلقيني عبدٌ –من عبيده- يهتف مضطرباً: "الشيخ.. يطلبك وأخوتك على عجلٍ.. يا سيدي!".
انطلقتُ إليه.. ولحقني أخوايا، مِن وراء الخباء.. استأذنّا؛ فسمح لنا بالدخول، ولجنا الخيمة.. فوجدناه قائماً.. يضرب الأرضَ بعصاه في حنق.
أشار –بطرف العصا- إلى زاوية الخباء.. حيث الفراش؛ نظرنا.. فألفينا العروس مُتكوِّمة في أحضان جاريتها.. وتبكيان، التفتنا إليه بعيونٍ مُستبهِمةٍ، لم يُمهِلنا.. لنسأل عما جرى؛ بل.. هتف حانقاً: "رُدُّوا هذه الحمقاء.. إلى أبيها!!".

تشجَّع أخي خالد –وهو أشجعنا- وسأله: "نفعل ما تشاء.. يا سيدنا! لكن.. ما أزهدك فيها؟؟!"، زمجر وصاح زاجراً: "أُغربوا بها عن وجهي، ولا تجادل!!".

سَكّنتْ الجاريةُ رَوْع العروس.. ولملمتْ شعثها وأغراضها، أنهضتها.. ثم رحلتا –إلى أبيها- مع أخي هشام، وبقيتُ –أنا وخالد- مع الشيخ.
بعد أنْ هدأتْ فورة سخطه.. التفت إلينا.. وعيوننا تحملق فيه مُستفهِمة؛ تنحنح.. ثم قال بصوتٍ يشوبه تردُّدٌ خَجِل: "عندما خلوتُ بتلك البلهاء.. شرعتُ

أُسامرها وأتودّد إليها؛ فسألتُها: "أينا أشرف: أنا.. أم أبيكِ؟؟".. فقالتْ: "أبي أشرف.. فهو سيد قومه." ؟!".

ثم أردف بنبرةٍ غاضبة: "أ يُعقل هذا؟؟! هل أحدٌ من العرب أشرف من.. الوليد بن المغيرة المخزومي؟!!".

أجابه خالدٌ.. كأنَّما يواسيه: "لا مِراء.. أنَّ قريش أشرف العرب.. ومخزوم أشرف قريش؛ وأنّك شيخ مخزوم.. وسيدها المطاع.. يا أبتِ!!"، ثم أردف: "ربما الفتاة الغَرِيرة.. تجهل قَدْرك.. يا سيدنا!".

غير أنَّ الشيخ أجاب في حَميّة.. كأنَّما عاوده غضبه: "كيف؟!! كيف تُزوَّج إليَّ دون أنْ تعرف قَدْري وشرفي بين العرب؟!!"، ثم استطرد: "لم أتحمَّل مقالتها؛ فصفعتُها على وجهها.. وزجرتُها وقلتُ: "لا حاجة لي بك؛ الحقي.. بأهلك!" !".

في أصبوحة اليوم التالي.. حضر أبو أُزيهر إلى شيخ مخزوم.. يتساءل في جزع عما وقع؛ حدَّثه الوليد بما كان.. ثم هتف: "لا حاجة لي في ابنتك.. يا سيد دوس؛ وينبغي أنْ تردّ إليّ عُقْري[1] !".

أعتذر أبو أزيهر.. وراح يتكلَّم ويُثرثر.. والوليد كابتٌ غيظه، حتى تَوَقَّف عن ثرثرته؛ طالبه الوليد –في اصرار- بردِّ المهر الذي قبض، ماطل الرجل.. وامتنع مُتذرِّعاً بأعذارٍ واهية، نهره الوليد وبكَّته.. وألحّ في استرداد ماله؛ فأظهر الرجل الخضوع.. ثم استمهله إلى الموسم القادم، وأمهله الوليد.. على مضض.

قاربتْ أيام عكاظ نهايتها.. وكربتْ السوق تَنفضّ، شرع الناس والتُجّار يرتحلون إلى سوق مَجَنَّة؛ وكذا.. نحن بدأنا نلملم بضاعتنا ونستعد للانتقال إلى مجنّة. بينما نحن على تلك الحال.. وفيما يتجوّل أَبِي في أزقة السوق التي تَنفضُّ..

---

[1]: العُقْر: هو مهر المرأة.

يجرجر سَبَله[1] في زهوٍ وكبرياء.. إذ مَرّ بِرَجُلٍ من خُزَاعَة وهو يَرِيشُ نَبْلًا له؛ فَتَعَلّقَ سَهْمٌ مِنْ نَبْلِهِ بِإِزَارِ أَبِي.. فَخَدَشَ -فِي أسفل كعب رِجْلِهِ- خَدْشاً لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ بيد أَنَّ أَبِي تشاءم منه غاية التشاؤم.. حتى أنَّه سَبّ الرجل الخزاعي ولعنه ولعن خزاعة جميعاً، تعجَّبتُ من غضب الشيخ.. فهو أحلم من ذلك، وازدادتْ دهشتي إذ أحجم عن الذهاب معنا إلى سوق مجنّة.. تشاؤماً وامتعاضاً مما لقيه في عكاظ، وعزم على العودة إلى مكة، امتثلنا لرغبته.. وارتحل أخوتي من دونه، ورجعتُ معه إلى دارنا التي في مكة.

هلَّل أهل الدار لعودة الشيخ صحيحاً معافى، وبشَّتْ النساء في وجهه.. وأظهرنّ السرور لأوبته؛ على أنّي لاحظتُ شَجْواً خفياً يُخيّم عليهنّ.. لا أعلم له سبباً، استفهمتُ من أمي.. فقطَّبتْ جبينها وهمستْ في اضطراب: "أبو الحكم صرَّح لنا أنّه يعتزم قَتْل محمدٍ بن عبد المطلب، ومن ساعتها.. وجميعنا في خوفٍ وكآبة، وأمه تصرخ مذعورة: "لو لم نُثنيه عن عزمه؛ سيُهلِك نفسه.. وسيُسعِّر –على قريش- ناراً لن تنطفئ!؟؟" !".
تجهَّم وجهي انزعاجاً.. وقلتُ: "صدقتْ أم عمرو –والله- يا أمي!".
غشينا الصمتُ هنيهة.. ثم استأنفتُ: "لابد أنْ يُمنَع أبو الحكم؛ ولن يمنعه إلا أَبِي!"، أقرَّتني هاتفةً: "أجل.. يا ولدي! ولذلك هَلَّلنا لرجوع أبيك.. وقد خشينا أنْ يفجعنا أبو الحكم بتنفيذ ما عزم عليه قبل عودة أبيك!!"، هتفتُ في حسم: "فلِمَ التريُّث؟!! علينا أنْ نُعلِم الشيخَ.. الآن!".
هرعتُ –وإياها.. وأم عمرو- إلى أَبِي، أخبرناه بما يَنتَوِي أبو الحكم، صمت تَفكُّراً.. ثم ضرب الأرضَ بعصاه.. هاتفاً في حزم: "ادعووا لي.. أبا الحكم!!".

---

[1]: ثوب سَبَل: أي.. مُسبَل. وأسبل الثوب: أي.. أرسله وأرخاه.

أتاه أبو الحكم يمشي.. متثاقلاً كأنّما يعرف أنَّ عمه سينهاه.. كما قَدَّرتُ! لكنّي.. كنتُ مُخطئاً في تقديري؛ لقيه أَبِي باشّاً مُرحِّباً.. وأجلسه إلى جواره بتوقير، ثم قال: "قد نُبِئتُ أنّك اعتزمتَ قَتْل محمدٍ؟!!"، أجابه.. في عزيمةٍ وأنفة: "ولن يردعني عنه.. رادعٌ!!".

أشبع الوليد فيه النظر.. بإعجابٍ، ثم مَطّ شفتيه.. هاتفاً بحماس: "وأنا أقول لك: امض –يا ابن أخي- لِما عَزِمتَ عليه؛ فإلى متى؟! إلى متى يفخر بنو عبد مناف علينا.. ولا نجيبهم؟!!".

انتشى أبو الحكم.. وانفرجتْ أساريره هاتفاً: "إذاً.. أنت تُقرّني على ما اعتزمتُ عليه.. يا شيخ مخزوم؟؟"، أجابه –والدهشة تضطرب في ذهني-: "أُقرّ رأيك.. وأُبارك فعلك!!"، ثم استطرد: "غير أنّي أنصحك أنْ تُؤجِّل ذلك إلى ما بعد انفضاض الموسم.. كيلا تُعيِّرنا العرب بها!".

أطرق أبو الحكم ملياً -كأنَّما يتدبَّر رأي الشيخ- ثم هتف بانشراح صدر: "وصلتك رحمٌ.. يا عمُّ! سأتصبَّر –والصبر عسير- حتى تنصرم الأشهر الحُرُم!".

انْزَوَيتُ -عن أهل الدار- مُتفكِّراً: (لِمَ تخلَّى الوليد عن حكمته وأناته؟! ولِمَ يوافق أبا الحكم على التخلُّص من محمدٍ.. رغم ما في هذا من خطرٍ عظيم؟! ألا يعلمان أنّ قَتْل محمدٍ.. سيُغضِب بني هاشم وبني عبد مناف، وأنَّه سيَزُجّ بقريش في أَتُون حربٍ.. قد تُهلِكنا أجمعين؟!! هل يكرهان محمداً إلى هذا الحد؟!!).

تُربِك الحيرة ذهني؛ فأدع التفكُّر والأفكار حيناً، ثم تعاودني الهواجس والوساوس.. فتُراود عقلي؛ وأعاود التبصُّر كَرَّةً ثانيةً وثالثة: (ليس الحقد على محمدٍ -ولا بغض دعوته- هو الباعث لتلك العداوة؛ بل إنّه التنافس!! نعم.. هو التنافس على الشرف والزعامة بين بني مخزوم وبني عبد مناف، قد أفصح أبو

الحكم –ذات مرة- عندما قال: "كنا وإياهم كفرسي رهان!"؛ وقوله حقٌّ، قد تكاثرنا وإياهم في الأموال والأولاد.. حتى كاثرناهم، وتسابقنا في الإنفاق والفخر.. حتى سبقناهم، أمّا أنْ يأتي أحدَهم الوحيُ من السماء؛ فأَنَّى لنا هذه؟؟!).

(وكيف يأتيه الوحي من السماء؟!! حقاً.. إنَّ لُبّي يعجز عن إدراك هذا، ونفسي تأنف أنْ تصدِّقه.. وتأنف –كذلك- أنْ تتصوَّر أنَّ بني مخزوم صاروا تابعين لرجلٍ من عبد مناف!!؟)، (سحقاً! قد أُرهِق عقلي.. وتشتَّت ذهني.. وضاق صدري من تلك الهواجس والأفكار؛ ليت شعري.. أليس لهذا التشوُّش نهايةٌ؟؟!)،

(لله درك.. يا أبا الحكم! ما من محيص عن التخلُّص من محمدٍ!!).

خلال تلك الفترة علمتُ أنَّ أعداد أتباعه الذين يأوون إلى يثرب.. تتزايد رغم التضييق والتقييد، وأنَّ اليثربيين يُرحِّبون بهم.. ويمنعونهم كما يمنعون نسائهم وأطفالهم، حدَّثنا أبو الحكم –الذي أدرك ما غاب عن ألبابنا- مُخافِتاً: "غدتْ يثرب معقلاً لأصحاب محمد!! أمستْ بيوتها.. وما منها بيتٌ إلا فيه رجالٌ على دينه، ويثرب –كما لا يخفى عليكم- أهم منزل في طريق تجارتنا إلى الشام؛ فإنْ باغتنا محمدٌ.. وهرب إليهم؛ فستكون نازلةً من كبرى النوازل!".

أقررنا له بحسن التدبُّر والتبصُّر؛ ووافقناه على رأيه.. وسألناه: "فماذا ترى.. يا أبا الحكم؟؟!".

أجاب بصوتٍ عميقٍ مخيف: "قد قلتُها مراراً: قَتْل محمد.. هو أخف الأضرار؛ فلا محيد عنه!!"، همس أحدنا مُتخوِّفاً: "وكيف نواجه بني هاشم، وربما انضم إليهم بنو عبد مناف؟!!".

أجاب أبو الحكم بعزمٍ يشوبه الحيرة: "هذا.. ما أتدبَّر فيه.. إلى الآن!!".

ثـم اسـتطرد بـحزم: "أوشـكتْ الأشـهر الحـرم على الانقضـاء، وينبغـي أنْ أشـاور حكماءَ دار الندوة.. من دون بني هاشم!!".

في ضحى اليوم الموعود.. اجتمع ملأ قريش –في سِرّيّةٍ وتعتيم- ليعرض عليهم أبو الحكم المسألة.. ويُصارحهم بوجوب التخلُّص من محمد، وقبعتُ –في الدار- إلى جوار أَبِي.. نترقَّب.

رجع إلينا أبو الحكم –في الهاجرة- مُشرِق الوجه.. باسم الثغر، استقبله أَبِي مُتلهِّفاً.. مُستنبِئاً عمّا أسفر عنه اجتماع دار الندوة، أجابه أبو الحكم هاتفاً.. والفرحة تتلألأ في عينيه: "هذا يومٌ سيُسجَل في أيام قريش.. ياعمُّ!!"، ثم أردف بنبرةٍ هامسة: "والليلة.. ستكون ليلةٌ حاسمة.. لها ما بعدها!".

هتف أَبِي بصوتٍ ضحوكٍ مُستبشِر: "قد شوَّقتَنا.. يا ابن أخي؛ اسرد لنا ما دار بينكم.. كي نفرح مثلك!!"، فاسترسل أبو الحكم.. قائلاً في نشوة المنتصر: "ائتلف القوم.. وتوافقوا على ألا فكاك سِوَى إزاحة محمد إلى الأبد، غير أنَّهم اختلفوا: كيف يكون ذلك؟! وراح كل ذي رأي يُدلي برأيه؛ فيُعارضه آخر.. حتى احتار القوم ونضب معينهم.. وأنا ساكتٌ لا أتكلَّم، ثم نظروا إليَّ كأنَّما يسألون عن رأيي؛ فنهضتُ هاتفاً: "يا معشر قريش! إنَّ لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد!"، قالوا: "وما هو يا أبا الحكم.. خلاك ذم؟؟!"، فقلتُ: "أرى أنْ نأخذ من كل قبيلةٍ فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نُعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إلى محمدٍ.. فيضربوه بها ضربة رجلٍ واحد.. فيقتلوه؛ فنستريح منه، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك.. تفرَّق دمه في القبائل جميعاً؛ فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً؛ فرضوا منّا بالعقل (الديّة) .. فعقلناه لهم!"؛ فأجمعوا على قبول رأيي.. وهلَّلوا هاتفين: "هذا الرأي الذي لا رأي غيره" ..!".

صفق أَبِي بإعجابٍ شديد.. وهتف:"واللات.. إنَّه لهو الرأي! لله درك.. يا أبا الحكم؛ إنَّ لك عقل شيطان!؟"، ثم استدرك: "لكن.. ألم يكن معكم أحدٌ من بني عبد مناف؟؟!"، طمأنه أبو الحكم مؤكِّداً: "قد كان بيننا عتبة بن ربيعة –سيد عبد شمس- وأخوه شيبة.. وكذا أبو سفيان بن حرب؛ ورضوا برأينا.. واتفقوا معنا!!"، تنفَّس الوليد الصعداء.. وقال بارتياح: "إذا كان بنو عبد شمس معنا؛ فلا أُبالي –بعدهم- بأحدٍ من بني عبد مناف!".

أَيَّده أبو الحكم.. ثم أردف هامساً بحميّةٍ: "واتفقنا أنْ نُعجِّل.. ولا نُؤجِّل، ولن يبقى ذكرٌ لمحمد.. بعد الليلة!"، تساءل الشيخ مُستوثِقاً: "ستقتلونه.. الليلة؟؟!"؛ فأومأ أبو الحكم برأسه: أنْ نعم، ثم انصرف عنّا.. بخطواتٍ تدك الأرض تيهاً وخيلاء.

- ١٥ -

في تلك الليلة.. لم يغمض لي جِفْنٌ.. ولم يهدأ لي فِكْر، ولا أدري السِّرَّ وراء ذلك: (حبَّذ أبو الحكم أنْ يكون هو على رأس فتيان آل المغيرة المشاركين في الاغتيال، أَعترف أنّي تهيَّبتُ أنْ يختارني معه.. وتنفَّستُ الصعداء لَمَّا أعرض عني؛ لكن.. لماذا؟!!)، (هل أتَّقي أنْ أقتل محمدا؟؟! ولِمَ أخاف أنْ أشارك في قتله.. على ما في ذلك من شرف؟!!)، (ربما لأنني أعلم أنَّ عيّاش وسلمة.. وهند سيحزنون على قتله.. وسيحقدون عليّ؛ وربما تصير بيننا عداوة لا تنتهي!!؟).

(كلا!! هل يُعاديني بنو عمومتي لأجل رجلٍ من عبد مناف؟! لا أظنّ!)، (أم.. لعلّي أَضِنّ به على الموت؟!! فهو قرشي وجيه.. وإنَّ له هيبةً ووقارا وبهاء طلعة وحلاوة مقال.. لا يُنكِرها رجلٌ مُنصِف؛ ربما لو كان مخزومياً.. لاتَّبعتُه!!).
(ما هذا الذي أهذي به؟؟ هل أنا مُعجَبٌ بمحمد؟!! أخشى إنْ طال بقاؤه.. أنْ يسحرني –أنا.. أيضاً- كما سحر عيّاش وسلمة.. وهند وزوجها!).
(يا أبا الحكم! اِنجِدنا من فتنته.. وصلتك رحم!!).

لبثتُ الليل كله مُضطرباً.. أترقَّب الخبر: (تُرى! هل ستفلح خطة أبي الحكم؟! هل سينجح فتيان قريش في ضرب محمدٍ ضربة رجلٍ واحد.. فيتفرَّق دمه بينهم؟؟)، (وبنو هاشم.. كيف سيتلقّون النبأ الفاجع؟! وكيف سيتصرَّفون؟؟! أخشى أنْ يَؤول هذا الأمر إلى السوء؛ وتتأجَّج نارٌ.. لا نقدر على إطفائها!؟).

تلك ليلةٌ طويلة.. كأنَّ ساعاتها لا تنقضي، لا جرم أنَّ أبا الحكم وفتيانه الشجعاء يقفون –الآن.. في همةٍ وثبات- على باب محمد.. بسيوفهم الحادة المشهرة.. ينتظرون خروجه ليُبادروه.. فيغمدوها في صدره.. ليُخمدوا فتنته التي كدَّرتْ عيشنا وفرَّقتْ جمعنا!
لا ريب أنَّهم قائمون –الحين- يحبسون أنفاسهم.. كما أنَّ أنفاسي مكبوتة.. ترقُّباً وتوجُّساً؛ بيد أنَّ شعوراً غريباً يجيش في صدري.. كأنَّما أتمنى أنْ يفشلوا!!؟
(ويحي!؟ هل تسرَّب إلى قلبي شيءٌ من سحر محمدٍ؟!!).

مع انبلاج الصبح.. تختَّر جسدي من أثر السهاد؛ وغفتْ عيني.. رغماً عني.
ثم أيقظني الفزعُ.. وتنبَّهتُ على رجلٍ يزعق من أمام الدار: "يا آل المغيرة.. يا فرسان مخزوم! اِلحقوا بأبي الحكم؛ فقد انفلت محمدٌ من بين أيديهم!!".

من وراء باب مخدعي.. سمعتُ وقع أقدام تركض –في صحن الدار- وخشخشة سلاح، وحمحمة أحصنة حول السور، وصوت أَبِي الساعِل.. يصيح بتسخُّط: "أدركوه! لا نجونا.. إنْ نجا!!"، وصيحة أخرى بعيدة –أحسبها من محبس عيّاش- تُردِّد: "الله أكبر! اللهم.. انج نبيك!".

اندسستُ في ثيابي ودرعي.. وأسرجتُ الظَّلِيم.. وحملتُ سلاحي، ثم وثبتُ على صهوته، وانطلقتُ –مع أخوتي- إلى أبي الحكم.. لندرك محمداً قبل أنْ يفلح في الهرب! (كيف انفلت منهم؟! ألم يحيطوا به؟!! ألم يكونوا وقوفاً على بابه طيلة الليلة؟! ألم يكن بينهم وبينه قِيد خطوةٍ.. أو بضع خطوات؟! كيف مَرَّ بين جمعهم؟! كيف انسلّ.. ولم يروه كأنّما غُشِّيتْ أبصارهم؟! هل ضُرِب على آذانهم؟!!).

لحقنا بأبي الحكم.. وهو راجعٌ من بيت أبي بكر، لقد اختفى ابن أبي قحافة.. أيضاً؛ لا شك أنَّه تواعد مع محمد.. ليهربا معاً، انفجر أبو الحكم يصرخ من الغيظ، ويضرب –هائجاً- بسيفه جذع شجرةٍ بين يديه.. حتى كاد يتصدّع من فرط الهياج، حاولنا تهدئة فورته.. فما استطاع أحدنا.

قبعنا على مقربةٍ منه.. نرتقب هَدْأته.. ونترقَّب أوامره، مكث غير بعيد.. ثم هتف في صرامة: "لن ينفلت مني إلى يثرب، لن أسمح أنْ يلوذ بقومٍ يمنعونه مني، ابعثوا خلفه العيون الراصدة، ضعوا فرساناً أشداء –على كل الطرق النافذة إلى يثرب- ليحجزوه.. عن الانفلات إليها!!".

مضينا نبحث عنهما.. في كل شِبْرٍ بمكة.. وضواحيها، نَصُول ونَجُول نهاراً، ونقلب عتمة الليل ضحىً.. وسكونه هرجا؛ فتَّشنا في كل دارٍ.. في كل بيتٍ.. في كل شِعْبٍ.. في كل غارٍ.. في كل جُحْرٍ.. تحت كل حَجَرٍ؛ فما اهتدينا إليهما، ترصَّدنا الطُرُقَ إلى

يثرب.. فما عثرنا لهما على أثر؛ جُنّ جنون أبي الحكم.. واحتارتْ عقولنا.. وانتابنا شعورٌ مرير بالعجز والإحباط.

اجتمعتْ دار الندوة.. فقرّروا بَثَّ الفوارس والمشاة.. ونَشْر قصَّاصي الأثر -في الشِعاب والوهاد والجبال والوديان- على كافة الطرقات إلى يثرب.
ومبالغةً في التحفيز.. رصدتْ قريش مكافأةً باهظة –قدرها مائة ناقة لكل واحدٍ منهما- لمَن يعيدهما إلى قريش.. حيين أو ميتين؛ فاشتدّ الرجال في طلبهما.. لكن بغير جدوى!!

وعبثاً.. تمضي الأيام، وكلما انقضى يومٌ -وارتدّ القصّاصون عاجزين عن العثور عليهما- ينقَضّ أبو الحكم على عيّاش وسلمة.. فيصبّ عليهما نيران نقمته؛ وهما صابران.. مُنشرِحان –رغم العذاب- استبشاراً بنجاة صاحبهما، يسبّهما أبو الحكم.. ويلعنهما؛ فلا يزيدان عن أنْ يجيبا: "اللهم.. انج نبيك.. وأَخْزِ أعداءه!".

أتعجَّب من حبهما الشديد لمحمد.. وحرصهما البالغ على نجاته.. رغم أنَّ دعوته هي التي فرَّقتْ بينهما وبين قومهما.. وهي السبب فيما يذوقان من سجنٍ وعذاب؛ غافلتُ أبا الحكم.. واندسستُ إلى محبسهما لأسألهما عن ذلك.. عسى أنْ أُزيل عجبي، تحمَّلتُ حنقهما عليّ.. وتصبَّرتُ على اتهاماتهما.. لأعرف الجواب؛ جاوبني أحدهما بصوتٍ مُشبَّع بالحب والوجع يشوبه بعض الوهن: "إنَّه رسول الله! إنَّه النور الذي أبصرنا به الحق.. بعد أنْ كنّا نتخبَّط في ظلمات الباطل! إنَّه سبيل النَجاء من خزي الدنيا إلى كرامة الدنيا والآخرة! إنَّه الهداية بعد الضلال! كيف لا يكون أحب إلينا من أنفسنا ومن الناس أجمعين؟!!"، وأضاف الثاني.. بلهجةٍ صارمةٍ واثقة: "يا عصبة الشر! أنتم أردتم قتله.. وحسبه الله معه؛ سيجعل

تدبيركم في ضلال، وسيَخذُلكم.. وينصره عليكم!!"؛ انسحبتُ.. أُقلِّب كفيّ على ما أصاب ابني عمي، وما أزحتُ عَجَبي.

تمضي أيام البحث هباءً؛ فيتباعد الأمل في العثور على محمدٍ.. أو ردّه عن يثرب، ويزداد حنق أبي الحكم وغيظه؛ فيتضاعف بطشه وتنكيله بسلمة وعيّاش!!
ثم غشينا الخبر المشؤوم: (نجا محمدٌ وصاحبه؛ هما –الآن- في قباء على مشارف يثرب!)، (نجا محمدٌ من أيدينا.. وهو –الحين- آمنٌ في سربه.. مطمئنٌ بين أصحابه وأتباعه!!؟)؛ سُقِط في أيدينا.. وانهارتْ عزائمنا، لقد بدأتْ –اليوم- مرحلةٌ جديدة من الصراع مع محمد!!؟ منافسةٌ جديدة بيننا وبين بني عبد مناف؛ لا أدري مَن ذا الذي ينتزع الفوز بها!؟؟

صمتٌ مريرٌ.. أصاب مكة، إحساسٌ بالقهر والانهزام انتاب الجميع.. ولا سيما أبو الحكم وآل المغيرة بن مخزوم، سحائب التوجُّس والقلق تُخيِّم في سماء مكة: (لا جرم.. قد تحصَّن محمدٌ بحصنٍ منيع!!؟).

بعد انفلات محمدٍ من أيدينا -ودَرْءاً لشعور الهزيمة- قضى أبو الحكم بمصادرة أموال كل من هاجر إلى يثرب ولحق بمحمدٍ.. ووافقه ملأ قريش؛ لكن.. لم يشفِ ذلك صدورنا، وما فَتَّ في عزائم أصحاب محمدٍ.

لستُ أدري: هل أَلَمَّتْ بنا.. لعنةٌ من السماء؟!! بيد أنَّ هذا كان شعوري حينذاك؛ ولا أعلم لذاك الشعور مَبعثاً، ربما كان وهماً -انبعث في ذهني كمَغَبَّةٍ لفشلنا- ترافق مع مشاعر الاخفاق والانكسار التي إعترتنا.
لكن بعد عدة أسابيع.. ثبت هذا الوهم في قلبي؛ وتحوَّل إلى يقين.. عندما انتَقَض جرحِ أَبِي؛ ذلك الخدش الصغير الذي أصابه من سهم الخزاعي في السوق.

انتقض انتقاضاً شديداً.. بعد أنْ كان شُفِي ولم يبق منه سِوَى أثر هين، غدا يتورَّم ويتقيَّح.. ويتعاظم تألُّمه به يوماً بعد يوم، طفق يجزع منه.. ويتوجَّع ويصرخ مستغيثاً؛ وما ثَمّة مُغيث.. لا طبيبٌ نافع.. ولا علاجٌ ناجع.. رغم محاولاتنا الحثيثة لمداواته واستقدامنا للعرَّافين والحكماء من شتى أنحاء جزيرة العرب.

تَملَّك منّا اليأس.. وأيقن أَبِي أنَّها النهاية؛ فاستدعانا أنا وأخويي.. خالد وهشام، تحامل على نفسه.. وكظم آلامه.. وأنشأ يقول بصوتٍ واهن.. لكن بنبرةٍ جادة: "أي بني، أوصيكم بثلاث فلا تضيّعوا فيهن!!"، انصدع قلبي: (هل هي وصية مُفارِق؟!! لا.. يا أبتي! لا ترحل عني!!).

أصغنا السمعَ للوصية.. فيما اعترته نوبةُ سعالٍ مُوجِعة؛ ثم أردف لاهثاً: "دمي في خزاعة فلا تطلّنه[1]، والله.. إني لأعلم أنّهم منه براء؛ ولكنّي أخشى أنْ تسبوا به.. بعد اليوم، ورباي في ثقيف.. فلا تدعوه حتى تأخذوه، وعقري[2] لدى أبي أزيهر الدوسي.. فلا يفوتنكم فيه!!".

ذرعه السعال.. حتى ظننّا أنَّ قلبه سينخلع من ضلوعه، وعاودته آلامٌ شديدة في قدمه.. ورِجْله؛ فهرعنا إلى العرَّاف.. نستدعيه.

ما انفكتْ الأيام والليالي تنقضي فاترة.. ولا تنقضي آلامه وعذاباته؛ لم أر الوليد بن المغيرة –يوماً- ضعيفاً بائساً.. كما رأيتُه في تلك الأيام، وما ظننتُ أنَّ إشفاقي عليه سيصل إلى هذا الحد: (ألا مِن مُغيث؟؟! هل عجز الأطباء والعرّافون.. والكهان عن إسعافه؟!!)، تقرَّبنا إلى الآلهة أجمعين.. وذبحنا عند إساف ونائلة.. وعلى كل النُّصُب.. كل الذبائح والقرابين، ابتهلتُ إلى هبل الذي في صحن دارنا،

---

[1]: أَطَلّ الدم: أباحه أو أهدره.

[2]: العقر: صداق المرأة.

وتضـرَّعتُ إلـى ذاك الــذي فـي جـوف الكعبــة.. وتشــبَّثتُ بـذراعه الذهبيــة.. واستقسـمتُ –عنده- بـالأزلام؛ ومـا زال المرضُ عـن أَبِي، ولـم يـزل ينـازع ويتوجَّـع.. حتى انشقّ فـؤادي: (أليس لهذه العذابات نهايةٌ؟!!)، جـال بـخاطري شـبح الموت؛ فـتشاءمتُ.. ونفـرتُ منـه، دافعتُـه.. ومججتُـه عـن رأسي: (كيـف يكون المـوت.. هـو الراحة؟؟ كيف تكون نهاية آلام أَبِي في انقطاع حياته؟!! كيف أتحمَّل فراقه؟؟!).

ذات مسـاءٍ مشـؤوم.. غربتْ الشـمس –كما دَأْبها- وما غربتْ تأوهاته عـن سـمعي.. حتـى مضـى رَدَحٌ مـن الليـل، ثـم اسـتيقظتُ مـذعوراً.. نظـرتُ مـن النافـذة؛ وكأنّي بالشمس لم تشرق بعدُ، تراجعتُ إلى فراشي.. مُتأرجحاً بين النوم واليقظة.. لاهثاً من الذعر الذي أصابني ولم أدرِ له سبباً، لم تكد الحياة تسري في أَوصالي.. ولم يكد يتنبَّه عقلي.. حتى أفزعني صوتُ أمي الصارخ من مخدع أَبِي: "وا وليداه!! واثُبُوراه!! مات الوليد.. مات شيخ مخزوم!!".

انتفضتْ الدار تُهرول وتولول، وما قدرتُ أنْ أحرك ساكناً؛ وكأنّما شُلَّتْ أطرافي.. صمَّ سمعي.. وعمي بصري، جمدتُ.. وجمدتْ صور الحياة في عيني!!
لـم أتصـوَّر –أبداً- أنْ يغلـب المـوتُ الوليـدَ.. ويُهلِكـه ويخطفـه مني، لـم أتخيّـل أنْ يوارى عظيم مكة في التراب: يأكله دُود الأرض.. ويصير رميما!!؟
خرجـتْ مكـة تبكي شـيخها؛ لكنـي –لأول مـرة- أُبصـر العيـون كاذبـةً.. ودموعهـا زائفـة، حتـى عيـون أبـي الحكـم.. أبصـرتُ الفرحـةَ فيهـا تعجـز أنْ تتـوارى خَلْـف قسمات وجهه المُتجهِّمة:
(تُرى.. هل يفرح أبو الحكم بن هشام بموت الوليد بن المغيرة؟؟ هل يبتهج بموت عمـه وشـيخ عشـيرته؟!! ولِـمَ لا.. فـبذلك تصـفو لـه سـيادة مخـزوم –وقـريش كلهـا-

دون منازعٍ؟!! ليتني أشقّ عن الصدور وأعلم سرائرها.. لأعرف: مَن منكم صادقٌ في حزنه على موت **أَبِي**.. فأُواسيه ويواسيني!؟).
(كلا! ليس –ثَمَّة- أحدٌ حزيناً لفراقه.. مثلي، ليس في ذاك الكون مكروبٌ لفَقْد حبيبٍ.. غيري، ليس بائسٌ تحت هذه السماء سواي!!).

رأيتُ أمي تبكي وتنتحب، ورغم أنَّ مصابي مصابها.. إلا أنّي لم أستطع مواساتها؛ ارتميتُ في أحضانها، وذرفتُ الدمع بين يديها.. كطفلٍ صغير؛ كأنَّ الزمان انتكس.. ونكصتُ –على عقبي- الوليد الصغير الذي عاد من البادية يحبو إلى أبويه، وها هي ذي أمي.. ألوذ بأحضانها وأشمّ رائحتها؛ لكن.. أين **أَبِي**؟!
أين الوليد بن المغيرة؟؟ أين الرجل الهائل المهاب؟! لم تمتد كفه العظيمة لتلثِم خدي وتربت على كتفي!!؟ لم تحملني ذراعاه المفتولتان.. وتقذفاني إلى سماء الفضاء الرحيب!!؟ أين أنت.. يا أبتي؟؟ أين أنت.. يا وحيد مكة؟!!

هلك أَبِي.. ولم أُصدِّق النبأ؛ إنْ صدَّقتُ.. فقد هلكتُ معه: (تباً للموت! أ هو سيفٌ مُصلَتٌ على الرقاب؟؟ الناس والدواب.. العبيد والأسياد.. لا ينجو أحدٌ من قصمته.. حتى شيخ آل المغيرة؟!!)، (مَن ذا الذي صلتك -أيها الموت- على رقاب الناس؟؟ مَن الجَبّار الذي لا يتورَّع أنْ يُهلِك الأحبة.. فيكسر القلوب؟! أليس له حبيبٌ يخشى فَقْده؟؟ ألم يذق مرارة طعم الفراق بلا رجعة؟؟).
(كلا! لم يذق! فلو تجرَّع من كأس اللوعة الذي أتجرَّعه.. لَما أهلك أَبِي!!؟)،
(هل مِن رادعٍ يردعه؟؟! ألا من مانعٍ.. يمنع هذا الموت عن انتزاع الأحبة؟!!).

ألفيتُ نفسي بين يدي هُبَل الذي في صحن الدار، سألتُه.. وحمَّلتُ سؤالي كل الدهشة والحيرة التي تضطرم في عقلي.. واللوعة التي تحرق فؤادي: (ما خطبك.. أيها الإله؟! كيف ألوذ بك.. ولا تُغيثني؟! كيف أدعوك.. ولا تُجيبني؟! لقد كانت

تلك هي المرة الأولى التي أتضرَّع إليك فيها؛ ناشدتُك أنْ تجير أَبِي من آلامه، تَوسَّلتُ إليك أنْ تشفيه.. لا أنْ تهلكه!!).
ثم استدركتُ: (أم أنَّك لستَ إلهاً؟؟! نعم.. أنت لستَ هُبَل، ما أنت إلا صنمٌ صُوِّرتَ على صورته، إنّك مسخٌ واهٍ.. لا تضرّ ولا تنفع!!؟)، (الإله الحق.. هو هُبَل الحقيقي؛ ذاك الأصيل -الذي في جوف الكعبة- ذو الذراع الذهبية!!)، (هو الذي ينبغي أنْ أعاتبه: لِمَ لم يستجب لي؟!! لِمَ ترك الموتَ يسلبني أَبِي؟!!).

هرعتُ إلى الكعبة كي ألج إلى هُبَل العظيم.. عسى أنْ يُجيبني أو يُسرِّي عني، بيد أنّي شاهدتُ الكعبةُ شاهقةً عاليةً.. تَحُفّها الهيبةُ، طُفتُ بأركانها.. لا تعظيماً، بل.. تنقيباً عن أَبِي؛ فما عثرتُ عليه، إنّما عثرتُ في ركنها الذي بناه وحده: (كيف تبقى هذه الحجارة الصماء.. عمراً أطول من ذلك الذي بناها؟!!)، (كيف نُبجِّلها.. ونُعظِّم شأنها.. ونذر العدل[1] الذي كساها؟؟!)، اشتدّتْ حيرتي.. واشتعلتْ لوعتي.. واندفعتُ إلى المُبجَّل هُبَل أستخبره وأبثّه شجوني؛ لم يُجبني.. كأنَّه لا يسمعني.. كأنَّ في أذنيه صمم: (أنت –أيضاً- لا تسمع.. لا تجيب؟!! لماذا نتقرَّب منك –إذاً- وندعوك ونتوسَّل إليك.. ما دمتَ لا تجيب؟؟! لماذا أنت هنا؟!! مَن الذي جاء بك إلينا؟؟ أم أنَّك جئتَ من تلقاء نفسك؟؟! تُرى.. هل أنت الذي عالجتَ يمينك المكسورة هذه؟ أم مَن ذا الذي ركَّب لك أخرى من ذهب؟!! لِمَ لَمْ تجعلها من العقيق الذي خُلقتَ منه؟!! تُرى.. هل أنت مخلوق؟؟ مَن ذا الذي خلقك.. فهو أحق بعبادتنا منك؟؟!)؛ ما ازددتُ إلا تحيُّراً وانشداهاً.

هلك أَبِي: الوليدُ بن المغيرة المخزومي؛ وأيام الزمان –بعده- لا تَمُرّ.. بل تموت!!

---

[1]: كان الوليد بن المغيرة يُلقَّب: (العدل).. لأنّه كان يكسو الكعبة وحده عاماً.. وقبائل قريش جميعها تكسوها عاماً.

الكآبة تُظلّني.. والتجهُّم يُجلِّلني، خشيتْ عليّ أمي.. وسعى إخوتي لمواساتي، تساءلتُ: "ها هي ذي الشمس تبزغ.. بعد أنْ تغيب؛ فلِمَ لا ينفتح القبر.. وتنشقّ الأرض عن الوليد.. عائداً إلينا عظيماً مهاباً كما كان؟!!"، أجابتني دموع أمي.. وحسرة إخوتي: "الميت.. لا يعود أبدا!!؟"، هتفتُ بكل ما في صدري من حُرْقَةٍ: "ألا تُؤرِّخون بموت الوليد بن المغيرة؟؟ كما أرَّختم بعام الفيل.. كما أرَّختم بموت أخيه هشام!!؟"، أجابني صمتٌ أجوف.. وعيونٌ مُنكسِرة؛ فحدَّثتُ نفسي.. آسفاً: (لعلّ أبا الحكم.. لا يُحب أنْ يُطمَس ذكر أبيه!!).

ما برحتْ أمي ترجوني.. وأخي هشام يُناشدني: أنْ أخرج من عزلتي وأنسلّ من أحزاني؛ فما انصعتُ لهما، ثم أمسك خالد بكتفيّ.. وهزَّني مُحضِّضاً، وهتف مُحرِّضاً: "وصية أبيك.. هل ندعها؟!! هل نتخلَّى عن **الوليد** بعد المَمَات؟!! هل نغفل عن ثأر أبينا؟!!".

لم يكن خالد وهشام مُنفكين حتى ينتشلاني من محنتي؛ فأُنتشِلتُ.. وتصدَّرتُ معهما نُطالب بثأر أبينا، جمَّعنا مَن أطاعنا مِن مخزوم.. وبرزنا إلى خزاعة نطلب منهم دِيَة أبينا.. هاتفين: "إنّما قتله سهمُ صاحبكم!!"، تنكَّروا لنا.. وتأبّوا علينا.. ممتنعين بحِلفهم مع بني عبد المطلب بن هاشم، تهاجينا وإياهم.. وأوشك أنْ ينشب بيننا قتالٌ.. لولا أنْ تَوسَّط العقلاء والحكماء وأفهموهم وعرَّفوهم: "إنّما يخشى بنو المغيرة المخزومي.. السُّبَّة!"؛ فامتثلتْ خزاعةُ.. وأعطونا بعض الدِّيَة، وتجاوزنا لهم عن بعضها.. وانصرفنا عنهم مُتصالحين، بذلك نكون قد أنفذنا الوصية الأولى لأبينا.. وبقيتْ اثنتان؛ لكن.. حدث ما أخَّرنا عنهما.

- ١٦ -

رجع أبو الحكم بعير مخزوم القافلة من أرض الشام، ارتجَّتْ أرض مكة تحت أقدام العير.. وتلطَّختْ الأجواء بغبارها الكثيف، هرول إليها أهل مكة أشتاتاً.. مستبشرين مُغتبطين؛ بيد أنَّ زفرات أبي الحكم الغاضبة أثارتْ تشاؤمهم.. وكبحتْ فرحتهم.. وحبستْ أنفاسهم في الصدور: "ما الخطب.. يا سيد قريش؟؟! لِمَ أنت ساخطٌ؟!!"؛ كان سؤالاً حائراً.. كأنَّه غُصَّةٌ في الحُلُوق.

بعد أنْ أزاح زفراتٍ حانقةٍ عن صدره.. أنشأ أبو الحكم يتنشَّق هواء مكة المقدس وعبيرها العَبِق، ثم جمعنا ليسرد لنا ما جرى: "قد حذَّرتُكم آنفاً؛ وقلتُ أنَّ إنفلات محمدٍ إلى يثرب.. ستكون عقباه سوءاً، وها هي ذي البشائر تأتي!!"، سألناه بتلهُّف: "يا أبا الحكم! أخبرنا بما وقع.. خلاك ذم!".
"بينما نحن عائدون بالقافلة مُحمَّلةً بمكاسبنا الرابحة من الشام، وفيما نجوز ناحية العيص.. إذ برز لنا حمزة بن عبد المطلب في شرذمةٍ من الصابئين، ثم تصدّوا لقتالنا.. عندما بلغنا سيف البحر!!".

تأوَّهنا مشدوهين.. وصاح أحدنا مُستنكِراً: "هل يجرؤ أحدٌ من العرب على مهاجمة عيرٍ لقريش؟!!"، أجابه أبو الحكم مُمتعِضاً: "قد تجرَّأ محمدٌ وأصحابه؛ ولقد أنذرتُكم.. يا معشر قريش!!".
"هل كان عددهم كبير.. يا سيد مكة؟؟": تساءل رجلٌ منّا؛ فصاح أبو الحكم في حنق: "بل كانوا قليل؛ لم يتجاوزوا الثلاثين راكباً!".
هتف أخوه العاص: "كان معك ثلاثمائة فارس.. يا ابن أبي؛ لماذا لم تؤدِّبهم على تجرُّؤهم؟؟!".

"والـلات والعـزى.. وددتُ أنْ أفعـل؛ وددتُ أنْ أقطـع دابـرهم.. وأنْ أَقـصّ رقبـة حمزة بسيفي!!".
فيما يتحدَّث بـصوتٍ ناقمٍ تفوح منه الأحقاد والضغائن.. تَوهَّمتُ أنَّه يتحسَّس الشِّجَّة التي أصابه بها حمزةُ منذ بضع سنين، وأيقنتُ أنَّه لن يَسلُو عنها خلا أنْ يقتصّ منه، انتبهتُ على العاص يسأله بإلحاح: "لماذا لَمْ تفعل.. لله أبوك؟؟!".

تـنفَّس.. فكأنَّ زفراتـه ستُشعِل الهـواء حولنـا مِن فَرْط غيظه ونقمتـه، ثـم قـال بشيءٍ من الاستسلام: "فجأة.. ظهر مجدي بن عمرو الجهني ونفرٌ من قومه –وهو حليفنا كما تعلمون- ومشى بيننا وبينهم.. بعد أنْ اصطففنا للقتال.. حتى حجز بيننا؛ وانصرف كلٌ إلى قريته دونما قتال!".
زمَّ العاص شفتيه دهشةً.. وهتف ساخراً: "ويلٌ للصباة! يزعمون أنَّهم أهل خيرٍ وسلام؛ ثم ينهبون قوافل عشيرتهم كما يفعل البغاة والصعاليك!؟".
أجابه أخي هشام بعفويةٍ غير مقصودة: "لا ملامة عليهم.. إنْ فعلوا؛ فنحن الذين بادأناهم!!".
رمقه العاص باشمئزاز.. في حين حدجه أبو الحكم مُستقبِحاً، وصاح مُوبِّخاً: "صَهْ.. يا ابن الوليد! أسمعك تتكلَّم كأنَّك رجلٌ منهم! تالله.. لو كان الوليد بن المغيرة حيّاً.. وسمع مقالتك؛ لبطش بك!".
آلمتْني كلمتُه، وشعرتُ أنّه يتعمَّد تذكيرنا بأنَّ أبانا مات، وأنّنا لم نعد صفوة بني المغيرة؛ بل الأمر –الآن- له.. والسيادة له ولإخوته: بني هشام بن المغيرة.
أسررتُها في نفسي.. واكتفيتُ بنظرةٍ عابرةٍ.. أُواسي بها نفسي وأخي هشام؛ فيما يُفارقنا أبو الحكم غير مكترث لنا.. وهو يُصرِّح –بنبرة تيه وصلف- أنّه ينبغي على

حكمـاء دار النـدوة أنْ يتشـاوروا: كيـف يتحـرَّزون مـن محمد، وكيـف يردعونـه.. ويكيلون له بصاعه[1].

في غضـون شـهرٍ بعـدُ.. أقبـل أبـو سـفيان بـن حـرب -عائـداً بـعير بني عبد شـمس- لـيعلن: "ويح قـريش! محمدٌ وأصحابه يتعرَّضـون لقوافلنـا الغاديـة والعائـدة مـن الشام!"، تساءلنا: "ماذا وراءك.. يا أبا سفيان؟!".
"بينما تعبـر قافلتنـا جهـة رابغ إذ طلـع علينـا عبيـدة بـن الحـارث، معـه قريـبٌ مـن ستين راكباً.. يريدون قتالنا.. رغم أنَّا كنّا نربو على المئتي فارس، ترامينا بالسهام؛ لكن.. لم يجرِ بيننا قتال!!؟".
إحتَدَّ عتبة بن ربيعة –سيد عبد شمس- .. وصاح في تسخُّط: "تعساً للصباة! قد علمتُ أنّهم لـن ينزجـروا حـتى يجرونـا لـحربٍ لا بُغْيَـة لنـا فيهـا!!"، وانـتفض أخـوه شيبة.. وجهر نافراً: "واللات.. لو أرادوا حرباً.. لرميناهم بحربٍ لا هوادة فيها، ولإنْ وقع عبيدة بن الحارث بيدي؛ لأذبحنَّه بسيفي!".

ثم توالت الأخبار: يوماً بعد يومٍ.. وشهراً بعد شهرٍ.. محمدٌ ورجاله يجوبون طريق الشـام، ويحـالفون قبائـل العـرب التي يَمُرّون بهـا، ويُصرِّحون لهم أنَّهم يترصَّدون عير قريش.
امتلأتْ قلوب أهل مكة خوفاً: "سوف يُفسِد علينا رحلات الشـام.. ويُفوِّت علينا مكاسبها!؟؟ إنْ لم يتراجع عن مطاردة لطائمنا.. سوف تبور تجارتنا!!"؛ ائتلف ملأ قـريش وأكابر أشـرافها.. وأجمعـوا على أنْ تخـرج تجـارة الشـام مجتمعـةً في قـافلـةٍ كبيـرة؛ ذلـك أحـوط وأحفـظ للأمـوال مـن أنْ تسـافر في قـوافـل صـغيرة مُتفـرِّقة، واتفقوا على أنَّ أبا سفيان بن حرب العبشمي.. هو خير مَن يُؤمَّر عليها.

---

[1]: كال لفلان بصاعه: بادله صنيعه بمثله.

انطلقت قافلةٌ عظيمة –تجاوزتْ الألف بعير- محاطةً بنُخبةٍ من أشدِّ فوارس قريش بأساً.. يأتمرون بأمر أبي سفيان.
ثم داهمنا الخبر: أنَّ محمداً انبرى بنفسه.. مُترصِّداً القافلة، وتَربَّص بها عند العُشَيرة –بناحية ينبع-، غير أنَّ أبا سفيان تَملَّص من المرور بها.. وأفلت منهم.

استعر الغيظ في صدر أبي الحكم، صرخ.. وعيناه ترسل صواعق الغضب: "طفح الكيل.. ولم يعد في قوس الصبر منزع! لا تَصبُّر –بعد اليوم- على بغي محمدٍ! إلى متى نتركه يعيث في طريق تجارتنا.. ويهدِّد أموالنا؟!! واللات والعزى.. لنكيل له بصاعه!!"، تساءلنا مُتحمِّسين: "مُرْنا بما تحب.. يا سيد مكة؟!".

هتف.. وفي عينيه بريق طمع ممزوج برغبة الانتقام:"نُغير على مراعي يثرب.. وننهب مواشيها؛ ليعلم أنّه لن يأمن في يثرب.. إنْ تعرَّض لطُرق قوافلنا!!".
أجابناه مُعجَبين ومسارعين: "لله دَرُّكَ.. يا أبا الحكم! تالله.. لنفعل.. ولنُحرِّق عليهم مراعي يثرب!"، همس بجديّةٍ وصرامة: "إذاً.. اكتموا أمركم؛ فإنَّ له في مكة عيوناً، وذروني.. أُخطط لكم كيف تصنعون!!".
انتخب أبو الحكم سَريّةً خفيفةً من الفرسان؛ كنتُ أحد فوارسها.. والظَّلِيم أحد جيادها، تَوجَّهنا مُحاذرين.. إلى مراعي الخزرج على مشارف يثرب، ثم داهمنا الموقع ونهبناه.. وسقنا بعض مواشيهم.. وانكفأنا مدبرين إلى مكة، علم بنا أصحاب محمد؛ فخرجوا في طلبنا، طاردونا إلى وادي سفوان –قريباً من بدر- حتى أعجزناهم؛ رجعوا عنّا.. ولم ينالوا منّا، على أنّي –في تلك الغارة- تيقَّنتُ مِن وفاء جوادي الأثير (الظَّلِيم) لي، وازداد –لذلك- تَعلُّقي به.

ولجنا مكة.. نسوق الغنيمة، ونَزُفّ البشرى إلى أبي الحكم: احتفى بنا وأثنى علينا، بيد أنَّ عتبة بن ربيعة.. -لَمَّا علم بأمرنا- نقم وتضجَّر، عاتب أبا الحكم

قائلاً: "قد أسأتم.. وما أحسنتم، ولقد وضعتم أرجلنا في غَرْزٍ[1].. قد لا نقدر على انتزاعها منه، وما أصبتم بفعلتكم هذه إلا أنْ أحفظتم علينا الخزرج.. وأثرتم عداوتهم لنا، إنَّ ذلك المال مال الخزرج.. وليس مال محمد، ردُّوه عليهم؛ فإنَّهم غير تاركيه.. حتى يُجالدوكم عليه!!".
أجابه أبو الحكم غير مبالٍ: "واللات والعزى.. لا نردّ غنيمةً أبداً، وليصنع الخزرج ما بدا لهم؛ إنَّا لا نخشاهم!!"، هزَّ عتبة كتفيه بعدم رضا.. هاتفاً: "قد أشرتُ عليكم بالرأي، ولقد علمتم أنّي لستُ أجبنكم!".
على أنَّ أبا الحكم أدار له ظهره بلا مبالاة.

والحق أنَّ سيد عبد شمس كان مُحقاً؛ فإنّا لم نقدر على معاودة الكرَّة.. وما استطعنا أنْ نباغت مراعي يثرب ثانيةً؛ فقد أحكم محمدٌ وأنصاره حمايتها، إنَّما زادتْ وتيرة سرايا محمد الطَّوّافة بطُرُق تجارتنا إلى الشام.. وغير الشام.

في تلك الأثناء.. وقع حدثٌ؛ أحسن أبو الحكم وملأ قريش استغلاله ضد محمد بين العرب كافة؛ وذلك أنّ نفراً من أصحاب محمد هاجموا إحدى قوافلنا عندما كانت تَمُرّ في وادي نخل -بين مكة والطائف- ونهبوها، وقتلوا رجلاً من حلفائنا، وأسروا رجلين مخزوميين؛ كان ذلك في آخر شهر رجب[2].
جلجل زاعقو أبي الحكم.. وما انفكوا يطوفون بشتى أحياء العرب.. يُشنِّعون على محمدٍ وأتباعه: "قد اِستحلّ محمدٌ وأصحابه الشهرَ الحرام؛ سفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال!؟؟".
على استحياءٍ.. همس قلةٌ من أهل مكة -مُتعاطفين مع محمدٍ- بصوتٍ مكبوت:

---

[1]: الغَرْز: ركاب الرَّحْل.
[2]: شهر رجب: من الأشهر الحرم.

"إنَّما أصابوا ما أصابوا في أول شهر شعبان؛ يجازونكم بإغارتكم على مراعي يثرب، لا تثريب عليهم! هذه.. بتلكّ!".

بسطوته وجبروته.. ختم أبو الحكم على كل الأفواه المُعارضة لرأيه، وأخرس كل الألسنة المدافعة عن محمد، صاح بصوته الجهوري الصاعق: "اخسأوا عنّا.. أيها الجبناء! واللات.. لن أدعهم يَتمتَّعون بأموالنا التي سلبوها، ولن أدع دم حليفنا يُسفك هباءً!"، ثم أردف.. في صرامة: "مَن كان معنا على محمد.. فهو منّا وحبيبنا، ومَن كان على غير رأينا.. فهو عدونا.. وليس منّا!!".

ثم أزف ميقاتُ قافلة أبي سفيان الذي قدَّرناه لعودتها، وقاربتْ أنْ تلج أرضَ الحجاز.. حيث قد تتعرَّض لتهديدات محمدٍ وأصحابه؛ لا جرم أنَّهم يترقَّبون عودتها.. بعد أنْ أفلتتْ منهم في غُدُوّها؛ يتحتَّم علينا حسن التأهُّب لحماية القافلة، استنفر أبو الحكم فرسان مكة.. وفتيان قريش، وأمر الجميعَ أنْ يكونوا على أهبة الاستعداد، لبثنا أياماً في استنفارٍ تام: الخيول مسرجة.. والسيوف مشهرة.. والدروع تُجلِّل الصدور.

وفيما نحن كذلك.. إذ حضرتْ عاتكة بنت عبد المطلب –أرملة عمي أبي أمية- لتزور نساء الدار، ثم انفردتْ بولدها زهير.. وأَسَرّتْه بحديثٍ اكفهر له وجهه، ثم انصرفتْ إلى بيت أخيها العباس.
سألنا زهيرَ عمّا قالتْه أمه له؛ راوغ.. وما نبَّأنا بشيءٍ؛ فعزم عليه أبو الحكم أنْ يتكلَّم؛ فهمس مضطراً: "تقول أمي أنَّها رأتْ –في منامها- أنَّ رَاكِباً مَثُلَ على جبل أَبِي قُبَيْسٍ؛ فَصَاحَ: "يَا آلَ غُدَرَ.. وَيَا آلَ فُجَرَ! ألا انْفِرُوا لمصارعكم.. في ثَلَاثٍ!"، ثم أَخَذ صَخْرَةً مِنْ أَبِي قُبَيْس.. فَرَمَى بِهَا الرُّكْنَ فَتَفَلَّقَتِ الصَّخْرَةُ؛ فَمَا بَقِيَتْ دَارٌ

مِنْ دُورِ قُرَيْشٍ إِلَّا دَخَلَتْهَا مِنْهَا كِسْرَةٌ.. غَيْرَ دُورِ بَنِي زُهْرَةَ!!"، تعجَّبتْ نساء الدار من ذلك الحديث.. بينما سخر أبو الحكم منهنّ ومنه.

ثم إنّ أبا الحكم لقي أخاها العباس عند الكعبة؛ فخاطبه مُتَوَعِّداً.. بنبرةٍ ساخرة: "يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَمَا رَضِيتُمْ أَنْ يَتَنَبَّأَ رِجَالُكُمْ حَتَّى تَتَنَبَّأَ نِسَاؤُكُمْ؟!! قَدْ زَعَمَتْ عَاتِكَةُ فِي رُؤْيَاهَا هَذِهِ أَنَّهُ قَالَ: "انْفِرُوا لِثَلَاثٍ!!"؛ فَسَنَتَرَبَّصُ بِكُمْ هَذِهِ الثَّلَاثَ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَكُونُ، وَإِنْ تَمْضِ الثَّلَاثُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.. كَتَبْنَا عَلَيْكُمْ كِتَابًا أَنَّكُمْ أَكْذَبُ أَهْلِ بَيْتٍ فِي الْعَرَبِ!!"، وأَشْهَد عليه رهطاً من قريش.. بينما العباس يُنكر؛ لم يكن أبو الحكم مُنفكاً حتى يرغم أنف الذين يُنافسون مخزوم على السيادة، ومنهم.. بنو عبد المطلب بن هاشم.

بيد أنَّه قُبيل أنْ تنقضي الأيام الثلاثة.. دهم الصريخُ مكة؛ رجلٌ من قبيلة غفار –اسمه: ضمضم بن عمرو- دخل إلى بطن الوادي.. بهيئةٍ مُفزِعة؛ مجدوع أنف بعيره.. مُحوَّل رَحْله.. مشقوق رداءه، يصرخ بأعلى صوته.. مستغيثاً: "يا معشر قريش! اللطيمة.. اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ وأصحابه؛ لا أرى أنْ تدركوها! الغوث! الغوث.. الغوث!!".
انزعج القوم.. وأيقنوا بالخطر، تهيَّجتْ الحميّة في قلوب قريش وأشرافها، واندفعوا -وراء أبي الحكم- يُحرِّضون المقاتلين، ويُجهِّزون جيشاً ليُدركوا به القافلة.. ويؤدِّبوا به محمداً والصابئين.
دقتْ طبول الحرب.. عاليةً؛ لابد أنْ يسمعها محمدٌ وأنصاره.. في يثرب؛ ينبغي أنْ يُرهِبهم صوتها.. ويُرهِب كلَ أحدٍ تُسوِّل له نفسه استلاب قريش.
ويجب أنْ يخرج في هذه الحملة كل أشراف قريش؛ عزم أبو الحكم على ذلك، لن يدع أحداً منهم يتخلَّف، وقد أمضى ما عزم عليه؛ وامتثلتْ بيوت قريش لقراره.

حتى أنَّه قسَّمنا –أي: فتيان آل المغيرة- وأشار أنْ نخرج معه.. إلا رجلين أو ثلاثة؛ فامتثلنا لرأيه.. وشرعنا نتجهّز.
قبيل الفجر -وفيما نضع اللمسات الأخيرة لخروج الحملة- باغتنا العاصُ بن هشام.. وهو لابس لَأْمَته؛ أبصره أبو الحكم.. فسأله مُتعجِّباً: "يا عاص! ما لي أراك تهيَّأتْ للخروج؟! ألم نتفق أنْ تبقى في مكة؟!".
تبسَّم.. ثم هتف بصوتٍ ضحوك: "كنتُ جالساً مع أبي لهب بن عبد المطلب؛ فقال لي: "يا ابن هشام! إنّي مريض.. ولن أقدر على الخروج مع جيش قريش؛ فاخرج بدلاً مني!!"، فقلتُ: "ما أرى بك بأس، إنّما تخشى أنْ تقاتل ابن أخيك!؟"، فقال: "اخرج بدلاً عني.. وسأهبك كذا وكذا!!"، وأخذ يُغريني بالمال.. فأمتنع، فجعل يزيد الهبة.. حتى بلغتْ أربعة آلاف درهم؛ فقلتُ: "واللات.. لا آخذها ولا أخرج عنك.. حتى تصدقني!"، فهمس بصوتٍ خجول: "اكتم عني.. إذاً!! قد أفظعتني الرؤيا التي رأتها أختي عاتكة في منامها!!"، أشفقتُ عليه؛ فقَبِلتُ دراهمه.. ووعدتُه أنْ أخرج بدلاً عنه!".
قهقه أبو الحكم.. وهتف مُنتشياً.. بنبرةٍ هازئة: "بخٍ.. بخٍ! أزعم أنَّ بني هاشم لن تشرأبّ أرؤسهم في مكة.. بعد الآن، وسأُلحِق بهم بني عبد شمس.. عمّا قريب!".

حُشِدتْ قوى قريش.. واكتمل جهاز الجيش، انبعثنا –سراعاً- إلى طريق الشام.. نتحسّس أخبار القافلة وأخبار محمد؛ و قَدَّرنا أنّ اللقاء سيكون عند ماء بدرٍ.. أو قريباً من هناك.
قصد الجيش إلى بدر؛ جيش شديد.. عظيم العدد –ألف وثلاثمائة مقاتل- في مائة فرس.. وستمائة درع.. وأعداد لا تُحصى من الإبل، معنا القيّان يضربن بالدفوف.. ويُغنين بهجاء محمدٍ وأصحابه.

نزلنا الجحفةَ لنتزوَّد من الماء.. وطلباً لقسطٍ من الراحة، وبثثنا العيون حوالينا.. يتسمَّعون، ثم راعنا رجلٌ –اسمه جهيم بن الصلت.. من بني المطلب بن عبد مناف- يصيح: "يا قومِ! غلبتني عيني.. فغفوتُ؛ فرأيتُ رجلاً راكباً على فرسٍ له –ومعه بعيرٌ له- حتى وقف على العسكر فقال: قُتِل فلانٌ وفلان، وجعل يعدد رجالاً من أشرافكم، ثم طعن في لَبَّة بعيره.. ثم أرسله في العسكر؛ فلم يبق خباءٌ إلا أصابه نضحٌ من دمه!!".

وَجِل الناس من مقالته.. وتشاءموا برؤيته؛ فقام إليهم أبو الحكم.. ساخراً من هذا الرجل: "وهذا نبيٌّ آخر.. من بني المطلب بن عبد مناف!!؟"، ثم أردف.. صائحاً في صرامةٍ واعتزاز: "سيعلم –غداً- مَن المقتول.. إنْ نحن التقينا!!".

فيما نحن على تلك الحال.. إذ أقبل رسولٌ من أبي سفيان يُبشِّرنا أنَّه اتَّخذ طريقاً آخر –بعيداً عن يد محمد- وقد نجتْ العير.. ويقول: "يقول لكم أبو سفيان: إنَّكم إنَّما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم؛ قد نجاها الله.. فارجعوا!".

استبشر الناس.. وتكلَّموا في الرجوع إلى مكة، وقال عتبة بن ربيعة: "دعونا نرجع إلى مكة.. واعصبوها في رأسي.. وقولوا: جَبُن عتبة؛ وأنتم تعرفون أنني لستُ بأجبنكم!".

لكنَّ أبا الحكم لم يُمهِل أحداً، صاح في عزم: "والله.. لا نرجع حتى نرد بدراً.. فنُقيم ثلاثاً: ننحر الجزر.. ونُطعم الطعام.. ونسقي الخمر.. وتعزف القيّان؛ فتسمع بنا العرب وبمسيرنا وبجمْعنا.. فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، امضوا في طريقكم!!". وصلتك رحم.. يا أبا الحكم! لقد قلتَ فأحسنتَ القول؛ نعم.. يجب ألا يصير خروج هذا الجيش عبثاً، يجب أنْ يفشو خبره بين العرب، يجب أنْ تقرع طبوله صاخبةً.. حتى تصمّ أسماعهم.. وتُرهِب قلوبهم.

أعاد أبو الحكم الرسول إلى أبي سفيان يدعوه إلى الانضمام إلينا.. ليَشْرُف معنا؛ على أنَّ أبا سفيان تأبَّى عليه، وأجاب في أنفةٍ: "إنّما شرفي.. أنْ تصل هذه العير سالمةً.. إلى مكة!!"، وانطلق قافلاً بالعير.. إلى مكة.

مثلما انكفأ أبو سفيان عنّا.. انفلت بنو زهرة من الجيش.. مُحدِّثين أنفسهم: "يا بني زهرة! قد نجّى اللهُ لكم أموالكم، لا حاجة لكم في أنْ تخرجوا في غير ضيعة!"، وكانوا قرابة الثلاثمائة رجل.. نكصوا -جميعاً- على أعقابهم إلى مكة.
قلتُ في سريرتي: (أخزاكم الله!! وأيم الله.. ما تخاذلتم عنّا.. إلا تَوَجُّساً من تلك الرؤيا التي رأتها أم زهير.. وذاع خبرها في قريش! قد فرَّطتم في شرفكم.. يا بني زهرة!!؟)، (لا جرم أنَّ في نفوسهم شيءٌ من الودِّ لمحمدٍ.. فهم أخواله، ولا ريب هم يحسدوننا –نحن بني المغيرة المخزومي- على سلطاننا!؟؟).

بعد نكوصهم.. تَقلَّص عددنا إلى ألف مقاتل؛ لكنّنا مضينا في طريقنا.. حتى أمسى الجيش قريباً من آبار بدر، لا يفصلنا عنها إلا التل؛ فقلنا: "هَلُمّوا.. نهجع عند القُلُب[1]!"، غير أنَّ السماء انبعثتْ –فجأة- بأمطارٍ شديدة؛ غَمَرتْنا بالمياه.. حتى تأذينا، كان وادياً دَهْساً [2]؛ فتَوَحَّلتْ الأرضُ من حوالينا.. ومن تحت أرجلنا.. وتحت خفاف دوابنا، عجزنا عن الحركة.. وما مَلكنا أنْ نتقدم خطوةً للأمام.

ركدنا -حيث انقطع بنا السبيل- بالعدوة القصوى[3] من وادي يَلْيَل، البلل يغشانا.. يتلف أمتعتنا.. ويؤرِّقنا، خرستْ طبولنا.. واغتمّتْ القيّان وتوقَّفن عن العزف، بتنا بِشَرّ ليلة.

---

[1]: القُلُب: جمع قليب.. وهو البئر. [2]: الدَّهْس: المكان اللين السهل الذي ليس برملٍ ولا تراب.

[3]: العدوة: هي شاطئ الوادي أو جانبه المرتفع، وسميتْ القصوى: لأنها الأبعد عن يثرب، وسميتْ الأخرى بالدنيا لأنها الأقرب إلى يثرب.

بَلَغنا أنَّ محمداً بالعدوة الدُنيا من الوادي: (لم يتراجع.. بعد أنْ أفلتتْ منه العير؛ إنَّه عازمٌ على قتالنا، ليكن القتال.. إذاً!!).

ثم علمنا أنَّ الأمطار الغزيرة لم تمنعه أنْ يسبقنا إلى قُلُب بدر، نزل بجيشه عندها؛ فسُقِط في أيدينا.. وتَطيَّرنا، بيد أنَّ أبا الحكم.. كان ماضي العزم.. رابط الجأش، أرسل عميرَ بن وهب الجُمحي –وكان رجلاً شيطاناً- كي يدور حول عسكرهم.. ويحزرهم لنا؛ ففعل.. بل أوغل في الطريق التي خَلْفهم تحسُّباً أنْ يكون لهم كمينٌ.. أو معهم مددٌ يحميهم.

انقلب الرجل إلينا.. ليقول: "القوم ثلاثمائة.. يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولم أرَ لهم مدداً ولا كميناً!!"؛ فاغتبط أبو الحكم.. وهتف: "هم –والله- قليلٌ؛ سنقاتلهم.. ولن نُغلب مِن قلة!"، تبادر إلى ذهني تساؤلٌ.. احترتُ –أوانها- في جوابه: (بما أنَّهم بهذه القِلَّة؛ لماذا لم ينسحبوا؟!! لا جرم أنَّهم يعرفون أنّنا أكثر عدداً.. وأفضل عدة؛ لماذا لا يخشون أنْ نفتك بهم!!؟).

على أنَّ عميراً استطرد ناصحاً: "لكنّي قد رأيتُ –يا معشر قريش- البلايا[1] تحمل المنايا، نواضح[2] يثرب تحمل الموت الناقع، قومٌ ليس لهم منعةٌ ولا ملجأ.. إلا سيوفهم، والله.. ما أرى أنْ يُقتَل رجلٌ منهم.. حتى يقتل رجلاً منكم؛ فإذا أصابوا منكم أعدادهم.. فما خير العيش بعد ذلك؟!! قد صدقتُكم.. فروا رأيكم!".

هالنا حديث الرجل، وجفل كثيرٌ من القوم.. منهم حكيم بن حزام الذي أتى إلى أبي الحكم يسأله أنْ نرجع إلى مكة دون قتال، ويزعم أنَّ عتبة على مثل رأيه،

---

[1]: البلايا: النوق التي تُربط على قبور الأموات لا تُعلف ولا تُسقى حتى تموت؛ كان يفعلها بعض العرب الذين يقرّون بالبعث لأجل أنْ يُحشر عليها الميت وقت بعثه.

[2]: النواضح: الإبل التي يسقى الماء عليها.

رفض أبو الحكم رفضاً باتّاً.. وأمر أنْ يهبط العسكر إلى الوادي مع اِنشقاق الفجر، ونثل[1] درعاً له من جرابها.. وشرع يُهيِّئها ويطليها بعكر الزيت، وذلك.. ليتيقَّن الناس أنَّه مُصِرٌّ على اللقاء.

تنفَّس الصبح؛ فانسللنا إلى الوادي.. ولَمَّا تُغادرنا آثارُ البارحة المُزعِجة.. بعدُ!!
على مرمى البصر.. رأينا القومَ قد استقروا –ليلاً- بخير مقام، سيَّطروا على الآبار.. فغوَّروها إلا واحداً، بنوا عليه حوضاً.. وملؤه بالمياه؛ وبذلك.. فهم سيشربون.. وسيَحُولون بيننا وبين الماء؛ لن نشرب إلا أنْ نُناجزهم:
(لا ضَيْر! هم قليلٌ.. ونحن كثير!).
تتطلَّعتُ إلى السماء؛ فإذا هي عاريةٌ من سحائب الرحمة.. رغم الليلة المطيرة، الشمس.. كأنَّها تتهيَّأ للمعركة مثلنا؛ كأنَّها.. تتهيَّأ لتَرجُم الأرضَ تحت أقدامنا بأشعتها اللاهبة.
عاد حكيم بن حزام إلى خبائنا.. ليخافت أبا الحكم: "إنَّ عتبة بن ربيعة يقول: "ارجع بالناس.. وعليّ عقل حليفك عمرو بن الحضرمي[2] وما أُصيب من ماله!"؛ فارجع بالناس.. يا سيد مخزوم؛ تُذكَر فيها بخيرٍ.. أبد الدهر!؟؟".
رمقنا أبو الحكم –نحن مقاتلي مخزوم الذين معه في الخيمة- وأشار إلى حكيم باستخفافٍ.. وهتف مُستهزئاً: "هل سمعتم ما أتاكم به بنو قصي بن كلاب؟!!"، ثم صاح فيه بصوتٍ حازم: "يا أبا خالد! أ وبعد أنْ تراءى الجمعان.. وأبصرنا العدو أمامنا؟!!"، ثم استطرد.. هامزاً عتبة: "انتفخ –والله- سَحْر[3] صاحبك.. حين

---

[1]: نثل الشيء: استخرجه.

[2]: الرجل الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش عند نخلة بين مكة والطائف.. في آخر شهر رجب.

[3]: السَحْر: هو الرئة وما حولها، وانتفاخها: كناية عن شدة الخوف والفزع.

رأى محمداً وأصحابه، كلا –والله- لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمدٍ!!"، ثم أردف بنبرةٍ أخف حِدَّة: "وما بعتبة ما قال: ولكنَّه رأى أنَّ محمداً وأصحابه أكلة جزور[1].. وفيهم ابنه [2]؛ فتخوَّفكم عليه!".

بينما نحن كذلك.. إذ أبصرنا عتبة -على جملٍ له أحمر- يدور بين الصفوف.. يخاطب الناس، سمعناه يقول: "يا معشر قريش! إنَّكم –والله- ما تصنعون بأنْ تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله.. لئن أصبتموه لا يزال الرجلُ ينظر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه؛ قتل ابن عمه.. أو ابن خاله.. أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا.. وخلُّوا بين محمدٍ وسائر العرب؛ فإنْ أصابوه.. فذاك الذي أردتم، وإنْ كان غير ذلك.. ألفاكم سالمتموه!!".

أنشأتُ أتدبَّر موقفه في دخيلتي..وأُحدِّث نفسي: (بئس ما جئتَ به.. أيها الشيخ العبشمي!! هل تظنّه يوماً كيوم الفجار؛ تسعى –فيه- بالصلح بين الناس.. فيُسوِّدوك عليهم!!؟ كلا.. كلا.. لن ندعك تفعلها هذه المرة!!)،
(أم أنَّك تخشى –حقاً- على ولدك أنْ يُقتَل؟!! وهل تُفرِّط في شرف قريش وكرامتها حفظاً لروح ولدك؛ بئس السيد أنت إذاً!!).
(أم أنَّ الأمر أعظم مِن هذا؟!! أجل.. إنَّه أعظم؛ إنَّه الرغبة في الزعامة.. وحب الاستئثار بالسيادة، ويحك من داهية.. يا سيد عبد شمس! تريد أنْ نُخلِّي بين محمدٍ والعرب؛ فإنْ ظهر وساد عليهم.. فهو رجلٌ مِن عبد مناف.. فكانت سيادته سيادةً لكم، وإنْ أصابوه.. تكن أنت الذي كففتَ قريش عن حربه.. وحفظتَ دماءها وأموالها؛ وتصير السيادة لبني عبد شمس من دون عبد مناف!!)،

[1]: كناية عن قلة عددهم.

[2]: يقصد: أبا حذيفة بن عتبة بن أبي ربيعة؛ كان ممن أسلموا قديماً وهاجروا، ومن أصحاب النبي ﷺ الذين حضروا غزوة بدر.

(تباً! ما خطبكم؟! فيكم السقاية والرفادة.. ورياسة كنانة جمعاء، وما تركتم لنا سِوَى القبة والأعنة، وها أنتم أؤلاء تدَّعون أنَّ فيكم النبوة أيضاً!! فما نحن؟!! هل نبقى تبعاً لكم أبد الدهر؟؟!)، (هيهات! واللات والعزى.. لا ندعها لكم بعد الآن، ولننزعنّها منكم بسيوفنا، ولتعلمنّ غداً أنّا نحن فرسان قريش وأسيادها! وإنَّ غدا لناظره قريب!!).

ضاق صدري حنقاً على الرجل.. وعلى بني عبد مناف كافة، وددتُ أنْ يُخرسه أبو الحكم.. ويُلزمه حده؛ فما خيَّب أبو الحكم رجائي؛ بادر.. وبعث إلى عامر بن الحضرمي –أخي قتيل نخلة- قائلاً: "عتبة يريد أنْ يرجع بالناس، وقد رأيتَ ثأرك بعينك؛ فقُمْ.. فانشد خُفْرتك[1].. ومَقتَل أخيك!!".

فقام عامر مُتفجِّعاً.. يصرخ بحَميّةٍ: "وا عمراه.. وا عمراه!!"، ضَجّ الناس حميّةً له.. وهاجوا مطالبين بالثأر والانتقام، واستوسقوا على اتِّباع أبي الحكم والعزم على القتال، وأغفلوا رأي عتبة.. فانكبَّ مخزياً.

ثم تحمَّسنا.. وصففنا الصفوف للقتال، رنا أبو الحكم إلى حوض مائهم.. ثم ألمح إلى الأسود بن عبد الأسد المخزومي؛ فانبرى الأسود.. هاتفاً: "أُعاهد الله: لأشربنّ من حوضهم.. أو لأهدمنّه.. أو لأموتنّ دونه!!".

خرج يغذّ الخُطى إلى الحوض؛ فبرز له رجلٌ مُعلَّم بريشة نعامة في صدره، وقف دونه ودون الحوض!!؟

تناجزا.. فعاجله ذو ريشة النعامة بضربةٍ شديدةٍ بالسيف؛ فأطنَّ قدمه بنصف ساقه، وقع الأسود على ظهره.. تشخب رجله دماً، لم يستسلم.. بل ظلَّ يحبو

---

[1]: الخفرة: الذمة والجوار، انشد خفرتك: أي.. اطلب من يُجيرك، وقوله: وا عمراه: أي يُنادي مُتفجِّعاً على عمرو أخيه الذي قتله المسلمون في نخلة.

نحـو الحـوض كي يقـتحم فيـه.. أحسـبه يريـد أنْ يَبِـرّ يمينـه؛ فاتبعـه ذو ريشـة النعامة وضربه ضربةً.. قضتْ عليه، خمَّنتُ –من شدة بأسه- أنَّ ذاك الرجل ذا ريشـة النعامة.. هـو: حمزة بن عبد المطلب؛ وتيقَّنتُ.. لمَّا ألفيتُ أبا الحكم يكتم شهقة ألم.. ويهتف ضاغطاً على أسنانه بتغيُّظٍ: "تعساً لك.. يا حمزة!!".

قُتِل الأسـود بـن عبـد الأسـد المخزومي، فاتـك مخـزوم الشـرس.. وأحـد صناديد قـريش؛ قتيلٌ من بني مخـزوم.. تحت قـدم رجلٍ من بني عبد منـاف!! (يجب أنْ نردّها عليه؛ لن تكون كشجّة أبي الحكم!!).
وددتُ لـو أبرز إليـه.. وإنْ كان حمزة؛ لكن.. كلَّفني أبـو الحكـم –أنا.. وعكرمة ولده- أنْ نبقى في حرسه، لابد أنْ يبرز لـه رجلٌ من مخزوم.. كي نستعيد هيبتنا: (عسى أنْ يُخرِج له أحدَ أخويه –الحارث أو العاص-؛ فليس كفـءً لحمزة.. إلا أحدهما!).

بيد أنَّ عتبة لم يُمهِلنا، إنَّما نَصَلَ من الصَّفِّ.. ومعه عن يمينه أخوه شيبة وعن شماله ابنه الوليد.. شاهرين السيوف، صاح في أنفةٍ واعتزاز: "هل من مُبارز؟؟ أنا عتبة بن ربيعة العبشمي؛ أخرجوا لنا أكفاءنا!".
بـرز لهـم رهـطٌ مـن الخـزرج؛ فـقال لهـم عتبـة: "مـا لنـا بكـم حاجـة؛ إنّمـا نريـد قومنـا!!"، ثـم نـادى: "يـا محمـد! أَخـرِج لنـا أكفاءنـا مـن قومنـا!!"، لا أُنكـر –رغـم حقدي عليه- أنَّي أُعجبتُ بشجاعته، وإعجابي بحكمته.. صار أشدّ: (أراد الشيخ العبشمي أنْ تنحصر العـداوة بيننا وبين صباة قـريش فقـط.. وألا تنسحب إلى غيرهم؛ ولا أخجل إذ أعترف أنَّها ستُحسب له في مناقبه!).
دنا منهم حمزة.. وإلى جواره عبيدة بن الحارث.. وعلى بن أبي طالب، ثم صاح في كبريـاء: "هـل نحـن أكفـاؤكم؟؟"، أجابـه عتبـة: "نعـم! أكفـاء.. كـرام!"، امتشـقوا

السيوف.. وتحفَّز كل مقاتلٍ لنظيره؛ فقاتل عبيدة.. عتبة، وقاتل حمزة.. شيبة، وقاتل عليّ.. الوليد.
(أصبح النزال بين بني عبد شمس.. وبني هاشم؛ الفريقان من بني عبد مناف، ينبغي ألا ندعهم يتفرَّدون بها؛ يجب أنْ يكون لبني مخزوم نصيبٌ من شرف القتال!؟)، شرعنا نرقُب المبارزة.. في تحفُّز.
فأمّا شيبة والوليد.. فلم يُمهِلهما صاحباهما وقتلاهما، وأمّا عتبة.. فقد اختلف وصاحبه بينهما ضربتين؛ فأثبت كل واحدٍ منهما الآخر، كرّ حمزة وعليّ.. على عتبة فذفَّفا عليه، واحتملا صاحبهما.. وحازاه إلى أصحابهم.

أخرستْنا الصدمة.. وأحرقتْ قلوبنا: (قُتِل صناديد بني عبد شمس.. في ساعةٍ واحدةٍ من نهار!؟ إنَّها لفاجعةٌ مُحبِطة!!؟).
رأيناهم يفرحون، وسمعناهم يُهلِّلون ويكبِّرون.. حتى صَمَّتْ تكبيراتهم سمعي وأضرمتْ نار الانتقام في صدري، نظر أبو الحكم إلى حوضهم –حيث انطرحتْ جثة الأسود المخزومي-؛ فرآهم يشربون.. كأنَّما يستفزّون غضبنا؛ فحرَّض الرماةَ أنْ يتقدَّموا.. ويرشُقوهم بالسهام؛ أصابوا اثنين منهم في مقتل!
ثم جأر أبو الحكم يدعو على محمدٍ: "اللهم.. أقطعنا الرحم.. وآتانا بما لا نَعرِفه؛ فأَحْنِه الغداة!".
وأردف صائحاً: "اللهم.. أَيُّنا كان أحب إليك وأرضى عندك؛ فانصره اليوم!!".

ثم أمر بالهجوم الشامل عليهم؛ استأذنتُه أنْ أكون مع المهاجمين، وانطلقنا نعدو صوبهم بخَيْلنا ورَجِلنا.. حتى قاربناهم.. بينما هم ثبوت، أحسستُ كأنّي قُذِفتُ في وجهي بشيءٍ كالحصباء.. أصاب عيني وأنفي وفمي؛ تأذَّيتُ.. وشعرتُ بغُصَّةٍ في حلقي.. وحُرقةٍ في عيني، أُخِذ بصري.. فتوقَّفتُ -برهة- أنظر فيما أصابني، ثم

رجع إليّ البصر.. فرأيتُ الفزع من حولي؛ سهامهم تنصبُّ علينا.. تُمزِّقنا.. تُبعثِّر صفوفنا، كَرَّ شجعاؤهم.. وانقضُّوا علينا انقضاض الصقر على صيده.
ساعتها.. امتلأ فؤادي رعباً.. كأنَّ الرعب قُذِف في قلبي قَذْفاً، انكفأتُ –والذين معي- فارّين مذعورين، ارتددنا إلى عسكرنا.. واصطدمنا بمؤخرته.

سقط لواءنا.. وركبوا أكتافنا؛ ما انفكوا يقتِّلون فينا ويمزِّقون.. كذئابٍ في حظيرة أغنام، تفشّى الهلع والرعب -في صفوفنا المبعثرة- كالوبأ؛ تضعضع الجيش.. وانشغل كل رجلٍ بنفسه.

فيما أدور حائراً لأنجو بنفسي.. صادفتُ عمر بن الخطاب يسعى إلى العاص بن هشام.. صائحاً: "يا خالِ! أدعوك إلى الإسلام؛ أَسلِم.. تسلم، أو.. تقاتلني!"، خَلَص إليه العاص.. صارخاً في تسخُّط: "بل أقتلك.. يا ابن حنتمة!!".
التقيا.. فذبحه عمرُ ذبح النعاج؛ ازددتُ رعباً.. وشَلَّتْ الحيرة عقلني، ثَقُل الجَزع على قلبي، وثَقُل جسدي على حصاني.. الظَّلِيم؛ على غير عادته.. كاد ينوء بي.

تلَّفتُ حولي أنشد مَن ينجدني؛ فرأيتُ أبا الحكم صرِيعاً على الأرض.. وقد انفضّ الجمع من حوله، سُقِط في يدي.. وسَقَطتُ من على الظَّلِيم؛ لكنَّه أَبَى إلا أنْ يقوم إلى جواري.. وفاءً لي، وضعتُ سيفي.. وانطرحتُ أسيراً بين أيديهم.

- ١٧ -

تباعدتْ صراخات المدبرين المذعورين، وهدأتْ غمغمات الأبطال المنتصرين.. وعلتْ تكبيراتهم، انقشع غبار الفارّين.. وانكشفتْ لي المأساة؛ اندحر جيش قريش، وهرب جنوده.. منهزمين.

سكتتْ ساحة المعركة.. وسكنتْ ريحها التي عصفتْ بنا، نظرتُ حواليّ.. فوجدتُ سادة قريش مقتولين؛ جثث بالعشرات مُمزَّقة الأشلاء.. مطروحة كطعمة سائغة لجوارح السماء ووحوش الصحراء.

تلفَّتُّ يميناً وشمالاً؛ فأبصرتُ العشرات من فتيان قريش وصناديدها مُستكينين.. مُنكسي الرءوس.. جاثين على الركب.. مشدودي الوثاق؛ كنتُ واحداً منهم، فوق أرؤسنا أصحاب محمدٍ.. شاهري الحسام.. رافعي الهام.. يترقَّبون قضاء محمدٍ فينا.

تلطَّخ وجهي –وثيابي- بالدم والتراب؛ حاولتُ أنْ أمسح عن وجهي.. فأعاقتني الأغلال، سخرتُ من نفسي مُتحسِّراً.. وقلتُ في دخليتي: (وإنْ مسحتُ التراب عن وجهي؛ فكيف أمسح عنه العار؟!!).

ثم حدَّثتني نفسي في خنوع: (هل سيقتلوننا؟؟! لستُ أدري!!)، (كيف النجاة؟!! ليتهم يعرضون عليّ الدخول في دينهم!!).

(ويحك.. يا ابن الوليد! لإنْ عرضوه عليك.. هل تقبل؟!! بئس المرء أنا.. إنْ بدَّلتُ دين آبائي مخافة الموت!!)، (يا فتى مخزوم! عش كريماً.. أو مت غير ذليل!!).

أَعلم أنَّهم سيمكثون -على أرض المعركة- ثلاثة أيام.. كي يؤكِّدوا فَوْزهم علينا.. وتتحدَّث بهم العرب؛ ما زال أمامي فرصة، عسى أنْ يرجع الجيش المنسحِب.. فيكرّ عليهم: (هيهات.. يا أحمق! ألا ترى بعينك؟! كيف يرجع جيشٌ –كهذا- مُزِّق تمزيقاً.. وسقط أكابر قادته بين قتيل وأسير؟!!).

تطلَّعتُ إليهم؛ فألفيتُهم مُبتهجين بالنصر العزيز، يجأرون إلى ربهم.. حامدين شاكرين، اصطفوا خَلْف محمد خاشعين.. يصلون تلك الصلاة التي -ذات يومٍ في مكة- غَرزتْ في نفسي.. الرهبة، مضوا يُداوون جرحاهم.. ويدفنون قتلاهم.. ويحصون الغنائم، ثم جمعوا قتلانا –وهم كثير- وطرحوهم في القليب.

لبثوا ببدر ثلاثة أيام.. يحتفلون بنصرهم بالابتهال إلى ربهم والتضرُّع له، ما برحوا يصلّون كثيراً.. ليلاً ونهاراً، والصدق: أنّي تَعجَّبتُ منهم؛ فما سمعتُ –قبلُ- عن جيشٍ يحتفل بانتصاره هكذا، وما رأيتُ قوماً يعبدون ربهم بهذا الإخبات.

ثم تحرّكوا إلى يثرب.. يسوقوننا بين أيديهم؛ مجموعةٌ يدا الرجل منّا إلى عنقه بحبل، وقد تجمَّعتْ غنائمهم بين يدي محمد.. ليحكم فيها، ظننتُ أنَّه سيستأثر بها لنفسه؛ لكن.. بعد أنْ فارق الركب مضيق الصفراء.. قسَّمها عليهم بالسَّوِيَّة.

في بعض الطريق.. ضربوا عنق النضر بن الحارث العبدري.. وعقبة بن أبي معيط العبشمي، ورأيتُ حنقاً.. ونقمةً على الأسرى.. في وجه عمر بن الخطاب؛ تحسّستُ رقبتي.. وخشيتُ على نفسي، غير أنّي اطمأننتُ.. حينما سقوني الماء، وقالوا عن المقتولَيْن: أنَّهما كانا يشتدّان في إيذاء محمد.. إيذاءً صفيقاً.

ولج ركبنا –نحن الأسرى- إلى يثرب، وكان محمدٌ قد سبقنا إليها.. قبل يوم، فرَّقنا على بيوت أصحابه.. قائلاً: "استَوصوا بالأسارى خيراً!"، وأُخبِرتُ: أنَّهم سيقبلون منّا الفداء.. وقد يَمُنّون على بعضنا بالعفو.

جرَّبتُ أنْ أحصي خسائر بني مخزوم خاصة؛ فوجدتُ أنَّهم: بضعة عشر قتيلاً.. على رأسهم أبو الحكم بن هشام.. وأخوه العاص بن هشام.. والأسود بن عبد الأسد، وتسعة أسرى منهم أربعة من آل المغيرة.. أنا أحدهم؛ خسارة فاجعة.. لم يخطر لي ببال أنْ تصيبنا في يومٍ واحد.

فيما يتوَّزع الأسارى بينهم.. إذ مَرَّ مُصعب بن عمير العبدري –وكنتُ أعرفه- برجلٍ من الخزرج يشدُّ وثاق أخيه أبي عزيز بن عمير؛ فقال للخزرجي مُحرِّضاً: "شد يديك به؛ فإنَّ أمه ذات متاع.. لعلّها تفديه منك!". فقال أبو عزيز معاتباً أخاه بانكسار: "أ هذه وصايتك بي.. يا أخي؟!!".

أجابه مصعب بجفاء.. مُشيراً إلى الخزرجي: "إنَّه أخي.. دونك!"؛ بُهِتُّ.. وأخذتني دهشةٌ عميقة: (كيف لهذا العبدري القرشي يتبرَّأ من أخيه.. سيد قومه الذين هم سدنة الكعبة وسادة العرب؟! ويُعلِن انتماءه لأعرابي نكرة؟!! وعمر.. رأيتُه يقتل خاله بيده!!؟ وأبو حذيفة بن عتبة.. يتسامر مع حمزة الذي قتل أباه، ومثله أبو سلمة المخزومي.. وقد رأى حمزة يقتل أخاه الأسود!!؟ هل هذا الدين يأمرهم بقطيعة الرحم؟!! هل يأمرهم بالانسلاخ من الأب والعشيرة؟!!).

انتابني –في البداية- بعض الاشمئزاز.. إذ حبسوني في إحدى دورهم الفقيرة، بيد أنَّهم ضمدوا جراحي.. وتركوني أغتسل.. وأعطوني ثوباً نظيفاً، كانوا يسقونني ويطعمونني طعاماً ضئيلاً، كنتُ –أحياناً- أترفَّع عنه وأأنَف منه.. حتى جاءني أحدهم –ذات يوم- بشيءٍ من طعام؛ فكرهتُ أنْ آكله؛ فهتف لائماً في حرقة:

"والذي بعث محمداً بالحق.. لقد آثرتُك بهذا الطعام على أهلي ونفسي.. لوصاية النبي بالأسرى؛ فامدد يدك إليه.. و كُلْ؛ فليس عندنا أفضل منه!!".

(هل هم فقراء إلى هذا الحد؟؟! ورغم فقرهم يؤثرونني على أنفسهم.. ويطعمونني أفضل طعام لديهم!)، (منذ أيامٍ قليلة.. كنتُ أكرُّ عليهم بجوادي.. وأضرب وجوههم بسيفي، وربما قتلتُ أحدَهم!؟)، (كانوا حريصين على قتلي في ساحة المعركة؛ الآن.. أنا بين أيديهم.. أعزل.. ضعيف.. لا أملك لنفسي شيئاً؛ فلِمَ يحسنون إليّ.. ويؤثرونني على أنفسهم وأهليهم؟!!).
أجابني أحدهم: "لأنَّ الله -ورسوله- أوصانا بالأسارى خيراً، هذا هو ديننا.. يأمرنا بالإحسان، وأنْ نرحم الضعيف؛ وأنت أسير.. والأسير ضعيف!!".

(أنا.. ابن الوليد بن المغيرة المخزومي.. أعزّ العرب وأكرمهم؛ لا أقبل إحساناً من أحد!!)؛ امتنعتُ أنْ آكل طعاماً.. إلا أنْ يأكلوا معي؛ فاستجابوا لي، وكانوا إذا قدَّموا غداءهم أو عشاءهم يخصّوني بالخبز والتمر.. ويأكلوا هم التمر فقط، وما تقع في يد رجلٍ منهم كسرة خبز إلا نفحني بها؛ فأستحي.. فأردّها على أحدهم.. فيردّها عليّ ما يمسّها، أصبحتُ أخجل من رقتهم وتلطُّفهم معي، حاولتُ أنْ أعاملهم بالمثل؛ لكن.. ذل الأسر يمنعني.

ذات يومٍ.. أتى عمر لزيارتي بصحبة عمار بن ياسر؛ كان يوقِّره ويقدِّمه على نفسه.. تعجَّبتُ: (كيف لسيد بني عدي.. جبار قريش.. أنْ يُقدِّم على نفسه هذا الحليف المغمور؟! كيف يُقدِّم على نفسه ابن أَمةٍ سوداء.. وهو ابن حنتمة بنت هاشم المخزومية؟!!)، استنكرتُ زيارتهما لي.. وعبستُ في وجهيهما، خاطبتُ عمر مستهجناً: "كيف طاوعتك يدك.. وقتلتَ خالك؟!!"، أجابني بأنفة: "ليس خالي!!

لقد فرَّق الإسلام بيننا وبين الكفار.. يا وليد! فتبرَّأنا منهم.. كما تبرَّأ إبراهيم والذين معه من قومهم حتى يؤمنوا!".

"تتبرَّأ من قومك.. وتحابي هذا الجاحد؟!!": قلتُها مُشيراً إلى عمار باحتقارٍ وضغينة، سألني عمارٌ بهدوء: "ما دفعك لاتهامي بالجحود.. يا ابن المغيرة؟؟ أيّ معروف لكم.. جحدتُه أنا أو أبي؟!!"، أنصتُّ.. فأردف بصوتٍ مُتفجِّع: "لقد خدمتُكم -يا آل المغيرة- أنا وأبي وأمي.. خير خدمة، وحفظنا حلفكم ووفينا لكم؛ لكن.. أنتم الذين بدَّلتم وجحدتم حلف أبي! أَخبِرني: بأي ذنبٍ قُتِل أبي؟ بأي ذنبٍ قُتِلتْ أمي؟ بأي ذنبٍ عذَّبتمونا.. وأحرقتم دارنا الحقيرة؟!!".
ما استطعتُ أنْ أُجيبه بغير الصمت الخَجِل؛ فرحلا عني.

في يومٍ آخر.. أتاني أبو سلمة -عبد الله بن عبد الأسد المخزومي-؛ بَشّ في وجهي.. وتلطَّف معي، أبلغني تحية أم سلمة (هند بنت عمي أبي أمية)، وأبلغني أنَّ الفكاك قريب، سألتُه بامتعاض: "لماذا ترصَّدتم قوافلنا؟! لماذا تصدَّرتم لحربنا؟! أما كفاكم أنَّكم سفَّهتم أحلامنا وحقَّرتم آلهتنا؟! لقد قطعتم الأرحام.. وأفسدتم في الأرض!!؟".
ترفَّق بي.. وأجابني برَوِيَّة: "يا وليد! إنَّك تقلب الحق باطلاً، تسأل: لماذا ترصَّدنا قوافلكم؟ وأنا أسألك: لماذا عذَّبتم ضعفاءنا.. وضيَّقتم على أشرافنا؟!! لماذا اغتصبتم مالي.. ومنعتم مني زوجتي.. وانتزعتم منها ولدي؟!! لماذا اضطهدتمونا.. حتى أخرجتمونا من أرضنا وأهلينا وأموالنا؟!! لماذا تحبسون عيّاش وسلمة وتُعذِّبونهما.. وغيرهما كثير؟!!".
أجبتُ حانقاً: "أنتم مَن بدَّلتم ديننا.. وسفَّهتم أحلامنا!!".

قـال: "أ رأيـتَ إنْ كـان الحـق مـع محمد –رسـول الله- وهـدانا الله إلى اتّبـاعـه؛ فـما تنقمون منّا؟!!"، أجبتُه مُتغيّظاً مُستنكِراً: "أنت رجلٌ مخزومي؛ أ ترضى أنْ تكون تابعاً لرجلٍ من عبد مناف؟؟!".

أجـاب باهتمـام: "يـا ابـن العـم! الأمـر أعظـم مِـن هـذا! إنَّمـا أقـول لـك: أنَّ الإلـه الواحـد أراد أنْ يَـمُنَّ على عبـاده ويهـديهم إلى الحـق بعـد أنْ كانوا يتخبَّطـون في ظلمـات الباطـل؛ فأرسـل محمداً إلى النـاس كافـة لـيُخرجهم مـن عبـادة الخلـق إلى عبادة الخالق، ليمحو عبادة الآلهة الزائفة.. ويُثبت عبادة الإله الحق، ليؤمن –بعد ذلك- مَن يؤمن عن بينة.. ويكفر مَن كفر عن بينة!!".

قلـتُ: "إنْ كان الله –كما تقـول- يريـد أنْ يرسـل للنـاس رسـولاً؛ فلمـاذا لـم يُرسِـل مَلَكـاً رسـولاً؟!!"، أجـاب بكياسـة: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (آية ٩٥ سورة الإسراء) .. من حكمـة الـرب الحكيم أنَّ يرسـل للبشـر رسـولاً منهم.. ليكون قـدوة لهم، ولـو كان أهل الأرض ملائكةً.. لأرسل لهم ملكاً رسولا!".

لـم استسـلم لـه؛ بـل.. عارضتُه مُتسـائلاً بـشيءٍ مـن الحقـد: "ولمـاذا محمد؟؟ لماذا لا يبعث رسولاً آخر؟ لماذا لم يكن الوليد بن المغيرة.. المخزومي؟!!".

أجاب: "يا وليد! أ أنت تقسم رحمة ربك؟؟! هل تشترط على ربك الذي خلقك من عدم.. وسواك فأحسن صورتك؟!! هل تشترط عليه –إذ أراد لك الهداية والرشاد: مَن الرسول الذي يبعثه إليك؟! الأَوْلى.. أنْ تحمده أنَّه نجّاك من الضلال، وأنْ تتبع الهدى!".

هتفتُ مُستنكِراً: "وما الهدى فيما تدَّعون؟! تنكَّرتم للآلهة.. وجعلتموها إلهاً واحداً!؟؟"، فسألني بسعة صدر:"كم إلهاً تعبد.. يا وليد؟!!".

بغتني سؤاله.. فهذا سؤال لم يدر بخلدي من قبلُ، والصدق.. أنني لم أكترث لأي ربٍ من الأرباب غير **أَبِي** –الوليد بن المغيرة- هو الذي اعتقدتُ أنَّه ربي الحقيقي، أما هذه المعبودات التي حول الكعبة؛ فلم يشغلني أحدٌ منها.. ربما كان هُبَل في بعض الأحايين، على أنّي ينبغي أنْ أُجيبه إجابةً تُسكته!؟

جال بخاطري: هُبَل.. واللات.. والعزى.. ومناة.. وكذلك رب الكعبة الذي في السماء؛ فأجبتُه بإيمان الواثق من معبوداته: "أعبد آلهةً خمسة؛ أربعة في الأرض.. وواحد في السماء!".

داهمني سائلاً: "مَن مِنهم الذي خلقك؟؟ مَن منهم الذي يرزقك؟؟ مَن منهم الذي بيده حياتك وموتك؟؟"، (ويحك.. يا زوج أختي! إنَّك تُثير في رأسي تساؤلات.. لم تخطر لي – قبلُ- ببالٍ؛ إيلاما ترمي؟!! ماذا تريد مني؟؟ أحسبك تتلاعب بي.. وتحاول أنْ تقنعني أنَّ دين محمدٍ.. هو الحق؛ هيهات!! لكن.. سأستمر معك إلى نهاية لعبتك؛ ولنرى إنْ كنتم على الحق!!).

بعد برهةٍ طويلة صامتة.. أجبتُه باقتضاب: "الذي.. في السماء!!"، فابتدرني: "إذا كان الذي خلقك ويرزقك وبيده حياتك وموتك.. هو الرب الذي في السماء وحده؛ فما حاجتك للآخرين؟!! لِمَ تُكلِّف نفسك عبء عبادتهم.. وهم لا يغنون عنك شيئاً؟!!".

أجبتُه بنفور: "يا أبا سلمة! هكذا.. وجدنا آباءنا يفعلون!!".

"أ رأيتَ إنْ كان الآباء في ضلال.. وعرفنا الحق؛ ألا نتَّبعه؟!!"

جاوبتُه مُعانِداً ومُقرِّراً: "إنْ كان كما تقول، وإنْ كان –كما تزعمون- الإله الذي في السماء.. لا يرضى عن عبادتنا لشركاءٍ معه.. ولا يرضى عن ديننا؛ فلماذا دافع عنّا.. وأرسل الطير الأبابيل وأهلك جيش الأشرم الحبشي.. كما تعلمون؟!!".

ظننتُ أنّي حاجتُه؛ غير أنَّه كبسني.. قائلاً: "وما يدريك.. لعلَّ الله كَرِه أنْ يدافع أهلُ الشرك –أمثالكم- عن بيته الحرام؛ فأرسل الطيرَ الأبابيل تدافع عنه؟!!".

ألجمتني حُجته.. وأحفظتني، ولا أدري لماذا تضايَّقتُ من قَوْلته: (أهل الشرك.. أمثالكم!)، أشحتُ عنه بوجهي.. هاتفاً: "كفى جدالاً! إليك عني.. لا أحب حديثك!!"، تبسَّم لي.. وربت على كتفي برفق، ثم نهض.. قائلاً بتلطُّف: "لا أحب أنْ أُثقِل عليك، سأنصرف عنك الآن، لكن.. سأعود لزيارتك لاحقاً!".
أجبتُه بتضجُّرٍ: "لا تكترث بي.. ودعني وشأني!".
أجاب: "سآتيك ومعي –إنْ شاء الله- سلمة.. ابن أختك هند؛ ألا تحب أنْ تراه؟!!"، رَقَّ قلبي.. إذ ذكر هند وولدها؛ بيد أني اعتقلتُ لساني.. فانصرف عني.

غادر أبو سلمة محبسي؛ لكن.. كلماتُه لم تغادر ذهني، وما فتئتْ تعبث بعقلي؛ تملَّكني غيظٌ شديدٌ لذلك، بيد أنَّ وحشة الأَسْر.. ولياليه الكئيبة دفعتني للتدبُّر في كلماته.. والتفكُّر في حقائق كانت غائبةً عني، تساؤلاتٌ كثيرة.. أخذتْ تجتاح عقلي، وشكوكٌ عديدة بدأتْ تساور قلبي.. كأنَّها تفترسني.

حينما عاد لزيارتي.. كنتُ قد عقدتُ العزم على عدم الاستسلام له أو الإذعان لأفكاره؛ فابتدرتُه: "رأيتُك بعيني تخالط حمزة وتتوادّ معه.. وهو الذي قتل أخاك الأسود.. منذ أيامٍ قليلة! كيف يكون منك هذا؟!! كيف تزعمون أنَّكم على الحق.. وأنتم تقطعون الأرحام؟!! هل يأمركم دينكم بهذا؟!!".

ابتسامته العذبة لم تفارق محياه، قعد.. وقدَّم إليّ ولده.. هامساً: "ألا تُرحِّب بسلمة أولاً؟!"، اقترب الغلام مني.. يعتريه شيءٌ من التهيُّب؛ رمقتُه مُتوجِّساً.. ثم جعلتُ أتأمَّله؛ ذكَّرني بطيف هند.. أختي التي كانت تحنّ عليّ كأمي، قلتُ له:

"مرحباً!!"، خاف مني.. وهرع لائذاً بحضن أبيه الذي مَدَّ إليّ يديه بشيءٍ كان يحمله.. هاتفاً: "هذا لك! إنَّه الحَيْس[1] الذي تحبه؛ أعدّتْه أم سلمة لك بنفسها!". أومأتُ بامتنانٍ مُتحفِّظ؛ فوضعه جواري، ثم أعدتُ عليه السؤال بإلحاح.. مُتمنِّياً أنْ يعجز عن إجابتي، لكنَّه تحدَّث بثقةٍ.. قائلاً: "البادي هو الأقطع والأظلم.. يا وليد! نحن لم نعذِّبكم لأنَّكم تتبعون دين الحق؛ أنتم عذَّبتمونا، ولم نسلبكم أموالكم.. ولم نطردكم من دياركم؛ أنتم فعلتم! قد فرَّق الإسلام بيننا وبين الكفار.. أمثال الأسود؛ هو ليس أخي.. بل حمزة هو أخي!!".

هممتُ أنْ أجيبه؛ غير أنَّه استأنف: "وانظر –مثلاً- إلى عمر بن الخطاب العدوي؛ ألم يكن رجلاً منكم؟! ألم يكن جباركم الذي يُعذِّب المسلمين.. ويبطش بهم كما أخواله سادة مخزوم؟! لقد كنّا نبغضه لكفره وظلمه؛ بل كان بعضنا قانطاً من هدايته.. حتى كنّا نقول: "لو أسلم حمار الخطاب.. لا يسلم عمر!"، ثم انظر ماذا حدث: قد هَدَى الله عمر للإسلام.. وأشرق قلبه بنور الإيمان؛ فأصبح أخاً لنا وحبيب.. ومُقدَّماً علينا لعلمه وحسن اتِّباعه للرسول ﷺ، نحن لا نقطع أرحامنا.. يا ابن العم؛ نحن نوالي الله ورسوله ومن أطاعهما.. ونبرأ من أعدائهما!".
اعترضتُ باستهجانٍ وارتياب: "دينكم يأمركم أنْ يبرأ الرجل من أبيه الذي نَبَتَ مِن صلبه؛ الذي غذّاه وربّاه.. وكبَّره؟!!".
"أيهما أولى بالولاء: الأب الذي كان مجرد سبب للوجود؛ أم الرب الذي خلقك وأباك –وأجدادك-.. من عدم، ويرزقك وإياه بسبب وبغير سبب؟!! في البدء.. كان الرب الخالق؛ فهو الأجدر بالولاء!".

فيما يُحدِّثني بحماسٍ.. تتدافع كلماته بحبٍ عميق وإيمانٍ واثق؛ فيما يسترسل

[1]: الحَيْس: طعامٌ كان يصنع من التمر والأقط والسمن.

هكذا.. لمحتُ الغلام –سلمة- وهو يلعب حولنا، ولاحظتُ ذراعه المُعاقة؛ تذكَّرتُ يوم خلعنا ذراعه ونحن ننتزعه من أبيه وأمه.. ونُفرِّق بينهم، قلتُ لنفسي: (أي رحم تلك التي وصلناها ونحن نَحرِم صبياً –كهذا- من أبيه وأمه، وما الذنب الذي جنتْه هند.. حتى تركناها بلا رحمة –قرابة العام- تبكي فراق زوجها وولدها؟!!)؛ شعرتُ بشفقةٍ شديدة على هند ووليدها، قاطعتُه سائلاً بمودةٍ وإشفاق: "هل هند سعيدة.. يا أبا سلمة؟؟".

أجابني بصوتٍ مُشبَّعٍ بالرضا والسعادة: "الحمد لله.. هي في أسعد حال مع مَن تُحِب!"، ثم أردف بنبرةٍ يشوبها العتاب: "رغم إيذائكم لنا.. ونهبكم أموالنا؛ رغم كل الظلم الذي كان منكم.. نحن سعداء، واثقون في نصر الله لرسوله ودينه وعباده المؤمنين!".

ثم قَدِم أخواي –خالد وهشام- ليُساوما على فدائي، اجتمعتُ بهما.. اعتنقاني عناقاً حاراً؛ غير أنَّ لقائي لهما كان فاتراً، اعتذر هشام عن تأخُّرهما في القدوم إليّ.. لسعيهما في وصية أبي عند ثقيف وعند دوس؛ لم أعبأ!!

طالبهما أحد آسِريّ بأربعة آلاف درهم –كمثلي من أثرياء الأسرى-، ماطل خالد في البداية.. ثم وافقا على دفع قيمة الفداء؛ بينما طالبهما الآسِر الثاني –وهو قرشي- بشِكَّة[1] الوليد بن المغيرة!!؟

رفض خالد رفضاً باتّاً.. حميَّةً لأبيه ومَوروث أبيه، جادله هشام زاجراً: "أ لأنَّه ليس بابن أمك؟!! والله.. لنفديه مهما كان الفداء!"، ثم اصطلحوا على أنْ يدفعا قيمة الشِّكَّة مالاً؛ فقُدِّرتْ قيمتها بمائة دينار؛ ثم ذهبا.. على أنْ يعودا –قريباً- ومعهما الفداء.

---

[1]: شِكَّة الوليد: كانت درعاً فضفاضة.. وسيفاً وبيضةً، والشِّكَّة: هي ما يحمل أو يلبس من السلاح.

عندما رجعتُ إلى محبسي –في انتظار عودة أخويي بالفداء- رجعتُ بقلبٍ غير الذي كان؛ تبدَّلتْ مشاعري نحو محمد وأصحابه، اختلفتْ رؤيتي لهم.. ما عدتُ أراهم أعدائي!!؟

كذلك.. رجعتُ إلى محبسي بعقلٍ غير الذي كان؛ عقل يريد أنْ يفهم.. ويعرف الحقيقة: (لم أعد أكترث للتنافس بين مخزوم وعبد مناف؛ بل.. أسعى –الآن- لمعرفة الحقيقة.. والتمييز بين الحق والباطل!).

أصبحتُ أُرحِّب بزيارة عمر وعمار.. حتى عبد الله بن جحش –الذي طلب شِكَّة الوليد فداءً- ابتهجتُ بزيارته، وصرتُ أفرح بلقاء أبي سلمة.. وأُداعب سلمة وأُلاعبه، تزايدتْ حواراتي ومناقشاتي مع أبي سلمة.. وتنامتْ –في قلبي- رغبتي في التعرُّف على دينهم.

وأنشأتُ.. أَبِيتُ الليل –ساهداً- مُتفكِّراً: (حقاً.. هذا الأمر أعظم من تنافسٍ -بين مخزوم وعبد مناف- على سيادة قريش.. وزعامة مكة!!؟ قديماً.. كان قصي بن كلاب: هو الذي جمَّع قريش حول الكعبة، وما صار لقريش عز وشأو إلا بجهده، وهو الذي ملَّك مكة لعمه يقظة –جد بني مخزوم-، بعد يقظة.. أصبح قصي ملكاً لمكة -وحق له أنْ يكون-؛ وما ضر مخزوم وبنيه أنْ صاروا تبعاً له، ثم كان ولده عبد مناف، ثم هاشم.. ثم عبد شمس -وهما من أبناء عبد مناف- وما تأبَّى بنو مخزوم على سيادتهما، ثم ساد عبد المطلب بن هاشم.. ولم ينازعه جدي المغيرة؛ بل كان سنداً له، لم تظهر المنافسة إلا بين حرب بن أمية.. وهشام بن المغيرة؛ ما شأني وهؤلاء.. أو هؤلاء؟!! تلك أُمَّةٌ خلتْ.. وأهلكهم الدهر!!؟).

مضيتُ.. أقضي ليالي الانتظار الرتيبة.. مُتدبِّراً في كلمات أبي سلمة: (محمدٌ رجلٌ شريفٌ وسيطٌ في قريش، ولم نعهده إلا صادقاً أميناً.. حبيباً مُحبَّباً إلى أهل مكة؛

لماذا يأتي قومَه بهذه البدعة التي لم يُسمَع بها –في العرب كافة- من قبلُ؟!! لماذا يدعي أنَّ الله يُوحي إليه بهذا القرآن؟!! ما سر إصراره الشديد على ما يقول؟! وما سر ثقته العظيمة في أنَّه منصور؟! نزعم أنَّ العبيد والسفهاء فُتنوا به.. واتَّبعوه؛ فما بال الأشراف ذوي الأحلام والجاه.. أمثال: أبي سلمة.. وأبي بكر.. وحمزة.. وعمر.. وعثمان.. وغيرهم؛ إنَّهم يتزايدون.. وتكثر أعدادهم يوماً بعد يوم.. رغم الاضطهاد والتنكيل؟؟!)، (لماذا يثبت عمار وبلال على دين محمد.. رغم العسف والتعذيب؟! لماذا تتمسَّك به امرأةٌ عجوز ضعيفة مثل سُمية –أو زوجها ياسر- حتى تموت من العذاب في سبيله؟!! لماذا يهجر عيّاش وسلمة قومهما وأرضهما لأجله؟! ثم يعودا.. فيُنكَّل بهما ولا يتزحزان عن الثبات عليه؟!! لماذا.. ولماذا؟؟؟ إلا أنْ يكون محمدٌ صادقاً.. ودينه هو الدين الحق!!).

سألتُ أبا سلمة.. ذات مرة: "لماذا تتحمَّلون كل هذا الاضطهاد.. وكل هذه الأعباء؟!! لماذا تتمسَّكون بهذا الدين على ما جلبه لكم من شقاء؟؟!".
كانت كلماته قوية.. رغم خفوت صوته، وكان صوته الهامس.. مُشبَّعاً بصدقٍ وإيمان.. ويقين لم أعهده على أحدٍ من قبلُ: "إنَّه الوفاء.. يا وليد! الوفاء للرب الرحيم الذي لم يتركنا هملاً.. فبعث إلينا رسولاً يهدينا إليه، الوفاء للإله الواحد الأحد الذي لا يستحق العبادةَ أحدٌ غيره!"، التقط أنفاسه.. ثم أردف: "أ رأيتَ.. إنْ عرفتَ أباك وأياديه وفضله عليك؛ أكنتَ تجعل عبيده شركاءً له في الفضل؟؟"، ثم كرَّرها.. هاتفاً بنبرةٍ زاجرة: "هل كنتَ تجعل عبيد الوليد بن المغيرة وخُدَّامه شركاءً له في فضله عليك.. أو أُبوته لك.. أو بِرك إياه؟؟!".
أجبتُه على البداهة.. كأنّي أدرأ تهمة أو سُبَّة: "كلا.. كلا!!".
هتف بكياسة: "فكيف نجعل للرب العظيم -الذي خلقنا من عدم.. ويغنينا من عالة- شركاءً من خلقه؟؟!".

سَكَتَ ملياً.. وأطبقتُ شفتي مُتفكِّراً.. ثم هتفتُ مُتسائلاً بإصرار: "ما أجبتَ سؤالي؛ لماذا تُحمِّلون أنفسكم كل هذه المشقة؟!! لماذا تُضحون بأرواحكم وأموالكم وأهليكم في سبيله؟!! يكفيك من الوفاء له ألا تُشرك معه غيره في عبادتك، ثم دَعْ الآخرين وشأنهم!!؟".

ترفَّق بي.. وهو يجيب مُستهجِناً: "هل ترضى أنْ يَعُقَّ أخوتك أباك.. أمام عينك؟!! هل ترضى أنْ يجعلوا له شركاء -من عبيده الذين يملكهم ولا يملكونه- في ماله وجاهه.. وفي برهم به؟؟!".

أجبتُه: "بالطبع.. لا!!"؛ فاستطرد: "كذلك المؤمن المُحِب لربه.. لا يرضى أنْ يُشرَك مع الله مَن هو دونه؛ بل.. إنَّ الرجل الوفي لقومه.. يحب لهم الخير، ولا جناح عليه أنْ يسعى ليُرشدهم إلى الحق الذي هداه الله إليه.. لكي يفوزوا معه بحب الله.. وحسن ثوابه في الدنيا والآخرة؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (آية ٣٣.. سورة فصلت)﴾ !!".

"لكنِّي.. لا أفهم: ما الذي يدفعني لكل هذه التضحيات؟ وما الربح الذي سأُحصِّله منها؟! وما جزائي لو لم أفعل؟؟!".

أجاب بسلاسة: "أمرنا اللهُ –بعد أنْ هدانا إلى الحق- أنْ نُبيِّنه للناس حتى يعلموا أنَّه الحق؛ فمَن شاء فليؤمن.. ومَن شاء فليكفر، والجزاء الذي يرجوه المؤمنون هو رضا الله.. وجَنّة الآخرة، والعذاب الذي يعوذون بالرحمن منه.. هو سخط الله وعذاب الآخرة! أمّا الدنيا.. فهي دار العمل.. وليستْ دار الجزاء!".

تساءلتُ باندهاش: "وما الآخرة؟!! أحقاً تؤمنون أنَّ ثَمَّة حياةً بعد الموت؛ بعد أنْ يهلك الناس.. وتصير العظام رميما؟!!"، أجاب بتأكيدٍ وثقة: "أجل.. يا وليد! تالله.. إنَّ البعث بعد الموت حق، والحساب بعد البعث حق، وإنَّه لجَنّةٌ ونعيم أبدا.. أو نارٌ وعذاب أبدا؛ وليختر المرؤ لنفسه ما يشاء!".

"لكن.. كيف؟!! هل الأبدان.. بعد أنْ تَفنى.. ترجع صحيحةً كما كانت؟!!"، أجاب بنبرةٍ حاسمة: "إنَّ الذي خلقها أول مرةٍ من عدم –يا وليد- قادرٌ على إعادتها مرة ثانية.. وهو عليه أهون!!".

بعد كل نقاش.. يرحل عني أبو سلمة.. وقد تضاعف انبهاري بإيمانه وثقته الثابتة في دينه، وتهاوى ثقتي في دين قريش، وأشعر أنَّ دينهم له أساسٌ راسخٌ.. يرتكزون عليه؛ بينما أحسّ أنَّ دين قريش مبنيٌّ على أساسٍ مُزعزعٍ.. لا أصل له.
بعد كل نقاش.. يتعاظم في قلبي سؤالٌ شغوف: أيهما الحق الذي ينبغي أنْ أتَّبع: دين محمد؟! .. أم دين قريش.. دين الآباء.. دين الوليد بن المغيرة؟!!
كلما أسمع لأبي سلمة.. تتضاءل حيرتي؛ لكن يمنعني كبريائي عن الإقرار له بذلك، وتمنعني الأنفة من الخضوع له، غير أنّي استمعتُ –أيضاً- لأبي الحكم بن هشام؛ قد سمعتُه.. ووعيتُ كلماته –يوم بدر- حين كان يجأر إلى الله.. صائحاً مُتضرِّعاً: "اللهم.. أَيُّنا كان أحب إليك وأرضى عندك؛ فانصره اليوم!!"؛ وقد نُصِر محمدٌ.. رغم قلة عدده وضعْف عدته، وقُتِل أبو الحكم.. وتَمزَّق جيشه العظيم دون أنْ يغني عنه شيئاً؛ فمَن أحب إلى الله؟ ومَن أرضى عنده.. بعد هذا؟؟! لا شك أنَّه محمدٌ.. وقد رأيتُ بعيني.. وأدركتُ بعقلي.
السؤال الذي يجب أنْ أجيب عليه –الآن- دون مواربة: هل أتَّبع محمداً.. بعد هذا الذي أدركتُ؟؟ هل أصارح أبا سلمة بأنّي آمنتُ بأنّهم على الحق.. وأنَّ دينهم هو الدين الصحيح؟؟ كلا.. لن أفعل!

ما عَتَّم أخواي أنْ عادا بالفداء، وأزف أوان الرحيل.. عند الصبح، أحببتُ أنْ أُوَدِّع أبا سلمة وصغيره.. فأتى لتوديعي.. وبعض الذين أنستُ بهم في مدة أَسْري، تحادثتُ معهم.. ولا أدري: لماذا لا يضغطون عليّ لأدخل في الإسلام؟!!

تذكَّرتُ –فجأة- حصاني (الظَّلِيم): وهل مِن المروءة أنْ ينسى الفارس جواده الذي كان يحمله.. ولم يتركه حين هزيمته؟!! (أَنعم به مِن فرس؛ ثبت معي.. ولم يتخل عني حينما وقعتُ مِن فوقه!)، شعرتُ بحنينٍ صادقٍ إلى رؤيته؛ فالتمستُ منهم أنْ أراه.. وأُوَدِّعه، قالوا لي أنَّه غنيمة حرب ولم يعد ملكي؛ أقررتُ لهم بذلك.. هاتفاً: "نعم.. هو لكم! غير أنّي أحب أنْ أُوَدِّعه فقط!!".

انطلقوا بي إلى الظَّلِيم.. حيث يرعاه صاحبه؛ مسحتُ على عنقه.. واحتضنتُ رأسه، ثم قلتُ لصاحبه الجديد مُداعِباً: "اعتنِ به.. فهو جوادٌ نجيب!!"، أجابني مزهواً.. ومُبكِّتاً: "لا ترتاع! إنّي أُعِدُّه.. لقتال أعداء الله ورسوله!!".

فيما أرجع مع أبي سلمة إلى حيث أستعد للرحيل مع أخويي.. همس في أُذني: "جوادك انضمّ إلى صف الحق؛ فلا تجعله يسبقك!"، جاوبتُه مازحاً: "أرجو أنْ يفي لصاحبه الجديد.. كما وَفى لي!".
سألني: "لماذا وَفى لك حصانك.. يا وليد؟؟!"، باغتني سؤاله؛ هكذا.. كان الحوار بيننا: يسألني سؤالاً.. فيفتح عقلي لأُدرك أشياء لم أكن انشغل بها من قبلُ، أجبتُ: "أحسبه حفظ لي معروفي؛ فأنا الذي ربيتُه.. وكنتُ أطعمه وأسقيه وأُنظفه بيدي!".
أضاف: "أ تدري أنْ القرآن ذكر لنا وفاء حصانك.. وحثَّنا على الاقتداء به؟!"، تساءلتُ مُستعجِباً: "كيف.. هذا؟!!"، سمعتُه يُرتِّل في خشوعٍ: "﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا (١) فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا (٢) فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا (٥)﴾"، ثم سألني: "هل تعرف: ما العاديات ضبحاً؟!"،
أجبتُ بشيءٍ من التردُّد: "أظنَّها: الخيل التي تعدو حتى يظهر صوتها من شدة العَدْوّ!؟"، هتف مُشجِّعاً: "أصبتَ.. يا ابن العم!"، ثم أردف: "إنَّ القرآن يصف

لنا هذا المشهد المؤثِّر.. حيث تركض الخيل ركضاً شديداً حتى يعلو ضبحها.. وتوقد حوافرها ناراً من شدة اصطكاكها بالصخر، وتُغِير على عدوها عند الصبح.. فتثير الغبار حول هذا العدو، وتتوسَّط بفوارسها جموع أولئك الأعداء.. دون خوفٍ أو جزعٍ؛ هل تدري: لِمَ تفعل هذه الخيل كل ذلك؟؟ تفعلها طاعةً لفوارسها.. ووفاءً لهم؛ لأنَّ أولئك الفوارس هم الذين يهتمون بتلك الخيل ويُطعمونهنّ ويسقونهنّ ويُنظفونهنّ بأيديهم!"،
كنتُ أصغي له بسمعٍ مُرهَف.. فقلتُ مُقرِّراً: "صدقتَ!!".

استأنف: "فاسمع لما يُردِف به القرآنُ هذا المشهد: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (٦)﴾.. أي أنَّ الإنسان جحودٌ لنعمة ربه!! انظر: الخيل -البهيمة العجماء.. التي لا عقل لها- وفيةٌ ومخلصةٌ لفوارسها.. حتى أنّها تقاتل معها عرفاناً بالجميل، والإنسان -الذي وهبه الله عقلاً يُفرِّق بين الحق والباطل- يكفر بربه.. ويجحد نعمته!"، أطرق هنيهة.. ثم استطرد: "اِستَدركْ ما فات من أمرك –يا وليد- لا تكنْ لربك كنودا!!!".

ثم قبل أنْ يُفارقني.. همس باهتمام: "شيءٌ أخير.. يلزم أنْ أخبرك به؛ اِعلم أنَّ الله أنزل على رسوله قرآناً.. يقول فيه: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم(٧٠)﴾ (الآية ٧٠ سورة الأنفال)؛ فاحزم أمرك.. يا وليد، فوالله.. إنِّي أُحب لك الخير والرشاد!".

- ١٨ -

بزغتْ الشمس، وتنسَّمتُ نسائم الحرية.. راحلاً مع خالد وهشام إلى مكة، ها أنا ذا.. أرحل عن يثرب؛ لكن –رغماً عني- أشعر أنّي خلَّفتُ عقلي وقلبي عالقين بها.
ومع أنّهما احتفيا بي إحتفاءً كريماً.. كنتُ ساهياً عنهما، حتى حينما نزلنا –في بعض الطريق- نتغدَّى ونستريح!!
كنتُ شارداً.. وهشام يسرد عليّ فداحة المعاناة التي عانياها دون أنْ ينجحا في إنفاذ وصية أبي: "ثقيف يُماطلون.. ويزعمون أنّهم غير قادرين على الوفاء بالدين.. ولا يملكون ما يكفي لسداد هذا الربا الفاحش الذي اشترطه أبينا عليهم، وكذا.. أبو أزيهر الدوسي يُنكر أنَّه قبض مهراً لابنته من أبينا!".
أمّا خالد.. فكان يتأسَّف على الهزيمة في بدر، ويتحسَّر على قتلاها.. هامساً بتغيُّظٍ: "ليت شعري.. كيف يُهزَم جيشٌ كهذا؟! قد فُجِعنا –والله- في أبي الحكم.. والعاص بن هشام.. وبضعة عشر رجلاً من مخزوم.. خلا الذين أُسِروا!! يا ليتني كنتُ معكم؛ فأصابني.. ما أصابكم!".

نهضتُ –قاطعاً عليهما استرسالهما في حديثهما الشاجن- وصدحتُ: "قد استقام المَنْسِم.. يا إخوتي! اِشهدا.. أنني أسلمتُ، وأنّي أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأنَّ محمداً رسولُ الله!"، ثم أردفتُ.. وهما صامتين مذهولين بالمفاجأة الصادمة: "اِعلما أنّه لا حاجة لي بالذهاب –معكما- إلى مكة؛ إنّي عائدٌ إلى المدينة!"؛ قلتُ (المدينة).. ولم أقل (يثرب)؛ سمّيتُها باسمها الذي سمّاها به أصحاب النبي محمدٍ ﷺ.
تساءل هشام مشدوهاً: "هلا فعلتَ.. قبل أنْ تُفتَدى؟!! قد ضيَّعتَ أموالنا!!؟"، أجبتُه بصرامةٍ: "كرهتُ أنْ تظنّوا بي أنّي جزعتُ من الإسار!".

وثب خالد غاضباً: "بؤساً لك.. مِن صابئٍ أحمق!"، وفي أقرب من لمح البصر.. وكزني.. وطوَّق ذراعي وشَلَّ حركتي.. صائحاً في حنق: "تالله.. لأرجعنّ بك إلى مكة.. مُكبَّلاً في الأغلال!"، عاونه هشام في شَدِّ وثاقي.. ثم حملاني إلى مكة.

سُجِنتُ -في ذات الحجرة الضَيقة المظلمة- مع عيّاش وسلمة، حُزني لفراق مدينة رسول الله وأصحابه.. شديدٌ؛ لكن فرحتهما بإسلامي.. كانت أشدُّ.. حتى أنّها خفَّفتْ عني بعض حُزني، جأر عيّاش: "الحمد لله الذي هداك للإسلام.. يا وليد! يعلم الله أنّك من أحب خلقه إليّ، ولقد كنتُ أدعوه أنْ يهديك إلى الإسلام!!".
جاوبه سلمة بصوتٍ ضحوك تشوبه مرارة: "الحمد لله.. قد أجاب دعاءك؛ وها هو ذا.. قد دخل حظيرة الإيمان.. وسجن آل المغيرة المخزومي أيضاً!!".

تلفَّتُّ حولي.. أحاول أنْ أتبيَّن معالم الحجرة؛ فما ساعدني بصيص الضوء الواهن المُشرئِبّ من تلك الكُوَّة الصغيرة الوحيدة، وما ألفيتُ غير سقفٍ خفيض.. وجدرانٍ كئيبة.. وأرضٍ رطبة، وأغلال ثقيلة قُيِّدتْ بها أطرافنا.. فلا يكاد أحدنا يتحرَّك قَيْد خطوة أو خطوتين، ووعاء ماءٍ.. أصرّ سلمة أنْ يُبقوه مملوءً؛ فملؤه بماءٍ غير سائغٍ طعمه، سألتُهما عنه.. فهمس سلمة: "كي نتمكَّن من الوضوء.. كلما أردنا الصلاة!".
قلتُ لهما راجياً: "قد أسلمتُ.. لكنّي لا أعرف شيئاً من شرائع الإسلام؛ فهلا تُعلِّماني؟؟!"، تعلَّمتُ منهما الوضوء والصلاة، كنّا نتحيَّن أوقات الصلوات الخمس.. مُحاولين تقدير وقتها من خلال ذلك الشعاع الضئيل الذي يلج إلينا من الكُوَّة الشحيحة، وكنّا نصلِّي شطر المسجد الأقصى.. فلم نكن نعلم –آنئذ- أنَّ القِبلة حُوِّلتْ شطر المسجد الحرام، اعتادتْ عيناي على ظلام الحجرة.. وأنستُ –فيها- بصحبة ابني عمي.. وأخويّ المسلمَيْن، تعلّمتُ منهما ما يحفظانه

من آيات القرآن، ومضينا نقضي أوقاتنا في تدبُّر ما نحفظه من القرآن، وفي الصلاة.. وفي ذكر الله والتفكُّر في وحدانيته وعظمة خلقه، وأيضاً.. في الجوع والعطش.. وفي أشواط العذاب الذي دأب الحارثُ بن هشام -وإخوتي.. وبنو عمي- على إذاقتنا منها ألواناً: ضرباً بالسياط تارة.. وحرقاً بالنار تارة.. ولطماً ولكماً وركلاً تارة، وأحياناً.. كانوا يكتفون بالشتم والسباب.

كانوا -كلما حزبهم أمرٌ.. أو كبتهم نصرٌ للنبي ﷺ- يَشتدّون في التنكيل بنا، وكان صبرنا على أذاهم -وثباتنا على ديننا- يُلهِب غيظهم.. ويُزيدهم حنقاً؛ لم نُظهر لهم الجزع.. رغم الألم والتَوجُّع، ورغم شدة العذاب.. لم نشتكي إلا لله وحده.. ولم نرجو إلا عفوه ورحمته.

ما زالوا مفجوعين لما أصابهم يوم بدر، وما انفكوا ينشدون ثأرهم؛ ذات يومٍ.. أتانا الحارث بن هشام ومعه عكرمة بن أبي جهل.. ليقضيا وطرهما من تعذيبنا، ثم هتف الحارث مُتشفِّياً: "قد بعثنا بجير[1] بن ذي الرمحين –مع عمرو بن العاص- بهدايا عظيمة إلى نجاشي الحبشة؛ نلتمس منه أنْ يرسل معهما جعفر بن أبي طالب وأصحابه؛ لنقتلهم بمَن قُتِلوا في بدر!".

صدمنا الخبرُ.. وعجزنا عن إجابته، انفرجتْ أساريره لمّا أبصر الجزع في عيوننا.. واستأنف مُقهقهاً.. كشيطان أثيم: "واللات والعزى.. لننتقمنّ منكم شر انتقام، ولنبلغنّ ثأرنا!"، ثم تكلَّم عكرمة شامتاً: "لقد عزمنا أنْ نرصد أموال قافلة أبي سفيان لتجهيز جيشٍ عظيمٍ نثأر به من محمدٍ وأصحابه، وأرسلنا إلى حلفائنا نحضّهم على الانضمام إلينا.. ونُحرِّضهم ضده؛ وما هي إلا أيام.. ويبطل السحر.. وتندمون على اتِّباع ذلكم الساحر الصابئ!!".

---

[1]: هو: عبد الله بن أبي ربيعة، أسلم بعد فتح مكة.. وكان اسمه بجيرا؛ فسماه الرسول: (عبد الله)، وذو الرمحين: هو لقب أبيه: أبو ربيعة.. كما أسلفنا، وبجير هذا هو الأخ الشقيق لعيّاش.

صفقا باب السجن الكئيب وراءهما؛ وخلَّفانا.. واجفةً قلوبنا، تملَّكنا خوفٌ رهيبٌ على جعفر والمسلمين في الحبشة؛ لإنْ أفلح بجير في سفارته.. ستكن فاجعةً عظيمةً للنبي والمسلمين: "كيف نتصرَّف؟!! كيف ندفع عن إخوتنا؟!!"، رغم المصيبة الجلل.. تأمَّلتُ حالي –بعد أنْ أسلمتُ- فرأيتني أُحب محمداً وأصحابه.. وأبغض مَن يبغضهم، ووجدتُ أنَّهم –في قلبي- هم إخوتي على الحقيقة.. دون بني مخزوم، وأنَّ جزعي عليهم.. هو جزع الأخ المحب.. المُشفِق على إخوته: (سبحان الله! كيف يُغيِّر بالإيمان قلوبَ عباده!!).

لم نجد نصراً ننصر به إخوتنا.. سِوَى الدعاء؛ فلا حيلة لنا –في هذا السجن- حاشا اللجوء إلى الله واللَوْذ به، دأبنا على الدعاء لهم في كل صلاة.. وفي كل حين، وكذلك.. دعونا على المشركين وأموالهم -التي رصدوها لحرب الله ورسوله- أنْ تكون عليهم حسرةً، وأنْ ينصر اللهُ رسوله ﷺ عليهم.

أمستْ حجرة السجن أشدّ ضيقاً من ذي قبل، وأصبحتْ صدورنا أضيق منها، باتتْ قلوبنا.. كأنَّها تتقلَّب على جمرٍ من القلق، لم نملك أنفسنا الجَزِعة.. فما برحنا نسأل –في اضطراب- السجّانين والجلادين: "ما بال سفارة ابن ذي الرمحين؟؟"، وما مِن إجابةٍ تطمئننا أو تُهدِّئ رَوْعنا.

داهمنا شقيقي هشام بدخوله علينا فَرِحاً، فَزِعنا -مِن السرور الذي يتألَّق في وجهه- أنْ يكون قد أصاب جعفر وأصحابه ما نكره؛ غير أنَّه خاطبني هاتفاً: "قد أنفذتُ وصية أبينا.. يا ابن أم! التقيتُ أبا أُزَيْهر الدوسي في سوق ذي المجاز.. وقتلتُه بعُقْر الوليد!!".

كان يتكلَّم وألفاظ الموت تتساقط من بين أسنانه؛ أجبتُه مُشمئزاً: "ما أيسر القتل عندكم في غير ذات الله!!"، حدجني بنظرات الاستنكار.. وهو يتحسَّر عليّ قائلاً: "واللات.. قد سحرك محمدٌ.. يا وليدا!".

هَمَّ بالمغادرة مُستاءً مني.. فاستوقفه عيَّاش صائحاً: "هل عاد أخي بجير من الحبشة.. يا هشام؟؟"، رجع القهقرى، تبدَّلتْ ملامحه إلى التجهُّم.. فاستبشرنا، ثم تنهَّد تنهيدةً عميقة.. قبل أنْ يقول في أسى: "أجل!! عاد ليُخبرنا بما آل إليه مصير أخي عمارة!!"؛ وكأنّي نسيتُ عمارة بن الوليد –أنهد فتيان قريش- .. أو عددتُه من الأموات، أرهفتُ سمعي لهفةً على أخي الغائب منذ سنوات.. لأستمع إلى هشام يستطرد: "انتقموا منه أبشع انتقام؛ قَيَّدوه.. ثم نفخوا في أحليله السم.. وتركوه هائماً مع الحيوانات الوحشية!!".
طفرتْ من عينه دموع الأسى؛ فأسرع مُنصرِفاً عنا.

لا شك أنّا ابتأسنا لِما أصاب عمارة، بيد أننا تأمّلنا في المسألة؛ فانتهينا إلى أنَّ الحزن الحق ينبغي أنْ يكون لأجل إخوتنا الذين عمتْ أبصارهم وعقولهم عن الحق الجلي؛ فمصابنا فيهم أعظم إنْ ماتوا كافرين، دعا عيّاشُ لأخي عمارة بالنجاة.. وأمَّنّا على دعائه، ثم دعا لآل المغيرة وبني مخزوم بالهداية.. لكنّي كرهتُ التأمين على دعائه.

تعوَّدنا على السجَّانين، بل.. تآلفنا مع بعضهم؛ ولا غَرْوَ.. فهم عبيد آبائنا، كانوا يستحيون منّا وهم يُقدِّمون لنا تلك اللقيمات الرديئة التي سُمِح بها.. كي تُبقي على بعض رمقنا، أو حسوات الماء التي كنّا نتجرَّعها بصعوبةٍ.. فراراً من الموت، وما كان ضربهم –اللين- لنا بالسياط.. يُعجِب الحارث أو عكرمة؛ فكان أحدهما –في مراتٍ عديدة- يعاود جلدنا ثانيةً وثالثة.

لا ريب أنَّ بعضهم يشفقون علينا، والعجب أنَّ عيّاش يُشفق عليهم.. وعلى الحارث وعكرمة.. وكفار مخزوم أجمعين؛ ويبرر ذلك الأشفاق –ولا يملّ أنْ يكرِّر- .. أنَّه يُشفق عليهم مِن ظلمات الكفر والشرك التي يتخبَّطون فيها، وأنَّه.. يحب لهم -جميعاً- أنْ يبصروا طريق الرشاد كما أبصرناه، وأنْ يهديهم الله للإسلام؛ أمطّ شفتيّ مُتعجِّباً من سماحته.. وأدعو عليهم.

على أنَّ سماحته تلك.. قَرَّبتْ إلينا بعض السجّانين؛ فكنّا نعرف منهم أخبار قريش.. وبعض أخبار النبي ﷺ؛ فعلمنا ما أخفاه هشام عنّا: أنّ سفارة بجير باءتْ بالفشل.. وأنّ النجاشي طرده من بلاطه أشنع طردة، حمدنا الله أنْ استجاب لدعائنا.. ونجَّى إخوتنا.

ثم علمنا منهم –أيضاً- أنَّ قَتْل أخي هشام لأبي أزيهر الدوسي لم يقف عند هذا الحد، بل أشعل ناراً للفتنة كادتْ تأكل قريش.. ويا ليتها فعلتْ!

سألنا أحدَهم: "هل تعرف أنباء ما جرى؟؟"، أجاب بنبرةٍ واثقة: "سقطتم على خبيرا!"، ثم أنشأ يسرد الأحداث قائلاً: "لـمَّا قتل سيدي هشام أبا أزيهر.. خرج يزيد بن أَبِي سُفْيان يحمل رمحه، ويجمع بنِي عبد مناف ليثأر لأبي أزيهر الذي كان صهر أبي سفيان وحليف بني أمية بن عبد شمس؛ بينما أبو سفيان غائبٌ بِسوق ذي الْمَجاز، فلَمّا سمع أبو سفيان بالذي صنع ابنه.. انحطّ سريعاً إلى مكة.. يخشى أَنْ يكون بين قريش حَدَثٌ في أبي أُزَيْهِر؛ فأتى ابنه وهو في السلاح مع قومه من بني عبد مناف.. فأخذ الرمح من يده، ثم ضرب به على رأسه، وزجره صائحاً: "قَبّحَك اللّهُ! أَ تُرِيدُ أَنْ تَضْرِبَ قُرَيْشًا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فِي رَجُلٍ مِنْ دَوْس؟!! سَنُؤْتِيهِمْ الْعَقْلَ.. إنْ قَبِلُوهُ!!"، ثم أَطْفَأَ أبو سفيان نار الحرب التي كانت على وشك النشوب بين بني عبد مناف وبني مخزوم!".

ثم استكمل حديثه.. مُتمِّماً: "ولقد استاء سيدي الحارث مما حدث استياءً عظيماً.. حتى أنَّه قال: "واللات.. قد أضرَّتنا وصية عمي الوليد.. وما نفعتنا!!"!!"، قضم كلماته -كأنّما خجل مني- إذ تذكّر أنَّ الوليدَ.. أبي؛ فألفيتُ نفسي أُعلِّق على حديثه.. كأنّما أُطيِّب خاطره: "قد صدق سيدك الحارث؛ فإنَّ وصية الوليد هي التي دفعتْ هشام لقَتْل أبي أزيهر.. فأثارتْ بني عبد مناف؛ فجعلتْ أبا سفيان يفصل بين الناس ويُخمد نار الحرب؛ وستُحسب له في مناقبه، وبها سيسود على قريش أجمعين؛ ويسبق بنو عبد مناف بني مخزوم!!؟".
ثم تمتمتُ بامتعاض: (أُفٍّ لكم.. ولحميَّتكم الجاهلية!! ما زلتم في غَيّكم تَتردّدون!! تقضون أعماركم -قرناً بعد قرنٍ-.. تلهثون وراء التكاثر في الجاه والأموال.. والفخر على بعضكم بالأحساب والأنساب!؟؟).

وقد وقع ما تنبَّأتُ به؛ ورث أبو سفيان زعامةَ قريش، وسرعان ما جهَّز جيش الثأر.. بأرباح تلك العير التي أفلت بها، جيشٌ انضوَى فيه كل مَن يستطيع حمل السلاح مِن قريش، واستنفر حلفاءَ قريش القريبين من مكة؛ فأعدّ جيشاً ضخماً عداده ثلاثة آلاف رجل.. معهم ثلاثة آلاف بعير، منهم سبعمائة دارع تام السلاح، ومعهم مائتا فارس يقودهم أخي خالد.. وعكرمة بن أبي جهل (أصبحتُ أُكنِّي أبا الحكم بكنيته التي يستحقها؛ فبعد إسلامي.. جعلتُ أَتذكّر مواقفه وأُراجعها؛ فعثرتُ على أنَّ حكمته التي كان يدعيها.. إنَّما كانت كبراً وجهلاً).

ليس السجّانون هم مَن أخبرونا بنبأ الجيش المشئوم؛ بل عكرمة هو الذي أخبرنا بنفسه.. عندما دخل محبسنا -مُنتشياً بجيشه وفرسانه- يريد إغاظتنا والتشفِّي فينا، على أنّنا عرفنا من السجّانين -بعد أنْ انفصل الجيش عن مكة- أنَّ طائفةً من نساء قريش أصررنّ على أنْ يصحبنّ الجيش.. ووافق قادة الجيش

على خروجهنّ معهم؛ على رأس أولئك النسوة: هند بنت عتبة بن ربيعة العبشمية.. زوج أبي سفيان، بل.. لقد أخرج الحارث ابن عمي هشام معه.. أختي فاطمة، وكذلك أخرج ابنته أم حكيم.. زوجة عكرمة.

تكدَّرنا.. ووجفتْ قلوبنا -خوفاً على رسول الله ﷺ وأصحابه- أنْ يُباغتهم ذلك الجيش في المدينة -وهم غافلون عنه- فيُصيبهم ما نكره، لكنْ سلمة همس باطمئنانٍ وثقة: "إنَّ الله ناصر عبده ورسوله.. لا محالة!"، ما برحنا نتضرَّع إلى الله.. وندعوه –ليلاً ونهاراً- أنْ ينصر نبيه؛ وكل همِّنا أنْ نستعلم عن الخبر.

حتى فجعنا أخي هشام.. إذ دخل علينا صائحاً في حماسةٍ وافتخار: "اعْلُ.. هُبَل!! قد هزمنا أصحابَكم عند سفح أُحُد.. وقتَّلناهم تقتيلا!!".
صرخ عيّاش ملهوفاً: "تعساً لكم! قتلتم رسولَ الله؟!!"، أجابه.. كأنَّما يتحسَّر على نصرٍ لم يكتمل: "أفلت محمدُكم مِنّا.. هذه المرة!"؛ التقطتُ أنفاسي التي حُبستْ مُغمغماً: "الحمد لله!"، فيما يُردف بصوتٍ ضحوكٍ شامتٍ: "لكن.. قتلنا حمزةَ.. وسبعين رجلاً منهم!"، كتمتُ صرخة الفزع في صدري.. كيلا يزداد شماتةً بنا؛ فيما استرسل مُبتهجاً: "يومٌ بيوم بدر؛ إنَّ الحرب سجال! تالله.. قد خلّفناهم قتلى وجرحى؛ قتلنا منهم.. مثلما قتلوا مِنّا يوم بدر!!".
هتف سلمة مدافعاً بنبرةٍ مُشبَّعةٍ بالأسى: "لا سواء.. يا هشام!! قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار!"، بينما وجم عيّاش مُبتئساً، ألهمني الله القوة.. فانبعثتُ أسأله بثباتٍ –وكنتُ أعلم مِن صاحبي بفنون الحرب-: "يا هشام.. أخبرني: هل دخلتم عليهم المدينة.. وسبيتم الذراري وغنمتم الأموال؟!".
تردَّد.. هنيهة، ثم أجاب بشيءٍ من الدهشة: "كلا.. لم نفعل!"؛

فقُلتُ: "هل لبثتم –إذاً- عند سفح أُحُد ثلاثة أيام.. تحتفلون بنصركم وتذبحون الجزر وتَعزِف لكم القَيْنات؛ فتسمع العرب بانتصاركم؟!"،
قال باقتضابٍ مُتحيِّر: "لا!!؟".
فصدحتُ.. كأنّي أواسي نفسي وصاحبيّ: "لم تقتلوا رسول الله، ولم تجوسوا خلال الديار، ولم تمكثوا -في أرض المعركة- ثلاثة أيام لتؤكِّدوا نصركم؛ إذاً.. فوالله ما أحرزتم شيئاً أكثر من أنْ أصبتم سبعين رجلاً نحسبهم شهداء عند الله؛ وقد أصابوا منكم مثلهم في بدر.. قتلى وأسرى!".
تماسك صاحباي.. وتصبَّرا بعد جزع، قال أحدهما: "أصبتَ –والله- يا وليد!"، وهتف الآخر مُبكِّتاً: "أخزاكم الله.. يا هشام! تالله.. أحرزتم نصراً زائفاً!".

كأنَّه اغتاظ منّا إذ أَوْهنّا قيمة نصره؛ فأحبَّ أنْ يحرق قلوبنا.. فقال بنبرةٍ حاقدة: "لكنَّا مثَّلنا بقتلاهم؛ جدعنا أنوفهم وقطعنا آذانهم.. واتخذتْ نساؤنا منها خَدَماً [1] وقلائد!!"؛ قذف بها -كحجرٍ ثقيلٍ سقط على قلوبنا.. فأوجعنا- ثم انكفأ مُنصرِفاً.
على وقع خطواته المتباعدة خارج محبسنا.. رُحتُ أصرخ: "وأيم الله.. إنَّ رسول الله أكرم منكم.. وأوصل للرحم؛ ستر جثامين قتلاكم في القليب.. يوم بدر، ولم يُمثِّل بهم، وأحسن إلى أسراكم.. وتقبَّل منهم الفدية، وما أهانهم!"، لكن.. أحسبه صَمَّ أُذنيه عن صراخي.. وتغافل عن كلامي.

تفجَّعنا للمصيبة.. وبكى عيّاش حتى أبكاني، اشتدّ الكرب علينا.. وانقبضتْ قلوبنا.. واسوَدتْ الدنيا في أعيننا؛ تساءلتُ مذهولاً: "كيف ينهزم جيشٌ فيه رسول الله؟!! هل تَخلَّى الله عن رسوله؟؟!".

---

[1]: الخَدَم: الخلاخيل.

زجرني سلمة صائحاً: "مَهْ.. يا وليد!! إنَّ الله ناصر عبده! إنْ كان أخوك صادقاً؛ فلا جرم أنَّ حكمة الله.. اقتضتْ هذا، هو العزيز الحكيم.. لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون!". استغفرتُ ربي.. واعتقلتُ لساني.

حُرِّم على السجّانين التَحدُّث إلينا أو إطلاعنا على أي أخبار، غدتْ أيام السجن المظلمة.. تمضي بطيئةً كئيبةً، تتسرَّب أيام عمرنا –من أيدينا- دون أنْ تنقضي عذاباتنا وأحزاننا، أنظر إلى صاحبيّ.. فأرى السجن يأكلهما بِضْعةً بِضْعة؛ أرى ذلك في الجروح المُتقيِّحة التي سبَّبتها الأغلال في أطرافنا.. وقروح السياط التي لا تندمل، في قطرات دمائنا التي تناثرتْ على الجدران الصماء حتى تلطَّختْ بها، وأشمّ رائحتها العفنة.. في التراب العَطِن الذي اختلط بدموعنا ودمائنا.
أُبصر الموتَ البطيء.. في رأس سلمة الذي تشعَّث.. وتسلّل الشيبُ إليه، وفي عيني عيّاش اللتين انطفأ بريقهما.. وجسده الذي هُزِل، أَحسّ به في مفاصلي التي تَيبَّستْ، وفي أنفاسنا التي خنقها الحزن وهواء السجن الراكد فوق صدورنا.

رغم مرور الأيام متشابهة البؤس والظلام.. لبثنا نحصي شهور السجن الطويلة من خلال شعاع القمر الخافت الوالج إلينا من كُوَّة الحجرة؛ كلما تَوَهَّج ضوؤه.. قدَّرنا أنَّه صار بدراً.. وحسبناه شهراً؛ تعدَّدتْ الشهور –والحال يزداد كآبة.. وشعر سلمة يزداد شَعَثاً.. وجسد عيّاش يزداد هُزالاً- حتى مللنا.. ونسينا عدد الشهور التي أحصيناها: (هل هي عشرون.. أم أكثر.. أم أقل؟!).

اليأسُ والاحباطُ يَنخُران أعصابي.. والسجنُ والجوعُ وسياطُ الجلادين؛ ذات لحظة ضعفٍ.. همستُ مُتوتِّراً: "إلى متى نبقى هكذا؟؟ لقد سئمتُ هذا العذاب البئيس!!"، نهرني سلمة بصوتٍ مُتألِّم: "لا تقنط من رحمة الله.. يا وليد! اصبر.. إنْ النصر مع الصبر، فرج الله قريب!"، تأوَّه عيّاش.. وجأر مُتضرِّعاً: "يا رب.. أفرغ

علينـا صـبراً.. وتجـاوز عـن تقصيرنا!"، صـرخـتُ مُؤمِّنـاً على دعـائـه: "آمين.. يـا رب! اللهم نصرك الذي وعدتَ!".

أول الغيـث زارنـا عنـدما سـمعنا صـرير البـاب.. وهـو يُفتَح؛ ثـم تلـج إلينـا السـيدة ضباعة –والدة سلمة-، ومعهـا.. أسـمـاء –زوجة عيّاش.. وبنت خاله-، لا نـدري كيـف سمحوا لهما بزيارتنا؛ لكنَّهما أتيتا.
هرعـتْ أم سـلمة إلى ابنهـا.. تتحسَّسـه وتطمـئن عليـه وتبكي مـن أجلـه، وأقبلـتْ أسـماء على زوجهـا.. غسـلتْ كفيـه بـدموعها وانتحبـتْ تَفجُّعـاً لـحاله، اِنْشـدهنا لقدومهما.. وغشينا صمتٌ مُتأرجح بين الانشراح والدهشة.
قـرَّبتا إلينـا طعاماً؛ رغـم حاجتنـا إليـه.. لـم نشـتهيه.. وعزفنـا عنـه، ألـحَّتا علينـا في تناولـه.. لكـن الشـعور بالاحبـاط كـان يغمرنـا، سـرعان مـا أخرجهمـا السـجّان؛ على أنَّ السـيدة ضباعـة هتفـتْ –وهي تبتعـد مُكرَهـة-: "سـأعود إليـك.. يـا سـلمة! سـنأتي إليكم كل أسبوع؛ على هذا اتفقنا.. مع أخيك الحارث!".

تركتـا الطعـام.. واضـطرّتا للانصـراف، ضـحكتُ سـاخراً مـن قولتهـا لـسلمة: (مع أخيك الحارث!)، وتسـاءلتُ في دخيلتي: (هـل الحـارث أخونـا حقـاً؟!! نعـم.. هـو أخـو سـلمة لأبيـه، وأخـو عيّـاش لأمـه، وابـن عمـي.. وزوج أخـتي الـذي ترعرعـتُ تحـت ناظريه في ذات البيت!؟).
(فما الذي يدفعه –ومِن قبله.. أبو جهل- لأنْ يُنكِّل بنا كل هذا التنكيل؟! هل نسي أنّنـا إخوتـه؟!! أم أنّـه يُبجِّـل آلهتـه الزائفـة أكثـر ممـا يحفـظ لنـا رحمنـا؟! إنْ كـان كذلك؛ فنحن أولى منه بالثبات على إيماننا بالحق الذي عرفناه.. وتيَّقنا منه!!).

لـم يمـس أحـدنا ذلـك الطعـام؛ أزهـدنا فيـه خبـرُ أُحُـد.. الـذي أكّـدتـه لنـا المرأتـان.. وقالتا: "قد مضى قرابة العام؛ عسى أنْ تبرد نارُ قريش.. يسيراً!".

ربما تبرد نار قريش، أَمّا نار أحزاننا.. فلم تبرد؛ ما برح الغَمُّ يفترسنا لِما أصاب النبي ﷺ وأصحابه، تضاعف مَقْتي لهذا السجن.. ولضعفي وقلة حيلتي؛ همستُ –مُنفعِلاً- في أذن صاحبيّ: "أ نبقى -ها هنا- محجورين.. عاجزين عن نصرة النبي؟؟! يجب أنْ نتحرّر من هذا السجن! يجب أنْ نهاجر إلى الله ورسوله!!"، حدَّقتُ فيهما.. فرأيتُ التمنّي والعجز، والأمل واليأس يتصارعان في قسمات وجهيهما، ثم لم أسمع منهما جواباً.

عادتْ إلينا السيدتان –كما وعدتْ أم سلمة- بطعامٍ شهي؛ التهمناه التهاماً.. حتى أجهزنا عليه، لم نفعل تلذُّذاً بالطعام؛ بل فرحاً بالخبر الذي ساقتاه إلينا.. حينما همستْ زوجة عيّاش: "قد نصر اللهُ رسوله على قريش والأحزاب، و رَدّهم عن يثرب.. خائبين لم ينالوا خيرا!"، ثم سردتْ علينا –هي والسيدة ضباعة- ما كان من أمر الأحزاب التي جمَّعتْها قريش من شتى قبائل العرب حتى بلغ عدد جنودها عشرة آلاف مقاتل، ثم زحفوا –بقضّهم وقضيضهم- على يثرب يريدون استئصال النبي وأصحابه؛ فاصطدموا بخندقٍ عظيم حفره النبي ﷺ.. فحال بينهم وبين ما يريدون!
مكثوا أمام الخندق حائرين مغتاظين ثلاثة أسابيع.. عاجزين عن أنْ يعبروه، ثم أتتهم ريحٌ باردةٌ شديدة؛ فقُلِعتْ الأوتاد.. وقُطِّعتْ أطناب الفساطيط.. وأُطفِئتْ النيران.. وأكفِئتْ القدور.. وجالتْ الخيول بعضها في بعض، واعتراهم رعبٌ شديد حتى قال بعضهم لبعض: "النجاء.. النجاء!".

وارتدُّوا على أدبارهم مدحورين.

حمدنا الله أنْ نصر عبده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده، انبعثتْ فينا الحياة –والأمل- من جديد، واستغفرنا الله.. وتبنا إليه من اليأس الذي كاد يُصيبنا، وعزمنا على التجلُّد والصبر حتى يقضي الله أمره.

تكرَّرتْ زيارات السيدتين لنا بانتظام، وأحياناً.. كانت تأتي إحداهما وحدها، وجاءتْ أمي أكثر من مرة.. ونساءٌ أُخريات من آل المغيرة، عرفنا من زوجة عيّاش أنَّ الباعث وراء ذلك هو إلحاح نساء الدار على الحارث وعكرمة في السماح لهنّ بزيارتنا وإطعامنا؛ فاضطرّ الحارث للسماح لهنّ بزيارتنا وإطعامنا مرة واحدة في الأسبوع؛ بيد أنَّ أم عمرو شَدّتْ على قلبها حجراً.. وامتنعتْ عن زيارة ولدها عيّاش حزناً على ولدها أبي جهل؛ لكنّها عجزتْ عن منع أسماء –بنت أخيها- من زيارة زوجها الذي أحبتْه واهتدتْ معه للإسلام.. وهاجرتْ معه إلى الحبشة.

انصرم عامٌ آخر.. ونحن على ذات الحال من الحبس والضَنْك.. حاشا زيارات نسائنا الأسبوعية.

ثم.. غشينا نبأٌ جديد زفّته إلينا أسماء –ولا أدري: هل نستبشر به أم نغتمّ- .. قالتْ: "النبي ﷺ قادمٌ -في جماعة من أصحابه- إلى البيت الحرام.. يبتغون العمرة؛ لكن.. لَمّا علم ملأُ قريش الخبرَ.. أقسموا ألا يدخلوا عليهم مكة وبينهم ما بينهم من الحرب والقتال!".

قاطعتُها هاتفاً باستنكار: "لا يحقّ لهم أنْ يَصُدّوا النبي ﷺ –أو أحداً من العرب- عن مكة إذا جاء حاجّاً أو معتمراً؛ هذا ميثاقٌ على قريش.. لم تخالفه منذ عهد قصي بن كلاب ويقظة بن مرة!!".

استأنفتْ بصوتٍ مُستهجِن مُتحسِّر: "الحين.. يفعلون!؟ ويقولون: لن تتحدَّث العرب أنَّه دخلها علينا عنوة –أبداً- وإنْ جاء مُعتمِراً، وعرفتُ أنَّهم كدَّسوا

ثمانية آلاف مقاتل -في وادي بَلْدح- من قريش وحلفائها.. ليمنعوا الرسول عن مكة بالقوة!"، ثم أضافتْ: "إخوتكم –ولا سِّيما الحارث وعكرمة- هم الذين يتزعَّمون حشود قريش.. مع أبي سفيان بن حرب العبشمي وسهيل بن عمرو العامري، وأرسلوا خالد بن الوليد إلى كراع الغميم –على طريق حجاج يثرب- ومعه مائتا فارس.. ليُناوشوهم!!".

تجهَّمنا.. وغشينا وجومٌ كئيب؛ وانسحبتْ المرأة في اضطراب.
صرختُ.. ولعنتُ السجن.. والأغلال التي تحجزني عن مُؤَازرة الرسول ﷺ، أتُوق إلى الانفكاك من هذا الحبس.. فأعود فارساً حراً طليقاً، أُغِير بجوادي على أعداء النبي وأضرب فيهم بسيفي.. حتى ينصره الله عليهم.
أخذتُ أنزع الأغلال عني.. وأُنازعها؛ فلا تُنتزَع، حاولتُ معالجتها وحاولتُ وجاهدتُ.. حتى أدميتُ يدي وقدمي؛ لكن.. لم أفلح في الخلاص، كنتُ ارتجف مُنفعِلاً.. غاضباً من عجزي.. حانقاً على قومي الذين يحاربون الله ورسوله؛ هدأتْ ثورتي وتحطَّمتْ.. أمام الأغلال التي لم تنكسر؛ بكيتُ سُخطاً على ضعفي وفشلي، ناداني سلمة: "اِرْبَعْ على نفسك.. يا وليد! الله مُطَّلعٌ علينا.. وهو عالمٌ بعجزنا، وهو أقدر على تأييد نبيه بجنودٍ من عنده.. كما فعل يوم الأحزاب!".
انفجر عيّاش باكياً.. وانتابته نوبةُ نشيجٍ واختلاج، وجعل يقول: "لو كنتُ أطعتُ عمر.. وما رجعتُ مع ابني أمي؛ لكنتُ الآن مع الرسول.. أُقاتل معه وأَذِبّ عنه!".

قاطعه سلمة قائلاً: "لا تقل هذا.. يا عيّاش! بل قل: قَدَّر الله.. وما شاء فعل!!"، ثم صاح فينا مُوَبِّخاً: "سَكِّنا جزعكما.. يا أبناء المغيرة المخزومي! تالله.. لو جزعتما هكذا وأنتما على الكفر؛ لكانت سُبَّة تُثلَبان بها بين الناس؛ فكيف.. وأنتما مسلمان! استغفرا الله –يا أخواي- واصبرا.. إنَّ فرجه قريب!".

استغفرنا الله.. وذكرناه ذكراً كثيرا.. حتى هدأتْ فورتنا.. واطمأن جزعنا، صَلّينا لله.. ودعوناه أنْ يؤيد رسوله وينصره على القوم الكافرين، ودعوناه –أيضاً- أنْ يفك أسرنا.. ويُخلِّصنا من هذا السجن.. ويستعملنا في نصرة دينه ورسوله، ثم مكثنا نترقَّب ما تُسفر عنه الأيام.

في تَربُّصٍ واضطرابٍ.. ظللنا ننتظر –بعد اكتمال البدر- إلى أنْ اكتمل بدرٌ ثان؛ تجاوزنا الشهر.. وما مِن خبر، حتى النساء.. لم تأتِ أي منهن؛ ولا أم سلمة.. ولا زوجة عيّاش، ظنّنا أنّهنّ كُبِحنّ عن القدوم إلينا.. وانقطع رجاؤنا في حضورهنّ، صرنا كلما انقضى يومٌ دون خبر.. نزداد ارتباكاً وارتياعاً، بيد أنَّ الله ألهم عيّاشَ –بعد أنْ أنهينا تهجُّدنا.. ذات ليلة- فهمس بتفاؤل: "لا ترتاعا.. يا إخوتي! فلو أنَّهم أصابوا النبي ﷺ بسوء؛ لجاء أحدُهم ليُعلِمنا النبأ.. ليُغيظنا ويتفاخر علينا!!"، جاوبتُه مُستبشِراً: "أجل!! أحسنتَ القول.. يا أخي! وإذ لم يأتونا إلى الحين؛ فالنبي ﷺ وأصحابه لم يزالوا بخير!!".
استرسل عيّاش في تفاؤلاته هاتفاً: "ولعلّ الله أعزّ نبيه ﷺ.. ومكّنه من أداء عمرته.. رغم أنف الكافرين، والخزي يمنعهم أنْ يأتي أحدُهم إلينا بالخبر!!؟".
جأر سلمة مُبتهِلاً: "اسأل الله أنْ يكون ما ترجوان!"، وأردف: "لا ينبغي لنا إلا أنْ نُحسِن الظنَّ بربنا!".

بتنا بخير ليلة.. متفائلين مُستبشِرين؛ غير أنّنا أصبحنا.. وقلوبنا تَرجُف مع وقع أي قدم تقترب.. خشية أنْ يكون أحدهم آتياً ليُبلِّغنا بما نكره، حتى اقترب وقع أقدام –ليستْ كأقدام السجّانين- فتوجَّسنا، فُتِح لها الباب.. فانقبضتْ قلوبنا؛ لكن.. حينما رأيناها تعشَّمنا بالخير، وما أمهلناها حتى تلتقط أنفاسها؛ سألناها

مُتلهِّفين: "ماذا ورائك.. يا أسماء؟؟ ماذا فعل رسول الله؟!!"، وأضاف عيّاش زوجها.. بنبرةٍ ودودةٍ مُشبَّعة بالقلق: "ما الذي أخَّرك علينا كل هذه المدة؟!!".

طمأنتنا بابتسامتها.. وقدَّمتْ الطعام بين أيدينا، حين شممنا رائحته بأنوفنا وأبصرناه بأعيننا.. أدركنا أنَّا كنّا نشتاق إليه، قالتْ: "الحمد لله! النبي وأصحابه بخير.. كما تحبون!"، سمّينا باسم الله.. وأنشأنا نأكل الطعام.. ونتلذّذ به، هتف زوجها.. وهو يُثني على مذاق الطعام: "اقْصُصِ علينا.. ما جرى!".

شرعتْ تتحدَّث.. ونحن نزدرد الطعام باشتهاء: "فوَّت عليهم النبي ﷺ فرصة الاصطدام به، وانفلت من خالد.. حتى أشرف على حدود الحرم، وأقام عند الحديبية، ثم أرسل إليهم الرسل.. مؤكِّداً أنّه جاء معتمراً.. ولم يأتِ محارباً؛ لكنّ كبراء قريش تمادوا في صَلَفهم.. ورفضوا أنْ يدخل مكة هذا العام؛ فقَبِل النبي ﷺ أنْ يرجع إلى يثرب دون أنْ يُتم عمرته.. على أنْ يأتي العام القادم هو وأصحابه معتمرين، ثم عرض عليهم الهدنة.. فتوافقوا على وَضْع الحرب بينهم عشر سنين، وكتبوا بذلك صلحاً سمّوه: صلح الحديبية، وكان سفير قريش في هذا الصلح.. سهيل بن عمرو العامري!".

رفعتُ يدي عن الطعام لمَّا قالتْ أنَّ النبي ﷺ رجع عن مكة دون أنْ يُتم نسكه؛ تساءلتُ محزوناً: "كيف يقبل النبي بهذا؟!! كيف يرضى بعد أنْ جاء مكة يريد العمرة لله.. بأنْ يرجع دون إتمامها؟؟".

أجابني سلمة بروِيّة: "على رِسْلِك.. يا وليد! رسول الله ﷺ أعلم بشئونه، وإنَّ ربه معه.. لن يُضيِّعه!"، وأضاف عيّاش.. بعد برهة من التدبُّر: "انظر -يا وليد- وتفحَّص في باطن الأمر! ها هي ذي قريش تُصالح النبي ﷺ وأصحابه.. بعد أنْ

كانت تَعُدّهم مارقين ضالين، وسيرجعون –إنْ شاء الله- بعد عام معتمرين.. يطوفون بالبيت آمنين، صبراً.. وإنْ تأخَّروا عاماً؛ لكن مَن منّا كان يحلم بهذا!!".

ثم أضاف سلمة بنبرة تمني: "أرجو أنْ يكون هذا الصلح خيراً للمسلمين.. ولنا خاصة؛ فلا ريب أنَّ تلك الهدنة.. ستجعلهم يسمحون لنا أنْ نهاجر إلى رسول الله ﷺ؛ حتى وإنْ حجروا على أموالنا!!".
انفرجتْ أساريري ارتياحاً، وكذا.. تبسَّم عيّاش استبشاراً.. وسأل زوجته في حنين ومودة: "ما غيَّبكِ عني كل هذا الوقت؟!!"، أجابته باقتضابٍ وارتباك: "شغلونا معهم بما يشغل به الرجالُ أهليهم استعداداً للحرب؛ والحمد لله.. مَرّتْ بسلام!"، ثم تنحنحتْ.. وهتفتْ بصوتٍ مغموم: "يا لأسفي!! لم أُنبأكم أنّهم اشترطوا على النبي أنْ يردَّ إليهم مَن أتاه مسلماً دون إذن وَلِيّه؛ وهم لا يردّون مَن جاء إليهم!".

انطفأتْ ابتسامة عيّاش، واكفهر وجهي.. وتساءلتُ بنفور: "ماذا يعني هذا؟!! هل سيمنعوننا من الهجرة إلى الرسول.. رغم الصلح الذي كتبوه معه؟!!"، أجاب سلمة بامتعاضٍ مكبوت: "ألم تسمع؟! إنَّ أحد شروط الصلح: ألا نهاجر إلا بإذنهم!!؟"، تساءلتُ مبهوتاً: "وإذا جاء أحدنا إلى النبي فارّاً بدينه من المشركين؛ هل يردّه إليهم.. ليفتنوه عن دينه؟؟!".
أجابتني أسماء بأسى: "قد حدث هذا! حينما كانوا يكتبون كتاب الصلح.. أتى أبو جندل بن سهيل بن عمرو هارباً من سجن أبيه.. يستجير بالنبي وأصحابه من بطش المشركين؛ فأبى سهيل أنْ يُتم الصلح إلا أنْ يستردّ ولده؛ فردَّه النبي له!".

وجمتُ مُحبَطاً مُتحسِّراً؛ لقد أُجهِض أملي في الخلاص.. بعدما أوشك أنْ يُولد، هتف عيّاش مُستاءً: "وهل يأذن الحارث.. وآل المغيرة لنا بالهجرة؟!! هيهات!!".

لملمتْ المرأة مائدة الطعـام.. وهي تغمغـم: "صـبراً!! سـيجعل الله لنـا مخرجـا!"، نهضتْ.. وغادرتْ دونما وداع، تركتنا.. واجمين محزونين.

تعاظم الكمد في صدري عن أنْ احتمله؛ صرخ غضبي: "ضاع الأمل؟! هل سنبقى في هـذا السـجن أبـدا؟!!"، حـاول عيّـاش تهـدئتي.. قـائلاً: "اصـبر.. يـا وليـد! إنَّ مع العسر يسرا!!".

صَمَّ التسخُّط أُذني عن أي نصيحة.. واسترسلتُ مُنفعِلاً: "إلى متى الصبر؟!! هل أصبر حتى يسرق هذا السجنُ عمري؟! وأموت فيه.. قبل أنْ أُصافح رسول الله مُبايعاً على الإسلام، قبل أنْ أُجاهد معه في سبيل الله، أ أموت صبراً في السجن؛ ولا أموت شهيداً؟؟!".

كففتُ.. فلا جدوى من النواح، بعد لحظاتٍ واجمة.. انفرجتْ شفتا سلمة وقال بصوتٍ مُرتعش: "لا نملك غير الصبر!؟ عسى أنْ يجعل الله لنا مخرجا!!".

عارضتُه هاتفاً.. وقلبي يحترق: "كيف يجعل الله لنا مخرجاً ونحن خامدون ها هنا؟؟ يجب أنْ نفعل شيئاً، يجب أنْ نحاول الهرب من هذا السجن! لقد كرهتُ هذا العجز والضعف الذي نحن فيه!".
سألني عيّاش معترضاً: "وإنْ فشلنا في الهرب؛ فماذا هم فاعلون بنا؟؟"، جاوبتُه بإصرار: "ماذا سيفعلون يا عيّاش؟!! لن يصيبونا بأشدّ مما نحن فيه!!".
تساءل سلمة مُستبعِداً: "كيف السبيل إلى الهرب؟!! ألا ترى هذه الأصفاد؟!! ألا تُحِسّ بخفرائهم يحيطون بنا من كل جهة؟!! وإنْ نجحنا في الهرب؛ فأين نذهب؟؟"، أجبتُه مُتشبِّثاً برأيي: "نحاول.. ولا نعجز! نُرِي الله من أنفسنا عزماً على الفرار إليه، ونستعين به.. فيُعيننا!".

أطرقا برهة.. متفكِّرين؛ ثم أومأ عيّاش برأسه مؤيِّداً لقولي، وأثنى سلمة على رأيي.. قائلاً: "أحسنتَ القول.. يا وليد! نستعن بالله.. ولا نعجز!"، ثم أضاف بشيءٍ من التردُّد: "هَلُمّا بنا.. نخطِّط، ونحاول الهرب من هذا السجن المقيت!".

في زيارة تالية.. بشَّرتنا أسماء ببشرى سارة.. قالت: "فتح الله لنبيه حصون خيبر.. بعد أنْ هزم جموع اليهود شر هزيمة، وقريش تتحرَّق -في نواديها- غيظاً وحسداً!"، حينها.. اختمرتْ فكرة الهروب في عقولنا.. وتنامى شغفنا بها، وعزمنا عليها دون أنْ نُعيِّن المكان الذي نلوذ به، قد علمنا أنَّ لجوءنا إلى المدينة يعني أنْ يردّنا النبي ﷺ إلى الكفار بشرط الصلح؛ ولا ندري ملجأً آخر.. نلوذ به!؟
ضاقتْ الأرض بنا؛ لكنّا قلنا لأنفسنا: (وإنْ ضاقتْ الأرض؛ فهذا السجن أضيق!). على أنَّ بادرة أمل جديدة لاحتْ في الأفق.. عندما أخبرتنا زوجة عيّاش أنّ أبا جندل بن سهيل العامري –وكان رفيقاً لي في الجاهلية- هرب من سجن أبيه مرة ثانية ولم يلجأ إلى يثرب.. ولا يعلم أحدٌ أين اختفى، ومِن قبله.. أبو بصير الثقفي –حليف بني زهرة- الذي فرَّ إلى المدينة؛ فأرسلتْ قريش مبعوثاً يستردّه؛ فقتله أبو بصير في طريق عودتهما.. وأفلت، ولا يعلم أحدٌ إلى أين أفلت، غير أنّي خمّنتُ أنَّ الرجلين.. معاً.

وكأنّما الحارث وعكرمة فطنا إلى ما كنّا نخطط له، أو ربما خافا أنْ نهرب منهم.. كما فعل أبو جندل وأبو بصير؛ فبادرا إلى فصلنا عن بعض.. وجعلا خفراءهم يحملونني إلى سجنٍ آخر.. وشدّوا وثاقي، ولا أدري ماذا فعلوا بعيّاش وسلمة.

كانت زنزانتي الجديدة ضيقةً قاتمةً.. مُوحِشة؛ افتقدتُ فيها صحبة ابني عمي، استعنتُ بالصبر والصلاة.. وأنستُ –في خلوتي- بمناجاة ربي.

نسيني الجلادون.. وانقطعتْ سياطهم عن جَلْدي، وتحسَّن الطعام الذي يُقدِّمه السجّان لي، استعنتُ به على تقوية جسدي؛ فلا محيص عن الهرب، كانت أمي تأتيني بالطعام الذي أُفضله –أو ترسل به إحدى الخدم- مرة واحدة أسبوعياً، بيد أنَّ عكرمة شدَّد عليهم؛ فامتنعوا عن إطلاعي على الأخبار؛ حتى عيّاش وسلمة.. ما عدتُ أعرف عنهما شيئاً.

ذات ليلة مظلمة –والليالي كلها ظلمة- وفيما أرسُف في قيودي الثقيلة.. ساجداً بين يدي ربي؛ أُناجيه.. بقلبي الباكي وعيني الذارفة، أَتضرَّع إليه.. وأدعوه أنْ يُنجِّني -وصاحبيّ- من السجن والعذاب، وأنْ يقرّ أعيننا برؤية رسوله.. والهجرة إليه.. والجهاد معه.

بينما أنا على تلك الحال.. إذ أحسستُ كأنّ أحداً يعبث بسقف الحجرة الذي كان من سَعَف النخيل؛ تجاهلتُه.. واسترسلتُ في صلاتي، على أنّي سمعتُ صوتاً –لم أتبيَّنه.. لكنّي أشعر أني أعرفه- ينادي بخفوتٍ: "اطمئن.. يا وليد! جئنا لإنقاذك!"، ونشطتْ الحركةُ أعلى السقف دون صخب.

خفَّفتُ صلاتي.. حتى أنهيتُها، ثم التفتُّ إليهم؛ فألفيتُهم أحدثوا شقّاً في السقف.. وراحوا يوسِّعونه، كان السقف منخفضاً.. فساعدتُهم قدر طاقتي.. إذ كانت الأغلال تحجزني، ثم اِندسّ أحدُهم من ذلك الشقِّ.. وسقط أمامي، نهض.. قائماً بين يديي؛ تأمَّلتُه.. فإذا هو: أبو جندل بن سهيل.

تهلَّل وجهي.. وأشرقتْ الفرحة في قلبي، تساءلتُ هامساً مذهولاً: "هل أنت أبو جندل؟!! كيف عرفتَ مكاني؟! كيف أتيتَ إلى هنا؟؟! هل عرفتَ أنّي أسلمتُ.. يا أخي؟؟ هل أتيتَ لإنقاذي؟!!".

لم يجبني.. بل لم يلتفت لما أقول، إنّما كان يتحرَّك بخفةٍ وسرعة.. ويعلم ما يصنع؛ كان معه قادوم ومسمار، أخذ يعالج الأغلال.. محاولاً فكها أو كسرها،

انتبهتُ من ذهولي.. وبدأتُ أُعاونه.
انفكتْ القيودُ.. وأنهضني، هممتُ أنْ أُعانقه فرحاً بقدومه؛ فما صافحني، حملني –دونما يَنبِس بكلمة- حتى تشبَّثتُ بفتحة السقف.. ودفعني لأعلى، انتشلني رجلٌ ثان.. حتى صرتُ جواره فوق السقف، تسلَّق إلينا أبو جندل.. وقفز ثلاثتنا من فوق السقف، تحت ستار الليل –ظلامه وسكونه- هرولا بي بعيداً.. حتى وصلنا إلى موضعٍ أخفيا فيه مطايا، ركبناها.. وانطلقنا نتحسَّس الطريق هاربين من مكة.

انشقّ الفجر.. وقد تباعدنا عن مكة، تلفَّتُّ إلى رفيقيّ.. فرأيتُ الجِدّيّة عابسةً على وجهيهما، ينكزان دابتيهما –في هِمَّة وتحفُّز- لتسرعا في العَدْو، سَرَتْ عدوى الركض والتحفُّز في الدابة التي تحملني؛ فما أمهلتني.. كي أُكلِّم رفيقيّ أو أسأل: إلى أين نَتَّجِه، أو.. حتى أُعاين الطريق الذي نمضي فيه.
ما زالتْ الركائب تعدو بنا –مُسرِعةً في طريقها- إلى ملجأ تعرفه.. ولا أعرفه، ولم يزل رفيقاي مشغولَيْن عني بطريق الفرار.. والتماس النجاة، لا جناح عليهما؛ فلا شك بنو عمي اكتشفوا فراري، وأنَّهم أطلقوا خيلهم يقتفون آثارنا.. ويطاردوننا.

توقفنا برهة قصيرة صلَّينا فيها الفجر.. ثم انطلقنا، غدتْ نسائم الصبح النديّة.. تداعب وجهي، وتتسلّل مِن خياشيمي إلى صدري.. فتسري -في أوصالي وسائر جسدي- حتى تعبَّأتْ روحي بالانشراح والغبطة؛ إنَّها نسائم الحرية.
ظلَّتْ الركائب العاديات تعدو.. ولم تتوقَّف لا من تعبٍ.. ولا لراحة؛ حتى أشرقتْ الشمس.. ونثرتْ سناها على صفحة الأرض، أحسستُ بدفئها يُوقظ عظامي من موتٍ دام بضع سنين، وبضيائها يتخلَّل جسدي وتتشرَّبه أوصالي.. حتى انتشيتُ، أطلقتُ العنان لبصري يستمتع بنورها.. بعد عَتْمَة السجن التي كابدتُها سنين،

جعلتُ أتطلَّع إلى الأفق الواسع من حولي -صحراء مترامية.. وسماء مُنبسطة-، تلفَّتُّ إلى كل جهة.. لأمدّ بصري وأُمتِّع عيني برحابة الفضاء.. بعدما قاسيتُ ظلمة السجن وضيق جدرانه.

رغم الكَبَد الذي عاينتُه.. والضيم الذي عانيتُه.. رغم وهن بدني.. صرختُ ونخستُ دابتي أَحثُّها على الإسراع، أنشأتُ أسابق رفيقيّ.. حتى سبقتُهما.
اِطْمَأَنَّا أنّنا نجونا من ملاحقة المطاردين وأعينهم؛ فصاح أحدهما عليّ: "يا وليد! سننزل نستريح.. هنا!".
تَرجَّلا.. وتَرجَّلتُ؛ فابتدرني أبو جندل والتقطني في أحضانه.. هاتفاً: "مرحى.. مرحى! ها أنت ذا قد أسلمتَ لله.. يا غلام بني المغيرة!!"، انشرح صدري وأنا أُعانقه وأجيبه: "الحمد لله الذي هداني للإسلام!"، صافحني الرجل الثاني بحميميّة.. وربت على كتفي بمودة، وعرفتُ أنَّه: أبو بصير.
وضعا الطعام.. وقعدنا نتناوله، لقيمات ضئيلة.. لكنَّها لذيذة؛ غذاء الحرية أشهى من قُوت السجن، تساءلتُ: "كيف علمتما أنّي أسلمتُ؟!"، أجابني أبو جندل: "أ وبعد أنْ دخل أخواك بك مكة مُكبَّلاً.. ترى أنَّ أحداً فيها لم يعلم بإسلامك؟!!"، قلتُ باندهاش: "وكيف عرفتما موقعي؟؟ وكيف وصلتما إليّ؟!".
أجابني أبو بصير: "لا تشغل عقلك بهذا الآن؛ ستعرف كل شيءٍ في حينه! احمد الله.. أنَّك أصبحتَ الآن حراً، ولن يفتنك أحدٌ عن دينك!!".
صدحتُ بها من سويداء قلبي: "الحمد لله!!".
ثم استأنف أبو بصير هاتفاً: "هيا بنا قبل أنْ يدركنا الطالبون!"، سألتُ مُستفهِماً: "إلى أين؟!!".
أجابني أبو جندل مُطمئناً: "لدينا ملاذ آمن.. في جبال العيص!".

في جبال العيص.. تنشَّقتُ نسائم الحرية من جديد؛ استشعرتُها أعظم نعمة أنعم الله بها عليَّ بعد الإسلام، بَرُؤتْ جراحي.. واستعدتُ عافيتي؛ على أنّي كنتُ أجد وحشةً في منامي.

ثم التقيتُ برجالٍ آخرين –من قريش ومن قبائل دخلتْ في حلف قريش بصلح الحديبية- كانوا مسلمين مُستضعَفين.. مثلي؛ يُنكِّل بهم قومُهم.. ليفتنوهم عن الإسلام.

شاركتُهم التشرُّد ووَحْشَة الجبل وسُكْنى الكهوف.. والنزر اليسير من الطعام.. والتنعُّم ببهاء الحرية.. والحلم بالهجرة إلى رسول الله ﷺ.

نبَّأتُ أبو جندل بخبر عيّاش وسلمة، حاولنا نجدتهما مرة ومرتين؛ لكن.. فشلنا أنْ نعثر لهما على أثر؛ مِن الجَليّ -بعد نجاحي في الفرار- أنَّ آل المغيرة شَدّدوا حبسهما، وربما أخفوا موضع سجنهما.

أبو بصير رجلٌ عالي الهِمَّة.. شديد البأس؛ عَيَّن هدفه بوضوح: ألا.. وهو نجدة المستضعفين من المسلمين في زنازين قريش وحلفائها، وقد أحسن التخطيط والتنفيذ.. حتى اجتمع عنده قرابة الثلاثمائة رجل مسلم يبتغون الهجرة إلى الله ورسوله؛ ويمنعهم شرطُ الصلح.

تَفكَّرنا في المسألة.. وتدبَّرنا في الأمر؛ وانتهينا إلى أنّ السبيل لتحقيق غايتنا هو تَنازُل قريش عن هذا الشرط الذي يمنع إنضمامنا إلى النبي ﷺ إلا بإذنٍ منهم، ولن ترضخ قريش لذلك إلا أنْ يتيقَّن كبراؤها بأنَّ خسارتهم ستصير أعظم بكثير؛ ومن ثَمَّ عزمنا على مهاجمة قوافل قريش الغادية إلى الشام.

وقد فعلنا! .. وفعلنا حتى أقضضنا على سادات قريش مضاجعهم، وملأنا قلوبهم رعباً على تجارتهم وأموالهم،

في بضعة شهور.. أوصلنا رسالتنا إلى قريش وحلفائها: "لن تنعموا بتجارة الشام.. ولن تأمنوا على أموالكم.. إلا أنْ نلحق نحن برسول الله!"، ما كنّا مُنفكين حتى يُسلِّموا لنا بذلك؛ ولقد سلَّموا.. واستسلموا.

ففي ذات نهارٍ صَحْو.. لطيف النسمات.. اِطَّلع علينا مبعوثٌ من لدن رسول الله ﷺ -حيث كنّا مختبئين في مغارات الجبل- يحمل رسالة لنا من النبي ﷺ.
حملنا ذاك المبعوث وتلك الرسالة إلى نائب رئيسنا: أبي جندل؛ وذلك.. لأنَّ رئيسنا –أبا بصير- مريضٌ.
فَضَّ أبو جندل الرسالة.. وقرأها، أشرق وجهه.. وتلألأ السرور في عينيه؛ ثم صاح فينا: "يا إخوة الإسلام.. أبشروا! هذا -والله- خير يومٍ طلعتْ عليكم فيه الشمس مذ أسلمتم؛ إنَّ النبي ﷺ بعث يُخبركم: أنَّ قريش تنازلتْ عن شرطها، ويقول لكم: انضموا إليه.. ولا يتعرَّض أحدٌ منكم بسوءٍ لقريش ولا لعِيراتها!".

لا أعلم كلماتٍ أصف بها فرحتي أو فرحة إخواني آنذاك؛ كانت فرحتنا أعظم من أنْ تجسدها الأوصاف أو تمثِّلها النعوت، وإنْ شئتَ وصفاً أو نعتاً؛ فحسبي أنْ أقول: أنّنا كنّا أمواتاً.. فأحيانا الله بهذه الرسالة.
لم يُعكر صفو بهجتنا خلا أنَّ أبا بصير كان يحتضر، أعلمناه البشرى؛ فأمسك الرسالة بيده.. وجعل يحمد الله.. ويُقبِّلها.. حتى أسلم الروح.
استغفرنا له وترحَّمنا عليه، غسَّلناه وصلّينا عليه.. ودفناه حيث مات، ثم انطلقنا إلى رسول الله.

- ١٩ -

ولجتُ المدينة مع ركب أبي جندل؛ لكن.. ليس دخولي إياها اليوم.. كدخولها أمس، أمس.. دخلتُها أسيراً مشركاً يبغض الرسول وأصحابه ويحقد عليهم، أما اليوم.. فالحمد لله.. أدخلها مسلماً مُتشوّقاً إلى رؤية النبي ﷺ.. ومصافحته ومُبايعته على الإسلام والجهاد في سبيل الله.

جلسنا بين يدي النبي ﷺ في خشوعٍ وشغف، أحسن لقاءنا ورحَّب بنا.. ووعظنا ودعا لنا، ولقينا أصحابُه بمودةٍ وترحاب.. ومضينا نتعلَّم القرآن وشرائع ديننا، التقيتُ عمر بن الخطاب وعمار بن ياسر؛ فأكرماني.. وتبدَّل جفاؤهما السابق معي –إذ كنتُ مُشرِكاً- إلى أُنسٍ وملاطفة، صادفتُ من عمار رحمةً ووداً.. كأنَّه نسي أنّي ابن آل المغيرة المخزومي الذين قتلوا أمه وأباه، وألفيتُ عمر الغليظ الجبار.. يضع لي جناحه ويُعلمني الإسلام بمحبةٍ وإحسان؛ إنَّه الإسلام.. يَجُبُّ ما قبله.. ويؤلِّف بين قلوب المؤمنين.

عرفتُ أنَّ أبا سلمة –زوج هند- أفضى إلى ربه.. منذ قرابة الثلاث سنوات؛ مات من أثر جرحٍ أصابه يوم أُحُد؛ أقام يداويه شهراً.. ثم انتفض عليه بعد فترة، فتُوفي مُتأثِّراً به، ترمَّلتْ هند.. ولها منه أربعة أولاد: سلمة وعمر وزينب ودرة.

أحزنني موت ابن عمي المخزومي، وأشفقتُ على هند.. بنت عمي –بل هي أقرب من أختي- التي لم يكن لها -في يثرب- أحدٌ من أهلها؛ مَن سيعولها وأفراخها الصغار؟! مَن سيعتني بدُرّة بيت آل المغيرة المخزومي.. النسيبة؛ بنت زاد الركب.. بنت أشرف بيوتِ العرب؟! مَن يستطيع أنْ يعوِّضكِ –يا هند- عن.. أبي سلمة؟!!

الحمد لله! قد عوَّضها اللهُ خيراً من أبي سلمة؛ قد تزوَّجها النبي ﷺ، وعوَّضها شرفاً أسمى وأجلَّ من أنها بنت زاد الركب؛ فقد أصبحتْ أماً للمؤمنين.

اطمأننتُ عليها وعلى أطفالها، ثم شكوتُ للنبي ﷺ أنّي أفزع في نومي؛ فقال لي ﷺ: "إذا اضطجعتَ للنوم فقل: بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين.. وأنْ يحضرون؛ فإنّه لا يضرك، وبالحري أنْ لا يقربك!"؛ فقلتُها.. فذهب ذلك عني.

قَرَّ الله عيني بالاطمئنان على أم سلمة.. وبإقامتي في المدينة مع النبي وأصحابه، وذهبتْ عني كوابيس النوم، وتملَّكني شوقٌ عظيمٌ للجهاد في سبيل الله.

تأمَّلتُ ما انتهى إليه حالي من نعمة الحرية.. والهجرة إلى مدينة النبي ﷺ.. وصحبته؛ فحمدتُ الله حمداً كثيراً، وأشفقتُ على سلمة وعيّاش.. وشَقَّ عليّ ما هما فيه من حبس وعنت، ذكرتُ حالهما لرسول الله ﷺ؛ رَقّ لهما.. ورثى لهما، قلتُ: "يا رسول الله! سجنهما بنو المغيرة المخزومي.. ومنعوهما الهجرة إليك، وقنَّطهما شرطُ الصلح من الهرب؛ أَمّا وقد انتفى الشرط.. فقد تجدّد أملهما في الهجرة!"، سأل النبي ﷺ في رأفة: "مَن يأتني بهما؟؟".

قلتُ: "أنا آتيك بهما.. يا رسول الله!".

أشرق وجهه الكريم سروراً.. ودعا لي ولهما بالنجاة.. وبشَّرني بالخير.

حملتُ سيفي.. وزِقَّ ماءٍ وجِراب زاد، وحملني بعيري.. وانطلقتُ –وحيداً- إلى مكة، رغم انعدام الصحبة.. لم أشعر –في الطريق- بالوحشة؛ فقد أنستُ بصحبة القرآن وذكر الله، وشعرتُ بدعاء النبي.. يحوطني، حينما اقتربتُ من مشارف مكة.. شرعتُ أتحرَّك بالليل.. وأكمن بالنهار تَوَخياً للحَيْطَة.

عندما أمسيتُ وليس بيني وبين مكة سِوَى رمية حجر؛ اعترتني رهبةٌ.. سرعان ما استعذتُ بالله منها؛ فصرفها الله عني، ثم غشيتْ عقلي الحيرة: كيف سأصل إليهما.. وقد أخفى بنو المغيرة سجنهما؟؟!

هداني الله إلى أنْ أتربَّص بدار آل المغيرة؛ فلا ريب أنَّ إحدى النساء ستظهر ساعيةً إليهما بطعامٍ.. كما اعتدنّ أنْ يفعلنّ مرةً كل أسبوع، وقلتُ في نفسي: "أترصَّد الدار خُلْسَة.. وأنتظر خروج أم سلمة أو زوجة عيّاش، ثم أتتبعها حتى أصل إليهما؛ ثم يكون الخير.. إنْ شاء الله!".

لم تحدِّثني نفسي بالطواف بالكعبة، ولم تهفو نفسي لمراتع الصبا، ولا حثّني الحنين للتمسُّح بجدران الدار؛ إنَّما كل ما كان يجول بخاطري -يهتمّ له قلبي.. وينشغل به عقلي- هو إنجاز مهمتي التي وكلها إليّ النبي: إنقاذ عيّاش وسلمة.

توكلتُ على الله واستعنتُ به، سترتُ البعير في موضعٍ آمن، ثم تخفَّيتُ قريباً من الدار.. حيث أرى الخارج منها ولا يراني أحد، مكثتُ أترقَّب.. وقد عشَّمتُ نفسي أنَّ الانتظار لن يطول عن بضعة أيام؛ ودعوتُ الله أنْ يكون أقرب من ذلك.

استجاب الله دعائي؛ فبعد أنْ صلّيتُ عصر اليوم التالي.. لمحتُ أم سلمة خارجةً –من باب الدار- ومعها جارية تحمل صُرَّة طعام؛ تابعتُهما من بعيد.. حتى بلغتا بيتاً نائياً يُحيط به سِيَاجٌ من النخيل وثلاثةٌ من الحرس، فتح أحدُهم البابَ، ولجتْ أم سلمة ومعها صُرَّة الطعام.
لبثتْ مدة.. ثم غادرتْ عائدةً إلى الدار؛ تأمَّلتُ –عن كثب- أشكال الحراس وحركاتهم.. وتسمَّعتُ كلامهم؛ فتيقَّنتُ أنَّ هذا هو سجن سلمة وعيّاش، حمدتُ الله.. وكمنتُ مُترِبّصاً إلى الليل.

(كيف سأتجاوز أولئك الحراس؟! وكيف سأقتحم هذا السجن؟!! كيف سأَفُكّ وثاقهما؟! ثم كيف سأرجع هارباً بهما؟!! ولربما كان أحدهما –أو كلاهما- مريضاً.. لا يقوى على سرعة الحركة والفرار!!؟): كانت تلك الهواجس تعبث بعقلي وتشوِّش أفكاري؛ قاومتُها.. مُشجِّعاً نفسي.. قائلاً لها بحزمٍ: "إنّما ذلك هو الشيطان يريد أنْ يُخوِّفني.. ويُثبِّط عزمي!".

استعذتُ بالله من الشيطان، واستعنتُ به.. عازماً على إنجاز ما كلَّفني به النبي ﷺ.. مهما تفاقمتْ العوائق، اعتصمتُ بذكر الله.. وتشبَّثتُ بسيفي.

جَنَّ الليل.. وأظلمتْ الأرض إلا من مشعلٍ ضئيل تتراقص نيرانه الخافتة بين يدي الحراس.

سكنتْ حركة الحراس الثلاثة.. ولم أعد أستطيع أنْ أراقبهم مِن موقعي الذي أستتر فيه؛ شعرتُ كأنّ هاتفاً خفياً يهتف بي.. ويحفِّزني أنْ أَنبُو من مخبأي وأتوجَّه إليهم، لم أتردّد.. ولم أرتبك؛ بل.. سللتُ سيفي.. وانسللتُ إليهم، عثرتُ فيهم نُوَّاماً.. كأنَّهم أموات؛ أَخِزُ أحدَهم.. فلا يتحرَّك، أُقلِّبهم.. فلا يشعرون، فتّشتُ عن مفتاح الباب؛ وعجيبٌ أنّي لم أجده، جعلتُ أطوف –في حذر- حول البيت؛ فلم أعثر على مَنفَذٍ آخر.

بعد برهة بحثٍ حائرة.. اكتشفتُ أنَّه بيتٌ بلا سقف، برقتْ عيناي فرحاً.. وتوشَّحتُ سيفي.. وتسلَّقتُ الجدار حتى ارتقيتُ، نظرتُ مُتفحِّصاً.. فرأيتُ ابني عمي قابعَيْن في وهن.

خافتُهما: "لا ترتاعا! أنا الوليد.. جئتُ لنجدتكما!"، هبطتُ إليهما.. وتحيَّرتُ: كيف أُحرِّرهما من تلك الأصفاد الغليظة؟!!

وكأنّ سيفي أَوحى إليّ أنَّه يستطيع أنْ يفعل، سمَّيتُ باسم الله.. ورفعتُه.. وهويتُ به على الأصفاد؛ فكأنّما انفكتْ من تلقاء نفسها، أنهضتُهما.. وساعدتُهما حتى

تسلَّقنا الجدار.. ثم قفزنا خارج السجن، ألفينا السجّانين يغطّون في سباتٍ بعيد، سَرتْ في صاحبيّ روحٌ نشطة.. فهرولنا معاً حتى وصلنا إلى البعير؛ حملتُهما عليه.. وانسللتُ بهما عَبْر الشِّعاب، لم يبصر بنا أحدٌ -كأنّنا أرواحٌ مَخْفِيَّة- إلى أنْ فارقنا من مكة.

بزغ النهار.. وقد نأينا عن البلد الحرام.. كأنَّما طُوِيتْ الأرض لنا طيّاً، حرصي على الفرار بهما ونجاتهما.. أعظم في نفسي من رغبتي في معانقتهما والسلام عليهما، وما كنتُ مُنفكاً حتى أَنْفُذ بهما من هذه الصحراء الموحشة إلى الأنس بلقاء رسول الله ﷺ، أحببتُ لهما أنْ يُمتِّعا أنظارهما برؤية وجهه الكريم، وأنْ تطرب آذانهما بسماع صوته وكلامه، وأنْ يستشفيا من جراح قلبيهما وجسديهما بالصلاة ورائه.. والتحدُّث معه.

عرضا عليَّ أنْ يتعاقب ثلاثتنا على البعير؛ لكنّي رفضتُ بإصرار.. تَوَقِّياً أنْ نتَوَقَّف لحظةً واحدة.. فيحدث ما لا تحمد عاقبته.. وأكون قد قصَّرتُ في المهمة التي ندبني النبي ﷺ لها، غمرني إحساسٌ بأنَّ واجبي –تنفيذاً لوصية النبي- أنْ أَصِل بهما إليه آمنَيْن مطمئنَيْن.. مرتاحَيْن حتى مِن وعثاء السفر.
واصلتُ السير مُهرولاً بهما –ليالي وأيام- دون تريُّث؛ هما يركبان.. وأنا أمشي أمامهما ساحباً خِطام البعير، الشراب رَشْفات.. الطعام نُتْفات، أكلتْ رمالُ الصحراء الحارة نَعْليّ.. وتورَّمتْ قدماي.
الحمد لله.. بلغنا حَرَّة المدينة[1]؛ لكن.. نُكِبتْ إصبعي اصطداماً بصخور الحَرَّة، لم أعبأ.. بل قلتُ مُخاطباً تلك الإصبع: "هل أنتِ إلا إصبعٌ دميتِ ***** وفي سبيل اللَّه مَا لقيتِ!"، مَزَّقتُ مُزْعةً من طرف ثوبي.. ضمدتُها بها؛ وواصلتُ المسير.

[1]: هي أرض ذات حجارة بظاهر المدينة المنورة، وسميتْ الحَرَّة لأنَّها ذات حجارة سود كأنَّها أُحرقتْ.

ثـم واصـلنا الرحلـة.. حتـى أنخـتُ بهمـا أمـام مسـجد النبـي ﷺ، رآنـا المسـلمون.. فكبَّروا وهلَّلوا.. وانطلقوا يبشرون النبي ﷺ.
تبسَّم قائلاً لهم: "ألم أُخبركم؟؟".
ثم علمتُ من إخواني أنَّ النبي ﷺ –بعد أنْ غادرتُ إلى مكة- كان إذا رفع صُلْبه مِنَ الرُّكُوعِ فِي كل صلاةٍ مَكْتُوبَة يدعو لنا قائلاً: "اللهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ!".
اقشعر بدني تأثُّراً لاهتمام النبي بأمرنا، وطفر الدمع من عيني محبةً له.

مضى قرابة العام على صلح الحديبية، وأَزِف ميقات عمرة القضاء.. كما عاهدتْه قريش: (أنْ يرجع بأصحابه –عن مكة- عامه هذا؛ ثم يعودون معتمرين العام القادم!)؛ وها هو ذا العام القادم.. قد حَلّ، فدعا النبي ﷺ أصحابه للتجهُّز والاستعداد للعمرة، وأمر ألّا يتخلَّف أحدٌ مما حضر معه عمرة الحديبية العام الفائت، وحضّ مَن لم يشهدها على الخروج؛ فاستبشرنا.. وشرعنا نتأهَّب للعمرة، كنّا قريب من ألفين معتمر.

أحرم النبي ﷺ من باب مسجده.. وأحرمنا معه، وساق الهدي أمامه.. ستين بدنة، تحرك رَكْبنا ونحن نَضِجُّ بالتلبية والتكبير والتهليل؛ تأمَّلتُ ذلك المشهد العظيم الذي يَهُزّ المشاعر.. فاقشعرّ بدني.

مع أنَّ صلح الحديبية أقرّ بهدنةٍ بين النبي ﷺ وقريش.. ورغم أنّه اشترط أنْ يأتي النبي وأصحابه –في العام التالي- لاتمام العمرة لا يحملون سلاحاً عدا السيوف في القرب؛ رغم شروط الصلح الذي لم أشهده.. إلا أنّي رأيتُ النبي ﷺ وقد حمل معنا سلاحاً كثيراً: سيوفاً.. وبيضاً.. ودروعاً.. ورماحاً، بل.. وأعدّ كتيبةً مسلحةً من الفرسان ليكونوا في مقدمته حتى حدود الحرم.

تعجَّبتُ!! ووسوس لي الشيطان: أنَّ النبي.. قد ينوي نقض الصلح؛ استعذتُ من وساوسه الخبيثة.. وعاتبتُ نفسي في صرامة: "إنَّ النبي ﷺ لا يغدر أبداً!!".
بيد أنّي أحببتُ أنْ أعرف غاية النبي ﷺ من ذلك.. ليطمئن قلبي؛ تهيَّبتُ أنْ أسأله.. فاستخبرتُ عمر بن الخطاب؛ فأعلمني أنَّ النبي لم يفكِّر فيما تسرَّب إلى ذهني، وأنَّه ﷺ لا ينوي أنْ يدخل الحرم بهذا السلاح؛ إنّما أعدّ ذلك مُحاذِراً أنْ تستغل قريش فرصة تجرُّد المسلمين من السلاح.. فتغدر بهم وهم يؤدون مناسكهم، وأخبرني أنَّه حين سُئل النبي.. قال: "إنّا لن ندخل بها عليهم الحرم؛ ولكن تكون قريبّاً منَّا؛ فإنْ هاجنا هيجٌ من القوم.. كان السلاح قريباً منّا!".
قلتُ: "بأبي أنت وأمي.. يا رسول الله! خير ناصح أمين لأصحابك!".

لا جرم أنَّ قريش تتوقَّع قدومنا إلى مكة لأداء عمرة القضية.. كما نص اتفاق الصلح، ولا ريب أنَّهم بثّوا عيونهم على الطريق لتراقب رَكْبنا القادم إليهم.. ويتحسَّسوا أخبارنا، ولابد أنَّهم شاهدوا كتيبة الفرسان المدجَّجة بالسلاح؛ ولا شك أنَّ هذا المشهد أفزعهم.. وأثار الرعب في نفوسهم، فعندما نزلنا ببطن وادي يأجَج[1] .. وكان النبي ﷺ قد قدَّم الخيل والسلاح إلى مَرّ الظهران، حينما نزل النبي ﷺ بطن الوادي.. جاءه وفدٌ قرشي.. برئاسة: مكرز بن حفص العامري –أحد شهود صلح الحديبية القرشيين- ليحتجّوا على استجلاب السلاح والخيل.. قائلين: "ما على هذا عاهدناك.. يا محمد!؟؟".
"يا محمد!! والله.. ما عُرفتَ -صغيراً ولا كبيراً- بالغدر!؟ أ تدخل بالسلاح الحرمَ على قومك؛ وقد شرطتَ ألّا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف في القرب؟!!"، فأجابهم النبي ﷺ مُطمئناً: "لا ندخلها إلا كذلك؛ بسلاح المسافر فقط!".

---

[1]: يعرف اليوم باسم وادي: ياج، وهو وادي من أودية مكة يمر شمال التنعيم.. ويصب في مَرّ الظهران، وهو قريب من أنصاب الحرم.

ثم رجع مكرز ورفاقه إلى مكة ليُسكِّنوا فزِع قريش ويؤكِّدوا ما واثقهم عليه النبي: أنّه على شرطه لهم.. وأنّنا لن ندخل مكة بسلاح خلا سلاح المسافر.

خلَّف النبي ﷺ السلاح في وادي يأجج، وأمر مائتي رجل من الأنصار بالبقاء لحراسته.. على أنْ يستبدلهم بمائتين آخرين بعد أنْ يؤدوا عمرتهم؛ فينزلون هم إلى مكة ليقضوا مناسكهم.

ثم انطلقنا إلى مكة نلبِّي ونكبِّر ونهلِّل.. في مشهدٍ تخشع له القلوب وتقشعر منه الجلود، ثم دخلنا مكة –مِن شمالها- مِن عند الحجون، نرفع أصواتنا.. صائحين: "لبيك اللهم.. لبيك! لبيك.. لا شريك لك.. لبيك! إنَّ الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك!!".
نعم!! لا شريك لك.. يا الله! رغم أنف قريش وأوثانها.. لا شريك لك! رغم مئات الأصنام التي نصبوها -زوراً وبهتاناً- حول بيتك الحرام.. لا شريك لك.. ولا نِدّ لك! رغم أنف قريش.. الحمد لله أنْ أنعم على هذه الزمرة المؤمنة الموحِّدة بالطواف ببيته الحرام، والحمد لله أنْ مَنَّ عليّ.. لأكون فرداً منهم.
انحدرنا من الحجون إلى الكعبة.. في نظامٍ وانضباط وسكينةٍ ووقار، حينئذ بلغ النبي ﷺ خبرٌ يفيد بأنَّ الحاقدين من قريش أشاعوا بين أهل مكة أنّنا مصابون بمرض الحُمَّى الصفراء[1] .. وأنَّها أنهكتنا حتى أصبحنا ضعافاً منهوكي القوى!!

---

[1]: الحمى الصفراء مرض ينقله البعوض، ويمكن أن يتحول إلى وباء، وينتقل إلى البشر عن طريق لدغات البعوض المصاب. وتشمل الأعراض الشائعة: الحمى أو آلام العضلات أو الصداع أو فقدان الشهية أو الغثيان أو القيء، وقد تعاود الحمى الشديدة أدراجها ويتأثر بها العديد من أجهزة الجسم، وعادةً ما تتأثر الكبد والكُلى، ومن المرجح أن يُصاب المريض باصفرار الجلد والعينين، (ومن هنا جاءت تسمية المرض بالحمى الصفراء)، والبول الداكن، وآلام البطن المصحوبة بالقيء. ويمكن أن يحدث نزيف من الفم أو الأنف أو العينين أو المعدة. ويلقى نصف المرضى الذين يدخلون المرحلة السامة حتفهم في غضون ٧-١٠ أيام.

أشاعوا تلك الفِرْيَة.. ليُحقّروا من شأننا ويُنفِّروا الناس مِنّا، بل.. واصطف بعضهم لنا لدن دار الندوة –أمام الكعبة- لينظروا إلينا.. تشفِّياً فينا.

لذا.. فعندما دخل النبي ﷺ المسجد اضطبع[1] بردائه وأظهر عضده اليمنى، ونادى فينا مُحضِّضاً: "رحم الله امرءاً أراهم –اليوم- مِن نفسه قوة!"، ثم استلم الركن.. وهرول بنا في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف.. لنُظهر لهم قوتنا ونشاطنا.

ثم سمعنا أحد الأنصار[2] ينادي صائحاً: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده!"، وأنشأ يردِّدها.. ونردِّدها وراءه.

أنهينا الطواف.. ثم توجَّنا للسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، وأيضاً.. هرول بنا النبي ﷺ في مهبط الوادي[3] الذي بينهما، ثم أنهينا الشوط السابع عند المروة حيث أوقف النبي ﷺ الهَدْي؛ فأمرنا بنحر الهَدْي عندها.. وقال: "هذا المنحر؛ وكل فجاج مكة منحر!".

أتممنا العمل قبيل الظهر، أمر النبي ﷺ بلالاً بارتقاء الكعبة.. ورفع الآذان للصلاة؛ ففعل! رُفِع الآذان.. وقلوبنا ترقص فرحاً.. وآذاننا تطرب لسماع شهادة التوحيد يُصدَح بها في مكة.. فوق ظهر الكعبة: (الله أكبر.. أشهد ألا إله إلا الله.. أشهد أنْ محمداً رسول الله!)؛ أنعم به من يومٍ عظيمٍ.. من أيام الإسلام.

ثم أرسل النبي ﷺ يطلب منهم أنْ يفتحوا له الكعبة ليدخلها؛ لكنّ سادة قريش رفضوا صلفاً وكبراً.

---

[1]: اضطبع بالثوب: أي تأبَّط به.

[2]: هو عبد الله بن رواحة –رضي الله عنه- وهو الذي كان آخذاً بخطام ناقة النبي ﷺ أثناء الطواف.

[3]: هي الهرولة بين الميلين الأخضرين.

وبينما نحن مقيمين في مكة.. أرسل إليّ النبي ﷺ يسألني: "أين أخوك.. خالد؟؟!"، فقلتُ: "يأتي الله به.. يا رسول الله!".
فقال: "مثله.. جَهِلَ الإسلامَ؟!!"؛ ساعتئذ.. وثب حب خالد القديم في قلبي، وخاطبتُ نفسي مُعاتِباً: (كيف أغفل عن خالد؟ أخي -الذي له أعظم الفضل عليّ- كيف لا أسعى لإسلامه؟! كيف أسهو عن أنْ أدعوه.. لينعم معي بالخير الذي أصابني؟!).

عزمتُ على أنْ أُعَرِّج على الدار.. وأقابل خالد وأدعوه إلى الإسلام؛ فاستأذنتُ النبي ﷺ.. وذهبتُ إليه، بيد أنّي لم أجده.. فقد شرد إلى رءوس الجبال مع الذين شردوا من قريش.. لكيلا يروا النبي وأصحابه يطوفون بالكعبة.. نفوراً وكبراً من عند أنفسهم.
تركتُ له رسالة.. ومضيتُ وأنا أدعو الله أنْ يشرح صدره للإسلام.

انقضتْ الأيام الثلاثة التي يَنُصّ عليها عقد الصلح؛ فأصدر النبي -ﷺ- أمره إلينا: ألّا يبيت أحدٌ من أصحابه بمكة.. تلك الليلة؛ فخرجنا.. وبتنا بوادي سَرِف خارج مكة، ثم واصلنا السير إلى المدينة بعد أنْ أعرس النبي بزوجته: ميمونة[1].

قبيل المدينة –تقريباً على مسافة ميل منها- عند بئر أبي عنبة.. تختَّر جسدي

---

[1]: هي أم المؤمنين: ميمونة بنت الحارث الهلالية، هي آخر زوجات النبي ﷺ، وكانت متزوجة من مسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام.. ففارقها؛ ثم تزوَّجها أبو رهم بن عبد العزى.. ثم مات عنها، وهي أختٌ شقيقةٌ لِلُبابة الصغرى بنت الحارث.. زوجة الوليد بن المغيرة.. وأم خالد، وكذا هي الأخت الشقيقة لأم الفضل بنت الحارث.. زوجة العباس بن عبد المطلب، وهي أخت من الأم لكل من: أم المؤمنين زينب بنت خزيمة التي توفيتْ قبل ذلك التاريخ في ربيع الآخر سنة ٤ هـ، والسيدة أسماء بنت عميس.. زوجة جعفر بن أبي طالب، والسيدة زينب بنت عميس.. زوجة حمزة بن عبد المطلب.. رضي الله عنهم أجمعين.

وأوهنته الحُمّى، جثوتُ على ركبتيّ من الألم، جاهدتُ أنْ أنهض.. وأجرجر قدمي؛ لكنّي.. عجزتُ عن الحركة؛ وذلك تأثُّراً بأصبعي التي جُرِحتْ عند الحَرّة حينما قدمتُ المدينة هارباً بابني عمي، فقد خبث الجرح وتقيَّح.. وتورَّمتْ قدمي، ثم انتفض عليّ.. وأصابتني الحُمّى.. وغشيتني إغماءاتٌ.

رَغماً عني.. أغمضتُ عيني، وتخلَّفتُ عن الرَكْب... ....

القسم الثاني

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي

- ٢٠ -

خـالـد:

عاد إلينا مكرز بن حفص العامري من وادي يأجج.. ليُخبرنا أنَّ محمداً على العهد، وأنَّه لن يدخل مكة غازياً.. بل معتمراً؛ حينما تأكَّدنا من ذلك –واطمأننا- كرهتْ نفسي أنْ أراه وأصحابه يدخلون مكة ويطوفون بالكعبة.. رغم إرادة قريش.. ورغم إرادتي؛ فحملتُ زاداً ومتاعاً قليلا.. ووثبتُ على ظهر جوادي.. مُنسلاً إلى رءوس الجبال.. وأبعدتُ.

لكن.. رغماً عني تنامى إلى سمعي ضجيج تلبيتهم، صَكَّ سمعي نداؤهم: "لبيك اللهم.. لبيك، لبيك.. لا شريك لك!!"؛ وكأنَّما ذاك النداء جلمود صخر سقط على قلبي كما يسقط في ماءٍ راكدٍ.. فيُحرِّكه.

تكرَّر النداء على سمعي.. فاضطرب له قلبي كما يضطرب الماء الراكد ويتموَّج، حينها.. ما انفكتْ الهواجس تعبث في رأسي:

(أ حقاً.. لا شريك له؟؟! أ حقاً.. الله –الذي في السماء- هو الإله؟! وأنَّ هذه الآلهة –التي نعبد- مجرد أوثان باطلة؟!! هل يُعقَل أنْ يعبد الآباء والأجداد آلهةً زائفة؟!! قد كان آباؤنا أحكم العرب.. وأعقلهم؛ فكيف يسفِّه محمدٌ أحلامهم.. ويدَّعي أنَّ آلهتهم زائفة؟!! كلا.. إنَّه كاذبٌ فيما يدَّعي!!).

(لكن.. لماذا يكذب؟؟ إنَّه لم يُعرَف بيننا إلا صادقاً أميناً؛ فلِمَ يكذب الآن؟؟! ما الفائدة التي يُصيبها بتلك الأكاذيب؟!! إنَّه لم يَجنِ سَوِى الإخراج من بلده.. ومعاداة قومه والعرب أجمعين؟؟!).

(.. والعجب أنَّه لم يزل ثابتاً على قوله.. لم يتزحزح؛ إذاً.. لا بُدَّ أنَّه يؤمن بما يقول!!؟ وأصحابه –أيضاً- يصدِّقونه.. ويضحون لأجله بكل غالٍ ونفيس؟؟!).

تساءلتُ في خاطري: (أ رأيتَ –يا خالد- إنْ كان محمدٌ وأصحابه على الحق.. وقريش على الباطل؛ فأيهما تحب: أنْ تكون مع الحق.. أم مع الباطل؟؟!).
(لا جرم أُحِب أنْ أكون مع الحق! ولا ريب أنَّ دين قريش هو الحق!!؟ هم الذين ارتضاهم الله ليكونوا سدنة بيته، ولأجلهم أرسل الطير الأبابيل.. فأهلكتْ جيش أبرهة الأشرم؛ فهل الإله يُقاتل عنهم.. وهم على باطل؟؟!).
(كان هذا في زمنٍ بعيد! ولعلّ قريش –أوانها- كانت على الحق.. والأحباش على باطل!!؟)، (لكن.. إذا كان الله –الذي في السماء- هو الذي أرسل الطير الأبابيل وحده.. ودافع عن البيت الحرام وحده.. وأهلك جيش الأحباش وحده؛ فما جَدْوَى تلك الأوثان التي نعبدها من دونه؟!!)، (ويحك.. يا خالد! هم شركاؤه الذين يملكهم.. ولا يملكونه، وهم شفعاؤنا عنده!!).
زجرتُ نفسي عن تلك الهواجس.. وخالطتُ سادة مخزوم وقريش الذين هرعوا معي إلى رءوس الجبال.

جَنَّ الليل.. وهجرني النوم.. واستَحْوَذتْ تلك الهواجس على عقلي.. من جديد: (ما الدليل؟؟ ما دليل تلك الأوثان على أنّهم شركاءٌ لله.. وأنَّهم شفعاؤنا عنده؟!!).
(كذلك.. قال آباؤنا!!).
(ذاك قولٌ.. يُقابله قول محمدٍ: أنَّه لا شريك لله في ملكه!!؟).
تطلَّعتُ إلى السماء؛ فرأيتُها مظلمةً.. إلا من قمرٍ منير.. ونجومٍ بعيدةٍ تُومض، عَنَّ بخاطري تساؤلٌ: (هل تلك الأوثان هي مَن خلقتْ هذا القمر.. أو هذه النجوم؟!! لا أكاد أُصدِّق؛ بل.. أشك في أنَّها خلقتْ شيئاً مما يسكن الأرض!؟)،

(وهل يُعقَل أنْ تخلق الأصنامُ الحجارةَ التي صُنعِتْ منها؟!! فلِمَ يتَّخِذها اللهُ شركاءً له وهي لم تخلق شيئاً.. ولا تفعل شيئاً؟!! الأجدر به –إنْ أراد شريكاً- أنْ يتَّخِذ الحجارة التي صُنعِتْ منها.. أو الإنسان الذي صنعها بيده!؟؟).

(كلا!! لا ريب أنَّهم شفعاؤنا عند الله.. هكذا حدَّثنا الآباء؛ فكيف نُكذِّبهم؟؟!)، (قولٌ بلا دليل! أ فرأيتَ إنْ أخطأ الآباء؛ فهل نتابعهم على خطئهم.. أم نلتمس الصواب؟؟!)، (وكيف نُميِّز بين الخطأ والصواب؟! كيف نعرف الحق من الباطل؟!!)، (أحسب أنَّه لن يُخرِجنا أحدٌ من الشك إلى اليقين.. إلا الله نفسه؛ بأنْ يخبرنا هو: هل هم شركاؤه.. أم لا؟!! هل هم شفعاؤنا عنده.. أم لا؟!!).

(لكن.. أنَّى هذا؟؟! كيف يُخبرنا اللهُ بذلك.. وهو في عليائه في السماء.. ونحن في السافلين؟!!)، (عسى أنْ يُرسِل إلينا مَلَكاً، أو يبعث من عنده.. رسولاً!).

(ويحك.. يا خالد! هذا ما يدَّعيه محمدٌ؛ يزعم أنَّه رسولاً -من عند الله- يأتيه الوحي من السماء!؟)، (وإنْ!! لو كان صادقاً.. فلِمَ لا؟!)،

(.. لكن.. كيف أتبيَّن صدقه؟!).

انقضتْ أيامٌ ثلاثة.. ووِفْق ما اقتضى الصلح يجب على محمد وأصحابه.. أنْ يغادروا مكة في اليوم الرابع، بيد أنّا علمنا أنَّهم لم يرحلوا؛ انزعجنا.. وأرسلنا إليه وفداً يُطالبه بالرحيل فوراً، قالوا له: "يا محمد! إنَّ قريشاً تقول لك: قد انقضى أجلك؛ هذه الثلاث قد مضتْ.. فاخرج عنّا!".

أجابهم بوجهٍ طلق: "وما عليكم لو تركتموني.. فأعرستُ بين أظهركم.. فصنعتُ لكم طعاماً!"، جاوبوه بصرامةٍ: "لا حاجة لنا في طعامك؛ اخرج عنّا!!"، فأمر أصحابه بالخروج.. وغادروا مكة إلى وادي سَرِف[1].

[1]: سَرِف.. تعرف حالياً باسم النوارية: هي موضع يقع بين التنعيم ووادي فاطمة شمال غرب مكة المكرمة على بعد ١٢ كم : ١٥ كم منها.

عروسه التي أراد أنْ يعرس بها بين أظهرنا -في مكة- هي خالتي: ميمونة.
لا أنكر أنَّ زواجه من خالتي -ومن قبله: زواجه من هند بنت عمي أبي أمية بعد أنْ مات عنها زوجها أبو سلمة- جعلني أتساءل في نفسي: (لماذا يفعل محمدٌ ذلك؟!! لماذا يُبادر إلى إكرامنا في نسائنا.. رغم الحرب والعداوة التي بيننا وبينه؟؟!)؛ غير أنّي لم أجد جواباً.. يشفي صدري.

(تُرى.. هل هو صادقٌ فيما يزعم؟!! ليت شِعْري.. هل يأتيه الوحي من السماء؟!! هل هو –حقاً- رسولٌ من عند الله؟؟!).
ما برحتْ ذكرياتُ الأيام والحوادث -التي دارتْ بيننا وبينه مذ زعم ما زعم- تجول في خاطري.. كما تجول الخيل في ساحة الوَغَى: (حينما صدع بمزاعمه.. قلنا: مجنون.. وسينهاه قومه، لكن.. انتشرتْ دعوته في مكة وتزايدتْ أعداد أتباعه، ومشى بين الناس يذمّ آلهتنا.. ويُسفِّه أحلامنا؛ وتفاقم خطره حتى خشينا منه على سطوة قريش ونفوذها، قال فيه الوليد بن المغيرة: أنّه ساحرٌ!!؟ لكن.. لماذا لم يسحر الوليدَ نفسه.. أو عتبة بن ربيعة.. أو أبا الحكم بن هشام.. كما سحر سلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة وأبا سلمة بن عبد الأسد.. والآخرين؟!! لماذا سحر عمه حمزة.. ولم يسحر أبا لهب؟!! لماذا سحر جعفر وعليّ.. ولم يسحر أبا طالب؟!! لو قلتُ أنَّ هؤلاء أقوى من أنْ يغلبهم بسحره؛ فكيف –إذاً- غلب عمر بن الخطاب.. ولم يغلب زوجته: قريبة بنت عمي أبي أمية.. في حين غلب أختها هند؟!! كلا.. كلا.. ذلك لم يكن سحراً!!؟ محمدٌ.. ليس بساحر!!).

(تالله.. إنَّ شأنه لفي علوٍ مذ صدع بدعوته.. كأنّه مؤيَّدٌ بقوةٍ خَفِيَّة لا قِبَل لنا بها؛ ألا ترى إصراره على دعوته.. رغم التضييق، ألا ترى ثبات أتباعه.. رغم التنكيل والتعذيب؟!!)، (دائماً.. كنّا أقوى منه؛ ودائماً.. كان يغلبنا!؟ حتى حينما

خرج مهاجراً من مكة وسخَّرنا كل جهود قريش وحلفائها لنمنعه من بلوغ يثرب.. لم نقدر عليه؛ تباغتنا ببلوغه مأمنه.. رغم أنّا قلبنا الأرض –الصحراء والجبال- بحثاً عنه، رغم أنّا فتَّشنا تحت كل حجر عنه وعن صاحبه.. ورغم أنّا رصدنا الجوائز لمَن يأتينا به –حيّاً أو ميتاً- عجزنا عن العثور عليه، وما استطعنا مَنْعه عن مقصده؛ فكيف حدث ذلك؟!!).

(ولا دليل –على أنَّه مؤيَّدٌ- أوضح مما جرى يوم بدر؛ كيف انتصر بجيشه الضعيف عدداً وعدةً.. على جيش قريش الشديد القوي؟؟! كيف استطاع أنْ يغلب صناديد مكة؟! كيف تمكَّن -في ساعةٍ من نهار- أنْ يقتل أبا الحكم وسبعين رجلاً.. جُلّهم من أكابر قريش وأسيادها؟!! لا يقع هذا.. إلا أنْ يكون مؤيَّداً بقوةٍ خافية أقوى منّا جميعاً!!؟).

(حتى عند سفح أُحُد.. حالما تَوهَّمنا أنّا انتصرنا عليه؛ لم يكن نصراً حقيقياً، لقد خدعنا أنفسنا يومئذ.. وزعمنا أنّنا انتصرنا؛ لكن.. هيهات! كيف يُعَدّ هذا.. نصراً –بين العرب- ولم ندخل يثرب.. ولم نَجُسْ خلال الديار؟؟! أو.. نلبث ثلاث ليالٍ نحتفل فيها بنصرنا في أرض المعركة.. كعادة العرب في حروبها؟!! كيف نحسبه يوماً بيوم بدر.. ولم نقتل محمداً كما قُتِل أبو الحكم وعتبة بن ربيعة؟!!).

(ولو عَدْدنا أُحُدَ جولةً ظافرة؛ فما بال يوم الأحزاب؟!! لقد حشدنا له جمعاً لم يجتمع للعرب جمعٌ مثله قط؛ لكن.. وقفنا عاجزين أمام الخندق الذي حفره، كيف حفر –هو وأصحابه- ذلك الخندق؟! مِن أين أتى بهذه الخطة؟!! مكثنا عاجزين -أياماً وليال- عن اقتحامه.. وأقمنا بِشَرِّ منزلٍ، ثم عصفتْ بنا الريح حتى أرعبتنا.. وفَضَّتْ جمعنا؛ والعجيب أنّها لم تمس محمداً وجنوده.. بسوء!!؟ أليس ذلك كله تأييداً له؟؟!).

(والعام الماضي.. عندما جاء مُعتمِراً، وقبل أنْ يصل إلى الحديبية ويعقد الصلح مع قريش.. انبعثتُ –بنفسي- في خيل قريش.. فلقيتُه وأصحابه في عُسفان[1]؛ ووقفتُ بإزائه وتعرَّضتُ له ولأصحابه، ثم هممتُ أنْ أُغِير عليهم وهم يصلُّون تلك الصلاة؛ لكن حِيل بيني وبينهم، وَقَر في قلبي –ساعتها- أنَّه ممنوع!؟؟).

(حتى اليهود –أهل الكتاب.. وأصحاب العلم والمال- تَمكَّن منهم وغلبهم.. واستولى على حصونهم في خيبر، ودائماً.. في كل جولاته –مع أولئك.. ومع هؤلاء- كان جيشه هو الأضعف.. وجنوده هم الأقل عدداً وعدة؛ كيف لا يكون هذا تأييداً مِن قَويٍ لا نستطيع مجابهته؟؟!).

(قويٌ.. مكَّنه من الطواف -حول البيت- آمناً مطمئناً، وأصحابه يجأرون بأعلى أصواتهم: "لبيك اللهم.. لا شريك لك!"، فإنْ كانت هذه الأصنام شركاء لله حقاً؛ فلماذا تلتزم الصمت؟! لماذا لا تدافع عن حقها في تلك الشراكة؟!! لماذا تعجز عن الفتك بمحمدٍ وأصحابه؟! بل.. ها هم أولاء يطوفون في عزةٍ ومنعة؛ إنَّ هذه الأصنام لا تغني عن نفسها شيئاً؛ فكيف تغني عنّا؟!!).

(فأين هيبة قريش.. إذاً؟؟ أين سطوة قريش.. وسلطانها؟؟!)،

(هأ..هأ!! سطوة قريش.. تتآكل!! أجل.. تتآكل؛ أكلتها الأرضة.. كما أكلتْ صحيفةَ المقاطعة التي كتبتها قريش.. وعلَّقوها في جوف الكعبة ثلاث سنين؛ ثم أكلتها الأرضة كلها.. عدا: "باسمك اللهم!!"، تماماً كما نبَّأ محمدٌ؟؟! فكيف علم بأمرها –وهو محبوسٌ في شِعَب أبي طالب- ونحن لم نعلم بها.. إلا أنْ يكون أخبره ربُ الأرضة بأمرها؛ عسى أنْ يكون الرجل نبياً حقاً!!؟).

---

[1]: بلدة شمال غربي مكة على مسافة حوالي ٨٠ كم، وتقع على طريق الحاج من المدينة إلى مكة.

(لا جرم أنَّ كل هذه الحوادث تُثبتْ أنَّه نبيٌ يأتيه الوحي.. من عند الله، وأنَّه على الحق!!)، (إذاً.. فماذا أنت فاعلٌ.. يا خالد؟؟ هل أتَّبع دين محمدٍ.. وأتخلَّى عن دين قريش.. دين الوليد بن المغيرة.. دين الآباء والأجداد؟!!).

(قد تيقَّنتُ أنَّ دين محمدٍ هو الحق؛ والحق.. أحق بالاتِّباع!)، (يا فارس مخزوم! أنت –الآن- قائد فرسان قريش وصاحب أعنّة خيلها.. وعمّا قريب ستكون أمير جيشها؛ كيف تترك ذلك السلطان والجاه.. وتصير تابعاً نكرة لمحمد؟؟! لا ريب أنَّ محمداً سيُقدِّم عليك أصحابه القدامى!؟ لن تكون لك عنده حُظْوَةٌ.. كالتي لك –هنا- عند قريش!!؟).
(مَهٍ!! قد عرفتُ الحق.. ولن أحيد عنه؛ لأنْ أكون جندي نكرة في صفوف الحق.. أحب إليّ من أنْ أكون أميراً لجيش الباطل!! قد استقام المَنْسِم.. وقضي الأمر!).

- ٢١ -

رحل محمدٌ عن مكة، ثم نزلتُ إليها عائداً إلى الدار.. وقد تصدَّع رأسي من التفكير والحيرة.. حتى أنّي شُغِلتُ بتلك الهواجس والأفكار عن بيتي وأهلي.

بيد أنَّهم أخبروني: أنَّ أخي **الوليد** قدم –مع محمد- معتمراً.. وأتى لزيارتنا؛ داهمني إحساسٌ رهيبٌ بالشوق إلى أخي الأصغر.
ثم قالوا: أنَّه سأل عني.. وترك لي رسالة، تلهَّفتُ عليها.. وهتفتُ: "إليَّ.. بها!!".

هرعتُ إلى قراءتها.. فجاء فيها: "إنّي لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وأنت ذو عقلٍ راجح.. ومثل الإسلام لا يجهله أحد، وقد سألني رسول الله عنك فقال: "أين خالد؟"؛ فقلتُ: "يأتي الله به!"، فقال: "ما مثله يجهل الإسلام!؟ ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين.. لكان خيراً له.. ولقدَّمناه على غيره!!"، فاستدرك –يا أخي- ما فاتك من مواطن صالحة!".

أوصدتُ باب مخدعي.. وجلستُ –وحيداً- أُعاود قراءتها.. وقد سَرَّني ما جاء فيها، تساءلتُ في دخيلتي: "لماذا هذه الرسالة.. الآن؟؟ وما مَغْزَاها؟!! هل ينبغي أنْ أتَّبع دين محمدٍ؟!!".

استلقيتُ على فراشي.. وجعلتْ الحيرةُ تُقلِّبني في مضجعي.. حتى غلب النوم جفوني؛ فرأيتُ –فيما يرى النائم-: (كأنّي في بلادٍ ضيقةٍ مجدبةٍ؛ فخرجتُ إلى بلادٍ خضراء واسعة!!).

ثم صحوتُ مستبشراً.. نشيط البدن؛ وقد عزمتُ على أمرٍ عظيم، بيد أنّي ارتأيتُ أنْ أتمهَّل.. حتى ينتهي موسم الحج.

توافد الحجيج إلى البيت الحرام، واكتظتْ مكة بالأعراب والأغراب، ومع أنَّ موسم الحج.. هو موسمٌ زاهر الربح والكسب لتُجّار قريش؛ لا سيما بني مخزوم.. وأنا رجلٌ منهم؛ غير أنّي أدركتُ الموسمَ –ذلك العام- وأنا مُتكاسلٌ عن السعي فيه.. زاهدٌ في مكاسبه وأرباحه؛ بل.. وضائقةٌ نفسي بقريش ومكة، واجتاحني شعورٌ مريرٌ بالغربة في بلدي.. بين أهلي وقومي.

حاولتُ ألّا يلحظ أحدٌ منهم أمارات هذا الشعور على ملامح وجهي؛ وكدتُ أنجح.. لولا ما كان من العباس بن عبد المطلب؛ كأنَّه أحسَّ بما يحُوك في صدري.. فسألني.. وتهرَّبتُ من إجابته.

العباس.. شريكي في بعض تجارتي التي ورثتُها عن أبي، ورغم أنَّه أسنّ مني ببضعٍ وعشرين سنة.. إلا أنّه صديقٌ مُقرَّبٌ إلى قلبي؛ ولِمَ لا.. وهو زوج خالتي: أم الفضل؟! وهو –كذلك- الرجل الذي يؤازرني في المطالبة بدَيْن والدي الذي لدى ثقيف.. إنفاذاً لوصيته –وهي: ألا ندع رباه الذي لدن ثقيف-.

عمد العباس إلى مراقبة سلوكي، وذات يومٍ.. سألني مُستغرِباً: "يا خالد! هل علمتَ.. بما أصاب أخاك الوليد؟؟".
قلتُ في سريرتي: (ويحك.. يا زوج الخالة! لن تنفك تعابثني حتى أُنبئك بما بدّل أحوالي!؟؟)، بعد لحظات.. تغافلتُ –فيها- عن تماكره ونبشه سواتر نفسي.. تماشيتُ مع حديثه مُتسائلاً باستخفاف: "وما أصاب.. الوليد؟؟".

نكّس رأسه.. وأنصت، بدا.. كأنَّما ندم على ذكره الوليد، تَوجَّستُ.. وسألتُ مُستهجِناً: "ما لك.. سَكَتَّ؟؟ ما بال أخي الوليد؟؟ وما الذي أصابه؟!".

رفع رأسه.. ونظر إليّ ملياً، وكأنّي لمحتُ دمعةً تلمع في عينه، انتظرتُه يتكلَّم.. فتمتم بعد تردُّد: "ظننتُ.. أنَّك علمتَ.. بالنبأ!!"، ثم أردف مُتأسِّفاً: قد بلغني أنَّ أم سلمة بنت عمك.. رثتْه بتلك الأبيات:

يا عين فابكي للوليد ***** بن الوليد بن المغيرة
قد كان غيثاً في السنين ***** ورحمةً فينا وميرة
ضخم الدسيعة ماجداً ***** يسمو إلى طلب الوتيرة
مثل الوليد بن الوليد ***** أبي الوليد كفى العشيرة

تلا تلك الأبيات في أسى، ثم قبض لسانه.. وطأطأ رأسه، حملقتُ فيه مشدوهاً: "ماذا تعني؟!! هل مات الوليد؟؟ مات الفتى الغَضّ.. ولمَّا تفرح به الحياة!؟؟".

ارتعشتْ يدي.. و وَجِمتُ!! الآن فقط.. أدركتُ كم كنتُ أحب هذا الفتى؛ أخي الأصغر.. سَمِيّ أبيه.. الذي تعلّق بي واتَّخَذني قدوةً له.. وثابر معي على تَعلُّم الفروسية والقتال.. حتى فاق أقرانه وصار من فرسان قريش المعدودين على صغر سنه، ولولا اِتَّباعه لمحمدٍ.. لأصبح معي كتفاً بكتف.

أطبق العباسُ شفتيه.. كأنَّ لسانه ضَلّ عن كلمات التَّعازي، أو لعلَّه لا يُصدِّق حزني على أخي!!؟ وكذا أنا.. لم أتصوَّر أنّي سأجزع عليه كل هذا الجزع.

تَصبَّر جالساً معي كأنَّما يواسيني.. حتى سكن جزعي، اقترب مني.. وربت على كتفي بمودة.. ثم همس بنبرةٍ آسفة: "لم أتَوقَّع أنْ تبتئس عليه هكذا!؟؟"، التفتُّ إليه مُستهجِناً مكروباً: "كيف لا أبتأس على أخي.. يا أبا الفضل؟؟!".
"أعني: أنّك كنتَ حانقاً عليه.. لأنَّه صبأ واتَّبع محمدا!؟؟".
أعرضتُ عن ذلك.. وسألتُه مُتحسِّراً: "هل تعرف كيف مات؟؟"، تنهَّد تنهيدةً عميقة.. ثم استرسل قائلاً: "نُكِبتْ أصبعه وخبث الجرح.. حتى مات منه، أفضَى إلى ربه عند بئر أبي عنبة -القريب من يثرب- أثناء عودتهم.. بعد عمرة القضية!".

تساءلتُ.. مُستعجِباً: "كيف عرفتَ بخبره قبل بني مخزوم؟!!"؛ خبا.. ولم يجبني؛ لكنّي خمنتُ الإجابة: (لا جرم أنَّه على اتصالٍ دائمٍ بمحمدٍ وأصحابه.. في يثرب!).

آنئذ.. شعرتُ بأنَّ عزمي -الذي خبَّأتُه في سريرتي- ثقيلٌ حمله.. وأحببتُ أنْ أبوح به للعباس؛ فنبَّأتُه بأمر رسالة الوليد وفحواها.. وأخبرتُه بالرؤية التي رأيتُها في منامي، وصارحتُه بما يجيش في صدري.. وبتردُّدي في اِتّباع محمد!!

انفرجتْ أساريره.. واستبشر بما كاشفتُه به، هتف مُغتبِطاً:

"إنَّها إشارةٌ من الله.. يا أبا سليمان! وأحسب أنَّ الله أراد لك الهداية إلى دين الحق؛ فامض فيما اعتزمتَ عليه.. ولا تتردَّدا".

أجبتُه.. بنبرة تحضيض: "إنّي أزمعتُ أمري على الهجرة إلى محمدٍ.. بعد انفضاض الموسم وانقضاء الأشهر الحُرُم؛ فهلا.. خرجتَ معي إليه!!؟".

رمقني بنظرةٍ ذات مغزى.. ثم همس: "تعلم أنّي لا ينبغي لي أنْ أرحل عن مكة!!".

(أعلم –يا أبا الفضل- أنَّك صاحب السقاية.. ورثتَها عن أبيك وإخوتك، وأنَّكم لن تُفرِّطوا فيها، وأعلم أنّك لو رحلتَ عن مكة.. فليس ثَمَّة مَن يتحمَّلها بعدك مِن بني هاشم؛ وساعتئذ.. سيندثر شرفكم الذي تُفاخرون به قريش والعرب!!؟).

أومأتُ له برأسي مُقرِّراً.. ثم أجبتُه في حزم: "إذاً.. سأبحث عن رفيقٍ لرحلتي!!".

- ٢٢ -

انتهى الموسم.. وانقضتْ الأشهر الحُرُم؛ فمضيتُ في عزمي، تَوَجَّهتُ إلى صفوان بن أمية الجمحي.. فهو زوج أختي فاختة [1].. وصديقٌ مُقرَّبٌ مني؛ فقلتُ له: "يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟!! إنَّما نحن أكلة رأس[2]، وقد ظهر محمدٌ على العرب

---

[1]: هي فاختة بنت الوليد بن المغيرة، كانت زوجة لابن عمها العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي الذي قُتِل كافراً في غزوة بدر.. فتزوَّجها بعده صفوان، أسلمتْ بعد فتح مكة.

[2]: قوله: أكلة رأس: كناية عن قلتهم؛ أي أنَّهم لقلتهم يُشبعهم رأسٌ واحد.

والعجم؛ فلو قدمنا على محمدٍ.. فاتّبعناه؛ فإنَّ شرف محمد.. شرفٌ لنا؟!!".

غير أنَّه نفر مني.. وأبى أشدّ الإباء.. وقال: "لو لم يبق غيري من قريش؛ ما اتَّبعتُه أبداً!".. وفارقني؛ فقلتُ لنفسي: رجلٌ مَوْتور.. قُتِل أبوه وأخوه ببدر.. ويطلب وَتْره.

ثم لقيتُ عكرمة.. وهو قريني وأقرب آل المغيرة إليّ؛ فقلتُ له مثل ما قلتُ لصفوان.. فأنكر عليَّ وغضب مني؛ فقلتُ لنفسي: رجلٌ موتور.. أيضاً.

ثم جهرتُ بها –في نادي مخزوم- هاتفاً: "قد استقام المَنْسِم! وقد استبان لكل ذي عقل أنَّ محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأنَّ كلامه من كلام رب العالمين؛ فحق على كل ذي لُب أنْ يتبعه!!".

علم عكرمة بما خاطبتُ به مخزوم؛ فأتاني مهرولاً.. يُعاتبني بحميَّةٍ فائرة: "إنْ كان أحق قريش لا يتكلَّم بهذا الكلام.. لأنت! لقد وضع محمدٌ شرف أبيك.. وقتل أبناء أعمامك يوم بدر؛ فكيف تتكلَّم بكلامك هذا؟؟! أما رأيتَ قريش يريدون قتاله؟؟! ألستَ رجلاً من مخزوم؟! ألستَ.. ابن الوليد بن المغيرة؟!!".
لم أزد عن أنْ أجبتُه في حسم: "يا ابن العم! هذا أمر الجاهلية وحميَّتها؛ ولقد تبيَّن لي الحق.. فأسلمتُ!".

ثم استدعاني أبو سفيان بن حرب العبشمي –وهو.. يومئذ.. زعيم قريش وسيد مكة المطاع- وسألني في سخطٍ: "أ حق ما بلغني عنك؟؟!".
جاوبتُه بأنفة: "نعم! إنَّه.. حق!!"، فزجرني.. وصاح غاضباً ومُهدِّداً: "واللات والعزى.. لو أعلم أنَّ الذي تقول حق؛ لبدأتُ بك قبل محمدٍ!!؟"،
أجبتُه بإصرار: "فوالله.. إنَّه لحق.. على رغم مَن رغم!".

انتفختْ أوداجه حنقاً.. ونهض من مجلسه يريد قتالي؛ تَصدَّرتُ له.. بيد أنَّ جلساؤه وعكرمة حاجزوا بين وبينه، وصاح عكرمة: "مهلاً.. يا أبا سفيان! هل تقتلون خالداً على رأيٍ رآه؟!!"،
ثم انصرفتُ عنهم.. وقد أيستُ من هدايتهم.

تَوَجَّهتُ إلى بيتي عازماً على تجهيز راحلتي.. والخروج إلى يثرب وحدي، وبينما أنا في الطريق.. لقيتُ عثمان بن طلحة العبدري –وهو صديقٌ لي- فهممتُ أنْ أذكر له ما أريد؛ على أنّي ذكرتُ مَن قُتِل مِن آبائه يوم أُحُد؛ فأحجمتُ عن مخاطبته.

ثم إنّي حدَّثتُ نفسي:

(وما عليَّ.. وأنا راحلٌ من ساعتي.. أنْ أُخبره؟!!)

القسم الثالث

عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري

- ٢٣ -

أنا:

عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عبد الدار بن قصي بن كلاب.

أنا من بني عبد الدار بن قصي بن كلاب؛ وعبد الدار هو الابن الأكبر لقصي. لكن للأسف.. رغم أنَّ عبد الدار هو الابن البكر.. إلا أنَّه كان ضعيفاً ولم يكن أنبغ إخوته؛ بل.. هو أخملهم ذكراً.

لذا.. فإنَّ قصي -قبل وفاته- عندما شرع يُقسِّم مُلْكه بين أبنائه.. أحب أنْ يمنح ابنه البكر شرفاً لا يدانيه أحد؛ فقال له: "أما والله.. لألحقنّك بالقوم.. وإنْ كانوا شرفوا عليك!"؛ فأسند إليه سدانة الكعبة، وضَمَّ إليه دار الندوة.. واللواء، وضَمَّ إليه السقاية.. أيضاً.

كل هذه المناصب وَكلها إلى عبد الدار.. ليشرف بها بين إخوته وقومه، ولَمَّا كان أخوه عبد مناف أقدر منه على زعامة مكة؛ جعل له الرياسة، وحيث كان أخوه عبد العزى أقدر على ضيافة الحجيج؛ فجعل له الرفادة.

ثم مات قصي.. واستقر أبناؤه على ما تركهم عليه أبوهم، ولم ينازع عبدَ الدار أحدٌ -من أخويه- مناصبه.. تعظيماً لرأي أبيهم قصي وعملاً بوصيته فيهم.

ثم خلال فترة زعامته لمكة.. استطاع عبد مناف بن قصي -بحكمته ورجاحة عقله وحسن تدبيره- أنْ يرفع شأن قريش في تهامة كلها.. حتى سادتْ على سائر قبائل كنانة.

والحق -الذي لا يُنكره أحدٌ من بني عبد الدار[1]- أنَّ أبناء عبد مناف بن قصي كانوا –أيضاً- أنبه وأنبغ من أبناء عبد الدار.. حتى أنَّهم أصبحوا أغنى قريش؛ بل.. وساد أخوهم هاشم في حياة أبيه، لذا.. فلم يطمح أحدٌ من أبناء عبد الدار.. في منازعتهم رئاسة مكة.

غير أنَّ أبناء عبد مناف هم الذين نازعونا فيما تحت أيدينا من مناصب.. زاعمين أنَّهم أغنى أحفاد قصي.. وأنَّهم ينفقون من أموالهم على رفادة الحجيج وسقايتهم وحجابة الكعبة؛ فهم أحق الناس بميراث قصي ومآثره.

طالبوا بني عبد العزى بالتنازل لهم عن الرفادة؛ فنزلوا لهم عنها، وطالبونا بالتنازل لهم عن مناصب عبد الدار؛ فأبينا التَخَلّي عن ميراث أبينا وجدنا، واستنفرنا لهم بطون قريش.

أول المستجيبين لاستغاثتنا.. كان بنو سهم، جمع بنو سهم الناس فعرضوا عليهم المسألة.. وأعلنوا أنَّهم مع (بني عبد الدار) على من عاداهم ونازعهم إرث أبيهم؛ ثم ذبحوا جزوراً.. وقالوا: "مَن أدخل يده في دمها.. فلعق منها فهو مِنّا!"؛ فلعق الدم –معنا ومعهم- بنو مخزوم وبنو جمح وبنو عدي.. فسماهم الناس: (لعقة الدم).. وسمي حلفهم: حلف الأحلاف.

فلَمَّا رأى بنو عبد مناف مِنّا ذلك.. استنصروا هم –أيضاً- الحلفاءَ؛ فحالفهم بنو عبد العزى وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث، وتعاهدوا –عند الكعبة- على نصرة بني عبد مناف، وأخرجتْ لهم بعض نساء بني عبد مناف –يومئذٍ- جفنةً مملوءةً

[1]: أبناء عبد الدار ثلاثة: (عبد مناف – عثمان – السباق)؛ أما أبناء **السباق** فقد كثروا.. ثم بغوا في مكة.. ففنوا وهلكوا إلا القليل، أما أبناء **عثمان**.. فمنهم جد الراوي: أبو طلحة الذي في ذريته سدانة الكعبة حتى الآن، أما أبناء **عبد مناف**.. فمنهم سيدنا مصعب بن عمير ﷺ، =

طيباً؛ فغمسوا فيها أيديهم.. ثم مسحوا بها الكعبة توكيداً لحلفهم.. فسماهم الناس: (المطيبين).
التقا الجمعان.. وكادوا يتحاربون؛ لولا أنْ سعى بينهم المصلحون.. فاصطلحوا على أنْ تكون الرياسة والسقاية والرفادة لبني عبد مناف، وتبقى السدانة واللواء ورئاسة دار الندوة فينا.. نحن بني عبد الدار.

تلاشي الخلاف.. لكن بقي كلٌ على حلفه.

ثم دارتْ الأيام.. وتوالتْ السنون والأعوام.. وتغيَّر الحال؛ بعد عبد مناف.. استطاع أبناؤه –خاصةً: هاشم وعبد شمس- أنْ يرفعوا شأن قريش بين العرب.. حتى استقر لها الأمر.. وأصبحتْ زعيمة قبائل كنانة وتهامة.
ونشر هاشم وعبد شمس تجارة قريش في بلاد الشام والعراق واليمن والحبشة.. حتى عمّ الرخاء والازدهار أغلب بيوتات قريش.. ومِن بينها بيوت بني عبد الدار.

ثم تولى الرئاسة –بعدهما- أخوهما: المطلب بن عبد مناف، سار على درب أخويه.. غير أنَّه لم يكن في نبوغهما.. ولا ثرائهما، على أنَّه حرص على مناصب بني عبد مناف.. وشرفهم ألّا يُدنَّس؛ فحفظ لهم رفعتهم وسؤددهم، وكذا.. كان أجدادي -بنو عبد الدار- حريصين على مناصب أبيهم.

بعد المطلب.. انتقلتْ سيادة بني عبد مناف ومناصبهم إلى رجلٍ فَذّ.. هو: **عبد المطلب بن هاشم**.
رغم أنّي لم أره –فقد مات قبل مولدي بقرابة العشرين عاماً- إلا أنّي كنتُ مبهوراً به.. وبالحكايات التي كانت تحكيها قريش عن حياته.

= ومنهم أيضاً النضر بن الحارث عدو الإسلام، ومنهم عكرمة بن عامر (قيل: عمار) بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار: كانت له دار الندوة .. فباعها لحكيم بن حزام في الجاهلية.

وقد حُكِيتْ لنا –إذ كنّا أطفالاً- قصة حفره زمزم.. والتي لم تزل أعظم بئر في مكة؛ فحكى عن نفسه.. فقال: "إنّي لنائمٌ في الحجر إذ أتاني آتٍ فقال: احفر طيبة! قلتُ: وما طيبة؟؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه؛ فجاءني فقال: احفر برَّة! فقلتُ: وما برَّة؟؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه؛ فجاءني فقال: احفر المضنونة! قلتُ: وما المضنونة؟؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه؛ فجاءني فقال: احفر زمزم! قلتُ: وما زمزم؟؟ قال: لا تنزف أبداً.. ولا تذم.. تسقي الحجيج الأعظم.. وهي بين الفرث والدم.. عند نقرة الغراب الأعصم.. عند قرية النمل!". فلمَّا دُلَّ على موضعها؛ غدا إليها بمعوله ومعه ابنه الحارث –وليس له يومها ابناً غيره- وحفر في الموضع الذي ذُكِر له بجوار الكعبة.. فوجدها.

فنازعته فيها قريش.. وقالوا: "يا عبد المطلب.. إنَّها بئر أبينا اسماعيل، وإنَّ لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها!".
فقال: "ما أنا بفاعل؛ إنَّ هذا الأمر قد خُصصتُ به دونكم، وأُعْطِيتُه من بينكم!". فقالوا له: "فأنصِفْنا.. فإنَّا غير تاركيك.. حتى نخاصمك فيها!".

ثم اتفقوا أنْ يتحاكموا إلى كاهنة بني سعد هذيم، وكانت بأرض الشام؛ فركبوا إليها، ركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه وبني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر.
وخرجوا حتى إذا كانوا في بعض المفاوز بين الحجاز والشام.. نفد ماء عبد المطلب وأصحابه وظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة؛ فاستسقوا من معهم من قبائل قريش؛ فأبوا عليهم.. وقالوا: "إنَّا بمفازة.. ونخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم!".

فلمَّا رأوا خذلان القوم لهم.. وما يخافونه على أنفسهم من الهلاك عطشاً؛ قالوا: "يا معشر بني عبد مناف! الرأي أنْ يحفر كل رجلٍ مِنّا حفرته لنفسه بما بنا الآن من القوة، وكلما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرته ثم وارَوْه.. حتى يكون آخرنا رجلاً واحداً؛ فضيعة رجلٍ واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً!".

ثم قام كل واحدٍ منهم فحفر حفرته؛ ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً، ثم إنَّ عبد المطلب قال لهم: "والله.. إنَّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت.. لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا.. لعَجْزٌ، فعسى الله أنْ يرزقنا ماءً ببعض البلاد، هيا.. ارتحِلُوا!"

وتقدَّم إلى راحلته ليركبها؛ فانفجرتْ من تحت خفها عين ماءٍ عذب؛ فاغتبط.. وفرح أصحابه.. ونزلوا فشربوا.. واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم.

ثم إنَّ عبد المطلب دعا ركب القبائل من قريش.. فقال: "هَلُمّ إلى الماء.. فقد سقانا الله؛ فاشربوا.. واستقوا!".

ثم قالوا له –بعد ما رأوا-: "قد قُضِي لك علينا.. يا عبد المطلب؛ والله.. لا نخاصمك في زمزم أبداً، إنَّ الذي سقاك الماء بهذه الفلاة.. لهو الذي سقاك زمزم؛ فارجع إلى سقايتك راشداً!".
فلم يصلوا إلى الكاهنة، رجع ورجعوا معه.. وهم لا يُمارون ولا يَشُكّون في أنَّ عبد المطلب أقربهم إلى الإله الأعظم.. وإنَّه لَمُؤيَدٌ منه، وخلُّوا بينه وبين زمزم؛ فنذرها لسقاية الحجيج.. كما أرشده الهاتف في منامه.

ومِن حكاياته –أيضاً- اللاتي لولا أنّ مكة كلها تتحدّث بها.. ما صدَّقتُها: أنَّه نذر أنْ يذبح أحد أبنائه قرباناً للآلهة.. إنْ وُهِب عشرة ذكور؛ ولقد فعل.. وهَمَّ أنْ يذبح (عبد الله).. لولا أنْ تَصدَّى له المغيرة المخزومي وبنو مخزوم.. فإنّهم أخوال عبد

الله، ثم ارتأوا أنْ يفدوه بمائةٍ من الإبل حتى ترضى الآلهة؛ فذبح عبد المطلب مائة ناقة -في يومٍ واحد- فداءً لابنه؛ فأطعم –يومئذ- مكة كلها.. حتى جوارح الطير فوق رءوس الجبال.

الحق الذي لا أُماري فيه: أنّني إذ كنتُ أستمع إلى القُصَّاص -وهم يحكون نوادر عبد المطلب- كنتُ أندهش؛ بل.. انبهر.. وأفتخر أنّي من بني قصي بن كلاب القرشي.. الذين منهم: عبد المطلب بن هاشم.

ولا أروع مِن محاجاته لأبرهة الحبشي –ملك اليمن- عندما داهم مكة بجيشٍ عرمرم يتقدَّمه فيلٌ ضخم.. يريد هدم الكعبة؛ فصدح بها –في وجه المَلِك- بعزةٍ وإباء: "إنَّ للبيت رباً.. يحميه!!"؛ بينما خافتْ قريش.. وارتعبتْ.

فالسادة والأثرياء.. يخشون كساد تجارةٍ رابحة، ويخافون على أموالٍ وثرواتٍ كنزوها، ويرهبون أنْ يُنزَعوا من الدعة والراحة التي يتنعَّمون بها.
هرعوا إلى سيد مكة –القريب من الإله.. العارف به- يلتمسون منه أنْ يذهب إلى الملك في فسطاطه.. ويتَوَسَّل إليه أنْ يعفو عنهم.. ويرفع يد جيشه عن عيالهم وأموالهم؛ على أنْ يُخلُّوا بينه وبين الكعبة.
يا حسرتي على قومي! يسعون لمفاوضة الملك الظالم المُتكبِّر.. كي يحنوّا له رقابهم مُذعنين.. في ذُلٍّ، كي يضعوا شرفهم وعزّهم–بأيديهم- تحت قدميه.. ليدوس عليه ويُدنِّسه؛ يخافون على أموالهم.. ولا يخافون على دينهم وبنائهم المقدس!!؟

حتى بني عبد الدار تناسوا أنَّ هدم البيت مضيعةً لهم خاصة.. ولشرفهم وعزّهم؛ لا غرو.. فهم سدنة ذلك البيت وحجابه، بيد أنَّ هلعهم -وخوفهم من جيش الأحباش- كان أعظم من ذلك.

تحسَّر عبد المطلب على قريش، وابتأس لتَخاذُل قومه عن الدفاع عن البيت الحرام، وأطرق.. آسفاً على ما أصابهم مِن ذِلَّةٍ وخنوع.
وما وجد حيلةً غير محاولة الاستئذان على الملك –أبرهة-.. ومناشدته أنْ يعطيهم الأمان لأنفسهم وأموالهم!!؟

رفض الملك أنْ يستقبل عبد المطلب؛ فتحايل عبد المطلب.. وتوسَّل إلى رجال الحاشية أنْ يشفعوا له لدى الملك في لقائه.. قائلاً بنبرةٍ مُشبعَةٍ بالحسرة والأسى: "والله.. ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة! هذا بيت الله.. وبيت خليله إبراهيم؛ فإنْ يمنعه.. فهو بيته وحرمه، وإنْ يخل بينكم وبينه؛ فوالله.. ما عندنا دفعٌ عنه!!"، وما زال يستميلهم حتى قالوا: "انتظر.. سنُحاول!".

ثم أُذن له بالدخول إلى الملك، وكان عبد المطلب رجلاً وسيماً.. وشيخاً جليلاً مهاباً؛ فلمَّا رآه أبرهة أكبره وتَوَسَّم فيه الهيبة والوقار.. حتى أنَّه نزل من على سرير مُلكه وجلس على بساطٍ.. وأجلس شيخَ مكة إلى جواره إجلالاً له، ثم أمر ترجمانه أنْ يسأله: "ما حاجتك؟؟"، فأجاب عبد المطلب بتوقير: "حاجتي أنْ يردّ الملك عليَّ مائتي بعير أصابها لي!".

أنصت الملك إلى ترجمة الترجمان؛ فامتعض.. ورمق شيخَ مكة باشمئزاز.. وهتف: "قد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك؛ ثم قد زهدتُ فيك حين كلَّمتَني!"، ثم أردف بنبرة تقريع: "تُكلِّمني في مائتي بعير أصبتُها لك.. وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك.. وقد جئتُ لهدمه.. فلا تُكلِّمني فيه؟!!".
أجاب عبد المطلب بنبرةٍ واثقة: "أيها الملك! إنّي أنا رب إبلي، وإنَّ للبيت رباً سيمنعه!"، أجابه أبرهة.. بنبرة إصرارٍ مُشبعَةً بالغرور والكبر: "ما كان ليمتنع مني!"، فما زاد شيخ مكة عن أنْ قال: "أنت.. وشأنك!!".

انكفأ عبد المطلب إلى قريش.. وقد نجح فيما جاء إليه؛ استرجع إبله.. ومُنِح ثلاثة أيامٍ -مهلةً من الملك- تغادر خلالها قريش من مكة قبل أنْ يهاجمها الجيش ليُخرِّبها.. ويدكّ البيت.

حمل أهله وما استطاع حِمْله من ماله.. ليخرج عنها، وأمر قريش أنْ يخرجوا من مكة إلى شَعَف[1] الجبال وشِعَابها.. تخوُّفاً عليهم من مَعَرَّة [2] الجيش.

ثم انبعث يطوف حول الكعبة.. ومعه نفرٌ من قريش، ثم طفقوا يجأرون إلى الله ويدعون على أبرهة وجيشه، وتشبَّث عبد المطلب بحلقة بابها مُستغيثاً.. وهتف مُتضرِّعاً: "اللهم.. إنَّ العبد يمنع رَحْله؛ فامنع حلالك!".

ثم انطلق -ومَن معه- ليلحقوا بأهليهم وقومهم الذين لجأوا إلى شِعاف الجبال وشِعابها مُتحرِّزين فيها.. مُتربِّصين: ماذا سيفعل أبرهة بمكة إذا دخلها؟!

عبَّأ أبرهة جيشه.. وهيَّأ فيله، ثم تقدَّم الجيش العرمرم زاحفاً صوب مكة.. وملكه –أبرهة- مزهواً بقوته.. مُنتشياً بسطوته، حتى إذا بلغ مشارف الحرم -بين المزدلفة ومنى[3]-.. انحسر الفيل وقعد وامتنع عن الحركة.

طفقوا يضربونه حتى أدموه؛ فما تزحزح عن موضعه، جرَّبوا أنْ يوجِّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، وَجَّهوه إلى الشام.. إلى المشرق؛ ففعل مثل ذلك، فشرعوا يضربونه بشدة.. وينخسونه بأعواد الحديد ليتقدَّم صوب مكة؛ فيمتنع.

وفيما هم مُنهمِكون في إنهاض الفيل وتحريكه نحو البيت الحرام.. إذ أظلَّتْهم

---

[1]: شعف الجبال: قمم الجبال.

[2]: معرّة الجيش: أي أَن ينزل الجيش بديار قومٍ فيأْكل جنود الجيش من زرْعِهم وأَموالِهم بما لم يؤذنْ لهم فيه.

[3]: سمي هذا المكان بعد ذلك: وادي محسر؛ لانحسار فيل أبرهة فيه، وهو وادي صغير يقع بين المزدلفة ومنى، طوله ٢ كم وعرضه حوالي ١٠ كم.

جماعاتٌ كثيفة.. من طيورٍ ضخمة، طفقتْ تهاجمهم وتقذفهم بحجارةٍ نارية.. فيتساقطون قتلى وصرعى.

استجاب الإله الأعظم لدعاء عبد المطلب.. ومنع بيته وحماه من المعتدين الآثمين.. وأصبح جيشهم العظيم أثراً بعد عين.
في سويعاتٍ قصيرة.. نَجَّى اللهُ قريشَ وعِزَّها.. بل وزادها عِزّاً وسؤدداً، وحَقَّ لأبنائها أنْ يصدحوا متفاخرين: "نحن قريش! نحن عُمّار بيت الله! قد أرسل الطيرَ الأبابيل وأهلك جيش أبرهة العظيم.. كرامةً لنا ومحبة!!".

ذاع خبر الحادثة العظيمة، وسَمتْ مكانة قريش بين العرب أكثر وأكثر.. وتضاعفتْ هيبتها في قلوب الناس، وتعاظم تبجيلُ العرب للكعبة وأجوارها.. ولا سيما أبناء قصي بن كلاب: بنو عبد مناف.. رُفَّاد الحجيج، وكذا.. نحن -بنو عبد الدار-.. سدنة الكعبة.

- ٢٤ -

مهما عَظُم إعجابي وإنبهاري بعبد المطلب؛ فلن يُبرر لحفيده محمد تبديله دين قريش، ولن يشفع له -عندنا- بعد أنْ سَبّ آلهتنا.. وسَفّه أحلام كبرائنا.

وإنْ تجاوز عنه بنو عبد مناف لأنَّه رجلٌ منهم؛ فإنّنا –نحن بني عبد الدار- لن نتجاوز عنه، ولن نتركه يهدم دين قريش دون أنْ نردعه؛ فدين قريش.. هو نَبع

هيبة بني عبد الدار وشرفهم بين العرب، وحجابة الكعبة.. هي أساس كسبنا وربحنا؛ فإنَّ زائراً –مهما سمتْ مكانته- لا يدخل جوف الكعبة إلا بإذنٍ مِن بني عبد الدار؛ فكيف –إذاً- ندعه يهدم هيبتنا.. ويضع شرفنا تحت قدميه؟!!
كان يجب أنْ يتصدَّى له بنو عبد الدار؛ كما تصدَّى له بنو مخزوم.. وهم أخوال أبيه، وكما تصدَّى له بنو عبد شمس.. وهم بنو عمومته.

إبان صَدْحه بدعوته -لذلك الدين المُبتدَع- كنتُ فتىً غَضّ.. لم يتجاوز عمري بضع عشرة سنة، والحق أنّني لم أحفل –حينذاك- بدين قريش.. ولا بما يدعو إليه محمد، بيد أنّي كنتُ فتىً مِن فتيان عبد الدار؛ ألفيتُ آبائي يبغضون محمداً.. ويعادون دينه؛ فنفرتُ منه!

آنذاك.. كانت مناصب عبد الدار في يد السيد الحكيم –حينها.. كنتُ أظنّه كذلك-: النضر[1] بن الحارث، وكان جدي -أبو طلحة[2]- له بمثابة الوزير، وكان والدي طلحة.. وعمي عثمان بن أبي طلحة.. بمثابة الذراعين لجدي أبي طلحة.

أما **النضر**.. فكان وجهنا وسيدنا المطاع، وكان من أكثر بني عبد الدار مالاً، وكان كثير الترحال والأسفار؛ لذا.. فكثيراً ما كان يُنيب جدي –أبا طلحة- عنه.. إذا كان على سفر.. في فتح باب الكعبة لزائريها، وكذلك.. في استقبال ملأ قريش حال اجتماعهم في دار الندوة.

ذات يومٍ.. كانت دار الندوة تَعجّ بالحضور.. وكان عمنا –النضر بن الحارث- في استقبالهم.. وكنّا معه؛ حضر ملأ قريش ليتشاوروا في أمر محمدٍ.

---

[1]: هو: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار.

[2]: هو: عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار.

لم أكترث لنقاشاتهم وتجادلاتهم.. بل كان يزعجني لغطهم، وكنتُ –في سريرة نفسي- أتمنى أنْ يَنفضّ هذا الحشد سريعاً.. حتى أتفرغ لما أحب أنْ أفعل؛ والحق.. أنّني لم أكن أحب أنْ أفعل شيئاً بعينه.

لكن حينما تكلَّم سيدنا **النضر**.. استمعتُ إليه؛ فأعجبني حديثه حيث قال: "يا معشر قريش! إنّه –والله- قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعدُ؛ قد كان محمدٌ فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم.. وأصدقكم حديثاً.. وأعظمكم أمانة؛ حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب.. وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر!؟ لا والله.. ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن!؟ لا والله.. ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم.. وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر!؟ لا والله.. ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر.. وسمعنا أصنافه كلها.. هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون!؟ لا والله.. ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه.. ولا وسوسته.. ولا تخليطه، يا معشر قريش! انظروا في شأنكم؛ فإنّه –والله- لقد نزل بكم أمرٌ عظيم!!".

إنّه يدعوهم للتدبُّر والتفكُّر في الأمر؛ لا ينبغي أنْ يدفعنا بغضنا لما جاء به محمد.. إلى اتهامه بافتراءات لا صحة لها؛ فتعمى بصائرنا عن الحقيقة!!؟ ينبغي أنْ نتبصَّر في مكامن قوة محمد.. حتى نتمكَّن مِن مجالدته!!

بيد أنَّ أبا الحكم -ابن هشام بن المغيرة المخزومي- استكبر؛ فهو رجلٌ ذو رأسٍ كبير.. وأنفٍ يَأنَف أنْ يُذعِن لرأيٍ يخالفه.. وعيونٍ ترمق الناسَ من عَلٍ، فأَبَى إلا أنْ يبطش بمحمدٍ والشرذمة القليلة الذين اتَّبعوه، وانفضّ الجَمَعُ على ذلك.

رغماً عني.. انشغلتُ بما انشغل به القوم؛ فقريش –بل.. مكة بأسرها- لم يعد لها شاغلٌ يشغلها غير محمدٍ.. ودينه الجديد.

على استحياءٍ.. سألتُ أبو طلحة: "يا جدُ! ماذا كان يقصد عمي النضر بحديثه عن محمدٍ؟!!"، أجابني بنوعٍ من عدم الاكتراث: "النضر بن الحارث يرى أنَّ خطر محمد يكمن في كلامه الذي يتلوه على الناس.. زاعماً أنَّه مِن لدن ربه؛ وما هي إلا أساطير الأولين اكتتبها.. وهي تملى عليه!!"،
تساءلتُ مُندهِشاً: "وما أنتم فاعلون حيال ذلك؟؟!".
أجابني بصوتٍ مُشبَّع بالإعجاب: "النضر –يا ولدي- رجلٌ عبقري، ولن يذر ابنَ عبد المطلب يضع شرف بني عبد الدار في التراب؛ لقد عزم أنْ يحاربه بنفس سلاحه، وها هو ذا يتأهَّب لرحلةٍ طويلة يجوب –خلالها- بلاد فارس والعراق والشام.. ليأتي –من هناك- بأحاديثٍ وأساطير أفضل من تلك التي يتلوها محمد؛ فيَقُصّها على الناس.. ويصرفهم عن أحاديث محمد!!".
تمتمتُ بانبهار: "لله درك.. يا أبا القائد[1] ! واللات.. إنَّك لحكيمٌ.. ناصحٌ لعشيرتك!".
وقد أمضى أبو القائد ما عزم عليه.. وارتحل عن مكة ليُتِم رحلته.

لا أماري في أنَّ سلطان مكة تكردس في أيدي بني عبد مناف بن قصي.. وبني مخزوم بن يقظة؛ لكن شرفنا –نحن بني عبد الدار- لا ينكره أحدٌ من العرب.. لما لنا من مناصب في قريش، رغم أنف الجميع.. نحن من أسياد مكة!!

ولأنّي مِن أبناء سادة عبد الدار؛ فلا جناح أنْ يكون أصحابي وندمائي.. من أبناء سادة بطون قريش!!
كنتُ أُنادم –فضلاً عن شيبة.. ابن عمي عثمان الأوقص العبدري- خالد بن الوليد المخزومي.. وأخاه هشام، وابنَي عمومتهما: عكرمة بن أبي الحكم.. وعبد الله [2] بن

---

[1]: كنية النضر بن الحارث.
[2]: هو: أبو سلمة ﷺ.

عبد الأسد الهلالي المخزومي، وكذا.. صفوان بن أمية الجمحي.. وعمرو بن العاص السهمي.. وأخاه هشام.
ولا غرو أنَّهم جميعاً من أبناء سادة (حلف الأحلاف)؛ لم أكن لأُنادم أحداً من (حلف المطيبين).. الذين أرادوا -ذات يومٍ- أنْ يُنازعونا شرفنا.

كنَّا نخرج -سوياً- للبادية.. ونرحل -معاً- للصيد في البَرّيّة، كنَّا نركب الخيل والإبل.. ونضرب في الأرض لنجوب جزيرة العرب شمالاً وجنوباً.. وشرقاً وغرباً، وحينما شببنا عن الطوق.. صرنا نرتاد الحانات -معاً- نستمتع برقص الراقصات وغناء القينات وضربهنّ بالدفوف.. واحتساء خمر الشام والطائف؛ غير أنّ أبناء الوليد بن المغيرة لم يكونوا يشربون الخمر.. لتحريم أبيهم لها عليهم، وكذا.. كنَّا نتدرب على الفروسية والقتال وفنون الحرب، ولا أُنكر أنَّ خالد وعكرمة المخزوميين.. كانا أمهرنا وأشدّنا بأساً.. وكذا عمرو بن العاص.

وعلى هذا.. دارتْ بنا الأيام؛ ثم انشغل خالد -عنّا- بالفروسية وفنون القتال، وعكرمة بمعاونة أبيه في البطش بأصحاب محمد، وعمرو بتجارة أبيه وأسفاره.. ومثله صفوان، ولم يبق لي من الندماء سِوَى: شيبة -ابن عمي عثمان- العبدري.. وهشام بن الوليد المخزومي.. وهشام بن العاص السهمي.

ثم رجع النضر بن الحارث إلى مكة -بعد رحلةٍ ناجحة إلى الحيرة- مُحمَّلاً بأحاديث ملوك الفرس.. وحكايات رستم وإسفنديار وغيرها من الأساطير الفارسية.
كما تَعلَّم -في الحيرة- الضرب على آلة تسمى (العود).. وتَعلَّم الغناء على طريقة العجم.. ذات النغمات الرخيمة؛ وذاك ضربٌ من الغناء جديدٌ على مكة وأهلها.. فإنّا -إلى ذلك الحين- لم نكن نعلَم معازف سِوَى الضرب بالكفوف والدفوف، وكذلك اشترى -مِن الحيرة- جاريتين مغنيتين!

تلك كانت الأسلحة.. التي سنحارب بها قرآن محمد.

احتفينا به.. واحتفل بنا، دعوتُ أصحابي لنتسامر في ضيافة عمنا النضر؛ طربنا لعزفه على تلك الآلة الأعجمية.. وثَمِلنا مِن غناء الجاريتين الفارسيتين، واستمعنا –بإنصاتٍ- لقصص وأساطير.. جعلتْ تطوف بأخيلتنا وتثير فينا الدهشة والرهبة.. حتى اقشعرتْ أبداننا؛ قضينا أمتع ليلة.

ثم انفضّ السامر على كرهٍ مِنّا، وعلى موعدةٍ بالعودة كل ليلة.. التقينا؛ ثم انشغلنا بسامر عمنا النضر –مع توالي الليالي- عن كل شاغلٍ، وما بقي لنا هَمٌّ غير الاستماع إلى أساطيره.. والاستمتاع بعزف عوده وغناء جاريتيه.

ثم أظلّنا موسم الحج، وشَمَّر عمي النضر عن ساعديه.. وأمرنا بالتشمير؛ سنبتدأ الحرب على قرآن محمد!!؟

عندما توافد الحجيج على مكة.. مضى محمدٌ –كدأبه- يعرض نفسه على الناس ويدعوهم إلى دينه الجديد.. ويتلو عليهم قرآنه، وعمه أبو لهب يسعى خَلْفه.. يُكذِّبه ويُنفِّر الناسَ منه.

أمّا **النضر**.. فقد أنشأ –ونحن نتبعه- يقتفي أثر محمد؛ فأينما حَطّ بمضارب قومٍ.. نهض إليهم بعد أنْ ينصرف عنهم محمد، وجلس موضعه.. وقال: "ما محمد بأحسن حديث مني.. وما حديثه إلا أساطير الأولين؛ اكتتبتُها.. كما اكتتبَها محمد!"،

ثم يحدِّثهم بأخبار كسرى وملوك الفرس وأساطيرهم.. حتى يُنسِّيهم ما حدَّثهم به محمدٌ، أمّا ذاك الذي يَحُسّ النضرُ أنَّه مال إلى دعوة محمدٍ.. فكان يدعوه إلى سامره.. ثم يرسل إليه بالجاريتين المغنيتين، فيسقيانه ويغنيان له.. وربما يفحشان معه؛ حتى لا يبقى في قلبه ميل لمحمدٍ ودينه.

كنّا نُهنِّئه.. ونُصفِّق له كلما نجح في تثبيط أحدهم عن اتِّباع محمد؛ كانت ألحانه.. تذهل العقول، وعزفه.. يسحر الألباب؛ حتى لقَّبوه: شيطان قريش.

- ٢٥ -

مصعب[1].. هو خال شيبة [2]–ابن عمي عثمان-، مصعب.. شابٌ في ريعان الشباب.. مُكتمِل الوسامة والفتوة، حينما نتحدَّث عنه.. نقول بملء الفم –مفاخرين قريش جميعاً-: "مصعب بن عمير العبدري.. أنهد فتىً في قريش!"؛ فلا يعترض علينا أحدٌ إلا بنو المغيرة المخزومي.. فيقولون ببعض أنفة: "بل.. أخونا عمارة بن الوليد.. أنهد منه!"؛ فنكذِّبهم.. ويُكذِّبهم كثيرٌ من الناس.

من دلائل تَرَفه: أنَّ ثيابه.. أنفس ثياب في مكة، وعطره.. أذكى عطورها؛ كثيرون من شباب مكة كانوا يتحيَّنون فرصةً.. ليغسلوا ثيابهم مع ثوبه اِلتماساً لأريجٍ من عطره العالق بها؛ فقد كان يشترط في عطره -حين يشتريه- ألّا يتطيَّب به رجلٌ غيره في مكة، ومع كل هذا الرَغَد والرفاهة.. لم يُعرَف عنه فُحْشاً ولا سوء خُلُق.

وما كان ليعيش بهذا البذخ الفاحش.. إلا بثراءٍ واسع يُنفِق منه كيفما يشاء؛ ذلك الثراء.. كان لأمه: امرأة تاجرة –من تاجرات قريش القليلات- .. ذات مالٍ كثيرٍ..

---

[1]: هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

[2]: أم شيبة هي: أم جميل بنت عمير.

وشكيمةٍ قويةٍ.. حتى أنَّها تفوق –بعقلها وحكمتها- كثيراً من الرجال؛ إنَّها.. أم خناس[1] العامرية؛ وما أعلم امرأةً من نساء بني عبد الدار تُدانيها.. حاشا أمي: سلافة بنت سعد.

مصعب.. قرةُ عين أمه؛ لم تكن ترد له رجاءً قط.. ولم تمنع عنه عطاءً قط، كان يكبرني ببضع سنين، ما حسدتُه يوماً.. ولا حقدتُ عليه، وما عتبتُ عليه في شيءٍ عدا أنَّه يتجنَّب عمنا النضر–وهو أقرب إليه نسباً منّا [2]- ويعتزل مجالسه.. ولا يؤازره ضد محمد!!؟

ذات ليلة.. قلتُ لنفسي: (لو أنَّ مصعب –أنهد فتيان قريش- حضر مجالس سمرنا؛ لشجّع بذلك كثيراً من شباب مكة للسمر معنا، ولكانوا دعماً لنا ضد محمد ودعوته!)؛ راقتْ لي الفكرة.. وعزمتُ على أنْ نكلِّمه.. ونحُثّه على إتيان سامرنا، كلَّمتُ شيبةَ -بما جال في خاطري-.. قائلاً: "لو أنَّك تُكلِّم خالك: مصعب.. ليسمر معنا عند عمنا النضر؛ فهو أقرب له منّا نسباً!!".

بيد أنَّ شيبة استثقل الفكرة.. وتثاقل عن مخاطبة خاله؛ فاعتزمتُ أنْ أُحادثه أنا، تابعتُه -بعض يومٍ- كي أَنفَرد به.. حتى أُقْنِعه بأهمية حضوره مجالس عمنا النضر.. وأُغريه بما فيها مِن لهوٍ وطرب وطعامٍ وشراب؛ غير أنّي لم أتمكَّن من محادثته، بل.. ساورني –وأنا أُحاول لقاءه- شعورٌ بأنَّه يتهرَّب مني!!؟

ارتبتُ في أمره؛ فتربَّصتُ به.. وراقبتُه من بعيد يوماً آخر؛ فتفاجأتُ بوقوع ما كنتُ أخشاه: رأيتُه يتسلّل –على حين غفلة- إلى شِعاب الجبل.. ليختلي بنفسه،

---

[1]: أم خناس: هي فاطمة بنت مالك بن المضرب.. من بني عامر بن لؤي.

[2]: وذلك أنَّ نسب النضر ومصعب يلتقي في عبد مناف بن عبد الدار، أما الراوي:عثمان بن طلحة فإنَّه ينتسب إلى عثمان بن عبد الدار.

وشـاهدتُه.. يُصـلِّي صـلاة محمد؛ صُـدِمتُ.. وتسـاءلتُ –فـي دخيلتـي- مشـدوهاً: (مصعب!؟؟ فتى عبـد الـدار المُرفَّـه.. يتبـع محمداً.. ابـن عبـد منـاف؟!! يتبـع الرجلَ الذي يتنكَّر لدين آبائنا ويُسفِّه أحلامهم.. ويَسُبّ آلهتنا؟؟!).

آنـذاك –ودون أنْ يلحـظ وجـودي- انصـرفتُ عنـه مسـتاءً منـه.. مُحـدِّثاً نفسـي: (بَرحَى[1].. يا فتى عبد الدار! واللات.. قد أفسدك تدليلُ أمك لك! لأفضحنّك عند بني عبـد الـدار، لأُنبئنّ جدي أبـا طلحـة وعمي النضـر بـخبرك.. ليجعلـوك عبـرةً لمَن تُسوِّل له نفسه أنْ يصنع مثلك!!).

فيما أتَوَجَّه إليهما لأُخبرهما بما شاهدتُه.. ذكرتُ تَرَف مصعب ونعومته؛ فخشيتُ عليـه أنْ يُعذِّبـه جـدي.. فهـو رجـلٌ غليـظ، وتَأذَّيـتُ أنْ أكـون السـبب في تعذيبـه، احتـرتُ.. وهممـتُ أنْ أتراجـع عـن كشـف سـره، ثـم ارتأيـتُ أنْ أُخبـر أمـه –دون غيرها- فهي ستكون أرحم به من الآخرين، ولعلّها تُثنيه عن اتِّباع محمد.
أعلمتُهـا.. فضربتْ صدرها فَرَقـاً، اسـتدعتْه وسـألتْه.. فلـم يُنكِـر؛ إنَّمـا جَهَـر بأنَّـه يشـهد: (بـأنَّ الله إلـهٌ واحـدٌ.. لا إلـه غيـره، ويجحـد مـا دونـه مـن معبـوداتٍ زائفـة، ويشهد –أيضاً- أنَّ محمداً رسولٌ من عند الله.. يأتيه الوحي من السماء!).

غضـبتْ الأم.. واتَّقـد الغـيظ والسـخط في وجههـا، ثـم زجرتْـه صـائحة: "تـالله.. لأقطعنّ معروفي عنك.. حتى ترجع عن هذا الهراء الذي تقول!".
انصرفتُ -عنهما- وأنا لا أشُكّ في أنَّه سيخاف على حياته الراغدة.. وسينتهي عمَّا نهته عنه أمه؛ بيد أنَّه لم يفعل.
بعد أيامٍ.. علمتُ –مِن أمي- أنَّ أم مصعب هدّدتْه.. قائلة:

---

[1]: برحى: كَلِمَةٌ تُقالُ عِنْدَ الخَطَأ في الرَّمْي، وَيُقابِلُها مَرْحَى عِنْدَ الإصابَةِ.

"والله.. لا ألبس خمارًا.. ولا أستظل أبدًا.. ولا آكل ولا أشرب حتى تدع ما أنت عليه!"، وقد بَرَّتْ المرأة يمينها.. ومكثتْ -حيناً- لم تستظل من الشمس.. ولم تأكل.. ولم تشرب حتى اشتهر أمرها –في بني عبد الدار- وأشفقتْ عليها نساء العشيرة ورجالها؛ ولم يُشفق عليها ولدها الجاحد.. ولم يرتدع.

حاول عمي النضر –بالحسنى- أنْ يجذبه إلى سامره.. ويُغريه باللهو والطرب وخلاعة جواريه.. كي يصرفه عمّا أفسده على أمه وعلينا؛ لكنَّه.. تَأبَّى عليه.. وأَصَرَّ على تمسُّكه بدين محمدٍ، وصمَّمتْ أمه –تلك المرأة العنيدة الصارمة- على امتناعها عن الطعام والشراب؛ على أنَّها استظلتْ من الشمس.. بعد إلحاحٍ من أهلها، اشتعلتْ حرائق الغضب في بيتهم وبيوت عبد الدار كافة؛ ومصعب.. لا سبيل لإثنائه عن عناده.. حتى استيأس عمي النضر منه.. ونفض يده من أمره.

تركناه وأمه.. وأخاه أبا عزيز[1] الذي رثى لحال أمه.. ذات نهار؛ فانتفض ساخطاً على أخيه.. ولطمه على وجهه صائحاً: "واللات.. ستُهلِك أمك.. أيها الصابئ الجاحد!!؟"، ثم أردف مُتوِّعداً: "تالله.. لن أدعك تقهر أمنا بعد اليوم!!".

وأنطلق يقول لأمه: "يا أمه! دعيني وإياه.. فإنّه غلام عاف؛ ولو أصابه بعض الجوع لترك ما هو عليه!!"، ثم أمر عبيده.. فجرجروا مصعبَ من رأسه، ثم صَفَّده في الأغلال.. وحبسه حالفاً بآلهته أنَّه لن يذق طعاماً ولا شراباً.. حتى يرجع عمّا أحدث!

مَرَّتْ أيامٌ عصيبة.. ولم يرجع مصعب؛ بل كادتْ أمه أنْ تتراجع شفقةً عليه.. لولا الغلظة التي أبداها أخوه أبو عزيز، ترفَّقتْ الأم هامسةً على استحياءٍ: "إنْ كان ولا بد من تجويعه؛ فأطعموه –إذاً- لقيماتٍ.. يبقين على رمقه!!".

[1]: هو زرارة بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، كنيتُه: أبو عزيز، وهو شقيق مصعب الأكبر.

فكان أبو عزيز يقف –بنفسه- على محبسه.. ليسقيه حسواتٍ من ماء، وأحياناً.. يقذف إليه بلقيماتٍ يابسة.. يطعمها حتى لا يفقدوا روحه.
مضتْ أسابيع على ذلك الحال؛ ورغم كل هذا التجويع.. لم يزل مصعب مُصِرّاً على اتِّباع دين محمد.. ولا أدري: ما الباعث وراء كل ذلك الإصرار العجيب؟!!

ما برح صابراً على دينه، أمّا أمه.. فقد نفد صبرها.. واشتدّ جزعها؛ فأوجبتْ على أخيه أنْ يطلقه.. وقالتْ له: "يا مصعب! اذهب حيث تشاء.. لم أعد أماً لك!!؟"، فانطلق.. لا ندري إلى أين!!

أثناء تلك الأحداث.. كنّا -أنا وشيبة والهشامان[1]- نواظب على شُهُود حفلات عمي النضر السامرة.. وغنائه وطربه، وعلى الانخراط في مجالسه التي يُعارض بها قرآن محمد.. بالأساطير العجيبة.. وأخبار الفرس والروم الغريبة.

مضينا على ذلك –حيناً- حتى غاب هشام بن الوليد عنّا.. ذات ليلة؛ فالتقيتُ به -في الغد- مُعاتِباً، اِعتذر بأنَّ أباه –الوليد بن المغيرة- علم بأنَّه يشرب الخمر في سامرنا؛ فزجره.. ونهاه عن السامر.

ثم اِعتزلنا هشامُ بن العاص تماماً.. وقطع رِجْله عن سامرنا ونادينا، حاولتُ أنْ أعرف السبب.. وتَحَرَّيتُ لقاءه؛ بيد أنَّه تهرَّب مني ومِن أصحابنا.. وامتنع عنّا، إلى أنْ بلغنا –بعد حين- أنَّه اتَّبع محمداً.. وأنَّ أباه وأخاه يحبسانه ويُعذِّبناه، ثم أُخبرتُ: أنَّه هرب –بعد حين- إلى الحبشة!!؟

ما تَوَقَّعتُ –يوماً- أنْ تَزِلّ قدم أحد أصدقائي ويتبع محمداً.. مُخالِفاً لدين الآباء

[1]: الهشامان: يقصد بهما هنا: هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وهشام بن العاص بن وائل السهمي.

ومُسفِّهاً أحلامهم؛ يكفيني ما حدث من مصعب.. ابن العشيرة الذي لن أُؤنِّب نفسي -قط- في إفشاء سره؛ على أنّي حزنتُ لما آل إليه أمره، ولا أود أنْ يؤول حال هشام لما آل إليه حال مصعب!؟

تَكدَّرتُ.. ورانتْ عليّ كآبةٌ ما استطعتُ أنْ أُخفيها عن عمي النضر؛ فترفَّق بي.. وسألني -ذات أمسية-: "يا عثمان!! ما لي أراك كئيباً.. أيها الفتى؟!! إنَّك لا زلتْ شاباً نَضِراً؛ فاصرف عن نفسك الكدر.. وتمتَّع بملذات الحياة!!"،

أنبأتُه بما كان مِن هشام بن العاص السهمي.. وتنكيل أبيه به.

ربت على كتفي بمودة، وبنبرة تقرير.. سألني: "يا ابن أخي! هل يراودك شَكٌّ في دين جدك قصي بن كلاب؟؟!"، هتفتُ مؤكِّداً: "كلا.. كلا!!".

استأنف: "هل تَشُكّ في أنّ عبد الدار بن قصي وبنيه مِن بعده.. هم سدنة الكعبة؟! أو.. أنَّ الكعبة.. هي بيت الإله الأعظم؟؟!".

أجبتُ واثقاً: "قطعاً.. لا!!".

بنبرةٍ أشدّ حزماً.. سأل: "هل تماري في أنّني سادِن الكعبة.. والقائم على أمرها باسم الرب الأعظم؟؟!".

أسرعتُ مجيباً.. كأنّي أدفع تهمةً: "حاشاني أنْ أماري في ذلك.. يا عماه!!".

هتف في حسم: "إذاً.. فاشهد عليّ!"، ثم رفع يديه ضارعتين إلى السماء.. وجأر: "اللهم إنْ كان هذا -الذي يدعيه محمدٌ- هو الحق من عندك؛ فأمطر علينا حجارةً من السماء.. أو اِئتنا بعذابٍ أليم!!".

هلعتُ.. وهممتُ أنْ أضع يدي على فمه مخافة أنْ يُجاب دعاؤه؛ على أنَّه خفض يديه.. وأنصت هنيهة، ثم نظر إليّ -وقد انفرجتْ أساريره- وهتف مُنتشياً:

"ألا ترى؟! قد دعوتُ بهذا الدعاء -قبلُ.. على الملأ- في صحن الكعبة.. وأنا سادِنها وحاجبها؛ وما نزل بنا العذاب.. وما أُمطرنا بالحجارة!!".

سكت هنيهة أخرى.. تلفَّت حواليه، ثم قال بصرامة: "يا ابن أخي! مزاعم محمد.. باطلةٌ، وما هي إلا أساطير الأولين؛ ولو شئتُ.. لقلتُ مثله!".

ثم استطرد بصوتٍ ضحوك: "تَنعَّم بشبابك.. يا صغيري! تلذَّذ بطعامك وشرابك، فهي حياةٌ واحدة.. لن تعيش غيرها؛ فاصرفها للهو والسمر؛ ودع لي محمداً.. أنا سأكفيكموه!!".

ثم أمسك عوده.. وشرع يضرب عليه قائلاً: "سأعزف لك –الليلة- بنفسي.. حتى يزول عنك كدرك!".

وما لبثتْ الجاريتان.. أنْ انضمّتا إلينا، ومضينا نغني ونلهو.. إلى أنْ ظننتُ أنّي سلوتُ عمّا كدَّرني؛ لكنّي.. كنتُ مخطئاً فيما ظننتُ.

- ٢٦ -

توالتْ الأحداث، وتلاحقتْ الأيام وتكدَّستْ.. حتى صارتْ أسابيع ثم شهور، والحال هو الحال، ورغم التضييق والتنكيل.. خبر محمد في ذيوع.. ودعوته في اتساع، لم يعد لأهل مكة حديثٌ غير محمدٍ ودينه الجديد.. وتزايدتْ أعداد أتباعه؛ اجتمع ملأ قريش في دار الندوة.. وقرَّروا استئصال هذه الفتنة والتخلُّص مِن محمدٍ للأبد، بيد أنَّ عمه أبا طالب منعه منهم؛ فانبرى أبو الحكم بن هشام المخزومي.. وجمع قريشَ كلها على مقاطعة بني هاشم حتى يُسلموا محمداً.. فيقتله، وحُصِر بنو هاشم –مع محمد- في شِعَب أبي طالب.

كُتِبتْ صحيفةٌ لمقاطعة بني هاشم.. وعُلِّقتْ في جوف الكعبة تعظيماً لشأنها، كان عمي النضر أشدّ المتحمسين للمقاطعة؛ هو مَن كتب صحيفتها بيده.. وعلَّقها بنفسه في جوف الكعبة.

تَفَلَّتَ كثيرٌ من الصابئين.. لائذين بالحبشة، وظنّنا أنَّ الجوع سيُنهي الفتنة؛ بنو هاشم بن عبد مناف لن يصبروا –طويلاً- على صراخ أطفالهم الجوعى؛ لا جرم.. سيستسلمون.. ثم يسلِّموننا محمداً صاغرين!!
أما الذين فَرّوا إلى الحبشة –وعلمتُ أنَّ منهم مصعب.. وهشام بن العاص.. وعبد الله بن عبد الأسد المخزومي- فسوف يرجعون إلى مكة مخزيّين بعدما يهلك محمداً.

فرغنا من محمدٍ وفتنته؛ فانتشينا.. وتفرَّغنا لحفلات عمي النضر السامرة اللاهية، دأبتُ عليها.. وانغمستُ فيها حتى أُذنيّ؛ غناءٌ.. وطرب.. طعامٌ.. وشراب، رقصٌ.. وسُكْر؛ إنَّ للحياة لذة.. أحمقٌ مَن يُضيّعها!!

انصرمتْ شهور.. وشهور، طال الأمد.. وسئمتُ؛ سئمتُ التغافل عن أوجاع بني هاشم.. سئمتُ التشاغل عنهم بأنغام السامر وملذاته، أزعجني تضوُّر الجوعى المحبوسين في الشِعَب وصراخ أطفالهم الذي كان يعلو.. فيُغطي سكون الليل.. ويغشى أنغام السامر: (ما جريرة هؤلاء؟!! أ لأنَّهم يحمون أخاهم.. نُجوّع أطفالهم ونهلكهم.. ونحن نتلذَّذ بالطعام والشراب؛ بئس أخوة العشيرة نحن.. إذاً!؟؟).

تألَّمتْ نفسي؛ لكني صممتُ أُذني.. وشغلتُ قلبي بأساطير عمي النضر وعزفه وغنائه، لكن الجوعى.. ما تركوني؛ هاجموني في أحلامي.. وأرقوا عليّ منامي، لم يعد يُجدي –معهم- سُكْرٌ ولا طرب، أقضّتْ عذاباتهم مضجعي.. وأتْلَفتْ عليّ ليلي ونهاري.

ضاق صدري.. وافترستْ السآمةُ قلبي؛ أمستْ الأنغام مزعجة.. والطعام ذا غصة.. والشراب مرير، دأبتُ أفارق مكة -ليالي وأيام- هائماً على وجهي في الصحراء.. فراراً مِن لوم نفسي؛ ثم أعود.. ولم ينفعني الفرار.. ولم تهدأ اللائمات، فرغ صبري.. وكدتُ أسرق مفتاح الكعبة.. وأتسلَّل إلى جوفها.. فأُمزِق تلك الصحيفة الجائرة؛ على أنَّ الأرضة.. أسعفتني!

جاءتْ الأرضة –بعد ثلاث سنوات- فمزَّقتْ الصحيفة الجائرة، وأطلقتْ بني هاشم.. بعد أنْ تجبَّرتْ عليهم قريش.. وتخاذلتُ عنهم.

خرج محمدٌ من الشِعَب مرفوع الرأس.. وعاد سيرته الأولى، وعاد بعض الهاربين من الحبشة؛ عاد مصعب.. لكنّه اعتزلنا كأنّنا لسنا أهله وعشيرته.. وفضَّل علينا ملازمة محمد، أبصرتُه –ذات نهار.. برفقة محمد- يُكلِّم بعض حُجّاج العرب!

تأمَّلتُ حاله.. فرأيتُه يلبس ثوباً خشناً.. وبُرْدَةً[1] مُرقَّعة؛ تساءلتُ مذهولاً: (أ وبعد أنْ كان أنعم فتى في مكة؟!! ما الذي يدفع رجلاً –كمصعب- لأنْ يصنع بنفسه مثل هذا؟؟! إنَّه لأحمق مجنون!!)، تركتُه.. لم أُكلِّمه.. ولم يُكلِّمني.

مِن الذين ارتدّوا مِن الحبشة –أيضاً- هشام بن العاص السهمي؛ غير أنَّ أباه وأخاه عمرو.. حبساه وعذَّباه.

وعبد الله بن عبد الأسد المخزومي.. الذي أنجب ولداً –في الحبشة- سَمَّاه: سلمة؛ فأصبح يُكنّى: أبو سلمة، فيما مضى.. كان صديقاً لي؛ عَرَّجتُ عليه -في حانوته- لأُرحِّب بعودته.. وأُكلِّمه؛ وعسى أنْ يثوب إلى رشده، قلتُ: "يا أبا سلمة! أما كفى قطيعةً.. وفراراً في البلاد؛ بئس أخو العشيرة مَن فارق قومه ودينهم.. وسَفَّه أحلام آبائه!!؟".

---

[1]: البردة: كساء يلتحف به.

أجابني بأنفة: "يا عثمان! بئس المرؤ الذي يعرف الحق.. ثم يجحده، وبئس العشيرة أولئك الذين يبعث الله لهم رسولاً مِن أنفسهم يهديهم لدين الحق؛ فيؤذوه ويحاربوه.. ويضطهدوا أصحابه!!".
رمقتُه باستياءٍ واستنكار.. ثم رحلتُ عنه.. وقد نزعتُ يدي مِن أمره، ثم إنّي علمتُ أنَّ أبا الحكم بن هشام وقومه ضيَّقوا عليه وآذووه في تجارته؛ فهَجّ منهم إلى يثرب تاركاً زوجته وولده وماله، ومثله فعل.. مصعب بن عمير!

لم ينفض سامر عمي النضر، لكن.. انفضّ عنه رفقاء الصبى؛ لم يواصل المسامرة معي فيه سِوَى شيبة -ابن عمي عثمان-.. وعكرمة بن عامر العبدري[1]؛ الأساطير.. صارتْ بالية، والألحان.. مكرورة، وعاقر عكرمةُ الخمر.. وأدمنها.

مَللتُ السامر.. وخنقتني أجواءه، عاودتُ التَّرْحال؛ أسحب بعيراً.. أحمل زاداً.. وأهيم –على وجهي- في الصحراء.. أياماً وليال، ثم أرجع.. فلا أجد سبيل أُنْسٍ غير السامر.. ومنادمة خليليّ العبدريَين.

ذات نهار.. غادرتُ مكة –ضَجِراً.. كعادتي- لا أقصد وجهةً بعينها؛ فصادفتُ ظعينةً.. ترحل وحدها، أقبلتُ عليها.. وخاطبتُها مُرتاباً: "ما خطبكِ.. يا ظعينة؟!".
أظهرتْ شموخاً.. وهي تُجيب: "أنا.. زوج أبي سلمة المخزومي!".
تساءلتُ مُندهِشاً: "ابنة زاد الركب؟!! إلى أين تريدين.. يا أخت مخزوم؟؟"،
أجابتْ بشموخٍ لم ينكسر: "معي ولدي، وأريد يثرب.. لألتحق بزوجي!!".
تساءلتُ باستعظام: "أ وما معك أحدٌ؟!"، قالت: "لا.. والله! إلا الله.. وبني هذا!".
شُدِهتُ.. وانصدع فؤادي: (المرأة المخزومية.. الشريفة النسيبة -زوج الصديق القديم-

---

[1]: هو: عكرمة بن عامر (قيل: عمار) بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

ترحل وحيدةً شريدةً.. كالهاربة؟!! أين بنو مخزوم؟! كيف يتركونها؟! ألا يخافون عليها المخاطر.. اللصوص والوحوش؟!! ألا يخشون أنْ تضلَّ الطريق؟!!).

كأنّما اطَّلعتْ على ما جال في خاطري.. أطلَّتْ من هودجها.. وقالتْ بصوتٍ يشوبه غُصَّة: "أجاب أبو الحكم تَوَسُّلات أهلي.. وتركني ألحق بزوجي؛ على أنْ أنطلق وحدي.. بلا رفيقٍ مِن أهلي!!".
تمتمتُ آسفاً: "إلى هذا الحد.. انطمستْ المُرُوءة في قريش؟!!"، عَرَّفتُها نفسي قائلاً: "أنا.. عثمان بن طلحة العبدري!"، أومأتْ أنَّها تعرفني.
هتفتُ.. كأنَّي أعتذر عن فَظاظَة قومي وخِسَّتهم: "ويح قريش! والله.. ما لكِ مِن متركٍ!! اِسمحي لي أنْ أصحبك إلى مأمنكِ.. حيث زوجكِ أبي سلمة!!".

ثم أخذتُ خطام بعيرها، وانطلقتُ –معها- أَهوِي[1] بها، وكنتُ إذا بلغتُ منزلاً.. أنختُ بها، ثم تأخَّرتُ عنها حتى إذا نزلتْ.. استأخرتُ بالبعير وحططتُ[2] رَحْله.. ثم قيَّدتُه في الشجرة، ثم أتنحَّى إلى شجرةٍ أُخرى.. فأضطجع تحتها.
ثم إذا دنا الرواح.. قمتُ إلى البعير.. فأضع عليه الرَّحْل وأُقدِّمه إليها وأقول: "اركبي!"، واستأخر عنها حتى تركب وتستوي على البعير؛ ثم آخذ بخطامه وأقوده، ظللتُ هكذا.. حتى شارفنا قباء.. فقلتُ لها: "زوجك في هذه القرية؛ فادخليها.. على بركة الله!!"، ثم انصرفتُ عنها.. قافلاً إلى مكة.
حفظتُ المرأةَ القرشية.. حِفاظاً على مُرُوءة قريش؛ فحفظها لي أخوها زهير.. وخالد بن الوليد.. وآل المغيرة.

---

[1]: هَوَى في سيره: مضى وأسرع.

[2]: حطّ الحمل: أنزله، الرحل: هو ما يوضع على ظهر البعير للركوب.. وهو أيضاً: كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره.

أجمعتْ قريش على قَتْل محمد، وأحسنوا التخطيط والإعداد؛ لكنَّه أفلت منهم إلى يثرب، اهتزتْ مكة.. وانقلبتْ رأساً على عقب، وتَملَّك الغيظ والكمد مِن عمي النضر حتى خشينا عليه؛ وهمس مُتطيِّراً: "لن نهنأ بعيشٍ بعدما نجا محمد!!".

وقد صدق حدس عمي النضر؛ وأنشأ محمدٌ وأصحابه يقطعون الطريق على قوافل قريش الغادية إلى الشام.. حتى ضَجَّ منهم سادة قريش وتُجّارها الأثرياء، ونهض أبو الحكم المخزومي لقتال محمد، وهَبَّ عمي النضر لمؤازرته.. هاتفاً: "إنَّ بني عبد الدار –أصحاب لواء قريش- معكم على حرب محمد والذين معه!".

حشد أبو الحكم جيش قريش، وحمل النضرُ لواءها، وكان.. يوم بدر؛ يومٌ عصيبٌ على قريش أجمعين، أسقط عمي النضر اللواء.. وانهزم الجيش، وقُتِل –يومئذٍ- كثيرٌ مِن أكابر قريش وصناديدها؛ قُتِل قائد الجيش: أبو الحكم بن هشام، وقُتِل عمي النضر بن الحارث.. نفسه!!

عسيرٌ.. تجاوز تلك المُصيبة؛ فقد أصابتْ كل بيتٍ في مكة، وكادتْ هيبة قريش تُهدَم، بعض الناس.. لام علينا –نحن بني عبد الدار- على تفريطنا في اللواء.
وبعضهم.. انبرى مُنادياً بالثأر.. مُحرِّماً بكاء القتلى حتى يُقتَصّ لهم؛ مِن هؤلاء: الحارث بن هشام.. يطلب ثأر أخويه أبي الحكم والعاص، وعكرمة بن أبي الحكم.. يطلب ثأر أبيه، وصفوان بن أمية.. يطلب ثأر أبيه، وغيرهم.. كثير: ذهبوا –جميعاً- إلى أبي سفيان بن حرب العبشمي.. يُطالبون بالاستعداد ورصد الأموال لجولةٍ ثانيةٍ مع محمد، وأجابهم أبو سفيان وبنو عبد شمس لِما أرادوا.. بحميَّةٍ وحماسة.

- ٢٧ -

ورث جدي أبو طلحة السدانة واللواء، لكنَّه.. ما أسرع أنْ مات؛ فآلا إلى ابنيه: طلحة –والدي-.. وعمي عثمان الأوقص –والد شيبة- !!
الحق.. أنّي لم أعبأ –كثيراً- بهذا الأمر؛ إنَّ لي أخوةً كباراً.. يتناوبون على معاونة والدنا في مسئولياته ومناصبه الجديدة: مسافع.. والجُلاس.. وكِلاب.. والحارث، أولئك فيهم الغَنَاء عني؛ فانكفأتُ إلى الغِناء.. و ورثتُ عود عمنا النضر وسامره.

جَدَّ أبو سفيان بن حرب في الإعداد للحرب، وجاء –ذات يومٍ- إلى أبي وعمي.. ليقول: "الحرب وشيكة.. ولابد من حسن الإعداد لها، وأنتم –يا بني عبد الدار- أصحاب لواء قريش؛ وإنَّما تُؤتى الجيوش من لوائها.. هو مكمن قوتها وضعفها، فاحفظوا أمانة قريش.. ولا تُفرِّطوا فيها!!"، وانصرف عنهما.. قبل يَهمّ أحدُهما بإجابته، قد بلَّغنا رسالتَه.. وفهمنا وعيدَه، وانقلب أبي وأعمامي وإخوتي يتهيَّؤون.. ويتسلَّحون ويتدرَّبون لحفظ اللواء عند اللقاء.

حان النفير.. وانحشر لقريش جيشٌ عظيم، وفي دار الندوة.. انعقد اللواء وحمله والدي -طلحة بن أبي طلحة.. ولقَّبوه: كبش الكتيبة- وإخوتي وأعمامي، أُذِّن للحرب.. وقُرِعتْ الدفوف، انفصل الجيش عن مكة.. قاصداً يثرب والثأر ليوم بدر، وانضمّ إلى الجيش جماعةٌ من النسوة.. ليشهدن المعركة ويُشجِّعن الرجال ويحتفلن بالنصر؛ بين أولئك النسوة.. كانت أمي[1].. وأم مصعب[2] !

---

[1]: سلافة بنت سعد بن الشهيد؛ وهي من بني عمرو بن عوف.

[2]: هي: فاطمة بنت مالك، وشهرتها: أم خناس العامرية القرشية.. كما أسلفنا.

أنا وشيبة وعكرمة.. بقينا في مكة، لم يخالطنا شَكٌّ في ثبات آبائنا حول اللواء، كنّا على ثقةٍ في عودتهم بالظفر.. واللواء مرفوعاً؛ فبدأنا نُعِدّ لاستقبال العائدين الظافرين، وللاحتفال بالثأر.. والنصر المبين.

وقد علمتُ –فيما بعدُ.. مِمَن شهد المعركة- أنَّ أبا سفيان أحب أنْ يُحرِّض حملة اللواء.. قُبيل اللقاء؛ فقال لأبي وأعمامي.. مُعاوِداً تهديده المَسْتُور: "يا بني عبد الدار! إنّكم قد وليتم لواءنا يوم بدر؛ فأصابنا ما قد رأيتم، وإنّما يُؤتى الناس مِن قِبَل راياتهم؛ إذا زالتْ.. زالوا، فإمّا أنْ تُكفونا لواءنا، وإمّا أنْ تُخلّوا بيننا وبينه.. فنكفيكموه!".

هَمُّوا به.. وتواعدوه، وأجابوه بأنفةٍ وحَميَّةٍ: "نحن نُسلِّم إليك لواءنا؟!! ستعلم غداً.. إذا التقينا: كيف نصنع!"؛ فكان لأبي سفيان ما أراد.

انتصر أبو سفيان بن حرب، وزعم أنَّه أدرك ثأر قريش.. واستردّ هيبتها، ورجع إلى مكة.. ولواء قريش مرفوعٌ؛ لكنَّه مُلطَّخٌ بدماءٍ عزيزة!؟؟

أحد عشر رجلاً مِن بني عبد الدار.. قُتِلوا فداءً لهذا اللواء؛ أبي.. وإخوتي الأربعة.. وعمي عثمان.. وغيرهم، إنَّه نصرٌ بطعم الدم.. وفاجعةٌ عظيمة!!

رجعتْ مطايا قريش.. تحمل فوارسها الفائزين، وارتدَّتْ مطايا عبد الدار.. تحمل الأحبة مقتولين، انكفأتْ هند بنت عتبة –ومعها نساء قريش- تُغني وتُهلِّل لثأرها القديم الذي أدركتْه.

وانخزلتْ أمي –وعندها نساء عبد الدار- تبكي الأحبة.. وتنوح على الثأر الجديد الذي لمّا تُدرِكه، حتى أم مصعب عادتْ حزينةً مكروبةً.. تبكي ولدها الصابئ.. الذي قتله جيش قريش!!؟

عادتْ البهجة والسعادة إلى مكة ودورها، وحَلَّتْ الكآبة والتعاسة بديار بني عبد الدار؛ أَنَّى لنا أنْ نسعد بنصرٍ سَلَبَنا أعزّ رجالنا؟!! بل.. لقد أُفرِغتْ بيوتنا مِن فوارسها وصناديدها!! بعد كبش الكتيبة.. والأوقص.. ومسافع.. والجلاس.. والحارث.. وكِلاب؛ بعد أولئك الأشاوس.. مَن الذي بقي ليدرك ثأرهم؟؟!

في يومٍ واحدٍ -عند سفح أُحُد- .. غُيِّبوا جميعاً، ثم حَمَّلوني –وشيبة وعكرمة- لواءً غسَّلوه بدمائهم.. ومغاليق الكعبة.. ومفاتيح دار الندوة، وثأراً ثقيلاً حمله.. لا ندري: كيف ندركه؟؟!
أمّا أمي.. فقد نذرتْ لئنْ تَمكَّنتْ مِمَن قتل أبناءها: أنْ تشرب في جمجمة رأسه الخمر، وجعلت لمن يأتي برأسه.. مائة ناقة!!

فتحنا أبواب دار الندوة لملأ قريش، أثنوا على آبائنا.. ومَدَحنا شعراؤهم، وهمس أبو سفيان في أُذني: "قد وقع علينا ثأرُ أبيك وإخوتك؛ ولن نذر محمداً.. حتى ننتقم منه ونستأصله!".

على أنَّ كافة الجوالات التالية.. كانت لمحمدٍ؛ تعاظم شأنه.. وتفاقم خطره، وتصاغرتْ هيبة قريش بين الناس، واضمحلّ شأن بني عبد الدار خاصة!!
ونظير زِقّ[1]خمرٍ.. ألهب عكرمة بن عامر نيران الحسرة في قلوبنا؛ إذ باع دارَ الندوة لحكيم بن حزام [2]؛ باع شرفه وعزّ آبائه وأجداده بثمنٍ بخس.. ليفوز بِزِقّ خمرٍ، وأَشْهَد على نفسه الشهود، ولمّا بكَّتناه.. أجاب –السِّكِّير الأحمق- بصفاقة: "أَيُّ شرفٍ ضيَّعتُ؟!! إنْ هي إلا دارٌ.. ككل الدور!!؟"، وأردف: "وما بعتُها.. إلا لرجلٍ من عبد العزى بن قصي، وقد وعدني أنْ يحرص عليها.. كما كنّا نحرص!".

[1]: الزِقّ: وعاء من الجلد يجعل للشراب.

[2]: كما أسلفنا: هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب.

قلتُ: "تعساً لك.. أيها الخَوَّار! تالله.. سيكون أشدّ حرصاً عليها منك؛ فلقد بات.. وهي مفخرته بين العرب!! ولتندمنّ.. ولتقولنّ: وَّلات حين ندم!!".

ثم أقبل محمدٌ بجمعٍ كثيف.. يزعم أنَّه يريد العمرة، وما قَدِرنا أنْ نردَّه إلا بصلحٍ وهدنة.. على أنْ يرجع العام التالي بسيوفٍ في القرب!؟؟

وحال حَوْلٌ.. مَلَك فيه خيبر يهود، ثم غشينا بجمعٍ أكبر مِن سابقه!
يا لخيبة قريش!! ما أَدرَكتْ ثأري.. وما حفظتْ هيبتها بين جيرانها؛ وها هو ذا عدوها الأكبر الذي خرج -من مكة.. ليلاً- شريداً طريداً.. يأتيها –في وضح النهار- ضيفاً آمناً مطمئناً!!؟

فيما يؤدي محمدٌ -والذين معه- عمرة القضية[1]، أدبر عن مكة.. كثيرون من سادة قريش.. آنفين أنْ يُشاهدوه وأصحابه يطوفون بالكعبة!
أمّا أنا.. فلم أُفارق داري ... !!
سمعتُهم يُلبّون.. أبصرتُهم بالكعبة يطوفون، ثم بعث إليّ يستدعيني إليه: (ويحي!! أ وعلا شأن محمدٍ.. كأنَّه صار مَلِكاً؟!! وأرسل.. يستدعيني؟!!)، ملكتُ نفسي.. وكتمتُ غيظي، ثم أتيتُه مُتثاقِلاً، لقيني بمودةٍ.. وأراد أنْ يدخل الكعبة؛ فمنعتُه المفتاح، أبيتُ أنْ أفتحها له.. وأغلظتُ له في القول، حَلُم عَنّي.. وقال: "يا عثمان! لعلّك سترى هذا المفتاح –يوماً- بيدي.. أضعه حيث شئتُ!".
أجبتُه هازئاً.. مُستخِفاً به: "لقد هَلَكتْ قريشُ –يومئذٍ- وذَلَّتْ!".
فقال بثقةٍ تامة: "بل.. عمرتْ وعزَّتْ.. يومئذٍ!"؛ وقعتْ كلمته –تلك- في نفسي!

---

[1]: هي: عمرة القضاء.. وهي العمرة التي أداها الرسول وألفان من أصحابه سوى النساء والصبيان، في ذي القعدة سنة ٧ هـ عوضًا عن العمرة التي صُرفوا عنها في العام الذي سبقه.. وفقًا لشروط صلح الحديبية.

انقضى ميقاته التي وعدتْه قريشُ إياه، طالبناه بالرحيل.. فرحل، واستقرتْ كلمته في قلبي: (بل .. عمرتْ وعزَّتْ.. يومئذٍ!)؛ تساءلتُ حائراً: (أنَّى يأتيه كل هذا اليقين؟!! وإنّه كلّما تَنبَّأ بخبر.. وقع كما أخبر به؟!! هل يُوحَى إليه من السماء.. حقاً.. كما يزعم؟!).

- ٢٨ -

توافد الحجيج على البيت الحرام، وتزاحم العُمَّار على باب الكعبة؛ يريدون الولوج إلى جوفها.. ليتمسَّحوا بهُبَل.. ويستقسموا عنده بالأزلام.. وليتفاخروا بها حينما يرجعون إلى أهليهم؛ ولن يتأتَّى لأحدهم ذلك الشرف.. إلا أنَّ يأذن له سادن الكعبة، وأنا سادنها.. منذ بضعة مواسم.

ها هم أولاء يسوقون إليّ الهدايا.. ويتنافسون في إرضائي، يتزاحم بعضهم على يدي يُقبِّلونها.. يتوسَّلون.. ويعتذرون أنَّهم لا يملكون، ولا ينال شرفَ الدخول.. إلا مَن شئتُ له أنْ يدخل؛ إنَّها منزلةٌ سامية، شرفٌ.. وأيّ شرف!!؟

لكن.. ما بالي قد أصابني الفتور؟!! ما لي.. قد زهدتُ تملُّقَ الناس إياي؟!! ماذا داهني هذا الموسم؟!!
تذكَّرتُ عمي النضر.. وهو قائم فوق روءس الناس، و بين يديه.. جنوده وعبيده!!
تذكَّرتُ: كيف كان يُعاملهم؛ كان يتكبَّر ويتجبَّر على ضعفائهم.. ويمنعهم مِن

الولوج إلى جوف الكعبة، تساءلتُ: (هل يحق لي أنْ أمنع بيت الرب عمَّن أشاء.. وأنْ أمنح شرف دخوله لمَن أشاء؟؟! مَن أنا.. كي أمنح شرفاً كهذا.. أو أمنعه؟؟!).

(ويحك.. يا عثمان!! بما تهذي؟!! أنت.. ابن عبد الدار بن قصي! أنت.. ابن سدنة الكعبة، وإنَّك -اليوم- سادنها وحاجبها!! أنت.. أقرب الناس إلى رب هذا البيت العتيق، وكذلك.. كان أبوك وجدك مِن قبلك!!).
(نعم! كذلك.. كان آبائي وأجدادي، وكذلك.. كان عمي النضر الذي دعا الله أنْ يُمطِر علينا حجارةً مِن السماء إنْ كان محمدٌ صادقاً!!)، (وقد بَرَّ الله قسمه، وما سقطتْ الحجارة علينا!!)، (إذاً.. ينبغي أنْ أطرد هذه الوساوس عن رأسي، وأنصرف إلى عملي.. وأحفظ شرف آبائي وأجدادي!).

صباحاً.. اغتسلتُ وتهيَّأتُ ولبستُ أفخر الثياب.. وتعطَّرتُ بأنفس العطور، ثم خرجتُ إلى الناس.. أمنح وأمنع شرف الولوج -إلى جوف الكعبة- لمَن أشاء!
ثم جاءتني عجوزٌ أعرابية مسكينة.. تنشد التبرُّكَ بهُبَل والدعاء بين يديه؛ أشفقتُ عليها.. فأذنتُ لها، وأمرتُ جنودي وعبيدي أنْ يُفسِحوا لها!
بكتْ مِن فرحتها.. وقبَّلتْ يدي، ثم دعتْ لي هاتفة: "أطال الله عمرك! ولا حُمِّلتَ مغرماً! ولا فقدتَ حبيباً!"؛ سَرّني دعاؤها.. وابتسمتُ لها.

ليلاً.. خَلَوتُ بنفسي راضياً عنها.. سعيداً بما جنيتُ في يومي ولا سيما دعاء تلك العجوز الأعرابية؛ (بماذا دعتْ لي؟؟): حاولتُ أنْ أتذكَّر.
إنَّها قالت: "أطال الله عمرك، ولا حُمِّلتَ مغرماً، ولا فقدتَ حبيبا!"؛ يا له مِن دعاء!! (عفا الله عنك –أيتها المرأة- لقد فقدتُ أغلى الأحبة، وغَرِمتُ ثأراً يَصعُب عليّ إدراكه!!؟): تذكَّرتُ مصابي في أبي وإخوتي وأعمامي يوم أُحُد؛ فحزن قلبي.. وانكسرتْ نفسي: (سُحقاً لألم الفَقْد؛ إنَّه ألمٌ.. وأشدّ ألم!!)، (بُعداً.. بُعداً لمَن

قتلكم -يا أحباب- وكسر قلبي بفُقْدانكم!)، (ومِن قبلهم.. عمي النضر –أيضاً- يوم بدر! أنّى لي الثأر منك.. يا محمد؟؟!).

اغتممتُ.. ولم أنعم بالنوم –ليلتئذ- إلا غراراً، وبتُّ أتقلَّب في الفراش.. كأنّي أضجع على حَسَك السَّعدان[1]، تساءلتُ باستنكار وحسرة: (لِمَ أصابنا –نحن بني عبد الدار.. خاصة- كل هذا العذاب؟! قَتْلٌ.. كأنَّه استئصالٌ، ثأرٌ.. لن نُحرزه، ضياع دار الندوة مِن أيدينا.. بثمنٍ بَخْس، انكسارٌ وحزنٌ.. وكآبة خيَّمتْ على دورنا.. وتأبى أنْ ترحل أبداً؛ لماذا نحن دون غيرنا؟!!).
قفز إلى ذهني عمي النضر.. وثقته التامة أنّنا الأقرب إلى الرب لأنّنا حُجاب بيته.. حتى أنّه لم يتحرَّج أنْ يدعو قائلاً: "اللهم أمطر علينا حجارةً من السماء.. أو اِئتنا بعذابٍ أليم!"، ولم نُمطَر بالحجارة!!؟
(لكن.. أتانا عذابٌ أليم!! وهل عذابٌ أشدّ مِن ذاك الذي وقع بنا؟!! تالله.. قد أصابتنا لعنةُ ذلك الدعاء!!؟).

ظللتُ -بقية أيام الموسم- حائراً.. ذاهلاً عمّا حولي؛ أبات وأصحو.. وأروح وأغدو وأنا أتفكَّر وأتدبَّر، تدور بخَلَدي حوادث الماضي.. وما كان بيننا وبين محمدٍ؛ تكشَّفتْ لي أمورٌ.. ما أبصرتُها قبل الحين:
(حكايات النضر عن رستم وإسفنديار.. كانت أساطير حقاً؛ أمّا قرآن محمدٍ.. فقد كان مختلفاً!؟؟)، (مجالس النضر السامرة.. كانت لهو وغناء وعربدة،كانت تُغيِّب العقل.. وتقتل الوقت؛ وما نجحتْ في محاربة محمد.. أو قرآن محمد؛ بل.. ما زال شأنه في صعود!!؟)، (دعا النضر علينا بالهلاك.. إنْ كان محمدٌ صادقاً!؟؟ لولا دعا بالهداية إلى الحق والرشاد.. خير من ذلك؟!!).

[1]: نبات عشبي بري.. له أشواك.

(لو كان الحق والرشاد.. هما دين محمد؛ فهل أتَّبعه.. وأنا سادن الكعبة؟! هل أتَّبع رجلاً من عبد مناف.. وأنا -ابن عبد الدار- حاجب بيت الرب؟؟!)، (كلنا أبناء قصي.. كلنا مِن قريش، وللرب أنْ يختار رسوله.. كما اختار سدنة بيته العتيق!).
(نعم!! بل.. الأحرى بسدنة بيت الرب أنْ يكونوا أول المناصرين لرسوله!!).
(هل محمدٌ رسول الله حقاً؟!!)، (وهل في هذا شَكٌّ.. بعد كل تلك الحوادث والأحداث؟؟ تالله.. إنَّ البصير ليرى أنَّ محمداً رسولٌ من عند الله.. كما تُرَى الشمس في كبد السماء في اليوم الشامس؛ لكنّنا نكابر!).

انقضى الموسم.. وما انقضتْ حيرتي، وخَلَتْ مكة من الحجيج.. وما خَلَتْ رأسي من الوساوس والأفكار: (إنّنا نعيش في كذبة عظيمة؛ ألا وهي.. أنّنا سدنة بيت الرب.. وعباده الصالحون؟! أنّنا الأفضل عند الله.. دونما سببٍ بيننا وبين الرب.. غير أنّا بنو عبد الدار بن قصي؟!! عقلي لم يعد يُصدِّق هذا الافتراء!!).
(الأولى: تصديق ما جاء به محمدٌ؛ وقد صدَّقتُه.. وأيقنتُ برسالته؛ فماذا أفعل؟! هل أغدو إليه.. وأُعلن أنّي آمنتُ به؟!!).

بينما أسير -هائماً في دروب مكة- ذاهلاً عمَّن حولي.. إذ اِستَوَقفني خالد بن الوليد المخزومي.. وهتف متسائلاً: "ما خطبك.. يا سادن الكعبة؟!"، قلتُ مستنكراً: "ما خطبي؟! ليس بي بأسٌ!!"، أجاب بإصرارٍ لطيف: "فما لي أراك مهموماً؟!!".
زفرتْ زفرةً شديدة.. ثم قلتُ بأسى: "ألا ترى ما نحن فيه.. يا ابن الوليد؟!!"، تحسَّر.. ثم قال مُعضِّداً رأيي: "إنّما نحن بمنزلة ثعلب في جُحر؛ لو صُبَّ عليه ذنوبٌ مِن ماءٍ.. لخرج!"، هتفتُ بانفعال: "فماذا.. إذاً؟!!".
فاسترسل في الحديث بصوتٍ هامس -لكنَّه مُفْعَم باليقين- عن استجلائه لصدق محمد، وصارحني بأنَّه أصبح يُصدِّقه ويؤمن به، وأنَّه عازمٌ على الهجرة إليه!

تهلَّل وجهي.. وأسرعتُ أُجيبه هاتفاً: "يا أبا سليمان! تالله.. قد وقع في قلبي مثل الذي حدَّثتَني به، ولقد غدوتُ -اليوم- وأنا أريد أنْ أغدو، وهذه راحلتي بفج مناخة[1] !".

توقَّف –لوهلة- يُحملق فيّ.. كأنَّه لا يُصدِّق ما يسمع، ثم ما لبث أنْ ابتهج بما بُحتُ به له.. وقال مُغتبِطاً: "إذاً.. هي الصحبة!!؟"، هتفتُ بحماس: "أنعم بها من صحبة!!"؛ واتفقتُ وإياه أنْ نتجهَّز.. ثم نلتقي، وتواعدنا في يأجج؛ إنْ سبقني.. أقام، وإنْ سبقتُه.. أقمتُ أنتظره.

أثار خالد حماستي، وتشجَّعتُ –مِن فوري- للخروج معه إلى يثرب؛ لكن.. تَبقَّى عليَّ أنْ أُعلِم أهل بيتي، والأخطر: مفاتيح الكعبة.. هل أحملها.. أم أتركها؟ أم.. ماذا سأفعل؟!!

لم أتردد طويلاً.. وقلتُ لنفسي بصرامة: (قد استقام المَنْسِم؛ والتخاذُل جريمة!!)، انطلقتُ إلى شيبة –ابن عمي عثمان- وأظهرتُ له ما في نفسي، وصرَّحتُ له أنّي سأرحل –الحين- إلى يثرب.. مهاجراً إلى الله ورسوله، ولن يمنعني عنه إلا الموت، رمقني مُستنكِراً.. وجأر مُعاتِباً: "أنت –يا عثمان- تضع شرف أبيك في الأرض.. وتُفرِّط في سدانة الكعبة؟!!".

أسرعتُ مجيباً: "سدانة الكعبة لك، وهاك.. مفاتيحها؛ خذها.. ضعها حيث شئتَ!"، وجَرَّدتُ المفاتيح.. وأعطيتُها إياه، ثم أردفتُ: "أسألك أنْ تُبلغ أمي وأهل بيتي.. بعد أنْ أرحل؛ فإنّي لا أحب الوداع.. وأخشى أنْ يثبطوا عزمي!".

طأطأ رأسه.. ولم يُجِبْ؛ نهضتُ قائماً.. فتطلَّع إليّ هامساً بانكسار: "سترحل الحين؟!!"، أومأتُ: أنْ نعم، نهض إليَّ.. ولمحتُ دمعةً تلمع في عينه، ثم التقتني في أحضانه.. وودَّعني بحرارة، ثم هرعتُ إلى حيث تواعدتُ مع خالد.

---

[1]: فج مناخة: وادي في مكة.

انطلقتُ وخالد نَحُثُّ الخُطَى إلى الرسول.. متفائلين بالخير الذي هدانا الله إليه. وبينما نحن بالهدة[1] إذ التقينا بعمرو بن العاص السهمي.

اغتبطنا به.. وصافحناه في بشرٍ ومودة، ثم انطلق ثلاثتنا إلى رسول الله.

[1]: الهدة : وادي يمر شمال مكة المكرمة، على يمين الطريق إلى عسفان، في الطريق إلى المدينة المنورة.

القسم الرابع

عمرو بن العاص بن وائل السهمي

- ٢٩ -

أنا.. عمرو[1]:

ابن العاص بن وائل السهمي، مِن بني سهم بن عمرو بن هُصَيْص.. مِن قريش، وبنو سهم يلتقي نسبهم مع بني قصي بن كلاب في كعب بن لؤي.. حيث أنَّ قصي: ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي.

وكذلك.. نحن أخوةٌ لبني جمح.. حيث يجتمع نسبنا معهم في عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لؤي.

مِنَّا.. قَيْس بن عَدِي بن سعد بن سَهْم .. الذي كان أعزّ أهل عصره.

كما أنَّ عمتنا: ريطة بنت سعيد بن سهم.. هي أم بني المغيرة المخزومي.

والحق –الذي لا أُجادل فيه- أنَّ بني سهم لم يكونوا مِن ذوي الصدارة في قريش.. كما بني عبد مناف أو بني عبد الدار.. أو بني مخزوم؛ لكنَّهم لكثرة عددهم.. لا يُغفَلون؛ وقديماً -حين قُسِّمتْ أعمال مكة بين بطون قريش- آل إلينا (تحجيرُ الأموال[2]): وهو تنظيم القربات والنذور التي تهدى إلى الآلهة.

وفي الزمن الغابر.. لم يستطع أحدٌ مِن قريش أنْ يُنافس بني عبد مناف بن قصي على زعامة مكة؛ فقد كانوا أنبه بطون قريش وأكثرهم مالاً وبنيناً، ولم يدانيهم أحدٌ في شيءٍ مِن هذا سِوَى قومي –بني سهم-؛ كنّا نَبُزّهم في كثرة البنين، لذا..

---

[1]: نسبه: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي السهمي القرشي.

[2]: الأموال المحجرة: أي الأموال الموقوفة لخدمة الأصنام، وبلغة عصرنا الحالي: هي الأوقاف.

فقد سارعنا –نحن.. بنو سهم- لمناصرة بني عبد الدار ضدهم لـمَّا دبَّ الشقاق بينهم؛ وتحالفنا بحلف الأحلاف، واشتهرنا بين الناس باسم: لعقة الدم.

أمّا **أَبِي** –العاص بن وائل- فقد كان في أول حياته شاباً قليل المال، وكان نديماً لعبد الله بن جدعان التيمي.. أغنى رجلاً في مكة آنذاك، وكانا يسمران –في كثيرٍ من الأحيان- عند الفاكه بن المغيرة المخزومي؛ يسكران.. ويستمعان إلى غناء جاريته (النابغة[1])؛ والتي لُقِّبتْ بالنابغة.. لبهائها وجمالها ونبوغها في الغناء.
وقد ملكتْ النابغةُ على العاص عقله.. وتشرَّبتْ بحبها شغافُ قلبه حتى صار طيفها لا يفارق خياله.. لا في نومٍ ولا في يقظة!!

أيقن أنَّه لن يستطيع العيش بدونها؛ فعزم على أنْ يشتريها من الفاكه المخزومي، غير أنَّه نظر في حاله وضيق ذات يده؛ فتكدَّر.. ورانتْ عليه الكآبة حتى لاحظ خليلُه -ابنُ جدعان- ابتئاسه وتجهُّمه.
سأله عن ذلك واستحلفه أنْ يصارحه.. وألا يُخفِي عنه سره؛ فلمَّا ألحَّ عليه.. كاشفه العاص بما يجيش في صدره وبحب النابغة الذي يغمر فؤاده.. ورغبته في أنْ تكون له وحده، وحزنه لأنَّه لا يقدر أنْ يملكها.. لضيق ذات يده.
تبسَّم الصديق الكريم.. وربت على كتف صاحبه المُتيَّم.. وهمس بصوتٍ ودود: "ابشر.. يا ابن وائل! تالله.. لن تبيت الليلة إلا والنابغة ملك يمينك!!".
تساءل العاص بنبرةٍ يائسة: "أَنَّى لي ذلك.. يا أبا زهير؟!! إنَّك تعلم إملاقي وبؤس حالي!!؟"، هتف ابن جدعان حاسماً.. وبنبرةٍ واثقة: "أنا أشتريها لك! وإنْ طلب فيها الفاكهُ قنطاراً من ذهب؛ فلن أَضِنَّ عليك به.. يا صديقي المحبوب!".

---

[1]: هي: سلمى بنت حرملة.. من بني جلاّن بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، أصابتها رماح العرب في أحد حروب الجاهلية؛ فبيعت بعكاظ.. فاشتراها الفاكه بن المغيرة المخزومي القرشي.

تهلّل وجه العاص.. وكأنّ روحه عادتْ إلى جسده بعد مفارقة.

وقد وَفَى ابنُ جدعان بوعده؛ فاشترى النابغةَ.. وأهداها إلى صديقه، وباتتْ سلمى في بيت العاص بن وائل.. الذي أشفق على محبوبته أنْ تبقى أَمَةً مملوكة؛ فأعزّها بأنْ أعتقها.. وتزوَّجها؛ فامتنتْ له.. وأحبته حباً جَمّاً، وكنتُ أنا ثمرة هذا الحب الصادق الذي عَزّ أنْ يوجد مثله في رَحْبات مكة؛ وذلك بعد عام الفيل ببضع سنين.. أو أكثر قليلاً، ولا غرو أنّي كنتُ شبيه العاص في الخِلْقَة والخَلِيقَة.

لم تكن سلمى زوجةً مُحِبةً فقط، وإنَّما غدتْ تسعى لاسعاد زوجها وإعمار بيتها بكل طاقتها.. وبشتى الوسائل؛ ولقد أدخلتْ السرور على قلبه حقاً، وكان وَجهُها الحسنُ المنيرُ.. وجهاً للخير والبركة؛ فعمرتْ الدار.. وأصاب النماءُ مال العاص.. وتعاظم الطموح في صدره حتى تَطلَّع إلى أنْ يصبح أحد أثرياء قريش الذين يُشار إليهم بالبنان، ورام أنْ يصير سيداً مُطاعاً مِن أكابرها!!

وفي غضون سنوات معدودة من الكَدِّ والمثابرة والكفاح.. تحقَّق طموحه.. ونال مراده، ودأبتْ تجارته الرابحة تجوب –مع قوافل قريش- بلاد الشام واليمن؛ وغدا من رجالات قريش.. وتجَّارها المعدودين؛ بيد أنَّه كان –كصاحبه.. ابن جدعان- ينفق.. ولا يمسك.

ثم حضرتْ حرب الفجار؛ وفي يوم الفجار الثاني.. رجا عبد الله بن جدعان المعاونة من خليله؛ فما خيَّب العاص رجاءه، وإنَّما اندفع -يترأَّس بني سهم- إلى خضم المعركة جولةً تلو الأخرى، واستبسل -استبسالاً تفخر به بنو سهم على غيرهم-.. حتى أثلج صدر صاحبه.

وفرح هشام بن المغيرة المخزومي بالعاص فرحاً شديداً، وسَرَّه انضمامُ بني سهم إلى صفوفهم لكثرة عددهم وشدة بأسهم؛ فأشاد به.. وحفظها له.. حتى أنَّه زوَّجه ابنته: أم حرملة بنت هشام؛ فأنجبتْ له أخي الأصغر: هشام.
ولا أُنكِر أنَّ هشام كان قُرَّة عين أبيه.. لشرف أمه ومكانة قومها بني مخزوم، أمَّا أنا.. فقد كنتُ عضده وساعده الذي يَذِبُّ به عن عينه.

نُشِّئتُ على الجِدّيّة.. ونَبْذ الفُحْش، وعلى الأنفة والتعصُّب لآبائي وعشيرتي، ثم اشتدّ عودي.. وشببتُ عن الطوق؛ وكما غيري من فتيان قريش.. تعلَّمتُ ركوب الخيل.. والضرب بالسيف.. والفصاحة ونظم الشعر، وتعلَّمتُ السباحة، ولأنّي كنتُ من النابهين علَّمني أبي الكتابة والحساب.. كدأب تُجّار قريش مع أبنائهم الذين يؤهِّلونهم للعمل بالتجارة؛ ولقد نبغتُ في ذلك كله.

وسرعان ما بلغتُ مبلغ الرجال.. قبل الأوان.
وكما كانت سلمى نعم الزوجة الوفية للعاص.. كانت نعم الأم الحنون الناصحة لولدها؛ أرشدتني –بفطنتها وذكائها- إلى أنْ أسير في رِكاب أبي.. وأنْ ألزم غَرْزه؛ وقد فعلتُ.. حتى غدوتُ ساعده الأيمن، ودأب يصحبني معه في أسفاره ورحلاته.. ويُعرِّفني على التُجّار وأسياد الأسواق، ويُعلِّمني -من فنون التجارة وأسرارها- ما جعلني أمتاز عن كثيرٍ مِن الذين هم أسنّ مني وأقدم عملاً في التجارة؛ على أنَّ أنفس المهارات التي اكتسبتُها منه هي: الفراسة وحضور البديهة.. (والإصابة بالظنّ.. ومعرفة ما سيكون بما قد كان!).

بعد حينٍ مِن طرد أتباع أبرهة الحبشي منها.. استقرتْ أحوال اليمن، وبعد ردحٍ من الزمن.. تحسَّنتْ العلاقة بينها وبين الحبشة، حينها.. تكهَّن العاص بأنْ تعود

الصلات التجارية بينهما لنشاطها السابق؛ فبادر إلى الحبشة.. وتحايل حتى وصل إلى بعض بطارقة النجاشي.. وبمساعدتهم دخل إلى بلاط النجاشي، ووطد صلته بحاشية الملك حتى أمسى –في مدة يسيرة- سفير تُجّار قريش لدى بلاط النجاشي، ثم اصطحبني معه إلى الحبشة وإلى بلاط النجاشي مراتٍ عديدة.. تعرَّفتُ –خلالها- على ولد النجاشي وولي عهده.. وتقرَّبتُ إليه –عملاً بنصيحة أبي- بالهدايا والصلات.. حتى توثَّقتْ الوشيجة بيننا، وراح يَعُدّني مِن أصحابه وندمائه، وينتظر قدومي عليه في كل عام؛ ويلقاني باشّاً مُرحِّباً.

ثم أتتني أمي –ذات يومٍ- لتهتف باستبشار: "مرحى.. مرحى.. يا عمرو! قد أعلمني أبوك أنَّك أصبحتَ تدخل على ملوك الحبشة وتُجالسهم وتُنادمهم!"، اغتبطتُ بمقالتها.. وجاوبتُها بتواضعٍ مُفتعَلٍ: "يا أماه! إنَّ والدي يُبالغ؛ وما هو سِوَى الأمير الصغير.. ابن الملك!!".

أجابتْ بلهجةٍ واثقة: "الصغير.. يكبر، والأمير.. غداً يصير الملك! وتالله.. إنّي أراك أليق الناس بالإمارة والمُلك.. يا ولدي!!".

أجبتُها بابتسامةٍ صامتةٍ؛ فاستطردتْ لتخبرني بما جاءتني به: "وإنّي أرى أنَّه مِن غير اللائق أنْ يظلّ عمرو بن العاص -سفير قريش في بلاط النجاشي.. ونديمه- أعزباً؛ ينبغي أنْ تتزوَّج.. يا ولدي!".

أجبتُها على استحياءٍ.. وباقتضابٍ: "ألا ترين –يا أم عمرو- أنّي أحدث سناً مِن أنْ تحدِّثيني في أمر الزواج؟؟!".

"بل أراك قد بلغتَ مبلغ الرجال، وأريد أنْ أسعد بذريتك؛ ولقد اختار أبوك عروسك: ريطة بنت منبه [1] !".

---

[1]: هي: ريطة بنت منبه بن الحجّاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، كان والدها من وجهاء بني سهم وأسيادهم.

استجبتُ لنصيحة أمي، وانصعتُ لقرار أبي.. وتزوَّجتُ (ريطة)، وما أسرع أنْ تَملَّك حبُها شغافَ قلبي، وما برحتُ أحبها كحب أبي القديم لأمي.. بل أشدّ؛ ولقد بادلتني حباً بحبٍ.. ولهفةً بلهفة.

لكن –في تلك الأثناء- دهمنا خبر موت النجاشي،هرعتُ مع أبي إلى الحبشة، وهناك عرفنا أنَّ: النجاشي –الذي مات- قد أوصى بمُلْك الحبشة لأخيه حتى يبلغ ولده –الذي أنا صديقه- لأنَّه لم يزل غلاماً صغيراً، فإذا بلغ أشدّه؛ ردّ عمه إليه مُلْك أبيه.

بعد مدة من بلوغنا الحبشة.. أُذِن لنا بالدخول إلى النجاشي الجديد لنعزيه في أخيه.. ونهنِّئه بالمُلْك، وكنتُ –قبلها- دخلتُ على الأمير اليتيم لأُعزيه في أبيه وأواسيه، لم يطل لقاؤنا بالنجاشي الجديد، ولم يهتم لنا.. كما كان يهتم أخوه!!

ولقد تفرَّستُ فيه خِلسة –أثناء وقوفنا بين يديه- فقدَّرتُ أنَّه رجلٌ ذو كِبرٍ وصلف؛ أمّا العاص.. فقد قدَّر ما هو أعظم مِن هذا!؟

قال لي –حين خرجنا من عند النجاشي- : "هَلُمَّا بنا –يا عمرو- نرحل مِن هنا!"، فاستأذنتُه أنْ أرجع إلى صديقي الأمير؛ فأمكث معه.. أواسيه قبل أنْ نسافر، لكنَّه همس بصوتٍ يشوبه الجزع: "كلا.. يا ولدي! لم يعد مقامنا –في هذه البلاد- آمناً.. بعد اليوم!"؛ تساءلتُ باضطراب: "لِمَ.. يا أبتِ؟!!"، أجابني باقتضاب: "إنّي أرى –يا ولدي- أنَّ ذاك الملك الجديد ليس كأخيه الهالك؛ إنَّه غادرٌ.. وأخشى على أنفسنا مِن غدره لِما لنا من سابق صلةٍ بأخيه!!؟".

وهرعنا –في الحال- إلى متاعنا.. فحملناه ورحلنا عن الحبشة مسرعين، وقد صدق حدس أبي؛ قد غدر النجاشي بابن أخيه.. فباعه إلى بعض تُجّار النِّخاسَة كأنَّه عبدٌ رقيق.. طامعاً في المُلْك ومُبدِّلاً لوصية أخيه.

استأتُ من ذلك المَلِك الخائن.. وتألَّمتُ -بشدة- لِمَا آل إليه حال صديقي الأمير الصغير؛ لكنْ.. لم يكن باستطاعتي أنْ أفعل شيئاً ينصره أو يمنعه، ثم عدنا أدراجنا إلى مكة.. آيسين من العودة –ثانيةً- إلى الحبشة، وأيقن العاص بخسارتنا لسوقها وتجارتها.

حملتني لهفتي وأشواقي إلى زوجتي –ريطة- حملاً، ولقد وجدتُها أشدّ لهفةً عليَّ.. وألهب أشواقاً إليّ.. حتى أنَّها ناشدتني ألا أغيب عنها مرة أخرى؛ تبسَّمتُ مُلاطِفاً.. ثم همستُ بمودة: "كيف ذاك.. وأنا تاجر؟!! ولابد للتُجّار من السفر والغياب!!"، سكتتْ.. ولم تُخفِ عني حزنها وجزعها من الفراق؛ طيَّبتُ خاطرها.. ووعدتُها بما يُجبر قلبها.

لم يمض من الزمن سِوَى اليسير.. ثم عَلِمنا أنَّ النجاشي الخائن أصابته صاعقةٌ.. فمات، وأنَّ الأحباش عرفوا قدر مَلِكهم السابق، وأشفقوا أنْ تُخان وصيته.. وأنْ يُباع ولده وولي عهده عبداً؛ فهرولوا إلى مَن اشتراه رقيقاً.. ونزعوه مِن يده؛ ثم أجلسوه على عرش أبيه، لم أر أبي –يوماً- أشدّ فرحاً مِن ذلك اليوم؛ أقبل عليّ مُبشِّراً.. يهتف: "هَلُمَّ.. يا عمرو.. إلى جاهك وفخرك الذي ينتظرك، قد استعاد صاحبك مُلْك أبيه.. وأصبح مَلِك الحبشة، وأصبحتَ –أنت- الرجل العربي الأقرب إلى النجاشي!".

لابد أنْ نسرع إلى الحبشة لنُهنِّئ النجاشي باستعادة مُلْكه: (قد تطول الرحلة عن سابقتها؛ فماذا أقول لريطة؟! لن تقدر على فراقي.. ولن أتحمَّل بُعدي عنها!!)؛ انشغل قلبي بتلك الهواجس فيما أعاون أبي في التجهيز للرحلة، وإعداد الهدايا المُحبَّبة إلى النجاشي وحاشيته؛ واحترتُ: (ماذا أفعل في تلك المُعْضِلة؟!!).. إلى أنْ

تساءلتْ ريطةُ مُتوسِّلةً –ذات ليلة- ودموعها الحزينة تنساح على وجنتيها: "ألا تستطيع أنْ تصحبني معك؟!!".
تأمَّلتُ قولها مَلياً.. حتى ارتضيتُ الفكرة، وتحايلتُ كي أُقنِع أبي باصطحاب زوجتي معي؛ حتى تَمَّ لها مرادها.. وحملتُها معي في رحلةٍ كانت مِن أنجح رحلات تجارتي.. ومِن أسعد رحلات حياتي؛ لم نكن –أنا وهي- مُنفكَّيْن عن التناجي معاً طوال الرحلة.. حتى يبهرنا أبي، ولقد أحسنّا الوفود على النجاشي.. وقَدَّمنا له ولحاشيته الهدايا النفيسة؛ فأحسن استقبالنا وسُرَّ بنا.. ورحَّبتْ نساؤه بامرأتي، ومنحنا امتيازات تجارية كثيرة في أرضه.. كمكافأةٍ لي خاصة.

عندما رجعنا مِن الحبشة.. وجدنا مكة قد تغيَّرتْ عمّا خلَّفناها عليه؛ فقد جهر محمد بن عبد المطلب بالدعوة إلى دينٍ جديد: ينبذ الآلهة إلا إله واحد.. وينذر الناسَ بنُشُورٍ وحسابٍ.. بعد الموت.
لم اكترث له كثيراً، غير أنَّ العاص ناصبه العداء.. كما كافة سادة مكة؛ بل.. وكان يسخر منه ويستهزأ به:"ألم يجد الله غير محمدٍ ليبعثه إلينا رسولاً؟!! ومَن ذا الذي يُحيي العظام بعدما صارت رميما؟!! ومَن ذاك الأحمق الذي يُصدِّقه؟!!".

كنتُ أجد قول أبي أقرب للحقيقة التي لا يُخالفها سِوَى مجنونٌ أو سفيه!
وحينما أُناجيه.. أزداد إيماناً بصواب رأيه: "إنْ سَلَّمنا بصدق محمدٍ؛ فهل ننبذ آلهة العرب التي حول الكعبة؟! هل نعادي العرب ودينهم الذي ارتضاه الآباء والأجداد؟!! هل ندع الأموال المحجورة لتلك الآلهة.. التي وُكِّل بنو سهم بها؟!! هل نتخلّى عن ذلك الشرف.. وتلك المكاسب؟!! إنَّ الذي يدعونا إلى شيءٍ كهذا.. لمجنون!!؟"؛ نزعتُ يدي مِن دعوة محمد هذه.. وانشغلتُ بتجارتي.

على أنّنا –ومع مرور الشهور والأيام- تفاجأنا بتَفَشِّي دعوته في بيوت قريش حتى اتَّبعه كثيرٌ مِن سفهاء الأبناء وعصاة العبيد، وتباغتنا بأنَّ عدداً مِن شباب بني سهم.. قد آمنوا بدعوته واتَّبعوه سِراً؛ كان في طليعتهم: أخي الغِرّ –العاق لأبيه- هشام.. الذي لم يعبأ لشرف أبيه إذ يعيبه الناس بصبوء ولده!!؟
سجنه أَبِي.. وعذَّبه، كان يجلده –كل يومٍ- بالسياط.. ليثوب إلى رشده ويرجع إلى طاعة أبيه دونما يَرِقّ له قلبُ أحدنا.. غير ما كان مِن رأفة زوجتي به؛ فكانت تسقيه وتطعمه أحياناً؛ لكن.. الصابئ استرسل في غَيّه.. وثبت على عقوقه!!

مثلما صنع أَبِي بولده العاق.. صنع بنو سهم بالصابئين من أبنائهم؛ هَمُّوا بهم.. وضيَّقوا عليهم، ونكَّلوا بهم زمناً.. حتى غافلنا بضعةُ عشر رجلاً منهم.. وفَرّوا إلى الحبشة؛ ورُزِأ أَبِي بأنَّ فيهم: أخي.. هشام!؟؟
وقد ارتبتُ في ريطة أنَّها التي يسَّرتْ له سبيل التسلُّل مِن محبسه.. شفقةً منها عليه؛ لكنِّي تغافلتُ عن ذلك.. ولم أُعاتبها حرصاً على قلبها الرقيق.. ألا أجرحه!!

استاء العاص بشدة.. وسخط على ولده الصابئ، وأقسم لإنْ ظفر به ليُعذِّبنّه حتى يرجع عن دين محمد؛ لكن.. أَنَّى هذا وقد تَمكَّن ذلك الصابئ وكثيرون مثله من الهروب من أيدينا، وقد أوغلوا إلى بلادٍ بعيدة:

"مَن يأتينا بهم.. وقد ابتعدوا إلى الحبشة؟!!"، لم يكن هذا السؤال يتردَّد على لسان أبي -وأسياد سهم- فقط؛ وإنَّما كان يدور على ألسنة سادة قريش وملأها، ولقد أجمعوا أنَّ ليس لها إلا نديم النجاشي وصاحبه: عمرو بن العاص السهمي.

أخذني أبي –باعتزاز- إلى دار الندوة هاتفاً: "يا عمرو! إنَّ ملأ قريش يأتمرون بأولئك الصباة ليقتلعوهم مِن الحبشة.. ويستردّوهم؛ وأنت لها.. ياولدي!!".

رحَّبوا بي قائلين: "يا ابن العاص! هل تشفع لنا لدى صاحبك –النجاشي- في استرجاع هؤلاء الصباة الذين فارقوا ديننا.. ولم يدخلوا في دينه؟؟!".
أجبتُ–وعيون أبي ترمقني بافتخار- بثقةٍ تامة: "أجل.. يا سادة قريش! أنا لها؛ لكن.. أعينوني بهدايا قيمة؛ أرشوه بها!"، قالوا: "نعم.. نُعينك! خذ مِن أموالنا ماشئتَ.. حتى تأتيه بما يُحِب!".
ثم أردف الوليد بن المغيرة –شيخ مخزوم وأكثر سادة مكة مالاً- : "سأهبك ما يكفيك وزيادة، وليُرافقك ولدي عمارة؛ فهو.. خير سفير لنا معك!".

(أُفٍّ لذلك العربيد المُتغطرس! كيف أصحبه معي؟!! يزعم أبوه أنَّه خير سفير لقريش؟!! بل –تالله- إنَّه لشر سفير!!).
(لستُ مُغفَّلاً! أعلم -يقيناً- أنَّ الوليد بن المغيرة أراد لابنه المغرور أنْ يتسلَّق على أكتافي لينال حُظْوَةً لدى النجاشي؛فيُعددها في أحسابه.. ويُمكِّن له في ملأ قريش، هيهات.. هيهات.. يا شيخ مخزوم!).
(لكنّي لا أملك أنْ أرفض اصطحابه؛ فإنّي –في سفارتي هذه- أحتاج إلى أموال أبيه.. وبني مخزوم!!؟).
(وكذا.. لستُ أنا بالذي يحني ظهره ليطأه أمثالُ ذلك السَّوَّار[1] المُختال بأقدامهم!؟ إذاً.. فلنرى ما تسفر عنه الأيام!!؟).

[1]: رجلٌ سَوَّار: وثَّاب مُعربد، والذي تسور الخمر في رأسه سريعاً.. أي تحيط برأسه وتلعب بها.

- ٣٠ -

اضطررتُ أنْ أصحب عمارة بن الوليد معي.. بعد أسابيع قضيناها في جمع الهدايا الثمينة والمحبَّبة إلى النجاشي وحاشيته!
وما قدرتُ على تَرْك ريطة زوجتي في مكة، وما كانت لتستطيع مفارقتي؛ فمازلنا شابين متحابين.. أشواقهما المُتبادَلة لا تكاد تُكبَح!!

انطلقتْ قافلتنا -مُفارِقةً مكة- إلى مرفأ الشعيبة، ومِن هناك استأجرنا سفينةً.. أبحرتْ بنا –في بحر القلزم- إلى الحبشة.
عندما صعدنا إلى السفينة داهمني شعورٌ مريب بأنَّ هذا المخزومي الأشر سيُزعجني في رحلتي.. وسيفسد عليَّ صحبتي لزوجتي؛ فإنّي أعلم –مِن أخباره آنفاً- أنّه رجلٌ ماجنٌ مُعجَّبٌ بنفسه.. مُغرمٌ بالنساء، لا يتورَّع عن انتهاك الحرمات وهتك الأعراض.
خشيتُ منه على زوجتي؛ فاتفقتُ مع النُّوتّي[1] أنْ يُهيئ لها –في بطن السفينة- مخدعاً مستوراً تُقيم فيه.. فلا يدخل عليها أحدٌ غيري.

تَوَغَّلنا في عرض البحر، وكما كنتُ أُحاذِر.. ما برح عمارة يتلصَّص علينا كلما اختليتُ بزوجتي.. أو مكثتُ معها -في مخدعها- لتأنس بي بعض الوقت.
لبث –يسيراً- على تلك الحال، ثم قال لي -ذات مرة- مُتظاهِراً بالمودة والنصيحة: "هل حملتَ زوجتك معك لتحبسها في بطن السفينة؟!! ادعها –الليلة- لتسمر معنا؛ فإنَّها ليلةٌ مقمرة!".

---

[1]: النوتي: هو الملاح الذي يدير السفينة في البحر.

أعلم أنَّه مُتهتكٌ.. لا يُؤمن شَرُّه على النساء؛ غير أنّي أحببتُ لريطة أنْ تخرج مِن مخدعها الخانق، وتصعد إلى ظهر السفينة.. فتستمتع بنداوة الليل وهبات النسيم؛ فدعوتُها.. لتجلس معنا.

انزوينا –في جانبٍ من السفينة- بعيداً عن مخالطة البَحّارة، أخرج عمارة –مِن متاعه- خمراً.. ولقد كان يحمل منه الكثير، ثم التمس منها أنْ تسقينا؛ وأومأتُ إليها: أنْ افعلي؛ فأخذتْ تسكب له في كأسه.. كلما فرغتْ.

حرصتُ ألّا أُكثر مِن الشراب كيلا تلعب الخمر برأسي.. خِيفة أنْ يعبث بي أو بزوجتي، ونبَّهتُها –هي أيضاً- إلى ذلك.

لبثنا نتنادم سوياً.. حتى انقضى الليلُ إلا قليلاً، وأثقل صاحبُنا الشرابَ.. حتى ثقلتْ رأسُه، وأثقل عليَّ بمزاحه السمج؛ راح يزدريني.. لامزاً قِصَر قامتي، بل.. وأثقل على ريطة.. وأنشأ يتبجَّح بمغازلتها أمامي.

كل هذا وأنا أتصبَّر عليه؛ إلا أنَّه تمادى في غَيِّه وتَهتُّكه.. ودنا منها قائلاً بخلاعةٍ صريحة: "قَبِّليني!!"، انتفضتْ ريطةُ مُتسِّخطةً.. مُبتعِدةً عنه، نهضتُ.. وحجزتُ بينهما مُعاتِباً بنبرةٍ لينة: "يا فتى مخزوم! أ تقول هذا لابنة عمك؟!!".

وكأنَّما استهان بي واستضعفني؛ فالتفت إليَّ هاتفاً بلسانٍ مخمور: "قل لها: فلتقبِّلني.. أو لأضربنّك بسيفي!!؟".

أذهلني استخفافه بي، وجمدتْ زوجتي في مكانها.. مُبهوتةً مِن تجرُّؤه ووقاحته؛ بيد أنّي تمالكتُ نفسي، ورغم دماء الحَمِيَّة الغاضبة التي تنتفض في عروقي.. أظهرتُ له هدوءاً بارداً، وأومأتُ إليها قائلاً بثباتٍ: "قَبِّلي.. ابن عمك!".

صَعَّر لها خَدَّه الأثيم.. مزهواً بنفسه، أقبلتْ إليه.. ترتجف أطرافها امتعاضاً، أغمضتْ عينيها الباكيتين خجلاً، وبشفاهٍ مُرتعشةٍ.. لثمتْ وجنته لثمةً خاطفة، وانسحبتْ –على استحياء- مُهرولةً.. لتهبط إلى مخدعها.

ازداد الفاجر طَمَعاً فيها، وقام يسعى وراءها؛ فأمسكتُه مِن كتفيه.. لأصرفه عنها؛ نزع نفسه مني بحركةٍ عنيفة.. عازماً على ملاحقتها، صددتُه.. وهتفتُ زاجراً: "مَهْ.. أيها المخزومي! ألا تستحي؛ إنَّك.. سكران!!".
دفعني في صدري.. وسبّني، وأنشأ يقذف أمي.. ويُعيِّرني بأنّها كانت أمةً مملوكةً لعمه الفاكه، تلاحينا.. وارتفع تصاخُبنا حتى هرع إلينا البَحّارة، وفرَّقوا بيننا.

أسرعتُ ثائراً إلى ريطة.. ومِن وراء بابها صحتُ: "أوصدي عليكِ بابكِ! لا تفتحيه.. ولا تخرجي حتى آذن لكِ!"، ولم أنصرف من وراء الباب حتى سمعتُها تُغلِّق الباب بالمزلاج، وكذلك.. سمعتُها تبكي وتولول: "أ يُصنَع بي هذا.. وأنا قرشيةٌ حرة؟!!".
انسحبتُ مِن أمام بابها بقلبٍ موجوع.. أُحدِّثها في خاطري: (كلا.. يا زوجتي الحبيبة! تالله.. لن تُفضَحي وبين جنبي قلبٌ ينبض! وعدٌ عليّ: لأقتصنَّ لكِ مِن هذا الشقي الذي أهانني.. وأراد فضيحتكِ!!).

على أنّي آثرتُ العقلَ والرَّوِيَّة: (هذا التافه أقل شأناً مِن أنْ يتناحر فيه البيتان القرشيان[1]؛ فلأتربَّص به حتى تواتيني فرصة؛ فأفتك به.. وأنسلّ بريئاً مِن جريرته.. دون أنْ أُقحِم أبي وعشيرتي فيما لا يُطيقون!!).
فأعرضتُ مُبتعِداً عنه.. حتى تهدأ فورتي ويفيق من سكرته.
تنحَّيتُ إلى مِنْجَاف[2] السفينة.. فجلستُ عليه.
لكنَّ النَذْل –بعد حين- غافل القومَ.. وباغتني ودفعني من ظهري؛ فسقطتُ مِن على المِنْجَاف في البحر، ارتطم جسدي بالأمواج، وغمرني الماء.. حتى أحسستُ بالغرق؛ تداركتُ.. وأدركتُ نفسي، طفقتُ أشقُّ عُباب البحر.. سابحاً –نحو

[1]: يقصد بالبيتين: قومه: بني سهم.. وقوم عمارة: بني مخزوم.

[2]: المنجاف: هو سُكَّان السفينة -أي دفتها- الذي تُعدَل به في سيرها.. وتمنع من الحركة والاضطراب.

السفينة- بكلتا ذراعيّ ورجليّ، في غُبْشَة الليل –وفيما الماء المالح يلذع عيني- لم أَعِ: أ قريبٌ أنا مِن السفينة أم بعيد؟؟
جعلتُ أُنادي صارخاً: "أيها النُّوتِيّ! يا أهل السفينة.. أدركوني! إنّي أغرق في البحر!!"، مِن حَظّي الغير عاثر.. أنْ جاء أحدُ البَحّارة يحمل مصباحاً ينظر به في الماء.. كأنّما سمع صوتي، أخذتُ –وأنا أُكابد الأمواج- أُلوِّح له بيدي.. وأُناديه مُستَصرِخاً: "أيها البَحّار.. أنا هنا!!"، حتى انتبه ليّ.. وأبصرني، أَلْقى إليّ بحبلٍ غليظ.. تناولتُه وتشبَّثتُ به، أتى بَحّارٌ ثانٍ.. وشرعا يسحبان الحبل إلى أنْ التقطاني، صعدتُ إلى السفينة.. وجسدي ينتفض مِن الهلع ومُدافعة الأمواج.

ربما فطن الخبيثُ إليهما وهما ينتشلاني، أتى إلينا –ولم يزل كأس خمره في يده- ضاحكاً مُنتشياً، رمقتُه مُعاتِباً.. فهتف مُقهقهاً في صفاقة: "أما والله.. لو علمتُ أنّك سابحٌ ما طرحتُك؛ ولكنّني كنتُ أظُنّ أنّك لا تحسن السباحة!!".
أسررتُها في نفسي.. كاظماً غيظي أمام القوم، وتظاهرتُ بأنّنا كنّا نتمازح.. هاتفاً: "ويحك يا ابن العم! أ هكذا يكون المزاح؟!!"، ثم إنّهم أدخلوني إلى مخدع زوجتي!

فزعتْ ريطةٌ حينما أبصرتني: حاسر الرأس –فقد فقدتُ عمامتي في الماء- ثائر الشعر واللحية.. مُخضَّل بالماء.. مُبتَلّ الثياب.. مُرتجِف الأطراف.. جاحظ العينين، صاحتْ باضطراب وارتياع: "يا ويلي!! ماذا أصابك.. فداك نفسي؟!!".
قعدتُ.. وقد أصابني الإعياء؛ فارتمتْ –مذعورةً- تبكي عند قدمي، أشرتُ إليها: أنْ اهدئي، لم تطمئن.. حتى اطمأنتْ أنّه ليس بي بأس.
ثم تمالكتْ نفسها.. وشرعتْ تساعدني في تجفيف جسمي وتبديل ثيابي المبتلة.

ثم التزمتُ الصمت؛ كانت آلام كبريائي المهان أشدّ عليّ مِن آلام جسدي!؟

شُقَّ عليَّ أنْ يطمع ذلك الأثيم في امرأتي، وأنْ يُحقِّر من شأني أمامها، وأنْ يمتهن أمي.. ويُعيِّرني بسيرتها الأولى، ثم ها هو ذا يتعمَّد قَتْلي.. ولا يُبالي؛ إنَّه يَدِلُّ عليّ بمال أبيه ونسبه.. وسطوة عشيرته؛ وإنَّه لأحقر -في عيني- مِن بعوضة!!

ارتعبتْ ريطةُ عندما انتفضتُ –وأنا أناجي دخيلةَ نفسي- ثم أهمس مُغتاظاً: "يحسب نفسه فاتكاً.. ويزدريني؟!! تالله.. لإنْ صارعني لصرعتُه، ولإنْ خرجتُ إليه.. لأقتلنَّه بسيفه، وليصنع –بعدها- بنو مخزوم ما يصنعون!!".
تشبَّثتْ بي بكل جوارحها.. ومضتْ تَنُوح: "يا ويلتي! يا ليت أمي لم تلدني! أنا التي جلبتُ لك المتاعب.. يا حبيبي! ليتني.. ما رافقتُك في هذه الرحلة المشؤومة!".

لبثتُ –حيناً- مذهولاً.. مُنشغِلاً عنها في خطراتي: فنبَّهني بكاؤها لوجودها بجواري.. وإلى هلعها وارتياعها؛ أشفقتُ عليها.. وساءني أنْ أرى دموع الفزع في عينيها، التقطتُها في أحضاني.. وترفَّقتُ معها؛ ولم أزل بها.. حتى سكَّنتُ جزعها، ثم دهمنا النعاس.. ونحن على تلك الحال.

رغم الليلة الطويلة العصيبة.. استيقظتُ مُبكراً؛ فألفيتُها مُتعلِّقةً بعنقي وهي نائمة، نبَّهتُها.. فنهضتْ مفزوعةً مضطربة، هتفتْ مُتوسِّلة: "بالله.. يا عمرو! لا تخرج لهذا الفاجر؛ إنّي أعلم أنَّك لو رأيتَه.. لقتلتَه! وبنو مخزوم لن يتركوك تمشي على الأرض!؟"، ثم أردفتْ باكية: "بؤساً لي!! قد أوردتُ زوجي وأبي وعشيرتي.. المهالكَ!!؟".
هدَّأتُها.. قائلاً في تلطُّفٍ: "لا ترتاعي -يا زوجتي العزيزة- ولا تحزني! لا تثريب عليك فيما جرى؛ إنَّما أراد هذا الغَدُور إهانتي أنا والفتك بي؛ ولن أدعه يسلم بها!!".
"ماذا ستفعل.. يا عمرو؟!! رحماك بقومك –بني سهم- أنْ يُقاتلهم بنو مخزوم حميَّةً لهذا السِّكِّير!".

"لا تجزعي.. يا ريطة!! فإنَّ زوجكِ رجلٌ يسبق حلمُه جهلَه.. ويسبق رشدُه غضبَه! وإنَّما لكل حادثٍ أوانه؛ وليس هذا أوان الثأر والقصاص.. الذي لا محيص عنه، لكنَّه أوان النهوض بالوظيفة التي وكَّلتني بها قريش، والتي كاد هذا التافه يُفسدها بأفعاله الرعناء.. قبل أنْ تبدأ!!".

زفرتُ حانقاً.. ثم استطردتُ: "لكن -ورأس أبي- لأنتقمنّ منه، ولأَحُوكنَّ له أَخِيَّة[1] لا ينفك منها أبدا؛ ودون أنْ يُضام فيه العاص بن وائل.. أو سهمي واحد!!؟".

انقضى نهارٌ كاملٌ.. لم أرَ فيه وجهه الذميم، ثم خرجتُ –مساءً- مِن مخدع ريطة.. بعد أنْ أكَّدتُ لها أنَّي سأُرجئ انتقامي حتى أُنهي مُهِمَّتي لدى النجاشي، وأنّي سأحتال لأفعلها –حين أفعلها- دونما أُورِّط أبي أو قومي مع بني مخزوم.

أمرتُها –مُضطراً- أنْ تنحبس في مخدعها فيما تَبقَّى من أَمَد الرحلة، ثم صعدتُ إلى ظهر السفينة، رأيتُه –مِن بعيد- يأتي إليَّ مُتثاقِلاً.. لم أمشِ إليه حتى دنا مني، ابتسم ابتسامةً –هي أقرب للشماتة مِن الاعتذار- وتنحنح.. ثم قال: "تباً للخمر!! لا تزال بمُتعاطيها.. حتى تُخرِجَ الرجلَ الكَيِّس عن رشده!!؟".

أجبتُه بلهجةٍ جافة: "كيف تتعاطاها.. وقد حَرَّمها أبوك الوليد على نفسه؟؟!".

أجاب بلهجةٍ طفولية عابثة: "إنّي أشربها مِن وراء ظهره، ولو عَلِم.. لوبَّخني عليها.. ولمنعني عطاءه حتى أدعها!!"، ثم استطرد بإصرارٍ وقح: "وإنّي لن أدعها؛ فحَذار –يا ابن العاص- أنْ تُعلِم بها أبي أو أحداً مِن إخوتي!!؟".

أومأتُ: ألّا تخشَ مِني، وقلتُ مُتظاهراً بالود: "أنا لا أخون خليلي.. ولا أفضح له سِرّاً!"، هتف مُتسائلاً بارتياح: "نحن خليلان.. إذاً؟؟!".

---

[1]: الأخية: هي عُودٌ في حائِطٍ، أَو في حَبْلٍ يُدْفَنُ طَرَفَاهُ في الأرضِ، ويُبْرَزُ طَرَفُهُ، كالحَلْقَةِ تُشَدُّ فيها الدابَّةُ.

أجبتُه: "لا شك في هذا! أنت فتى مخزوم.. وأنهد فتىً في قريش، ويسرّني أنْ نكون صديقين؛ وما حدث البارحة.. لا يعدو –عندي- أنْ يكون مزاحاً بين الأخِلاّء!!".
ابتسم.. وهتف بانشراح: "يُسعدني أنْ تقول هذا! وإنّي أشهد لك أنّك رجلٌ كيسٌ حليم!"، ثم استطرد بنبرةٍ أكثر جدية: "وما أَوَدّه منك هو أنْ تقدِّمني بين يدي النجاشي.. وتقرِّبني منه ومن حاشيته!؟؟"، ثم أردف بلا مبالاة: "هذا مُبتغَى الوليد بن المغيرة المخزومي!!؟".
"اطمئن.. يا فتى مخزوم! لأُقدمنّك بين يديه.. حتى تكون أدنى العرب منه منزلةً!".

ثم ما برح يلاطفني ويحادثني.. ويُثرثر ويَقُصّ عليَّ مُغامراته الماجنة مع النساء؛ ظانّاً أنَّه بذلك قد يُنسِّيني إهانته لي وطمعه في امرأتي أمام عيني؛ هيهات!!؟
على أنّي أبديتُ التجاوب معه، تصافحنا من جديد.. وأَوْهمتُه أنّني تناسيتُ تلك الحادثة، واعتبرتُها: ذلة سكران!
فيما بقي من الرحلة.. تكرَّرتْ جلساتُ تنادُمنا.. وتطاولتْ حواراتُ تسامُرنا، استمرَّ في التودُّد إليّ، واستمررتُ في مخادعته، وتظاهرتُ –أمامه- بالإعجاب به وبجرأته.. ومهارته في إغواء النساء!؟

بيد أنّي لم أكن لأنسى الإهانة، ولم أكن لأعفو عن محاولته قتلي لمّا قذفني في البحر، كنتُ استمع لنوادر فجوره بلسانٍ يلفظ المدح.. وقلبٍ يُضمر الضَغَن، كنتُ أُنادمه.. مُحاذِراً؛ فأخلط شرابي بالماء كيلا تُغيِّب الخمر عقلي، وبينما يُغيِّب السُكْرُ عقلَه في الأحلام؛ كانت رغبة الانتقام تُغيِّب عقلي بحثاً عن مكيدةٍ أثأر بها لكبريائي دونما يُدنِّس ثوبي بدمه.

حدَّثتني نفسي أنْ أُغري به ملاحي السفينة.. ثم نطوِّحه في البحر غريقاً،ثم أقول لأهله: لم أعلم عنه شيئا!! غير أنّي استقبحتُ الفكرة؛ فإنّ أباه وبني مخزوم سيحمِّلونني جريرته؛ فتصبَّرتُ إلى حين.

رستْ السفينة على شاطيء الحبشة؛ فانتهتْ الرحلة البحرية.. وبدأنا رحلةً برية في أرض الحبشة حتى نصل إلى قصر النجاشي.
في أرض الحبشة.. عَلِم الأحمقُ أنَّه أحوَج ما يكون لي؛ في أرضٍ ليستْ بأرضه.. وبين قومٍ ليسوا بقومه.. يتكلَّمون لغةً ليستْ بلغته؛ فازداد تقرُّباً إليّ.. وتباعُداً عن الطمع في امرأتي.
حدَّثتني نفسي أنْ أُحَرِّض عليه بعض مُشاغِبي السوق ليفتكوا به، ثم صَرفتُ عقلي عن تلك الفكرة؛ فإنَّ بني مخزوم سيرتابون فيّ.. وسيقولون لائمين: "لِمَ لَمْ تدافع عن ابن عمك؟! لِمَ لَمْ تَمُتْ معه؟؟!".

بَلَغَنا مشارف (أكسوم)؛ مدينة جميلة.. تقع في سفح جبل شاهق، وهي قصبة الحبشة.. التي فيها قصر النجاشي ومقر حكمه، وكذا.. فيها كنيستهم المقدسة.
تَوَجَّهتُ –أولاً- إلى بعض أصدقائي مِن العوام، وصلتُهم بهدايا مُفرِحة، رحَّبوا بنا.. وأكرموا وفادتنا.
لبثنا عندهم أياماً.. لا ندلف إلى القصر؛ وذاك الأرعن يُلحّ عليّ في الولوج إلى القصر ومقابلة المَلِك، كنتُ أُصبِّره هامساً: "تمهَّل –يا رجل- لنتبيَّن خبر أولئك الصباة قبل أنْ نلج إلى المَلِك، ثم نتحيَّن فرصةً سانحة.. نتقرَّب –فيها- إليه بالهدايا النفيسة؛ فيجيب حاجتنا فيهم!"، وذيَّلتُ كلامي ناصحاً: "ينبغي أنْ تُحسن الدخول على الملوك.. وأنْ تجمل في الطلب.. حتى يُجيبوك إلى مسألتك!!"، هَزَّ كتفيه.. غير عابئ لنصيحتي.

تَطلَّعتُ أخبارَ الصباة؛ فعلمتُ مِن بعض أصفيائي أنَّهم يقيمون في قريةٍ قريبة –اسمها: نجاش[1]- وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، لكنَّهم لم يتَّصلوا بالنجاشي.. ولم يعرف بخبرهم.

ثم شَمَّرتُ عن ساعد الجدّ، قرَّرتُ أنْ أدلف إلى القصر؛ وأزمعتُ –قبل أنْ استأذن في لقاء النجاشي- أنْ أعرّجَ على بعض الذين أعرفهم مِن البطارقة، وأنْ أُغدق عليهم بالهدايا الثمينة، وأُكلِّمهم فيما جئتُ به.. كي يُؤيِّدوني لدى المَلِك!!
وقد فعلتُ.. ووعدوني خيراً.. حتى أيقنتُ أنَّ حاجتي مقضية، وأنّي –لا محالة- عائدٌ إلى مكة.. وبين يدي الصباة مصفدين في الأغلال، ثم استأذنتُ في دخول القصر ومقابلة النجاشي؛ ولبثنا أياماً ننتظر الإذن.

في تلك الأثناء.. لم أنفك عن التفكير في الثأر الذي أرجأتُه: كيف أكيل لهذا المخزومي الأَشِر[2] بصاعه صاعين؟؟!
حدَّثتني نفسي أنْ أرمي به مِن فوق سور الكنيسة السامِق، ثم أقول لأبيه وقومه: "وقع مِن فوق السور؛ فاندق عنقه!"، لكنَّهم لن يُصدِّقوني؛ حبَّذتُ أنْ أتريَّث حتى تواتيني فرصةٌ أفضل.

ثم جاءنا الإذن بالولوج إلى القصر، فدخلنا مُرحَّباً بنا.. حيث أتاني نفرٌ مِن حاشية المَلِك الذين أعرفهم وأَتَودَّد إليهم؛ استقبلونا بما نحن له أهل؛ فأنزلوا زوجتي في ضيافة بعض نساء القصر، وأنزلونا في نُزُلٍ يليق بأمثالنا، بادلتُهم وداً بودٍّ.. ومنحتُهم هدايا سخية، ثم أوحيتُ إلى ذاك المخزومي بأنَّهم ذوو جاهٍ لدى المَلِك.. وزيَّنتُ له التقرُّب إليهم، والتمستُ منهم أنْ يُحسنوا معاملته.

---

[1]: وقيل أنَّ اسمها: نكَاش.

[2]: الأَشِر: هو: المَرِح المُتكبر.

ثم بقينا نتحيَّن السماح لنا بلقاء النجاشي.

خلال تَرقُّبنا للقاء المَلِك.. حدَّثتني نفسي أنْ أستميل أحد الغلمان.. وأحثُّه على دَسِّ السمِّ الزُعاف في شراب ذاك المخزومي الأثيم؛ راقتْني الفكرة.. وشرعتُ في تنفيذها؛ جعلتُ أمدح –أمامه- خمر الحبشة ومذاقها.. وحبَّبتُ إليه الاستكثار من شرابها، بيد أنّي تراجعتُ قبل أنْ ندسّ له السمّ.. مخافة سوء العاقبة؛ جريمةٌ –كهذه- لو تمتْ في قصر النجاشي.. إنَّها فضيحة!!

ثم أُذِن لنا بالمثول بين يدي المَلِك، دخلنا البلاط مُطأطئين الأرؤس، ثم سجدنا للمَلِك؛ أطلنا السجود.. إلى أنْ أُمرنا برفع رءوسنا، تبسَّم لي.. ورحَّب بي وأدناني من مجلسه، ثم أُذِن لي بالكلام؛ فأنشأتُ أمدح المَلِك وأُثني على كريم خصاله.. حتى اغتبط وقال: "يا عمرو! سَمِّ حاجتك!!"، هتفتُ بتَبْجِيل: "حاجتي أنْ يرضى عني المَلِك.. ويتفضَّل عليَّ.. ويقبل مني هديةً متواضعة.. لا تليق بمقامه!!".

ثم استعرضوا الهدايا التي استحسنها النجاشي؛ وأمر بقبولها.. ثم قال لي:

"يا عمرو! سَلْ.. تُعطى!!؟".

قلتُ بصوتٍ خاشع: "يا مولاي! شرذمةٌ مِن بني جلدتنا بغوا علينا، ثم هربوا مِنّا والتجؤوا إلى بلادكم.. يحسبون أنَّكم ترضون بإيواء البغاة في بلادكم!".

أجاب آمراً جنوده باقتضابٍ: "ائتوني بهم، ثم سلِّموهم إلى عمرو!"، تبسمتُ له بامتنان، وفركتُ يدي سروراً.. أنْ تمت سفارتي بنجاح.

في غضون ذلك.. كنّا نقيم في القصر كأعزّ ضيف، وكنتُ أختلف إلى زوجتي فألتقي بها، وأُعطيها هباتٍ إضافية.. لتهديها إلى النساء اللاتي يستضفنها، بينما ذاك المخزومي ينسلّ –مِراراً- مِن مَقَرِّ إقامتنا.. ولا أعلم أين يغيب!؟؟

وقد واتتني فيه خطةٌ.. ظننتُ أنَّها خير خطةً للثأر والانتقام؛ فكَّرتُ أنْ أَتَوَصَّل إلى إحدى ساحرات الحبشة.. واستحثّها فتسحره سحراً بطيئاً.. يُهلكه بعد أَمَد؛ فلا أُتَّهَم فيه، رضيتُ الفكرةَ، وأزمعتُ العمل بها.. بعد إنهاء مُهِمَّتي لدى النجاشي.

ذات ليلة.. دعانا النجاشي إلى مجلس سمره؛ فقلتُ للمخزومي: "هذه فرصتك للتقرُّب إلى النجاشي؛ فلا تُفوِّتها!"، غير أنّ الأهوج خرج مِن عندي.. ولم يرجع، اضطررتُ إلى حضور سامر النجاشي بدونه، لم يفتقده المَلِك؛ إنَّما سأل عنه سؤالاً عابراً؛ فاعتذرتُ عنه بأنَّه مُتوعِّك.. ولا يستطع مفارقة فراشه.
ثم إنَّ النجاشي أخبرني: أنّي سوف أتسلَّم الصباةَ.. غداً.

قضيتُ ليلةً سامرةً بهيجة.. في ضيافة النجاشي، ثم انكفأتُ إلى منزلنا.. لأتدبَّر مع المخزومي: الترتيبات الواجبة علينا –باكراً- بعدما نظفر بأولئك الصباة الملاعين.. حتى نحكم قبضتنا عليهم.
على أنّي لم أجد لذلك العابث أثراً، انتابني القلق والريب.. وتساءلتُ: (ويح أمه! أين يختفي هذا الفاسق كل هذا الوقت؟!! كيف يتخلّى عن مسامرة النجاشي حين يدعوه إليها؟!!)، (تالله.. إنَّه لعابثٌ!! حَمَّلتنا قريشُ أمانةً.. ويأبى هذا السفيه أنْ يحملها!؟؟ أراد له أبوه أنْ يكون مِن ذوي الشرف والأحساب.. ومِمَن يدخلون على الملوك؛ ويقنع هو بالعبث وتوافِه الأمور؛ يا حسرتي.. على مخزوم!!).

ثم غشيني الماجنُ –آخر الليل- مُغتبِطاً مُنتشِياً.. ليهمس في أُذني بفمه الذي تفوح منه الخمر: أنَّه كان يَدِبّ إلى امرأةٍ مِن نساء النجاشي؛ ثم بدأ يحكي لي ما وقع بينهما، تساءلتُ مُتعجِّباً: "كيف.. وأنت لا تتكلَّم بلسان قومها؟!!".

ضحك ببذاءة.. قائلاً: "وهل يحتاج ذلك إلى محادثتها بلسان قومها؛ وإنَّها تتكلَّم بشيءٍ مِن كلام العرب!".

ثم استسلم للنوم.. وخلَّفني أتفكَّر في رَزِيَّته: (عجباً لك.. أيها الداعر! لو أنَّك تعلم مَغَبَّة ما تفعل؟!)، (وأيم الله.. سيُفسد علينا سِفارتنا، بل.. قد يُعرِّضنا لنقمة النجاشي؛ فنهلك.. ونخسر كل شيءٍ! تباً له.. ولِمَن أرسله معي!!؟).

تملَّكتني حيرةٌ شديدة، وانصرم الليل.. وأنا عاجزٌ أنْ أُفكر: كيف أعالج تلك البَلْوَى؟!! انفلق الصبح.. ودهمني نهارٌ فاضح؛ ثم دُعينا إلى بلاط النجاشي.
سجدنا بين يديه، ثم قرَّبنا منه.. حتى أجلسني عن يمينه.. وأجلس المخزومي عن شماله؛ فاستبشرتُ بحُسن استقباله لنا.

ثم إنَّه أومأ إليّ لكي أنطلق مع جنوده لأتسلَّم الصباة، لكن.. قبل أنْ أنهض من المجلس سمعنا صوتاً بالباب.. يُنادي: "أيها الملك! يستأذن عليك.. حزبُ **الله**!!"، انتبه له النجاشي.. فقال: "مُرُوا هذا الصائح.. فليعد كلامه!"؛ فأعاد كلامه.
فقال النجاشي: "نعم! فليدخلوا.. بإذن **الله** وذمته!"، فدخل نفرٌ.. تأمَّلتُهم؛ فإذا هم: جعفر بن أبي طالب.. ورجالٌ مِن الصباة (لم أَرَفيهم أخي: هشام)، أسرعتُ قائلاً للنجاشي: "أعزّك الله.. يا مولاي! إنَّهم البغاة الذين أريد؛ فادفعهم.. إليَّ!!؟".
أجابني في حسم: "مَهْلاً.. يا عمرو.. حتى أسمع منهم!!".

وقفوا بين يدي النجاشي.. ولم يسجدوا له؛ فأحببتُ أنْ أُخيفهم.. وأنْ أُوغر صدرَه عليهم قبل أنْ يستمع إليهم؛ فهتفتُ فيهم.. مُستقبِحاً: "ألا تسجدوا لجلالة المَلِك!؟"، بيد أنَّهم لم يجيبوني.. ولم يحرِّكوا ساكناً!!

خاطبهم النجاشي مُتسائلاً باستغراب: "ما منعكم أنْ تسجدوا لي؟!!"، تقدَّم جعفر خطوتين.. ثم قال بثبات: "إنَّما نسجد لله –الذي خلقنا- وحده!!"، ثم استطرد –فيما لاحظتُ أنَّ النجاشي بدأ يُنصت له باهتمام- بلغةٍ فصيحة: "وإنَّما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان؛ فبعث الله فينا نبياً صادقاً، وأمرنا بالتحية التي رضيها الله.. وهي: السلام.. تحية أهل الجنة!".

التفتُ إلى النجاشي.. فكأنَّه استطاب كلامه، قال مُتلطِّفاً: "أَيُّكم الهاتف.. يستأذن؟؟"، أجابه جعفر: "أنا!!"؛ فأشار إليه: أنْ تكلَّم.

قال الصابئ: "إنَّك مَلِكٌ.. لا يصلح عندك كثرة الكلام.. ولا الظلم! وأنا أُحب أنْ أُجيب عن أصحابي هؤلاء!".. مشيراً إلى أصحابه الذين معه، ثم أردف: "فأمُرْ هذين الرجلين –مُشيراً إليّ وإلى صاحبي- فليتكلَّم أحدهما؛ فتسمع محاورتنا!!".

هَزَّ النجاشي رأسه موافقاً، وأومأ إليَّ.. مُبيحاً لنا أنْ نتحاور في حضرته؛ فما وجدتُ محيصاً مِن محاورته، اعتدلتُ.. وقلتُ له بتحفُّز: "تكلَّم.. أنت!!؟".

فخاطب النجاشي قائلاً: "أيها الملِك! سَلْه: أ عبيدٌ نحن.. أم أحرار؟ فإنْ كنّا عبيداً أبقنا[1] مِن أربابنا؛ فارددنا إليهم!".

التفتَ إليّ النجاشي مُستخبِراً؛ فما استطعتُ أنْ أكذب على الملِك، قلتُ: "بل.. أحرارٌ كرام!!"، فاستأنف: "هل أهرقنا دماً بغير حقٍ؛ فيُقتصّ منّا؟؟"، ومرة ثانية أجبتُ صادقاً: "كلا!! ولا قطرة!!"، فاستأنف: "هل أخذنا أموالَ الناس بغير حقٍ؛ فعلينا قضاؤها؟"، قلتُ: "ولا قيراط!!".

آنئذ.. سألني النجاشي بلهجةٍ صارمة: "فلِمَ تطلبونهم؟!!"، فأجبتُه غير مُتلعثِمٍ: "كنّا نحن وهم على أمرٍ واحدٍ.. على دين آبائنا؛ فتركوا ذلك.. واتَّبعوا غيره!؟؟".

---

[1]: أبقنا: أي.. هربنا.

تَوَجَّه إلى جعفر سائلاً: "ما هذا الذي كنتم عليه؟ وما الذي اتَّبعتموه؟ قُلْ.. واصدقني!!"، فانطلق يجيب: "أَمّا الذي كنّا عليه.. فتركناه؛ فهو دين الشيطان: كنّا نكفر بالله.. ونعبد الحجارة! وأَمّا الذي تَحوَّلنا إليه؛ فدين الله.. الإسلام: جاءنا به -من الله- رسولٌ.. وكتابٌ مثل كتاب ابن مريم موافقاً له!".
قاطعه النجاشي.. هاتفاً بجِدّيَّة: "تكلَّمتَ بأمرٍ عظيم؛ فعلى رِسْلِك!!".

ثم أمر بضرب الناقوس؛ فاجتمع إليه قساوسةٌ ورهبان، ثم قال لهم: "أنشدكم الله.. الذي أنزل الإنجيل على عيسى! هل بين عيسى وبين يوم القيامة.. نبيٌ؟!"، قالوا: "اللهم.. نعم!!".
فعاد يسأل جعفر: "ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به.. وما ينهاكم عنه؟!"، أجاب: "يقرأ علينا كتاب الله.. ويأمرنا بالمعروف.. وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار.. وصلة الرحم.. وبر اليتيم، ويأمرنا بأنْ نعبد الله وحده.. لا شريك له!!".
ثم قال النجاشي باهتمامٍ شديد: "اقرأ لنا.. مما يقرأ عليكم!".

فأنشأ الهاشمي الصابئ يقرأ على النجاشي قرآن ابن عمه، وبينما يقرأ.. رمقتُ المَلِكَ خلسةً؛ فأبصرتُه يُصغي إليه بخشوع.. وقد بدا على قسمات وجهه التأثُّر بما يسمع، ثم أضاف جعفر قائلاً: "فأراد قومنا أنْ يفتنونا.. عن ديننا؛ قهرونا وضيَّقوا علينا.. ليردّونا إلى عبادة الأوثان؛ فخرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سِوَاك.. ورغبنا في جوارك، ورَجَونا أنْ لا نُظلَم عندك.. أيها المَلِك!!".

هنالك.. سُقِط في يدي.. وأيقنتُ أنّي خسرتُ المناظرة.. وفاز بها جعفر؛ بل.. وفاز بقلب النجاشي!!

ثم سكت جعفر.. وأطرق النجاشي، وران السكون على بهو المَلِك بمَن فيه؛ فلم أقدر أنْ أَنْبِس بكلمةٍ، ثم رأى النجاشي أنْ يصرفهم مكرمين، ثم قال لي حاسماً: "مَهْ.. يا عمرو! هم آمنون.. في جواري!"، ثم أعرض عني.

انكفأتُ –مُحبَطاً مُتكدِّراً- إلى مَقَرِّ إقامتي، وفي ذيلي.. ذاك المخزومي العابث يتساءل بلا مبالاة: "ماذا سنفعل الحين.. يا ابن العاص؟!!".
لم أُجبه.. وصرفتُ وجهي عنه.. كابحاً حنقي واشمئزازي، وأنا لا أرتاب في أنَّ وجهه المشؤوم هو سبب إخفاقي في وظيفتي!!
قضيتُ ليلةً عصيبة.. أَرِقتُ فيها -وجافى النوم جفوني- حسرةً وتغيُّظاً لفشل سفارتي، أسمع غطيط ذاك الشقي؛ فأميل بوجهي إليه.. لأجِده يَغِطّ في سباتٍ وغفلة؛ أزداد حقداً عليه.. وبغضاً لصحبته، وأتساءل في خاطري ناقماً: (هل أرجع خاوي الوفاض؟!! لا بُغْيةَ قريش.. حصَّلتُ، ولا ثأري.. أدركتُ!!؟).

ثم تَوَهَّجتْ في ذهني فكرةٌ؛ ارتضيتُها.. مُحدِّثاً نفسي بعزمٍ: (وأيم الله.. هو الذي يجني على نفسه الجنايات؛ قد طوَّعتْ له نفسه الدنيئة الاستخفاف بي والسعي إلى قتلي، وكذا.. طوَّعتْ له الخيانةَ وانتهاك الحرمات؛ ينصب الشَرَك لأهل المَلِك الذي أحسن وفادتنا.. غير مبالٍ به ولا بسفارتنا عنده؟!!)، (إذاً.. لأُوقعنّ به في شِراكه[1].. دون أنْ تطرف لي عين!!).

أصبحتُ.. وقد ضاعف السهادُ عبوسي، وأصبح هو يتثاءب.. ويفرك عينيه من النوم، ثم يعاود السؤال بسذاجة: "ماذا سنفعل –الآن- يا ابن العاص؟؟!".

---

[1]: الشِراك: جمع شَرَك.. وهو حبائل الصيد أو المصيدة.

تمالكتُ نفسي.. وحاولتُ تبديل العبوس تبسُّماً، قلتُ: "ينبغي ألا نرجع إلى قريش خائبين! يجب أنْ يتراجع النجاشي عن رأيه.. ويمنحنا أكتاف أولئك الصباة!!؟".
تساءل بحيرةٍ ظاهرة: "لكن.. كيف هذا.. يا عمرو؟!!"، أجبتُه.. بإطراء: "حَلُّها عندك.. يا فتى قريش!!"، حَدَّق فيّ مُتعجِّباً.. فأردفتُ مُخافِتاً: "أولاً.. أخبرني عن تلك المرأة التي نِلتَ منها؛ أ واثقٌ أنت.. أنَّها امرأةٌ مِن أهل المَلِك؟؟!".
حدجني بارتيابٍ.. هاتفاً: "وما شأن هذه.. بما نحن فيه؟!!"، همستُ مُؤنِّباً في حذر: "اخفض صوتك.. يا رجل! إنَّا غرباء في هذا القصر؛ ولستُ أَثِق في هذه الجدران أنَّها تتجسَّس على حديثنا!!".
خفض صوته.. قائلاً بشيءٍ مِن الصدود: "أفصح عمّا تقول.. يا سهمي!؟؟".
أجبتُ مُشكِّكاً.. لكن بصوتٍ هادئ: "أخشى أنَّها ليستْ مِن نساء المَلِك؛ بل تكون خادمةً -مِن خادمات القصر- تُخادعك.. لأنَّك ضيفٌ غريب!؟؟".
قال بلهجة تَحَدّي وثقة: "بل.. هي امرأةٌ مِن نساء المَلِك؛ لا أشك في هذا!!"، وأردف مؤكِّداً: "إنّي رجلٌ ذو فراسة.. عليمٌ بالنساء؛ عرفتُها امرأةً مُرفَّهةً.. ذات ترفٍ ورغد!!"، ثم ذيَّل كلامه مُستبعِداً: "فكيف لا تكون مِن نساء المَلِك؟!!".
التقطتُ طرف الكلام هامساً بعزم: "إذا كانت كما تقول؛ فعسى أنْ تساعدنا.. وننال بشفاعتها حاجتنا لدى المَلِك!!؟".
تبدَّلتْ ملامح وجهه إلى العبوس والجدِّيَّة، وراح يتفكَّر برهة.. ثم قال مُخافِتاً: "كيف.. يا عمرو؟! كلامي معها أغلبه بالإشارة، ولم يكن في غير الحب.. وما يقع بين الرجل والمرأة!!؟ وتعلم أنّي لا أُحسن لغة الحبشة!؟".
أسررتُ في أُذنه: "ينبغي –أولاً- أنْ تتأكَّد أنها امرأة الملك.. حقاً، وأنَّها لا تُخادِعك؛ وبعدها.. دع مخاطبتها لي؛ فسأُعلمك كيف تلتمس منها أنْ تشفع لنا عنده في حاجتنا!!". أجاب بصلفٍ: "لك هذا! ولكن.. كيف أتأكَّد مِنها؟؟!".

همستُ بصوتٍ أكثر خفوتاً.. وأشدّ تشجيعاً: "سلها أنْ تدهنك بطيب النجاشي الذي لا يتطيَّب به سِواه.. فإنّي أعرفه!! فإذا جاءتك به.. فهي امرأةٌ من نسائه؛ وإلا فهي غير ذلك.. وقد خدعتك!؟".

ما لبث أنْ طرقني آخر الليل.. تفوح من رأسه رائحة الطيب؛ شممتُه.. وابتسمتُ فَرِحاً: "هذا.. هو!! وربك.. إنّه عطر المَلِك؛ قد صَدَقتك المرأة!".
ابتسم مزهواً.. ثم سَلَّ مِن طيات ثيابه قارورةً.. بها شيءٌ من ذاك الدهن، ناولنيها.. وهو يهمس مُفاخِراً: "خُذْ هذه.. لتزداد يقيناً!!"، أجبتُ مادحاً مُندهِشاً: "مرحى.. يا فتى مخزوم!! لقد أصبتَ شيئاً.. ما أصاب أحدٌ -من العرب- مثله قط: ونلتَ مِن امرأة الملك شيئاً.. ما سمعنا بمثله قط!!"، ثم أردفتُ: "أمهلني بعض يومٍ.. قبل أنْ تلقاها؛ وسأُخبرك: كيف تلتمس منها أنْ تشفع لنا!!"، قال بغرور: "لك.. ما تشاء!!"، ثم استرخى في فراشه.. مُعجَباً بنفسه؛ يظن –بغبائه- أنَّ ذلك فضلٌ يُحسَب له.. ويسبق به أمثاله مِن شباب مكة المعربدين!

خلَّفتُه يتخبَّط في غروره.. وفي غفلته، واستأذنتُ في الدخول على النجاشي؛ فأُذِن لي، سألتُه الانفراد به.. لأُكلِّمه في أمرٍ خطير؛ ثم قلتُ.. هامساً: "أيها الملك!! إنَّ معي سفيهاً مِن سفهاء قريش، و قد خشيتُ أنْ يَعُرَّني[1] عندك أمرُه، وأردتُ أنْ أُعلمك بشأنه: إنَّ صاحبي هذا أرسل إلى امرأةٍ مِن نساء المَلِك.. حتى أطمعتْه في نفسها، وبعثتْ إليه بطيبٍ مِن طيب الملك!!؟".
ولمَّا شَمَّ النجاشي الدهن.. عرفه؛ وعلم أنّي صادقٌ فيما أخبرتُه، لن أذكر: كيف كان غضبه، ولا كيف طردني مِن مجلسه؛ لكم أنْ تتوقَّعوا هَوْل الموقف.

---

[1]: عَرَّه الأمرُ بشرٍ: أي.. لطَّخه به وأساء إليه.

انثنيتُ إلى نُزُل إقامتنا.. وتربَّصتُ بما سيكون، وما عتم جنودُ المَلِك أنْ داهمونا.. يضربون الأرضَ بأرجلهم وحرابهم ضرباً مُفزِعاً، اقتحموا مخدعه، انتزعوه مِن فراشه.. وهو مذهولٌ.. لا يَعِي ما يجري له، صفَّدوه في الحديد، وانطلقوا به.. لا أدري إلى أين؛ رفتْ على شفتي بسمةٌ خفيفة؛ ولم أره.. بعدها أبداً.

احتبستُ.. أترقَّب ما سيصير إليه أمري!؟ وبعد يومٍ أو يومين.. زارني أحدُ خواص المَلِك المخلصين لي.. قائلاً: "يا عمرو! قد أَوْدى النجاشي بصاحبك القرشي، وأمر برَدِّ هداياكم!!"، ثم استطرد: "وإنّي أنصحك: خُذْ ما رَدَّه المَلِك، واحمل امرأتك ومتاعك، وبادر بالرحيل.. قبل أنْ تصيبك غضبةُ النجاشي!!".
شكرتُه.. واصطحبتُ ريطة.. وارتحلنا.

خلال رحلة العودة إلى مكة.. لم تسألني ريطة عنه قط، لكن.. بعد أنْ صعدنا السفينة.. وشقَّتْ البحرَ بصدرها القوي الشجاع.. وتكسَّرت أمواجه تحت قدميها، وغُيِّبتْ أرضُ الحبشة عن أنظارنا؛ اتسعتْ ابتسامتي.. وتنفَّستُ الصعداء.. وانتشيتُ؛ فرمقتني بنظرة ارتياب.. ثم ابتسمتْ في ارتياح.. كأنَّما تريد أنْ تقول: أعرف أنَّك لم تكن تدعه.. حتى تَقتصَّ لي منه!
بيد أنَّها أحجمتْ عن أنْ تتكلَّم في شأنه؛ لكنّي فهمتُ.. وها أنا ذا قد فعلتُ!!

ثم نزلنا أرضَ العرب.. وانطلقنا في الصحراء، وقُبَيل مشارف مكة.. سألتني بشيءٍ من الفزع –كأنَّها تذكَّرتْ أمراً.. كانت نسيته-: "ماذا ستقول للوليد بن المغيرة وبني مخزوم.. يا عمرو؟؟!".
أجبتُها باقتضابٍ.. وبلا مبالاة: "سأقول الحقيقة!!"، وقد قلتُها.. وعدنا سالمين.

- ٣١ -

حينما رجعنا إلى مكة.. عثرنا عليها في حالٍ أفظع مما تركناها عليه؛ تزايد أتباعُ محمد؛ إنْ كادتْ فتنته لتَربِض في كل بيتٍ مِن بيوت مكة، واحتدم الخلاف بين قريش.. وبني هاشم، وتَوعَّد كبراؤها أبا طالب.. إنْ أَصَرَّ على حمايته لمحمد، وأنذروه أنَّهم –لو لم يردعه- سيقتلوه!!

على أنَّ أبا طالب لَجَّ في دفاعه عن ابن أخيه، وجَمَّع مَن طاوعه مِن بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف، واعتصموا حَوَل محمد في شِعْب أبي طالب.. يخافون عليه الغِيلَة.

في تلك الأثناء.. تنامى إلى علمي اِطِّرادُ أعداد الهاربين إلى الحبشة؛ مما أزعج والدي.. وسادات قريش.

وكذا.. وُهِبتُ ولدي: العاص[1]؛ لا غرو أنْ أُسمِّيه العاص.. كاِسم جده؛ فهو أحب الرجال إليّ، ويا ليته.. يؤتى عقلاً وحكمةً.. كعقل جده وحكمته!!

ثم قضى ملأُ قريش بمقاطعة بني هاشم، وحَصْرهم في الشِعْب.. حتى يخضعوا لنا.. ويُخلّوا بيننا وبين محمدٍ.

وكذا.. بقي أبي –وأنا تَبَعٌ له- مع قريش.. على عداوة محمدٍ!!!

على أنَّ الكساد.. أصاب بضاعتنا، ورُزِئ أبي في تجارتنا؛ أصابتنا فيها خسائرٌ عديدة!! لكن.. العاص بن وائل رجلٌ شديد؛ لا تكسره المصائب.. ولا تقهر كبرياءه، صمد لها.. وصمدتُ معه.

---

[1]: هو الصحابي الجليل: عبد الله بن عمرو بن العاص، كان اسمه العاص.. وحين أسلم وهاجر إلى النبي ﷺ.. بدَّل اسمه إلى: عبد الله.

انصرمتْ بضع سنين؛ تجاوزناها –أنا ووالدي- في عسر!!؟
كما تجاوزها بنو هاشم.. رغم الشدة والتضييق، خرجوا مِن الشِّعْب ظاهرين، وانبعث محمدٌ.. يُمعِن في سَبّ آلهتنا وتسفيه أحلامنا، ولم يَرعَوِ.. حتى بعد هلاك عمه أبي طالب؛ وإنَّما جعل يتعرَّض لوفود العرب القادمة في موسم الحج، ويعرض عليهم نفسه ودينه!!

في غضون تلك الأحداث.. انكفأ أخي الصابئ هشام.. آيباً –خِلسة- إلى مكة، بيد أنَّ أَبِي عَلِم بخبره؛ فقبضنا عليه.. واعتقلناه في محبسٍ بالدار، وأقسم أَبي.. ليُعذبنَّه بيده.. حتى يرجع عن دين محمدٍ.. أو يموت!

ثم أمستْ قريش على شفا حربٍ وشيكةٍ بين بطونها؛ وذلك أنَّ أبا الحكم المخزومي ألَّب السادة.. فأجمعوا على قَتْل محمدٍ، وحاك لهم مكيدةً شيطانية: أنَّ تشترك بطون قريش جميعها في قَتْله بضربةٍ مُوَحَّدة؛ فيتشتَّت دمه بين القبائل، ويعجز بنو هاشم عن ثأره؛ فيقنعوا بالدِّيَة، وتموت فتنته معه!!

لا جناح أنْ يشترك بنو سهم في ذلك الاغتيال العظيم؛ فهو شرفٌ للذين يُشاركون فيه، اخترنا لها.. شاباً مِنّا.. جلداً وسيطاً نسيباً هو: العاص[1] بن منبه!!
اِنكَبَّ على سيفه (ذي الفقار) يشحذه.. ويُشرِّبه السم -أياماً- مُتوعِّداً محمد.. بضربةٍ لا نجاء له منها!!
العَجَبُ.. أنَّ محمداً نجا.. رغم أنَّهم أحاطوا ببيته إحاطة السِّوَار بالمِعْصم؛ انسلَّ مِن بين أيديهم.. ولم يشعروا به، اِشتعلتْ مكة غيظاً وحقداً:

---

[1]: هو: العَاص بن مُنَبه بن الحجاج بن عامر السهمي، أخته هي: ريطة.. زوجة عمرو، وأمه هي: أروى بنت العاص بن وائل.. أخت عمرو؛ أي أنَّ عمرو خاله.. وزوج أخته لأبيه في ذات الوقت.

(كيف نفذ مِن بين أيدينا؟!! لن يفلت مِنّا!! لا مفزع له غير يثرب؛ لنتربَّص به في الطريق إليها!!)، قعدوا له كل مرصد.. وأعلنوا الجوائز لمَن يُمسك به!!
والعَجَبُ العُجَاب.. أنَّه نجا.. والتحم -في سلامٍ- مع أصحابه في يثرب.
حاول أخي هشام الهروب من محبسه –أكثر مِن مرة- ليلتحق به؛ لكنّا –أنا وأبي- رصدناه.. وأفسدنا عليه تدبيره، وشدَّدنا وثاقه.. في محبسه.

ذات يومٍ.. أحب والدي أنْ يخرج للتنزُّه؛ فأعددنا له راحلته.. وذهبتُ معه، مضينا نتناجى.. ونسعى بين شِعاب الجبال.. حتى مَلَّ الكلام.. وأجهده الركوب؛ فأنختُ به في أحد الشِعاب.. لينزل يمشي، فلَمَّا وضع قدمه على الأرض.. صاح صيحة ألمٍ شديدة؛ أوجعتْ قلبي.. فهرعتُ أسأله: "ما خطبك.. يا أبتاه؟!!"، أجابني.. وهو يئن من الوجع: "شوكةٌ شاكتني.. يا ولدي!!".
أسرعتُ أتفحَّص قدمه؛ فما وجدتُ بها شيئاً، طفتُ حوله.. عسى أنْ تكون حيةً أو عقرب.. ثم هتفتُ مُندهِشاً: "لا أرى شوكةً.. ولا أثراً لشيءٍ.. يا أبا عمرو!!؟"، قال بصوتٍ واهن: "احملني.. إلى.. الدار!!".
ارتدّتُ به.. إلى الدار، ولجتُ البيتَ.. أحمله؛ هرولتْ ريطة.. تسأل مُتوجِّسة: "ماذا أصابك.. يا عماه؟!!"، أضجعتُه في فراشه.. وأجبتُها: "لا ترتاعي!! ليس بعملكِ بأسٌ!!"، تركناه يرتاح في مخدعه، وانصرفنا عنه.. وأنا لا أُشك في أنَّه مجرد إرهاق من النزهة؛ فهو شيخٌ كبير.. تجاوز بضع وثمانين سنة.
على أنَّه بات ليلته.. يئن ويتَوَجَّع، ثم أصبح يصرخ مُتألِّماً.. ولم نستطع صرف الألم عنه، ثم غدتْ قدمه تتَوَرَّم؛ فهرعتُ إلى أطباء مكة.. فما نفعه دواؤهم؛ بل ازداد الأمرُ سوءً.. وعَمَّ الورم سائر رِجْله، ثم انتفختْ –في فترةٍ وجيزة- حتى صارتْ مثل عنق البعير، ثم أخذ الضرر يسري إلى سائر جسده؛ استفحلتْ عذاباته..

وتعالتْ صرخاته حتى لم يعد قلبي يطيقها، استغثتُ كل حكماء وكهان مكة: "كيف أستشفي لأبي؟؟ كيف أصرف عنه أوجاعه؟!!"، نصحني بعضهم.. أنْ ألتمس دواء عِلَّته لدن أطباء الطائف؛ فانطلقتُ أنهب الأرض إليها.. وصرخاته في أُذني.. تعصر قلبي.. وتَنكُز دابتي.

حينما بلغتُ الطائف..سألتُ عن خير حكمائها وعَرَّافيها، هرعتُ أستجير به.. هاتفاً: "أبي -شيخ بني سهم- لدغته الأرض.. ولا دواء ناجع!؟؟"، ورجوتُه أنْ ينطلق معي إليه.

انطلقنا نَحُثّ الخُطى.. إلى مكة!

لكن.. وصلنا بعد فوات الأوان، مات العاص بن وائل السهمي؛ وكأنّي بالحصن الحصين -الذي أَمتنع به- قد انهدم فوق رأسي!!

- ٣٢ -

بعد لُجُوء محمدٍ –وكثيرين من أصحابه- إلى يثرب.. تبدَّل الصراع بيننا وبينهم؛ قد صار لهم دار حربٍ.. يتحصَّنون بها، ثم انبعثوا منها.. يُناوشوننا بالسلاح، ويُهدِّدون طرق تجارتنا إلى الشام!!

والأنكى أنَّه.. غدا يعقد التحالفات مع بعض الأعراب المحيطين بيثرب!

أحدق بنا خطره من كل جهة، ووجب علينا أنْ نُشمِّر لحربه.. حتى نقضي على خطره ونستأصل شأفة أتباعه!!؟

بلغتْ إجتراءاته علينا ذروتها.. حينما خرج يترصَّد لطيمة قريش العائدة مِن الشام.. والتي فيها جلّ أموال تجارة قريش، نمى الخبر الفادح إلينا.. وعلمه ملأ قريش علم اليقين؛ فانبرى أبو الحكم المخزومي لمواجهته.. ليضع حداً لاعتداءاته، وتَألَّى على قريش.. أنْ ينطلق معه ساداتها أجمعون؛ فبرز مِن بني سهم: خَتَني[1].. منبه[2] بن الحجَّاج السهمي، وأخوه نبيه، وولده العاص[3] بن منبه.

سحبني أصهاري معهم.. هاتفين مُحرِّضين: "يا عمرو! أنت فارس بني سهم الذي لا يُشَقّ له غبار.. وقائد مِن قوادنا!!؟ كيف لا تشارك في تلك المعركة؟!! واللات.. لو كان العاص حيّاً؛ ما وسعه إلا الخروج للعدو! كُنْ كأبيك.. يا أبا العاص!!".

اجتمع لقريش جيشٌ مهيب.. يقوده أبو الحكم المخزومي، وينخرط فيه أغلب كبراء قريش؛ والذي لم يتمكَّن منهم مِن الخروج.. بعث مَن ينوب عنه، على أنَّ اللطيمة نجتْ مِن خطر محمد؛ احتال أبو سفيان بن حرب العبشمي –الذي يقود قافلتها-.. وتَحَوَّل بها إلى طريقٍ آخر بعيدٍ عن يد محمد.

غير أنَّ سادة قريش –وعلى رأسهم: أبو الحكم- رفضوا الرجوع إلى مكة قبل أنْ يُظهِروا سطوتهم.. ويؤدِّبوا محمداً وصحبه؛ فالتقينا عند آبار بدر.

تراءى الجمعان.. وانتظمتْ الصفوف للقتال؛ لا أُنكر أنَّ محمداً اختار موقعاً أفضل مِن موقعنا: نزل قبلنا.. فسيَّطر على الماء، وجعل الشمس وراء ظهره..

---

[1]: الخَتَن: كل مَن كان مِن قبل المرأة.. كأبيها وأخيها.

[2]: هو: أبو ريطة زوجة عمرو بن العاص.. وكذا زوج أخته أروى.

[3]: هو: ابن أخت عمرو.. أيضاً.

فأصبحتْ في أعيننا.. فبهرتْ أنظارنا.. وأربكتْ تحركاتنا؛ ومع ذلك.. نحن أكثر منهم عدداً وعتاداً.. وهم شرذمةٌ قليلون!!
سَللنا سيوفنا.. وامتشق العاص بن منبه سيفه (ذا الفقار).. وأقسم ليضربنّ به رقاب محمد وأصحابه، ورفع بنو عبد الدار لواء قريش.. حتى ناطح السماء، صاح أبو الحكم.. وهاج الفرسان.. وثار الغبار حتى لبَّد السماء!
ثم انقشع.. وقد سقط اللواء ودهسته أقدام محمد، وسقط أبو الحكم صريعاً.. وقُتِل مُنبه بن الحجّاج وأخوه وولده، وغَنِم محمدٌ.. ذا الفقار، تضعضع جيش قريش؛ قُتِل مَن قُتِل.. وأُسِر مَن أُسِر، وانهزمتُ مع المنهزمين.. إلى مكة!!؟
دخلناها في أبشع هيئة.. بأسوء خيبة!!

فشا النبأ الفادح في رُبُوع مكة.. حتى أنَّه تسرَّب مِن شقوق الجدران إلى الصابئين المسجونين.. أمثال أخي هشام؛ طربوا له.. وازدادوا عِزّاً وصُمُوداً!!؟

بكتْ نساءُ قريش قتلاها، وخشى الرجالُ شماتةَ الأعداء.. فحرَّموا البكاء، لكنّي.. ما استطعتُ أنْ أَنهى ريطة عن بكاء أبيها وأخيها وعمها؛ فبكتهم بكاءً حاراً، وحَرَّقتْ الفاجعةُ فؤادي؛ فاقتحمتُ على هشام محبسه، تناولتُ السوط.. وأخذتُ أضربه.. عسى أنْ تشفي الضرباتُ غليلي: (ما باله.. لا يتأوَّه؟!! ألا تلذعه الضربات؟!! هل انتفى[1] السوطُ عني.. كما انتفى عني السيفُ يومئذٍ؟؟!).
انكببتُ ألذعه بجلدات العذاب.. كلّما لذعتني الهزيمة بذكرياتها، ثابرتُ على تعذيبه بقلبٍ مُتفجِّع؛ لكنَّه صبر على العذاب بقلبٍ مُتَجلِّد، شعرتُ.. كأنَّما يكسرني بثباته؛ أطلقتُ العنان لصرخاتي الغاضبة، وكتم هو صرخاته المتألِّمة!!

---

[1]: انتفى عنه صديقه: تنحَّى وتخلَّى وبَعُد عنه.

ربما أدرك ما يعتمل في صدري؛ فهمس بكلماتٍ يخالطها الأنين.. لكنَّها قوية: "أَعلَم: لِمَ أنت مضطربٌ.. يا عمرو! أَعرِف: لماذا يملأ الفزع قلبك!!".

صرختُ: "اخسأ.. يا لعين! قطَّعتم أرحامكم.. وقتَّلتم أكابر قومكم.. وأسخطتم آلهتكم!!"، ضحك ساخراً.. وتكلَّم بصوتٍ هازئ: "أين تلك الآلهة الغاضبة.. يا عمرو؟؟! تالله.. إنَّ إله محمد -ﷺ- الواحد.. خيرٌ منها جميعاً؛ نصر عباده المؤمنين!! أمّا آلهتكم -التي لا تعد ولا تُحصى- فقد خذلتكم.. وتخلَّتْ عنكم!!".

انفرطتُ تغيُّظاً منه إذ يزدري آلهتنا ويصفها بالعجز؛ فأفرطتُ في تعذيبه.. حتى أُغشي عليه، وأشفقتْ عليه ريطة -وولدي العاص- فاستنقذوه من يدي!!

يوماً.. بعد يومٍ، ورويداً.. رويداً.. هدأتْ فورتي.. وسكت غضبي.. وسكن جزعي؛ لكنّي.. لن أنام -أبداً- عن ثأري وثأر قريش.

ذات ضحى.. أقبل عليّ ولدي.. يتساءل بسذاجةٍ: "يا أبتي! إنَّ عمي هشام يقول: "أنتم وما تعبدون مِن دون الله حصب جهنم!"؛ فما جهنم؟؟!".

قلتُ: "يزعم محمدٌ و أتباعه الصباة: أنَّ بعد الموت نشوراً وحياةً، وأنَّ الذي لا يؤمن بذلك سيُحشر في سجنٍ ذي عذابٍ شديد.. يسمّونه: جهنم!!؟"، ثم أردفتُ: "يا عاص! إنَّك لم تزل صغيراً؛ فانتهي عن محادثة هذا الصابئ؛ ألّا يفتنك عن دين آبائك!!"، أطاع الغلام.. وانصرف عن عمه؛ أو.. هكذا تَوَهَّمتُ!

بيد أنّها خطرتْ لي خاطرة.. عجبتُ منها، وانطلقتُ إلى الغِرّ الصابئ.. عازماً أنْ أحاجّه بها، دلفتُ إليه.. وهتفتُ في حماسة: "يا هشام!! تزعم أنَّ الآلهة التي نعبدها مِن دون الله في تباب؟!! فما بال عيسى بن مريم؟؟! وقد علمتَ أنَّ النصارى يعبدونه؛ فماذا تقول في هذه؟؟!".

التفت إليّ.. ثم قال بهدوء الواثق بعلمه: "وما شأنك أنت بعيسى –عليه السلام- لتضربه مثلاً؟! هل تُبجِّله.. كما يُبجِّلونه؟؟! تالله –يا عمرو- ما ضربتَه إلا جدلاً؛ وما عيسى إلا عبدٌ لله.. ورسولٌ أرسله إلى بني إسرائيل! والذين يزعمون أنَّهم يعبدونه، إنَّما يعبدون الشيطان؛ وعيسى –عليه السلام- منهم براء!!".
تَوَلَّيتُ عنه.. وأنا أضرب كفاً بكفٍ.. مُتعجِّباً: كيف لوَّث محمدٌ عقول أتباعه؟!!

- ٣٣ -

يوم بدر -وفي غداةٍ واحدة- قَطَفَتْ سيوفُ محمد رءوسَ قريش، وألفيتُ نفسي.. رأس بني سهم، وألفيتُ أبا سفيان.. زعيم قريش!
للسيادة واجباتٌ.. ينبغي ألا يتقاعس المرؤ عنها؛ لذا فقد مَشيتُ مع مَن سعى إلى أبي سفيان لنُوقِف أموال اللطيمة على الثأر لقتلى بدر.. والانتقام لشرف قريش؛ فاستجاب لنا.. ومضينا نتأهَّب –في تَحفُّز- للجولة التالية.

رغم ما أصاب آل بيت العاص بن وائل مِن إملاقٍ في نهاية حياته.. إلا أنّي لم استسلم؛ لن يمنعني العُسْر أنْ أبقى مِن أسياد قريش.. كما ظَلَّ والدي حتى موته، وإنْ قَلَّ المال في يدي.. الحين؛ لكنّي -بعقلي ودهائي- أقدر أنْ أبلغ ذروة الشرف والسؤدد بين قومي، خَطَّطتُ لأمري.. وعقدتُ عزمي.. وسعيتُ إلى أبي سفيان، انتبذتُ به بعيداً عن القوم.. وأسررتُه بالحديث؛ فأُعجِب برأيي.. وتحمَّس لخطتي، قلتُ: "إذاً.. أعانوني بأموالكم.. وأنا لها!".

أمّا خطتي فهي: (أنْ نعاود الاتصال بالنجاشي.. ونستشفع عنده بالشفعاء -الذين أعرفهم عن قُرب- حتى يرضى.. ويُسلِّم لنا جعفرَ وأصحابه؛ فنقتلهم بمَن قُتِلوا منّا يوم بدر!!؟)، أشدّ المتحمِّسين.. كان أبو سفيان، لكن أكثر الباذِلين.. كانوا آل المغيرة بن عبد الله المخزومي؛ ولا غرو.. فهم أشدُّ آل بيتٍ موتورين في قريش.. وهم أكثر أهل مكة أموالاً؛ لذا.. فلا عجب.. أنَّ يكون سفير قريش المرافق لي: بجير[1] بن أبي ربيعة المخزومي.

سرعان ما جمعنا أموالاً كثيرة وهدايا عظيمة.. وتجهَّزنا للرحلة، وانطلقنا إلى أرض الحبشة.. حتى بلغنا مدينة أكسوم في أقرب أَمَد؛ كنّا نسابق الزمن!!
أمّا بجير –فعلى النقيض مِن ابن عمه السِّكِّير- كان خير عوناً لي.. حتى أنَّه تركني أنُفق مِن أمواله كيف أشاء.. وأهب مَن أشاء!!
دلفتُ إلى الذين أعرفهم مِن البطارقة.. وأعطيتُهم حتى رضوا، استوثقتُ منهم.. وأعطوني العهد بأنَّهم سيُؤيِّدونني.. وسيشفعون لنا لدى الملِك!
رغم المخاوف -والتوجُّس أنْ يُسيء استقبالنا لأجل فعلة عمارة بن الوليد الشنيعة منذ بضع سنين-.. استأذنتُ في الدخول إلى النجاشي؛ بيد أنَّه أذن لنا.. وأحسن لقائي كأنَّه ضرب صفحاً عمّا مضى، سجدنا بين يديه.. وبذلنا الهدايا النفيسة تحت قدميه حتى اغتبط، ثم تَوَسَّلنا أنْ يقضي لنا حاجتنا، وشفع لنا الشفعاء: (بأنَّ أولئك الصباة تركوا ديننا.. ولم يدخلوا في دين النجاشي، وأنَّهم جاءوا بدينٍ مُبتدع.. لا يعرفه العرب.. ولا الحبشة!!)، لكنَّه رفض أنْ يخذلهم.. قائلاً: "لن أخون أناساً لاذوا بجواري!!".

---

[1]: كما أسلفنا: هو بجير بن أبي ربيعة -المُلقَّب بذي الرمحين- بن المغيرة بن عبد الله المخزومي، وأمه هي: أسماء بنت مخربة النهشلية التميمية؛ فهو أخو أبي جهل لأمه، وهو شقيق الصحابي عياش بن أبي ربيعة، أسلم مع قومه في فتح مكة.. فسماه النبي ﷺ: عبد الله.

استطرد.. كأنَّما يُخاطب شفعائي: "ما أطاع اللهُ الناسَ فيّ.. حين رَدَّ عليّ مُلكي؛ فلن أُطيع الناس فيه!!".

تكدَّرتُ.. وتحسَّر بجير، لبثتُ ليلةً طويلة.. أتفكَّر وأتدبَّر: (لن أرجع خائباً هذه المرة أيضاً!!)، ثم أصبحتُ أَهُزّ بجير.. وأهمس في أُذنه: "قُمْ.. يا أخا مخزوم! فوالله.. لأُنبِئنَّ النجاشي –غداً- عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم!!"؛ نهض المخزومي مضطرباً.. وتساءل في تَوَجُّس: "ماذا ستفعل.. يا عمرو؟!!"، أجبتُه بصرامةٍ: "لسوف أجعله يسخط عليهم.. حتى يُقتِّلهم بنفسه!!".
صاح الفتى في تَهَيُّب: "لا تفعل.. يا ابن العاص! إنَّ لهم أرحاماً؛ وإنْ كانوا خالفونا!!"، لم أعبأ بقوله.. بل زجرتُه مُعاتِباً: "هل تُشفق عليهم؟! ألسنا نطلبهم.. لنقتلهم؟!! إنَّ قَتْل النجاشي لهم.. أنكى وأشدّ على محمدٍ!!؟".

ثم دلفتُ إلى النجاشي، سجدتُ بين يديه مُبجِّلاً، ثم قلتُ بتوقير.. وبصوتٍ مُعتذِرٍ: "عفواً.. أيها المَلِك العظيم! إنَّهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم.. واسألهم عمّا يقولون فيه!!"، ولم أزد؛ امتعض.. وقَطَّب جبينه، ثم صاح بانفعال لا أشك أنّه غضبةٌ لربه: "إليَّ بهم.. لأكلِّمهم!".

دخل جعفر بلاط المَلِك.. ورآني أجلس إلى جواره، تعمَّدتُ أنْ أنظر في عينيه.. ليرى فرحة الشماتة تلمع في عيني؛ غير أنَّه أعرض عني.. ودنا –في ثباتٍ- مِن النجاشي، سأله.. بلهجةٍ صارمة: "ماذا تقولون في عيسى؟؟!".
خَفَتَ هنيهة.. ثم انطلق لسانه.. يصدح بلا تردُّد: "نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبد الله.. ورسوله.. وروح منه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول!!".

نزل النجاشي مِن فوق عرشه، والتقط عوداً مِن الأرض، ثم اقترب مِن جعفر، ثم قال له: "ما تجاوز عيسى ما قلتَ.. هذا العودا".

تفاجأتُ بفعل النجاشي وقوله.. وارتبكتُ!!؟ ولستُ وحدي الذي فُجِئتُ؛ بل.. البطارقة القائمون حوله.. أيضاً اضطربوا وتناخروا مُعترضين على قوله، على أنَّه التفتَ إليهم.. صائحاً برباطة جأش: "نعم!! وإنْ نخرتم!"، ثم تَوَجَّه إلى جعفر مُخاطِباً في حزم: "اذهبوا.. فأنتم الآمنون! ومَن سَبَّكم.. غُرِّم!!".

ثم قصد إليَّ قائلاً ومُبكِّتاً: "يا عمرو! ما أحب أنّ لي دَبْراً [1] ذهباً.. وإنّي آذيتُ رجلاً منهم! لا حاجة لي بهدايكم؛ فوالله.. ما أخذ اللهُ مني الرشوة حين رَدَّ عليَّ مُلْكي؛ فآخذ الرشوة فيهم!!؟".

ثم صاح في حزم وصرامة: "رُدّوا على هذا العربي.. هداياه!!".

أُبعِدنا مِن عند النجاشي مَقبوحين مَخْزِيّين.. مَردوداً علينا ما جئناه به!!؟

لكن -قبل أنْ نرحل- تَوَسَّل إليّ بجير أنْ يَتعرَّف على ما آل إليه حال عمارة، التمستُ له خبره.. في الخفاء؛ فعلمنا أنَّ المَلِك أمر السَوَاحِر فنفخنّ فيه سِحْراً، ثم أمر به فألقوه في الأحراش.. ليهيم على وجهه –مع الوحوش- في العراء.. ويعيش عيش الأوابد[2].. كالمخبول!!

خابتْ سفارتي الثانية، ونكصتُ على عقبيّ إلى مكة.. مُجلَّلاً بالفشل والإحباط؛ على أنّي وجدتُها.. قد تَأَهَّبتْ للحرب، استنفرتْ قريش حلفاءها الأحابيش، واستخرج أبو سفيان كل مَن قَدِر على حمل السلاح؛ فالتأم لقريش جيشٌ قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، حتى النساء.. التمس بعضهنّ الخروج مع الجيش!!

---

[1]: دبر ذهب أي: المال الذي لا يُحصى من كثرته.. كأنَّه جبل من ذهب.

[2]: الأوابد: هي الحيوانات البرية.. كالحمير الوحشية والوعول والأبقار البرية.

- ٣٤ -

غدوتُ أتهيَّأ للمعركة؛ علفتُ دابتي.. وشحذتُ سيفي، أعددتُ متاعي.. أسرجتُ فرسي.. ولبستُ لأمتي، واصطحبتُ ريطة معي.. عسى أنْ تُشفَى أحزانها على آبائها.

زحفنا إلى يثرب.. حتى أمسينا على مشارفها، تَحوَّلنا إلى أُحُد.. وجعلناه إلى ظهورنا لنتحصَّن به، خيَّمنا في سفح الجبل، وسَرَّحنا الإبل والخيل.. في زروعٍ حولنا.

ثم عقد أبو سفيان مجلس الحرب، بعد التشاور.. ارتأينا: (أنَّهم إنْ أقاموا في صياصيهم[1] .. فهي منيعةٌ، ولا سبيل لنا إليهم.. إنْ ظَلّوا مُتحصِّنين بها؛ فنقيم أياماً.. ثم ننصرف عنهم وقد تسامعتْ بنا العرب.. وعلم الناس: أنَّهم جبنوا عن الخروج إلينا!!)، (أمّا.. لو خرجوا إلينا مِن صياصيهم؛ فلا ريب أنّنا أكثر منهم عدداً وسلاحاً، ونحن قومٌ موتورون.. قد خرجنا بالظُعُن[2]؛ فلا سبيل لأنْ يُصيبونا كما أصابونا يوم بدر، بل.. نحن نصيب منهم مثلما أصابوا منّا!".

لم نمكث إلا يسيراً.. حتى رأتهم عيوننا –ليلاً- يَمُرّون بمَوْضع الشيخين بالحَرَّة، جمعنا الخيل والظهر.. واستعملنا على الحرس: عكرمة بن أبي الحكم المخزومي، قلنا: نُجرِّب مُناوشتهم.. لنختبر قوتهم.. ونُدخِل الرعبَ في قلوبهم؛ فباتت طلائع صواهلنا لا تهدأ.. تدنو وترجع.. دون أنْ تصعد إليهم، والصدق: أنَّهم ذوو بأس!!

---

[1]: الصياصي: هي الحصون: ومفردها صيصية.

[2]: الظُعُن: جمع ظعينة: وهي.. المرأة في الهودج على الراحلة.

ثم خرجوا لنا مِن كَثَب، ونزلوا الشِّعْب مِن أُحُد.. وباتوا الليلة فيه؛ فأيقنّا أنَّ قتالاً صائرٌ بيننا.. لا محالة.

تعبَّأنا: ثلاثة آلاف رجل.. جُمِعتْ رئاستهم تحت يد أبي سفيان، ومئتا فرس جعلناها إلى جنبنا؛ على ميمنتها خالد (كنتُ –وفوارسي- في خيل خالد) .. وعلى الميسرة عكرمة، فضلاً عن مائة رام.. بأقواسهم ونبالهم.
وأمر أبو سفيان أنْ نُخلِّي العبيدَ على أمتعتنا، وأنْ يكونوا هم الذين يقومون على الرحال؛ فجمع العبيدُ الرحال بعضها إلى بعض.. وألبسوها الأنطاع[1]، وعقلوا الإبل، ثم خَلَّفنا النساء مع العبيد في القباب؛ وانطلقنا على تعبئتنا.
كان اللواء بحَوْزة بني عبد الدار؛ فاستفزّ أبو سفيان حَميَّتهم.. حتى غضبوا وأغلظوا له القول.. وتَوَعَّدوه؛ لكنّه.. حقَّق بُغْيَتَه.. واستَوْثق مِن أنَّهم سيكونون أحرص على اللواء منهم على أرواحهم.

الليل يدبر.. والصبح يُسفر، وتَجلَّتْ لنا أرض المعركة، رأيناهم.. اصطفوا في صفوفٍ.. جاعلين عسكرهم بين الجبلين[2]، ووادي قناة.. يحجز بينهم وبين خيلنا، قدَّرنا أنْ عددهم قريبٌ من سبعمائة راجل، ولم نَرَ لهم كِراعاً: (هذه الكَرَّة لنا: نحن الأكثر عدداً وخيلاً وسلاحاً!)، استبانتْ خطة هجومنا؛ فمَوْقعنا أفضل مِن مَوَضعهم: تأهَّب خالد وعكرمة وخيلهما.. للالتفاف عليهم مِن وراء جبل عينين.. عندما يحتدم القتال.

---

[1]: الأنطاع: مفردها: نطع.. وهو البساط الكبير مِن الجلد.

[2]: الجبلان هما: جبل أُحُد: وهو جبل عظيم هائل، **وجبل عينين**: وهو جبل صغير بجوار أُحُد.. وهو الذي سُمّي (جبل الرماة) بعد ذلك.

تصاف الفريقان للنزال، وقامتْ هند بنت عتبة –والنساء معها- وأخذن الدفوف، وجئنّ يتجوَّلن بين صفوفنا.. يضربن بالدفوف ليُحمِّسن الرجال، وجعلن ينشدن الأشعار.. ويُشجِّعنّ الأبطال، ثم تراجعن إلى مؤخرة الصفوف.

ابتدأ القتال بالمبارزة، وشاهدتُ الغلبةَ لصناديدهم.. على شجعائنا، كتمتُ غيظي.. وثبتُّ حيث كنتُ في خيل خالد، تَصبَّرتُ إلى أنْ تستعر المعركة.. بُغْيَة أنْ ننقضّ عليهم مِن وراء جبل عينين.

ثم تقاربتْ الصفوف.. وحمل شجعاؤهم على حملة لواءنا، أعملوا فيهم السيوف، وتساقط صناديد بني عبد الدار.. رجلاً تلو الآخر، وما زالتْ النساء يضربن بالدفوف.. ويُحرِّضن الأبطال.

كنّا نراقب.. وخيولنا تُحمحم، زأر خالد وانطلق.. وانطلقنا معه عازمين على اجتياز وادي قناة.. والالتفاف حولهم مِن خَلْف الجبل، لكن.. تَصَدَّى لنا -فوق الجبل- رماةٌ ملاعين، ثابروا على نضحنا بالنبل.. حتى شَلّوا حركتنا وأصابوا مِنّا عدداً، نكصنا على أعقابنا خائبين: (لقد عاين محمدٌ الثغرةَ التي قد يُؤتى منها جيشه؛ و سَدَّها بأولئك الرماة، وأيم الله.. إنّه داهيةٌ مُجرِّب!!)، تراجعنا إلى مَوْقِعنا الأول.. وانتظرنا مُتربِّصين: عسى أنْ نأخذ أولئك الرماة على غفلة.

تَواصلتْ المعركة، وواصلتْ النساء الإنشاد والغناء.. ليُثِرن حماسةَ الرجال، وتواصل هجوم مُقدِّمتهم على حملة لواءنا؛ أوشك اللواء على السقوط.. ونحن نعاين بأعيننا.. مِن بعيد: "يجب ألا يسقط اللواء؛ هَلُمَّ –يا خالد- نعاود الكَرَّة!!"، عاودنا الكَرَّة.. وكان رماة جبل عينين مُتيقِّظين، وكانوا لنا بالمرصاد!

انجفلتْ[1] الخيل.. وتباعدنا عن مرمى سهامهم، وتَفرَّق الفرسان في الوادي!!

---

[1]: انجفلتْ: فزعتْ ونفرتْ.

كنّا نشاهد حملة اللواء يتطايرون بين أيدي مقاتليهم، اجتاحوهم.. وحصدوهم حتى كادوا أنْ يُبيدوهم، رأينا لواءنا يسقط.. ورجالنا يتشتَّتون مِن حوله:
"ألا نتدخَّل؟!! هل نقف -ها هنا- نرى جيشنا يتمزَّق.. ولا نتحرك؟!!".
أراد بعضنا أنْ نَلْوِي أَعِنَّة الخيل.. ونعدو صوب اللواء عسى أنْ ندرك الجيش قبل أنْ ينفرط عقده؛ بيد أنَّ خالد أَصرّ ألا نغادر مَوْقعنا.. ووافقتُه الرأي.

حاولنا -كَرَّةً ثالثة- الالتفاف وراء جبل الرماة؛ لكنَّهم.. أربكونا بنِبَالهم، تقهقرنا.. نَعَضّ أصابع الغيظ، شاهدنا جيش قريش يتبعثر؛ رجالنا يدبرون.. لا يلوون على أحدٍ.. ولا على شيءٍ!!؟
ثم رأينا جنود محمد يقتحمون معسكرنا.. يقتلون ويأسرون وينهبون؛ انكربنا.. وتَبدَّد أملنا في النصر، صاح مَن حضر بدر مِنّا: "هذه.. أشدّ مِن وقعة بدر!!؟".
أمَّا الفاجعة التي لم تتحمَّلها قلوبنا.. فكانت ونحن نشاهد نساءنا يطرحنّ الدفوف مِن أيديهن، ويلطمن الخدود.. بعد أنْ كنّ يضربن الدفوف، ونسمع عويلهن.. بعد أنْ كنّا نسمع غناءهن، أبصرنا بعضهن تهرولن -رافعات ثيابهن.. كاشفات سيقانهن- يقصدن إلى الجبل.. راجيات الاحتماء به.

اِغْتَمَّ الفرسان.. وانكفأ كثيرون منّا.. يجأرون: "انهزمنا.. وقضي الأمر! أَدرِكوا النساءَ.. قبل أنْ نُفضَح فيهن!"، منعهم خالد.. هاتفاً في صرامة: "اثبتوا!! لا نجاء إلا أنْ ندور حول مؤخرتهم!".
لم يذعنوا له، إنّما تَذَمَّروا.. وهَمّوا بالتراجع إلى المعسكر في عَشْواء!!؟
قلتُ: " يا أبا سليمان! ننقسم إلى فريقين: فريقٌ يربض حيث نحن.. لعلّنا ننتهز هَفْوَة الرماة، وفريقٌ يهرعون إلى النساء.. عسى أنْ يدركوهن!!".

وافقوني هاتفين: "أشرتَ.. بالرأي!"، وأختار خالد أنْ ينطلق عكرمة في جزءٍ من خيله.. إلى حيث ينجدون النساء.. ويستنقذون المعسكر من النهب.

تابعتُهم ببصري.. وقلبي يختلج فَرَقاً على ريطة: زوجتي التي بين هؤلاء النسوة.. ولا أدري ما أصابها، هممتُ أنْ أنطلق خَلْف عكرمة.. لأستنقذها (ولولا المروءة.. لفعلتُ!!)؛ غير أنّي استحييتُ أنْ أُتَّهَم مِن خالد وفرساني؛ طفقتُ أُطمئن قلبي.. وأُسكِّن جزعي.. مُحدِّثاً نفسي: (يا عمرو!! لا ترتاع.. على امرأتك؛ إنَّ محمداً لا يفضح بنات عمه!).

فيما أراقب خيل عكرمة وهم يركضون مُتراجعين لاستنقاذ النسوة والرِحال، وبينما قلبي في تشتُّتٍ بين لهفتي على ريطة.. وثباتي مع فرساني؛ إذ أشار ضرار[1] بن الخطاب إلى جبل الرماة.. صائحاً في خالد: "يا قائد الخيل! انظر.. وراءك!!".
التفتنا إلى الجبل: فرأينا الرماة يُغادرون، عطف خالد عنان فرسه.. صائحاً: "هَلُمّ إلى الجبل.. أيها الأبطال!! هذه فرصتنا!!".

انتهينا إلى جبل الرماة.. في كوكبة من الفرسان، ثابرنا على الصعود.. ولم نصادف سِوَى مقاومة هينة مِن شرذمة ضعيفة باقية مِنهم، كبسنا عليهم حتى بدَّدناهم.. واحتللنا الجبل، ثم صرخ خالد.. وصرخنا معه بملء حناجرنا: "أُعل.. هُبَل! أُعل.. هُبَل"، واظبنا على النداء.. حتى اِرتَجّ الجبل مِن أصواتنا.. وتسامعتْ بنا المقاتلة، علم الجمعان أنّنا استَوْلينا على جبل الرماة.
الآن.. ستتحَوَّل المعركة؛ تساءلتُ: "ماذا بعدُ.. يا أبا سليمان؟؟"،

---

[1]: هو ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري القرشي، كان سيد بني فهر في الجاهلية.. وكان مِن فرسان قريش المعدودين وشعرائها المعروفين، أسلم –بعد ذلك- في فتح مكة.

أجاب: "تثبت طائفةٌ مِنّا على الجبل.. يحفظونه لنا، ويهبط الآخرون.. ليهجموا على مؤخرة العدو!"، ثم أردف: "وأرجو أنْ يُسارع أبو سفيان وعكرمة.. بالارتداد عليهم مِن أمامهم؛ فنكون كبسناهم مِن خَلْفهم.. ومِن أمامهم!".
هتفتُ بحماس: "أصبتَ.. يا خالد!!"، ثم بقيتُ فوق الجبل مع طائفة من فرساني.. لنتصدَّى لجنود محمد.. إنْ حاول بعضهم استعادة الجبل؛ وقد فعلوا، لكنّنا أجليناهم، كنتُ أَذِبّ عن الجبل.. وقلبي مضطرب.. وبصري زائغ؛ أَترَّقب أنْ ترتدّ مُقدِّمتهم.. عن مُطاردة ريطة والنساء.

باغتتْ فوارسنا مؤخرتهم؛ فاختلَّتْ صفوفهم.. واضطربوا، أخذتْهم المفاجأة.. كل مأخذ، وانشغل كل رجلٍ منهم بنفسه.. حتى صفا لنا الجبل، وتأكَّدتْ سيطرتنا عليه، وقفتُ أُطالع المشهد مِن عَلِ، نظرتُ من بعيد -إلى رِحالنا.. حيث ريطة- عاشماً أنْ ألحظ ما يُطمئن قلبي على زوجتي؛ فأبصرتُ مُقدِّمة محمد -الذين كانوا يعيثون في رِحالنا- يلقون ما في أيديهم.. ويرتدّون على أدبارهم، ينكفئون.. متراجعين إلى مؤخرتهم.

تَنفَّستُ الصعداء.. وواصلتُ القتال، خالطتْ خيلنا مؤخرتهم، ومضى ضرار بن الخطاب على فرسه.. يَجُرّ قناةً له طويلة.. ويضرب في رجالٍ مِن الخزرج صائحاً: "ويلٌ لكم مني.. يا قتلة الأحبة يوم بدر!"، وكذا.. مضى فوارسنا يفعلون.. حتى انهدتْ صفوفهم، طفقوا ينادون على إخوانهم.. مستغيثين بهم، أقبلتْ جماعةٌ منهم مدبرين نحونا؛ فصادفوا كثرتنا، وانحشروا في حَوْمتنا[1].. مُجترئين على الموت؛ استوعبناهم.. وقَتّلناهم.. فما أفلت منهم رجلٌ!

---

[1]: الحَوْمة من القتال: هي أشد موضع فيه.

انخذلتْ مُقدِّمتهم، واستعاد أصحابنا الفارّون حَمِيَّة القتال.. وعادوا إلى ساحة المعركة، وأنشأوا يُطاردون تلك المقدِّمة.. التي انكشفتْ، وارتبكتْ صفوف رجالها .. واختلطوا.. وتخبَّطوا.. وجعل بعضهم يضرب بعضا.

أقبل المدبرون مِن فريقنا، ورأيتُ لواءنا يُرفَع.. مِن جديد، راحتْ أعدادنا تتكاثر، وانقلب مهاجموهم إلى مدافعين.. وأخذوا يتراجعون إلى حيث نقاتل مؤخرتهم.

ثم ما هي إلا كقَدْر حلب ناقة حتى تداعت الخزرج بينها؛ فأقبلتْ.. فخالطوا فرساننا، واستبسلوا في القتال، ولقد رأيتُهم يعقرون جواد ضرار بن الخطاب؛ فترجَّل.. وغدا يَذِبّهم عن نفسه حتى نجا منهم.

تلاحق القوم.. عند مؤخرتهم، وما انفكوا يَتجمَّعون وينضمون إلى بعضهم؛ يحاولون استعادة ترتيب صفوفهم، اشتدّ القتال.. حول لوائهم؛ ضرباً بالسيوف.. وطعناً بالرماح.. ورمي بالنبال.. وقذفاً بالحجارة، صَمَدوا لنا؛ لكن.. كثرة خيولنا غلبتْ شجاعتهم؛ سقط لواؤهم، وسمعنا أحد فوراسنا يُنادي: "قتلتُ محمدا!!".

لحظتئذ.. سُقِط في أيديهم.. وانهدتْ صفوفهم، خمدتْ نيران حَمِيَّتهم.. إلا قليلا، انشغل كل رجلٍ منهم بنفسه، رأينا بعضهم يولون الأدبار.. لكنّا لم نتطاردهم، شُغِلنا عنهم بإخوانهم الذين صَمَدوا لنا في ساحة القتال.

كررنا عليهم؛ فوارسنا.. وخيلنا الكثيفة.. ركبتْ أكتافهم؛ ولا خيل لهم -يومئذ- بل.. كلهم راجلون، استبسلوا في الدفاع عن أنفسهم، وطفق بعضهم يحمي بعضا.. ويُنادون: "مُوتوا على ما مات عليه محمد!!"؛ رغم ذلك.. ما انفكتْ سيوفنا تضربهم.. ورماحنا تطعنهم.. ونبالنا ترميهم.. وسنابك خيولنا تمزِّق أشلاءهم.

ثم شرعوا يلتقطون شيئاً مِن أنفاسهم، ويستعيدون بعض رشدهم.. بعد أنْ طاشتْ عقولهم مِن المفاجأة، راحوا يستوسقون[1] كما تستوسق جُرْب[2] الغنم.

ها هي ذي الشمس تغيب –رويداً- خَلْف أُحُد، وقد علمتْ البقية الصامدة منهم: أنّه لا طاقة لهم بنا؛ تقهقروا إلى الجبل.. وراحوا يصعدون فيه.. ليعتصموا به.

صعدوا الجبل.. وامتنعوا به، أرادتْ بعض كتائبنا أنْ تصعد إليهم.. لتناجزهم وتقضي عليهم؛ بيد أنّ أبا سفيان –الذي استعاد زمام القيادة- تَوَقَّف عند سفح الجبل، وأمرهم أنْ ينكشفوا عنهم.. هاتفاً: "ذروهم.. فقد قُتِل محمدٌ، وإنّ قتال هؤلاء العائذين بالجبل.. سيُكلِّفنا شَطَطا!!".

تراجعنا عنهم.. وهبطنا إلى سفح الجبل، ثم نادانا أبو سفيان: "ظفرتْ أيديكم.. يا فرسان قريش! أيُّكم.. قَتَل محمدا؟؟!"، هتف أحد الفرسان (اسمه: ابن قمئة): "أنا قتلتُه!!"، تهلَّل أبو سفيان.. وقال: "نُسوِّرك[3].. كما تفعل الأعاجم بأبطالها!!"، انتفختْ أوداج ابن قمئة، ثم استطرد أبو سفيان.. هاتفاً: "ابحثوا عنه بين القتلى!"، طُفنا نتفقد قتلاهم.. نُفتِّش فيهم عن محمد؛ وجدنا عمه حمزة.. وعشراتٍ مِن صناديهم؛ على أنَّنا لم نعثر على محمد، ثم بعد أنْ أعيانا البحث.. قال أبو سفيان: "ما نرى مصرع محمد، ولو كان قُتِل.. لرأيناه!!؟".
أجابه أحد الفرسان: "كذب ابن قمئة! أحسب أنّي رأيتُه.. أقبل في نفرٍ مِن أصحابه.. مُصعدين في الجبل!!".

---

[1]: يستوسقون: أي: يجتمعون.

[2]: جمع أجرب.. وهو الذي أصابه داء الجَرَب.

[3]: نسورك: أي: نُلبسك سواراً.

- ٣٥ -

عند سفح أُحُد.. حصدنا رقاب سبعين رجلاً مِنهم.. بينهم عمه حمزة، وكدنا نقتل محمداً نفسه.. لولا أنَّه استعصم، واستبسل أصحابه حوله؛ عجبتُ: (كيف يحب القومُ رجلاً.. حتى أنَّهم يُقتَلون فداءً له!؟؟).
حصرناه -والشرذمة الباقية معه- في شِعب الجبل، تَمنَّعوا علينا مُعتصمين بالجبل؛ فنزلنا عنهم.

فيما تَجُول خيولنا في الساحة.. تدهس بسنابكها أشلاءَ قتلاهم، وتَطُوف نساؤنا بأجسادهم.. تُمثِّل بهم، فيما ذلك.. تَلمَّس أبو سفيان الشورى مُتسائلاً: "هل نغزو يثرب؟! أرى أنَّها.. قد خَلَتْ مِن المقاتلين!!؟".
تمهَّلتُ.. ربما يُدلي غيري بالرأي، لكن.. أحدٌ لم يتكلَّم؛ فانبعثتُ أقول: "يا سيد قريش! لا تغتر بنصرٍ لم تحرزه ببسالة رجالك، إنَّما ظهرنا بزَلَّة رماتهم التي أحسنّا استغلالها؛ وإلا كان أمرنا إلى تباب.. كما رأيتم أول النهار!".
صمت أبو سفيان.. وأطرق القوم.. كأنَّما يتدبَّرون قولي؛ فاستأنفتُ: "أخشى لو اقتحمنا عليهم بيوتهم.. أنْ يلحقوا بنا، وأنْ يتصدَّى لنا الذين لم يحضروا أُحُد.. ينافحون عن نسائهم وأطفالهم! فساعتئذ.. لو قَتَل الرجلُ منهم رجلاً مِنّا؛ فما بقي مِنّا أحدٌ.. ولا أحرزنا ظفراً!!"، ثم أردفتُ: "يا سيد قريش! قد أصبنا –اليوم- مِنهم مثلما أصابوا مِنّا يوم بدر، وتبدَّلتْ هزيمتنا -التي كانت أول النهار- نصراً؛ فاقنع بهذا النصر، وارجع بنا –الآن- إلى مكة!!".

أتممتُ حديثي، ووافقني صفوان بن أُمَيَّة الجمحي.. هاتفاً: "لا تفعلوا!! فإنَّ القوم.. قد حَرِدوا[1]؛ وأخشى أنْ يكون لهم قتالٌ غير الذي كان؛ فارجعوا!!".

لم يُخالفنا أحدٌ مِن الحاضرين؛ فنهض أبو سفيان.. هاتفاً: "لننظر.. أولاً: ماذا فعل محمد.. عسى أنْ يكون قد مات!!".

ثم انطلق إلى حيث يسمعه أصحاب محمد المعتصمين بأُحُد، وعلى مرأى ومسمع مني.. صاح: "أ في القوم.. محمدٌ؟!"، لم يجبه أحدٌ.

قال: "أ في القوم.. ابن أبي قحافة؟! أ في القوم عمر بن الخطاب؟!"، ما أجابه أحدٌ؛ فصدح مُستبشِراً: "إنَّ هؤلاء قُتِلوا؛ فلو كانوا أحياء.. لأجابوا!!؟".

آنئذ.. أجابه عمر بصوتٍ جهور: "كذبتَ.. يا عدوَّ الله!! أبْقَى اللهُ لك ما يُحزنك!!"، فجاوبه أبو سفيان صادحاً بحماس: "أُعْلُ.. هُبَل!!"، فأجابوه صائحين: "الله.. أعلى وأجل!!"، فصاح مُتشفِّياً: "لنا العُزّى.. ولا عُزّى لكم!!".

قالوا: "الله مولانا.. ولا مولى لكم!!"، أجابهم: "يومٌ.. بيوم بدر؛ والحرب سِجال!"، ثم أردف: "تجدون مُثْلةً –في قتلاكم- لم آمُر بها.. ولم تَسُؤْني!!"، واستطرد.. يَتَوعَّدهم صائحاً: "إنَّ موعدكم بدر.. للعام القابل!!"، أجابوه بعزمٍ واضح: "نعم!! هو موعدٌ.. بيننا وبينكم!"، ثم ضرب وجه حصانه.. مُوَلِّياً عنهم.

أتانا.. يركض جوادهُ، ثم خافت –كأنّه يُكلِّم نفسه-: "الخيلُ لن تستطيع الصعود إليهم للقضاء على محمد، ولو أصعدتُ القومَ إليه رَجَّالة.. لا أثق في الظفر به؛ إنَّ أصحابه يستميتون فداءً له، وإنَّا لا نقتل منهم واحداً.. حتى يقتل منّا الاثنين والثلاثة؛ وذلك لأنَّهم لا سبيل لهم إلى الهرب، هم محصورون في قمة الجبل؛ والرجل منهم يحامي عن خيط رقبته!؟".

---

[1]: حَرِدوا: أي: غضبوا واغتاظوا.. وأرادوا التحرُّش بالذي غاظهم.

ثم قـال.. كأنَّما قنع بما وصلنا إليه: "أصبتَ.. يا عمرو! لا سـبيل لنا –اليوم- إلى يثرب!"، ثم صاح.. آمراً: "جنِّبوا الخيلَ.. وامتطوا الإبل؛ سنرحل إلى مكة!!".

انسحبنا إلى وادي العقيق، وهنـاك ركبنـا الجِمـال.. وأمسـينا -قـافلين إلى مكـة- فَرِحين بنصرٍ عزيز .. حَصَّلناه بشِقِّ الأنفس.. ولم يكتمل.

في أصبوحة اليـوم التـالي.. بَـثَّ أبـو سـفيان العيـون -حوالينـا وخَلْفنـا- خشـية أنْ يرسل محمدٌ وراءنا بعض جنوده، وقد وقع ما كنَّا نُحاذِر؛ رصدتْ العيون بعض جنـوده -فاصـلين عـن يـثرب- يزحفـون في آثارنـا: (تعسـاً لهـم!! أمـا أَوهـنهم قِتـالُ الأمس؟!! أما أصابهم القَرح[1].. مثلما أصابنا؟؟! ألم تزل بهم قوة؟!!)،
(لا ريب.. أَتَوا وراءنا.. يطلبون ثأرهم!!؟).

تَوَقَّفنـا -في الروحـاء [2]- للراحـة، وجمـع أبـو سـفيان أهـل شـورته –وأنـا رجلٌ منهم- ليستشير.. مرةً أخرى: "هل نرجع إليهم.. ونعاود القتال.. لنستأصل شأفتهم؟؟!".
تناقشـنا وتجادلنـا.. بعضـنا يُؤيِّـد وبعضـنا يُعـارض، وبينمـا نحـن كـذلك.. إذ أقبـل علينا مَعْبد بن أبي مَعْبد الخزاعي -أحد حلفائنا مِن خزاعـة- قـادماً مِن جهـة يثـرب، فلمَّا عَرَفه أبو سفيان.. بادر يسأله: "ماذا وراءك.. يا معْبد؟؟!".
أجـاب بـثقة الـذي يعلـم الخبـر اليقـين: "محمدٌ.. قـد خـرج في أصـحابه يطلبكم في جمعٍ لم أر مثله قـط!"، وأردف مُخوِّفاً: "وإنَّهم يتحرَّقون عليكم! قد اجتمع معه مَن كان تَخلَّـف في يـومكم، وندموا على ما صنعوا؛ فـهم مِن الحنـق علـيكم شيءٌ لم أرَ مثله قط!!"، رَدَّ أبو سفيان عليه مُشكِكاً: "ويحك!! ماذا تقول؟؟!".

---

[1]: المقصود بالقرح: ألم الجراح وأذى الهزيمة.

[2]: الروحاء: إحدى محطات القوافل بين مكة والمدينة المنورة، تقع على بعد ٨٠ كم تقريباً من المدينة.

أجابه مُؤكِّداً خبره: "والله.. ما أرى أنْ ترتحل حتى ترى نواصي الخيل؛ فقد خلَّفتُهم.. قريباً مِن حمراء الأسد!"، تعجَّبنا: "هل جاءوا.. يمتطون خيلاً؟!!".

آنئذ.. التمس منه أبو سفيان المشورة: "فوالله.. لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم.. لنستأصل بقيَّتهم؛ فماذا ترى؟!"، قال مُحذِّراً: "فإنّي أنهاك عن ذلك!!؟".
وجعل يصف لنا جيشَ محمدٍ -في حمراء الأسد- بأبياتٍ نظمها؛ فأدخل الرهبة في قلوبنا، ثم انصرف عنّا.. وقد كاد يصرف رأينا عن معاودة الكَرَّة؛ غير أنَّ أبا سفيان حَبَّذ أنْ يتيقَّن مِن الخبر –فإنَّ خزاعة عَيْبة نُصح[1] محمد- فتريَّث بنا حتى أقبل الليل، ثم بَثَّ عيوناً.. تنظر لنا: ماذا فعل محمدٌ.
ما لبثتْ العيون أنْ عادتْ إلينا.. تقول: "لدن حمراء الأسد.. رأيناهم؛ أوقدوا ناراً كثيفة.. يراها الرائي مِن بعيد، وسمعنا لعسكرهم صوتاً وجلبة.. تذهب في كل وجه!!"، قلنا: "بَرَح الخفاء! قد صدقنا ابنُ أبي مَعْبد النصحيةَ!!"، وعزمنا على سرعة الإياب إلى مكة.. قانعين بذاك النصر الخاطف.

ثم صادفنا رَكْباً مِن بني عبد قيس، وعلمنا أنَّهم يريدون يثرب طلباً للميرة [2]، فقال لهم أبو سفيان: "فهل أنتم مُبلِّغون عني محمداً رسالةً.. أُرسلكم بها إليه؟؟!"، وأغراهم.. مُردِفاً: "وأحمل لكم هذه –غداً- زبيباً.. بعكاظ؛ إذا وافيتموها!!"، أجابوه لما أراد.. طامعين في المكافأة.. وهتفوا مُؤكِّدين: "نعم!!".
فاستطرد: "إذا وافيتموه.. فأخبروه: أنَّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه.. لنستأصل بقيَّتهم!".

---

[1]: العيبة: هي ما توضع فيه الثياب لحفظها.. أي: أنهم موضع النصح له والأمانة على سره، ونصح: كأنّه شبه الصدر الذي هو مستودع السر بالعيبة التي هي مستودع الثياب.

[2]: الميرة: هي الطعام الذي يُدخر كالحبوب.. القمح والشعير.

عاهدوه أنْ يفعلوا.. وضمن لهم جائزتهم حينما يلاقيهم.. في سوق عكاظ بعد شهر؛ ثم انطلقوا قاصدين يثرب.

أدركتُ أنَّ أبا سفيان ما أراد بهذه الرسالة إلا أنْ يُخذِّل محمداً عنَّا.. حتى نتراجع إلى مكة آمنين، أدركتُ غايته بفطنتي.. قبل أنْ يُصرِّح بها للآخرين الذين اضطربوا خشية أنْ نَرتدَّ –حقاً- لملاقاة محمدٍ!!

أَعترف –دون خجل- أنَّ فريقاً مِن جيشنا يخشون الكَرَّة عليهم؛ وكيف لا؟! فعلى ما في جيش قريش مِن فوارس شجعاء ومقاتلين أشداء؛ لكنّ هؤلاء القوم يختلفون؛ إنَّهم لا يهابون الموت.. إنَّهم يُقاتلون قِتال مَن يؤثر الموت على الحياة!!؟

خلال الأيام والأشهر التالية.. تنامتْ إلينا أنباءٌ أكيدة: بأنَّ محمداً فرض الجلاء -عن يثرب- على يهود بني النضير؛ فقصدوا خيبر.. وهاجرو إليها.

ثم حال حَوْلٌ.. ودخلنا في شهر شعبان.. وحان ميقاتنا مع محمد الذي توعَّده به أبو سفيان، ورغم أنَّها كانت سنة جدبٍ وجفاف.. تجمَّعنا عند مَجنَّة لننطلق إلى الميقات، ثم تحرَّكنا مِن مَجَنَّة في اتجاه بدر.. حتى بلغنا عُسْفان.

تواردتْ إلينا الأخبار: أنَّ محمداً سبقنا –وِفق الميقات- إلى ماء بدر.. منذ أيام؛ لا ريب أنَّهم يطمحون إلى استرجاع هيبتهم التي أسقطناها يوم أُحُد.

لكن.. نظر أبو سفيان –وهو سيد القوم- في حال الناس الذين معنا في الجيش؛ فألفاهم متراخين مُتقاعسين عن لقاء محمد!!؟

فقال: "يا معشر قريش! إنَّه لا يُصلحكم إلا عامٌ خصيب.. ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن؛ وإنَّ عامكم هذا عام جَدْب، وإنّي راجعٌ.. فارجعوا!".

ثم نكصنا على أعقابنا إلى مكة؛ فاستقبلنا أهلها ساخرين: "إنَّما أنتم جيش السَّويق[1]؛ خرجتم لتشربوا السويق.. ثم رجعتم!!؟".

تكدَّرتُ لهذا الخذلان، وشعرتُ بالخزْي لإخلافنا ميقات محمد.. كأنّنا نهاب لقاءه؛ ومثلي.. كان آخرون: خالد.. وعكرمة.. وصفوان.. وغيرهم، مشينا إلى أبي سفيان.. وعزمنا عليه أنْ نبرز لملاقاتهم العام القادم؛ فأَقَرَّ لنا بما نرغب.

ثم وفد علينا حيي بن أخطب –زعيم يهود- في عشرين رجلاً مِن سادات بني النضير -ليُحرِّضنا على محمدٍ- زاعماً أنَّ محمداً نقض عهده معهم.. وحاصر حصونهم.. وحَرَّق عليهم ديارهم حتى أجلاهم عن يثرب رغماً عنهم.
مع أنّنا ندرك كذبهم على محمد؛ فنحن أعلم بابن عمنا منهم: (نعلم أنَّ ابن عبد المطلب لا ينقض عهده، ونعلم أنَّهم هم البادئون بالشر ضده -بعد وقعة بدر- حينما تسلَّل أبو سفيان في مئتي راكباً -كنتُ واحداً منهم- ليفي بنذره أنْ يغزو يثرب[2]؛ فأحسن بنو النضير التعاون معنا.. ودَلّونا على خبايا القوم ومواطن ضعفهم!).
أقول: رغم أنّا نعرف كذب مزاعم سيد بني النضير وغدره.. إلا أنّنا أظهرنا تصديقه.. وقلنا: "ثأرنا.. واحدٌ؛ فهات ما عندك!!".
فقال بصوته الخفيض الماكر:"يا معشر قريش! نشهد أنَّ دينكم خيرٌ مِن دين

[1]: طعامٌ يُتَّخَذ من مدقوق الحنطةِ والشعير: سُمِّي بذلك لانسياقه في الحلق والجمع : أَسْوِقَةٌ.

[2]: كان ذلك في غَزْوَةُ السَّوِيق؛ وقعت لما رجع أبو سفيان إلى مكة من غزوة بدر فخرج في مائتي راكب فنزل طرف العريض وبات ليلة واحدة في بني النضير عند سلام بن مشكم فسقاه ونطق له من خبر الناس ثم أصبح في اصحابه وأمر بقطع أصوار من النخل وقتل رجلا من الأنصار وحليفا له ثم كر راجعا ونذر به محمد رسول الله فخرج في طلبه والمسلمين فبلغ قرقرة الكدر وفاته أبو سفيان والمشركون وألقوا شيئا كثيرا من أزوادهم من السويق فسميت غزوة السويق وكانت في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة ثم رجع إلى المدينة.

محمد؛ وقد جئنا ننصركم عليه، وقد ألَّبنا عليه قبائل العرب: غطفان.. وبنو أسد.. وسِوَاهم، وقد واعدنا غطفان إنْ جاءونا بجيشٍ فيه ستة آلاف مقاتل نغزو به يثرب.. أنْ نهبهم نصف تمر خيبر لمدة سنة!!".

سألناه: "وماذا تريدون منّا.. يا زعيم يهود؟؟!".

أجاب الداهية.. والحقد يتناثر مِن بين شدقيه: "إذا أجبتمونا لما نحب.. اندفعتْ أحزابنا -مجتمعين معاً- لنغزو يثرب بجيوشٍ لا قِبَل لمحمد بها؛ آنئذ.. تثأرون لكرامتكم وتقضون على فتنةٍ أقضَّتْ عليكم مضاجعكم، ونرجع نحن.. فنسكن بلدنا وديارنا، وتُحصِّل غطفان -مِن خيرات يثرب- ما يكفيهم!!".

فرصةٌ سانحة لاجتثاث عدونا.. ينبغي ألا نفوّتها، ولم نفوِّتها.. واتفقنا مع زعيم يهود، وتواعدنا أنْ نلتقي وإياهم في الميقات أمام يثرب.

- ٣٦ -

مضينا نجمع حلفاءنا مِن كنانة حتى اجتمع لنا جيشٌ قوامه أربعة آلاف مقاتل، زحفنا بهم صَوْب يثرب.. حتى نزلنا بمجمع الأسيال مِن وادي العقيق في الجنوب منها، وجاء أهل نجد -غطفان وبنو أسد.. وبطونٌ شتى- مِن جهة الشرق.. حتى نزلوا جانب أُحُد.

اكتمل توافد الأحزاب من كل جهة؛ فتحرَّكنا.. حتى التأمتْ جيوشنا قُبَالة يثرب -في الموعد الذي تعاقدنا عليه مع زعيم يهود- في جيشٍ تعداده عشرة آلاف مقاتل:

سوادهم يكسو وجه الصحراء، يزحفون في بطء مِن كثرة عددهم.. وثقل ما يحملون مِن حديدٍ ودروع، دروعٌ بالآلاف.. تتلألأ في ضوء الشمس؛ فتملأ قلوبنا ثقةً في نصرٍ محتوم، لا يُساورني شكٌ في أنّنا سنهدم يثرب فوق رءوسهم.

يثرب قريةٌ.. تُحصِّنها الجبال والحرات التي تحيط بها مِن كل الجهات؛ ولا يُمكن لجيشٍ –كهذا- أنْ ينفذ إليها.. إلا مِن شَمالها فقط؛ حيث تمنعها حرةُ واقم مِن الشرق.. وحرةُ الوبرة مِن الغرب؛ تحجزانها.. فلا منفذ إليها مِن إحدى الجهتين، أمَّا مِن جهة الجنوب فيحصِّنها جبل عير[1] مِن لدن قباء.. وحصونٌ منيعة ليهود بني قريظة الذين تعاهدوا مع محمد على الدفاع عن يثرب.. ولا يزالون على عهدهم معه!!
لذا.. فقد اتفق أمرنا على مهاجمتها مِن جهة الشمال، وتقسَّمتْ جيوشنا لثلاثة عساكر.. وجُعِل ملاك أمرها –جميعاً- لأبي سفيان بن حرب.

خيَّمتْ جيوشنا –في شمال يثرب- بجانب أُحُد، بادرنا بإرسال مَفْرَزة مِن الرجال لاستطلاع المكان الذي سنهاجم منه، وسرعان ما عادوا ليُنبِّئونا نبأً عجبا!!
انطلقتُ –وخالد وعكرمة.. وبعض الفرسان- لنستَيْقن مِن الخبر؛ فأبصرناه بعيوننا: خندقاً طويلاً يصل بين الحرتين.. يقطع الطريق بيننا وبين يثرب، عريضاً.. لا يملك الحصان الأَرِن اجتيازه في قفزة مهما وسعتْ خطوته، عميقاً.. عمقه يزيد عن قامتين أو ثلاثة، وعلى حافته مِن الجهة الأخرى تكوَّم ردماً [2] وعلا حتى صار ارتفاعه أعلى مِن الرجل الراكب.. فستر عنّا ما يدور خَلْفه!؟؟

---

[1]: يقع جبل عير في المنطقة الجنوبية الغربية من المدينة المنورة وشرقي وادي العقيق قرب ذي الحليفة (آبار علي حالياً) ويبعد عن المسجد النبوي ٨ كم.

[2]: ذلك الردم كان من ناتج حفر الخندق حيث جعله المسلمون ستراً لهم.. يختبئون وراءه.

ذهلنا.. وتحيَّرنا.. وعجزنا عن التفكير.. فارتجلنا؛ غدا نفرٌ منّا يعدو بجانب الخندق.. عسى أنْ يعثروا على منفذٍ أو مخاضة، وغدا آخرون يتقافزون فوق صهوات جيادهم.. ربما يتمكَّن أحدهم مِن رؤية شيءٍ وراء الردم العالي، وتهوَّر فارسٌ مِنّا –إذ لاحظ ثلمة في الخندق.. ظَنَّها منفذ- فهيَّأ جواده.. وانطلق يقفز به يريد أنْ يقطعه في عَدوةٍ واحدة؛ خانته حساباته.. وسقط -بجواده- في قاع الخندق، وانهالتْ نبالٌ.. صُوِّبتْ علينا مِن وراء الردم في الجهة المقابلة؛ إنَّهم خلف هذا التل.. يراقبون الخندق عن كثب!!

بشق الأنفس.. تمكَّنّا مِن إخراج فارسنا المتهوِّر.. بعد أنْ كادتْ تخطفه النبال، ارتبكنا ارتباكاً شديداً.. ثم لم نجد بُدّاً مِن التقهقر بعيداً!!؟

انكفأنا إلى أبي سفيان ورءوس القوم.. لنُؤكِّد -بعد المعاينة- صدق النبأ، ونؤكِّد خطورة ذاك الخندق.. واستحالة عبوره، ضرب الزعماء كفاً بكف حيرةً وتغيُّظاً: "إنَّها مكيدةٌ.. لم تعرفها العربُ -مِن قبلُ- في حروبها!".

غير أنّي أنشأتُ أتدبَّر المسألة بشيءٍ مِن التَبصُّر: (خندقٌ كهذا.. يستغرق حفره وقتاً ليس بالقصير؛ لقد تسامع محمدٌ بخبر الأحزاب.. وعلم به منذ مدة!!؟ إنَّ له عيوناً بين صفوفنا -بل في رحالنا.. في بيوتنا- تأتيه بأنبائنا.. كأنَّه يعيش بين أظهرنا!؟؟)، (وأمرٌ آخر: حفر خندقٍ –كهذا- يستلزم معاناةً وجهداً شديداً يُبذَل.. حتى يصير بهذا الطول والعمق.. والاتساع الذي لا يمكننا اجتيازه؛ كيف تسنى له ولأصحابه –على فقرهم وقلة عددهم- أنْ يفعلوها؟!!)؛ الحق -الذي لا أُماري فيه- أنَّه وقع في خاطري –آنئذ- إعجابٌ بمحمد، وأنَّه مُؤيَّدٌ بقوةٍ خَفِيَّةٍ عنّا!!؟ وإنَّه.. معصومٌ!!

لبثنا –أياماً- نُحاصر يثرب مِن جهاتها؛ لكنّا عاجزون.. أمام ذلك الخندق اللعين، حائرون.. لا ندري: كيف نجتازه.. كي نتَوَصَّل إلى بيوتهم وذراريّهم؟!

عكفنا عليه –بضعة عشر يوماً- نرسل كتائب الفرسان، يحاولون اجتيازه.. وإختراق حراسه الرابضين وراءه، دأبنا على التناوب عليه.. محاولين اقتحامه: يغدو أبو سفيان –في فرسانه- يوماً، ويغدو خالد.. يوماً، ويغدو عكرمة.. يوماً، ويغدو ضرار بن الخطاب.. يوماً، وأغدو أنا.. يوماً!

نَكُرّ.. ونجول حول الخندق، نتراشق –معهم- بالنبل.. نرميهم بالحجارة.. نقذفهم بالحصا؛ وفي كل يومٍ.. نَكُرّ عنهم خائبين مدحورين!؟

أقحم بعض فوارسنا الشجعاء أنفسهم بخيولهم؛ فساخوا في قاع الخندق، امتشقوا السيوف.. ونادوا: "هل مِن مبارز؟!"؛ فحصدتهم سيوف محمد!؟؟

لا سبيل لاجتياح الخندق.. أو اختراق صفوفهم التي تستبسل في الدفاع عنه!!

كلما طال علينا الأمد.. تطيَّرنا بحيي بن أخطب؛ زعيم يهود.. الذي كان أشدّ الناس تغيُّظاً مِن تلك المكيدة الشيطانية!؟؟

تعاقبتْ علينا الأيام يائسة مُحبطة، غشيتنا الكآبة.. وأصاب الفتورُ عزائم رجالٍ مِنّا؛ لكن.. كلا!! لن نستسلم للانكسار والإخفاق، لا بد مِن إبرام ما تعاقدنا عليه؛ عزمنا على أنفسنا –وعلى فوراسنا ورجَّالتنا- أنّا لن نرجع.. حتى نجتاح يثرب.. ونستأصل محمداً وأصحابه!

لكن مع توالي الأيام.. أُجهِد الرجال.. وهمدتْ هِمَمهم، كَلَّ الفرسان.. وهلكتْ الكُرَاع[1]، أوشكتْ المُؤْنَة [2] على النفاد.. وسئمنا المُكث في العراء؛ تَوَغَّرتْ صدورنا غيظاً.. وقصدنا إلى حيي بن أخطب.. حانقين معاتبين: "أ لهذا جمَّعتنا.. يا سيد يهود؟!!"، وكأنَّما أحب أنْ يُطيِّب خواطرنا؛ فبعث إلى قومه –في خيبر- أنْ أرسلوا

[1]: الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

[2]: المؤنة: اسم يجمع ما يختزن من القوت وعتاد الحرب.

إلينا مُؤْنَة نتقَوَّى بها؛ فأرسلوا إلينا عشرين بعيراً محملة شعيراً وتمراً وتبناً، ومِن سـوء الطـالع المثـير للسـخرية.. أنْ تقـع –تلـك العيـر- في أيـدي أصـحاب محمد بأحمالها؛ كأنّما هم الذين يُحاصروننا!؟؟

ضحكنا مُغتـاظين.. وتهامسـنا سـاخرين: "إنَّ حييـاً لرجلٌ مشؤوم.. قطع بنـا؛ ولـن نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا!!؟".

مـا برحـتُ أتفكَّـر في موقفنـا: (لـن يصـبر النـاس طـويلاً، ومـا هـي سِـوَى أيـامٍ.. ويتسلَّلون لِوَاذاً.. وينفرط عقد الجيش، ولئن رجعتْ هذه الجيوش خائبة؛ فلـن نـتمكَّن مِن محمد.. بعـدها أبـدا!!؟)، (لا بـد مِـن تغـيِّر الموقـف! لا منـاص مِـن البحـث عن خطة أخرى.. والبدء في تنفيذها بأسرع ما يمكن!!؟).

دلفتُ إلى أبي سـفيان.. وهمسـتُ في أُذنـه مُحرِّضـاً: "كلـم حـيي.. يُغـري بـني قـريظة بـنقض عهـدهم مـع محمد؛ وأنْ يخرجـوا عليـه مِـن خَلْفـه.. ويطعنـوه في ظهـره!"، استحسـن أبـو سـفيان رأيي، استدعى حيي.. وقـال لـه: "مـا تقـول في بني قـريظة.. يا سيد يهود؟! ألا ينبغي عليهم أنْ يكونوا معنا؟؟!".

أجـاب: "بلـى! إنَّهـم أهـل حلقـة[1] وافـرة.. وهـم سـبعمائة وخمسـون مقـاتلاً، وهـم قـومي.. وإنّ أمـري فـيهم مطـاعٌ!!"، فـقـال أبـو سـفيان: "إذاً.. ائـتْ قومـك حـتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد!!".

انبعث مُتسلِّلاً إلى بني قريظة، ثم رجع إلينا.. ليقول: "أبشروا.. يا معشر الأحزاب! إنَّ بني قريظة –الآن- معنا! لم أزل بهم حتى تَنكَّروا لـعهدهم مع محمد، ولم أتركهم.. حتى قـام كبـراؤهم إلى الصـحيفة –الـتي كتب فيها العهد بينهم وبينه- فـمزَّقوها!"، تَنفَّس الصعداء.. ثم استطرد بلهجةٍ واثقة: "وقد خلَّفتهم.. يشحذون السيوف.. ويُطلّون الدروع.. ويعلفون الخيل.. استعداداً للصدام!".

[1]: حلقة: أي.. سلاح.

استبشرنا.. وقَوِيَتْ عزائمنا، واستلهمنا حماسةَ القتال -التي فترتْ في صدورنا- مِن جديد، وأنشأنا نُخطِّط للمعركة الكبرى: (سنعطي فرصةً –بضعة أيام- لبني قريظة.. يتهيَّأون فيها، وخلالها.. نشتدّ نحن في مناوشة أهل الخندق، نتناوب عليهم القتال –ليلاً ونهاراً- حتى نرهقهم ونستنزف قواهم، ونشغلهم عن الذين سيأخذونهم مِن فوقهم، وحينما تأتي ساعة الحسم.. ينقض بنو قريظة عليهم مِن فوقهم.. ونتخطَّفهم نحن مِن تحتهم!)، استحكمتْ الخطة.. وما هي إلا أيامٌ معدودات.. وتدهس خيولنا رءوس محمد وأصحابه!!

عكفتْ طلائعنا تتناوب الإغارة على أهل الخندق -نهاراً- لاجهادهم بالقتال، وليلاً.. تَرصُّداً لفرصةٍ يَسهون فيها عن الخندق فنقتحمه، وجعلتْ خيلنا تطيف بالخندق عسى أنْ نعثر على ثُلْمَة أهملها حارسوها.. فنعبر منها!

لكن.. طاشتْ أمانينا، وتهاوتْ في قَعْر الخندق.. الذي دأب أصحابه على سد ثغراته.. أولاً بأول، صمدوا –دفاعاً عن خندقهم- صمود الجبال الراسيات، وثبتوا لكل جريدة[1] طمعتْ في الانقضاض عليهم.. حتى أزاحوها وأجبروها على الانسحاب، جهدنا.. وأضنانا القتال.. وما استطعنا إزالتهم عن الخندق.. أو حتى زحزحتهم!!

تواصل القتالُ أياماً أُخر.. قضيناها -في العراء- بمُؤْنَةٍ شحيحة في انتظار بني قريظة.. أنْ يُتمّوا استعداداتهم.. لنبدأ هجوماً عاماً، تطاولتْ المدة علينا.. حتى سئمنا؛ بل.. تشكَّك بعضنا في صدق عزمهم على نصرنا، وظنّنا أنَّهم جبنوا.. فأرسلنا نستعجلهم؛ بيد أنَّهم استمهلونا، تَصبَّرنا.. وانتظرنا مُتململِين!!

---

[1]: الجريدة: هي الخَيْل.. لا رجَّالة فيها.

ثم جاءنا نعيم بن مسعود الأشجعي -رجلٌ من حلفائنا الغطفانيين- وكان نديماً لبعض أسياد بني قريظة؛ فقال: "يا أبا سفيان! قد عرفتم ودي لكم.. وفراقي لمحمد، وإنَّه قد بلغني أمرٌ.. قد رأيتُ منه عليَّ حقاً أنْ أُبلغكموه.. نُصْحاً لكم: فاكتموا عني!!"، قلنا: " نفعل.. فما هو؟!".
فأجاب: "اعلموا أنَّ معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد؛ وقد أرسلوا إليه: "إنَّا قد ندمنا على ما فعلنا؛ فهل يرضيك أنْ نأخذ لك مِن القبيلتين –قريش وغطفان- رجالاً مِن أشرافهم.. ونعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على مَن بقي منهم.. حتى تستأصلهم؟؟"، فأرسل إليهم: نعم!!".

سَكَتَ.. وتطلَّع إلى وجوهنا –هنيهة- فألفانا مبهوتين مصدومين، ثم استأنف ناصحاً: "فإنْ بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم: فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً!"، وبَلَّغنا أنَّه قال لقومه –غطفان- مثل ذلك!
دهشنا.. وارتبكنا.. وتجادلنا؛ لو صدق الأشجعي.. لكانت مصيبةً عظيمةً، تأزَّم الناس.. واحترنا: ماذا نفعل؟!!
ثم ارتأينا أنْ نبعث إلى كعب بن أسد –سيد بني قريظة- نفراً مِنّا ومِن غطفان.. لنستبين موقفه.. وليقولوا له في حسم: "إنّا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر؛ فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً.. ونفرغ فيما بيننا وبينه!!".
فانطلقوا إلى بني قريظة –وعلى رأسهم: عكرمة- واصطحبوا معهم.. حيي بن أخطب؛ فأجابوهم.. مُسَوِّفين: "إنّ اليوم يوم سبت.. وهو يوم لا نعمل فيه!!"، ثم استطرد سيدهم في صرامة: "ومع ذلك.. لسنا بالذين نقاتل معكم محمداً.. حتى تعطونا رُهُناً مِن رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً!!"، وعَلَّل شرطه

هـذا مُسترسِـلاً: "فإنّـا نخشـى إنْ درسـتكم[1] الحـربُ واشـتدّ علـيكم القتـال.. أنْ تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا –والرجل- في بلادنا؛ ولا طاقة لنا بذلك منه!؟؟".

انتهره حيي بن أخطب.. ونهاه عن سوء الظن؛ غير أنّ الرجل أصرّ على إنفاذ ما اشترطه، حاول ابن أخطب أنْ يُطمئنه.. فقال له: "إنّي أُعطيك العهد عليّ.. والميثاق مِن الله.. لئن رجعتْ قريش وغطفان ولم يقاتلوا.. أنْ أكون معك في حصنك حتى يصيبني ما يصيبك!!"، فجاوبه ساخراً: "وما غناءك عني؟!! أنت ستبقى عندي.. مِن الآن!"، وأمر رجاله بالتَحفُّظ عليه.

ارتدّ عكرمة وأصحابه ليُخبرونا –وغطفان- بما حدث؛ فقلنا لأنفسنا: "تالله.. الذي حدَّثنا به نعيم الأشجعي.. لحقٌ!!"، على أنَّ أبا سفيان أحب أنْ يستجلي حقيقة نواياهم؛ فأرسل إليهم: "إنّا –والله- لا ندفع إليكم رجلاً واحداً مِن رجالنا؛ فإنْ كنتم تريدون القتال.. فاخرجوا.. فقاتلوا!!".
فجاءنا الردُّ.. غليظٌ: "وإنّا –والله- لا نقاتل معكم حتى تدفعوا إلينا سبعين رجلاً منكم.. يكونون رُهُناً عندنا!!".
ثبت لدينا تخاذل بني قريظة.. وخذلانهم لنا؛ نُكِبنا.. ورَكَبنا غمٌّ شديد، ومما عَظَّمَ اغتمامنا وتحيُّرنا.. معاينةُ ذلك الخندق والمتربِّصين بنا مِن خَلْفه؛ سقط في أيدينا.. وذهبتْ أنفسنا شَعَاع[2]!!

بضعٌ وعشرون ليلةً خلتْ.. ونحن قابعون أمام هذا الخندق المرصود، في العراء.. نقيم بأسوء منزل، استنزفتْ طاقاتنا.. وتهاوتْ عزائمنا.. وتبدَّدتْ آمالنا.

---

[1]: درستكم: أي.. طحنتكم.

[2]: ذهبت أنفسهم شعاع: أي.. أصابها الخوف والفزع.

أمسينا ندخل ونخرج على أبي سفيان.. ونحن حائرون؛ لا نحزم أمراً.. ولانقطع!؟
على أنَّ أبا سفيان حَرِص ألا يعرف الجنود شيئاً مِن خبر بني قريظة -كيلا يَفُتّ ذلك في عضدهم.. ويفسدهم علينا- إلى أنْ نرى رأينا!!

كانت الليلة مقمرةٌ.. ونسائم الربيع تداعب أخبيتنا؛ فأراد أنْ يشغلهم عن الخبر.. حتى نتدبَّر أمرنا؛ فأوصى بجُزُرٍ تُذبح.. وولائم تُحضَّر للجنود، هَبَّ الرجال إلى الجُزُر.. فذبحوها، وإلى القدور.. فأوقدوا نيرانها؛ وانشغل الناس بطَهْو الطعام.. وإعداد الموائد!!

ثم جمع أبو سفيان أهل مشورته وقادة جنده.. ليُشاورهم في الأمر.

فيما نحن على تلك الحال.. إذ أظلمتْ السماء فوقنا، وادلهمتْ.. حتى تَوَهَّمنا خسوف القمر، وانقلب النسيم الرقيق –فجأة- ريحاً فيها صِرٌّ[1]؛ اشتدَّتْ علينا.. حتى أنَّ الرجل –منّا- يُقَرْقِف[2] مِن شدة الزَّمْهَرير!!

ريحٌ عاصفةٌ.. تُثير النَّقْع[3].. وتَعْوِي بأصواتٍ كالصواعق، عتتْ علينا.. حتى كَفَّأتْ القدور على أفواهها.. وأطفأتْ نيرانها، تَخطَّفتنا زوابعها، وأهباؤها أزكمتْ أنوفنا، وشرعتْ تحثو الغبار في أعيننا.. والتراب في وجوهنا، وتحشو صدورنا رعباً!!

في ظلماتها الشديدة وهَبَّاتها العنيفة.. راح الرجال يَتخبَّطون.. وينطرحون على الأرض.. وعلى أمتعتهم، تضعضع العسكر.. وتَشتَّت شمله!!

اختلط عواء الريح.. بصرخات الفزع.. وصهيل الخيل.. وضجيج الإبل، تَقَطَّعتْ أطنابُ الخِيَم.. وتَهدَّمتْ فوق أرؤسنا!

---

[1]: ريح فيها صر: أي.. ريح شديدة البرد.

[2]: يقرقف: أي: يرتعد.. وتصطك أسنانه ببعضها.

[3] : النقع: الغبار الساطع.

أذهلنا الرعبُ عن أنفسنا، زاغتْ قلوبنا.. وشردتْ أذهاننا.. وغُمِيَ علينا؛ فصار الرجلُ مِنّا يتشبَّث بذراع جاره –ولا يكاد يميزه-.. ويسأله بصوتٍ مذعورٍ: "مَن.. أنت؟!!".. ولا ينتظر جواباً؛ بل.. نَخْبِط خَبْط عَشْوَاء.. مِن الهَلَع!!

ارتعب أبو سفيان.. حتى أنَّه وثب على جَمَلِه –وهو معقول- وضربه.. فنهض على ثلاث قوائم؛ ثم انتبه.. فحَلّ عقاله، صرخ.. في اضطرابٍ: "يا معشر قريش! والله.. إنَّكم لستم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخف، واختلفتنا بنو قريظة.. وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا مِن هذه الريح.. ما ترون؛ فارتحلوا.. فإنّي مُرتحل!!".
(ما هذا.. يا سيد قريش؟!! إنَّك جهرتَ للناس بما أمرتنا أنْ نستره عنهم!!؟ إلى هذا الحد تملَّكك الهَلَع؟!!).
تَمسَّكتُ برَحْله.. وقال له عكرمة لائماً: "إنَّك رأس القوم وقائدهم! تذهب.. وتترك الناس؟؟!"، استحيا مِنّا.. وأناخ جَمَله، ثم أخذ بزمامه -وهو يقوده- وقال: "اِرحلوا.. أمامي!!"، فجعل الناس يرحلون.. وهو قائمٌ، وأنا قائمٌ معه.. لم أتركه، ثم قال لي: "يا أبا العاص! نقيم في جريدةٍ مِن الخيل.. بإزاء محمدٍ وأصحابه؛ فإنّا لا نأمن أنْ نُطلَب!!؟"، أجبتُه بثباتٍ: "نعم! أنا.. أُقيم!!"، وكان معنا خالد بن الوليد.. فسأله: "ما ترى.. يا أبا سليمان؟؟!"؛ فقال: "أنا –أيضاً- أُقيم!".

تأخَّرتُ أنا وخالد.. وأقمنا في مائتي فارس؛ بينما تقهقر جميع جيش قريش.. آيبين إلى مكة، وكذا.. انسحب جنود غطفان إلى نجد!!
انفضتْ الأحزاب عن يثرب.. بعدما عجزتْ عن إنجاز غايتها، وفشلوا في كسر محمد؛ ولا أحسبهم سيجتمعون عليه.. مرة أخرى!!؟
أصبحنا.. والسماء صافية والشمس مُشرقة؛ تبدَّلتْ ريح البارحة العاتية.. نسيماً لطيفاً وربيعاً باسماً.. بعد أنْ سُلِّطتْ علينا ليلةً عصيبةً بطولها!!؟

محاذرين.. انسحبتُ أنا وخالد وجريدتنا.. بعدما تَوَثَّقنا أنَّ أحداً مِن جند محمدٍ لا يتبعنا، انقشعنا عن يثرب.. نُقَلِّب كَفَّيْنا على ما أنفقناه في هذه الحملة الفاشلة.. ثم أصبح هباءً منثوراً، لم يراجعني خالد.. ولم أراجعه؛ لكن.. لم يخف على أحدنا أنَّ صاحبه يراجع نفسه في أمر محمد: إنَّ هذا الفحل لا يُجدَع أنفه[1].

بعد قرابة الشهر.. رجعنا إلى مكة.. مقهورين مُقمَحين [2].. عاجزين –أمام أهلينا- عن تبرير إخفاقنا وفشل حملتنا!!؟
انهارتْ آمالنا في استئصال محمد وصحبه؛ فتملَّكنا الحقد والغيظ.. إلى حدٍ جعل أبا سفيان يبعث إليه برسالة يقول فيها: "باسمك اللهم! فإنّي أحلف باللات والعزى وإساف ونائلة وهُبَل.. لقد سِرتُ إليك في جمعٍ.. وأنا أريد ألّا أعود إليك أبداً حتى أستأصلكم؛ فرأيتُك.. قد كرهتَ لقاءنا واعتصمتَ بمكيدةٍ ما كانت العرب تعرفها، وإنّما كانت تعرف ظِلّ رماحها.. وشَبا[3] سيوفها، وما فعلتَ هذا إلا فراراً مِن سيوفنا ولقائنا، ولك مني يومٌ.. كيوم أُحُد!".

لكن.. أتانا رَدُّ محمدٍ ليزيدنا غيظاً فوق غيظٍ: "بسم الله الرحمن الرحيم.. مِن محمد رسول الله إلى صخر بن حرب، أمّا بعد: فقد أتاني كتابك، وقديماً.. غَرَّك بالله الغرور، أما ذكرتَ أنَّك سِرتَ إلينا.. وأنت تريد ألا تعود حتى تستأصلنا؛ فذلك أمرٌ يحول الله بينك وبينه.. ويجعل لنا العاقبة، وليأتينّ عليك يومٌ.. أكسر فيه اللات والعزى وإسافا ونائلة وهُبَل.. حتى أُذكِرك ذلك.. يا سفيه بني غالب!".

---

[1]: لا يُجدع: لا يُقطع.. أي: لا يُساء إليه ولا يمكن هزيمته.

[2]: أقمح الرجل: رفع رأسه.. وغضّ بصره من الذُّلِّ.

[3]: شبا: جمع شباة: وهي مِن الشيء حد طرفه.

- ٣٧ -

في نوادي قريش بمكة.. تواترتْ علينا الأخبار: أنَّ محمداً –حينما ارتدَّ عن الخندق- لم يضع سلاحه.. ولم يغمد سيفه.. حتى قَصَّ رقاب بني قريظة الذين فَجَروا في عهدهم معه.. وائتمروا به.. مع أعدائه، بل.. أكثر مِن ذلك: مضى يؤدِّب الأعراب الذين طمعوا في يثرب.. أثناء حصارنا له!!

لا غرو أنْ هذه الأخبار.. أدخلتْ الرهبةَ في أفئدة قريش.. وأفئدة أهل مكة أجمعين: محمدٌ يزداد عِزًّ.. وقريش تزداد هواناً!!؟

أمَّا أنا.. فأزداد فقراً؛ ولا سيادة في قريش لمُملِق! ولا حياة كريمة في مكة.. لفقير! تأمَّلتُ حالي.. فذهبتْ نفسي حسرات، وانتابني شعورٌ مرير بالتضاؤل والانهزام؛ غدوتُ أهرب منه سيراً –على غير هدى- في دروب مكة وشِعابها، فأحسستُ أنَّهن يتنكَّرن لي؛ أحسستُ أنّي غريبٌ في بلدي.. بين قومي وعشيرتي وأهلي؛ وما ذاك؟!!

(وُكِسنا في تجارتنا -في أواخر أيام أَبِي- وتناقصتْ مكاسبنا.. حتى تعثَّرتْ أحوالنا!؟)، (هلك أبي.. وتشاغلتُ -عن إصلاح الأموال وتعويض الخسائر- بمؤازرة أبي سفيان في حربه على محمد؛ كنتُ أبادر بالنهوض معه قبل أبنائه.. حتى طعنني الحاسدون.. وتهامسوا: "بل.. أنت.. ابن أبي سفيان بن حرب؛ لا ابن العاص بن وائل!!؟"؛ اخسأوا.. أيها الحاقدون!!).

أنشأتُ أتبصَّر في القضية.. وأتفكَّر في شأن قريش ومحمد: (محمدٌ تتضاعف قوته.. وتتعاظم هيبته!؟ لا مِرَاء.. سيظهر على قريش؛ لقد ضيَّق الأرض علينا؛ فأمسى سلطان قريش.. في انقباض، ومُلْكه.. في انبساط!!؟).. ..

(فماذا عني؟؟! لو ظهر.. وظفر بي؛ سيفتك بي.. لا شك عندي في هذا!!؟)،

(ولإنْ ظهرتْ قريش –ولا أحسب أنَّ هذا يقع-؛ فلا عِزّ لي -وأنا فقير- بين أسيادها.. فما العمل؟؟!).. ..

(لا تثريب عليَّ –إذاً- لو اِهتممتُ بشؤوني.. وأصلحتُها!!)، (ينبغي أنْ ألتفتُ إلى تجارتي.. لأستعيد رواجها، وأنْ أتعهَّد أموالي.. فأُنمِّيها!)، (إلى متى انشغل عن مالي وعيالي؟! هل أنتظر حتى ألبس الأَسْمال[1]؟! هل أتوانى حتى أبيع متاع داري؟! أو تأكل امرأتي العِلْهِز[2]؟! هل أتأخَّر حتى لا أجد لعيالي قُوتاً.. فأذبح لهم حصاني؟!!).

قرّرتُ الاعتزال!! اعتزال الصراع مع محمد؛ سأكون كفارسٍ ترجَّل عن جواده.. وأغمد سيفه.. وخلع درعه، لكن –ساعتئذ- لن يتركني أبو سفيان وشأني؟!!!

إذاً.. عليَّ أنْ أرحل عن مكة.. ولو إلى حين!!؟ إلى حين أقف على قدمي من جديد، ثم أرجع إليها.. وأنا على ما أحب أنْ أكون: عمرو بن العاص.. سيد بني سهم؛ السيد الكريم.. ذا الثراء والسخاء!

يَجدُر بي أنْ أغيب عن مكة.. ريثما يُحسَم الصراع بين قريش ومحمد!!

أوجبتُ على نفسي الاعتزال، واعتزمتُ الارتحال.. وبقي السؤال: إلى أين أذهب؟! ما البلد الذي استبدله بمكة؟! مَن هم القوم الذين سأبدء بينهم مِن جديد؟؟!

لا بلد غير الحبشة.. ولا معين إلا النجاشي؛ اتَّخذتُ قراري بالنُّزُوح إلى الحبشة، وأسررتُ بذلك لنَفَرٍ مِن قومي.. يسمعون نصيحتي ويطيعون رأيي؛ فكلَّمتُهم سِرّاً: "والله.. إنّي لأرى أمر محمدٍ يعلو الأمور كلها علواً مُنكراً؛ وإنّي قد رأيتُ رأياً.. فما ترون فيه؟؟!"، قالوا: "ما رأيتَ؟؟".

---

[1]: الأسمال: جمع سَمَل.. وهو الثياب القديمة البالية.

[2]: العِلْهِز: طعام رديء، وهو: وبر يُخلط بدماء يابسة.. كانت العرب تأكله في الجاهلية في أيام الجدب والمجاعة.

أجبتُهم: "أرى أنْ نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإنْ ظهر محمدٌ على قومنا؛ أقمنا عند النجاشي.. فأنْ نكون تحت يده أحب إلينا مِن أنْ نكون تحت يد محمد، فإنْ ظهر قومنا؛ فنحن مَن قد عرفوا.. ولن يأتينا منهم إلا خير!!؟".
رضوا بنصحي.. هاتفين: "إنَّ هذا لهو الرأي!"، توافقنا على الالتحاق بالنجاشي.. فقلتُ لهم: "اجمعوا ما نهديه إليه؛ وإنّ أحب ما يأتيه مِن أرض الحجاز.. الأدم!".

شرعنا نجمع للنجاشي مِن الأدم الكثير.. لكي ندخل به عليه؛ عساه يقبل هدايانا.. ويُؤْوِينا في بلاده!!
ارتأيتُ أنْ أبوح لزوجتي بما في نفسي.. فهامستُها: "يا أم العاص! أعلم أنّي أُغامر بذهابي –الحين- إلى النجاشي.. ولا سيما بعدما رَدَّني –مِن عنده- خائباً.. ورَدَّ هداياي؛ لكنّي أتعشم –بعد مرور السنوات الفائتة- أنْ تكون نفسه قد صفتْ.. ونسي ما مضى، وإنّي لأطمع أنْ ألقى منه سماحةً وكرماً.. كما عهدتُه، وأرجو أنْ أجد –في أرض الحبشة- رواجاً لتجارتي.. وسعةً في رزقي!!".

زفرتُ زفرةً يائسة.. ثم استأنفتُ -بصوتٍ خفيضٍ- مُعتذِراً: "وإنّي.. إذ أذهب مِن دونكم.. لا أتخلّى عنكم، إنَّما أحاذر أنْ يَعْرِض لنا عارضٌ –في أرض الحبشة- فيمسسكم سوءٌ.. في أرضٍ غريبة؛ لذا.. فإنّي أترككم –في مكة- بين أهلكِ وأهلي.. بين قومنا وعشيرتنا.. إلى حين؛ ولن تُضامي –أنتِ وولدكِ- بينهم!!".
ثم استطردتُ بشيءٍ مِن الانكسار: "ولا ترتاعي.. إنْ ظهر محمدٌ على قريش -ولو دخل مكة غازياً-؛ فلن يُصيبكِ منه أذى؛ لقد عرفناه كريماً.. ولم نعهده لئيماً، وإنَّ دينه ليدعو إلى صلة الأرحام.. وحفظ الحرمات!!".
وَجَمتْ.. ولم تجبني، بل.. بكتْ –في أحضاني- حتى طفر الدمع في عيني، حاولتُ طمأنتها.. فذيَّلتُ حديثي قائلاً: "وعسى ألا تطول المدة علينا!".

فيما أحمل عصا التِّرحال.. وأسحب خطام دابتي.. سألتني: "ماذا أنت فاعلٌ بأخيك: هشام؟!"، ساعتئذ.. تذكَّرتُ أنَّ لي أخاً مِن أتباع محمد؛ (وهل كنتُ نسيتُ ابن أبي.. الذي أسجنه وأُعذِّبه بيدي؟!)، وضعتُ عصاي.. ودلفتُ إليه لأودعه: "أرى أنَّ نجم صاحبك في ظهور.. ونجم قريش في أُفُول؛ لكنّي لن أُمكِّنه مِن رقبتي!!".

أجابني بلهجةٍ ناصحة: "يا عمرو! دع عنك أمور الجاهلية.. واستدرك ما فاتك! الأمر أَجَلّ مِن أنْ يكون منافسةً بين فريقين، إنَّه التدافع بين الحق والباطل.. وقد استبان لك الحق، وإنَّ الباطل إلى زُهُوق، وإنّي أُحب لك ما أحبه لنفسي!".

هززتُ كتفي بلا مبالاة.. وأبديتُ الاستخفاف بحديثه، ثم انسحبتُ.. مُجيباً زوجتي: "ما أفعل؟!! وما أملك له.. إنْ فَرَّ مِن محبسه.. والتحق بأصحابه؟؟!"، وأحسب أنَّها فهمتْ: أنني لن أغضب إذا يَسَرَتْ له الهروب.. كما فعلتْ سابقاً!!

انطلقتُ ورفاقي نَجِدّ في السير إلى بلاد النجاشي.. حتى بلغناها في أقصر مدة، جمَّعنا هدايانا التي اصطفيتُها مِن أحب الأشياء إلى النجاشي، ثم استأذنتُ أنْ ألقاه.. (وأعلم أنّها مجازفةٌ مني!؟)، انتظرتُ الإذن بالدخول عليه.. والقلق يقرض أعصابي مخافة أنْ يرفض لقائي أو أنْ يُسيء استقبالي!!؟
على أنّي لم أجد لتلك المجازفة بديلاً.. ولا سيما أنَّ ما شجَّعني على أنْ أُجازف: أنّي جئتُ –هذه المرة- لائذاً بالنجاشي.. مثلي مثل جعفر وأصحابه؛ وإنّي أعلم سماحته وكرمه.

صدق فيه.. ظَنّي؛ ولقيني المَلِكُ -كما أُحِب أنْ يلقاني- بسماحة نفس وحسن ترحاب، وضرب صفحاً عما وقع مني –آنفاً- في حق جعفر وأصحابه.. لَمَّا كاشفتُه أنّي جئتُ مستجيراً به.. لاجئاً إلى بلاده؛ قلتُ: "ضاقتْ بي الأرض.. ورجوتُ أنْ أجد

السعة في جوارك.. أيها المَلِك!!"، وضع جناحه لي.. وسمح لنا بالإقامة في جواره، وأباح لنا العمل بالتجارة في بلاده؛ شكرتُ له.. وأثنيتُ عليه، واستبشر رفاقي.

لم تكد قدمي تثبت في الحبشة، ولمّا أنشر بضاعتي في أسواقها.. إذ جاءتني –مع قافلة قادمة من مكة- رسالةٌ ودودةٌ من ريطة: تطمئنني على نفسها وعلى عيالي، ثم ذيَّلتها بخبرٍ عن فرار أخي هشام إلى محمدٍ في يثرب؛ وهذا شيءٌ.. كنتُ أتَوَقَّعه.

ثم بلغتني الأنباء عن مكة: أنَّ محمداً زحف إلى مكة.. زاعماً أنَّه جاء معتمراً ومُعظِّماً للبيت الحرام، وأنّ صداماً أوشك بينه وبين قريش.. لولا أنْ جنحوا للسلم، وتعاقدوا على الصلح [1] بينهم.. على أنْ يرجع عن مكة عامه هذا ثم يأتي معتمراً في العام الذي يليه، وقد تعاقدوا على هدنةٍ.. قدرها عشر سنين!!
(إلى هذا الحد تعاظم محمدٌ.. وكأنَّه صار مَلِكاً؟!!)، (وَيْهَا.. يا ابن عبد المطلب!! تطمح أنْ تكون مَلِك الحجاز؟!! هل تُسَوِّل لك نفسك أنْ تَملك مكة؟! مكة.. البلد اللقاح[2].. التي لم تذعن –أبداً- لمَلِكٍ من الملوك، وما أدى أهلها –يوماً- لمَلِك إتاوة، ولم يملكها ملكٌ قط.. ولم يخضع أهلها –يوماً- لسلطان أحد!!).
(تريد أنت –اليوم- أنْ تملكها؟!!)، (تظنّ نفسك أعظم من ملوك حمير وكندة وغسان ولخم وغيرهم من عظماء العرب.. الذين كانوا يَحُجّون إليها مُخبتين؟!!)، (جئتَ -إلى مكة- مُتوهِماً.. أنَّك تُخضِع أهلها –من قريش وغيرهم- إلى سلطانك؟!! هيهات.. هيهات!! إنَّ أهل مكة يَغزون الناسَ.. ولا يُغزَون، يَسلبون.. ولا يُسلَبون، يَستعبدون.. ولا يُستعبَدون، يَسبون النساءَ.. ولا تُسبى لهم نساءُ!!).

[1]: هو صلح الحديبية الذي كان بين النبي ﷺ وقريش.. في ذي القعدة سنة ٦هـ.

[2]: قوم لقاح.. أو بلد لقاح: لم يَدينوا للملوك ولم يُمْلَكُوا ولم يصبْهم في الجاهلية سِباءً.

قلتُ مُعزياً نفسي: (واللات.. لقد أكرمتُ نفسي.. إذ خَرَجتُ مِن مكة؛ فلم أحضر هذا الصلح!!).

ثم توالتْ عليّ الرسائل مِن ملأ قريش: "أنْ ارجع إلى مكة.. أبا العاص!! قد علمنا أنّك فارقتَها كارهاً أنْ ترى محمداً يظهر على قومك؛ لكنّا –الآن- صالحناه؛ واضطررنا لذلك بعد أنْ أرهقتنا الحرب.. وضيَّقتْ علينا أرزاقنا!".
"ارجع.. يا عمرو! قد آنَ لنا أنْ نتفرَّغ لأموالنا.. فنصلحها، وأنْ نتدارك ما فاتنا من أرباحٍ ومكاسب! إنّا نفتقدك.. يا أبا العاص! قريش أحوج إليك في مكة منها في الحبشة!!"، لم أشك في أنَّ أبا سفيان وراء تلك الرسائل؛ ما كان سيد مكة ليُفرِّط في رجلٍ مثلي!
ربما لو عُدتُ إلى مكة –الحين- أفوز بما كنتُ أنشده حين فارقتُها منذ شهور!!؟ تردَّدتُ.. يسيراً؛ لكنّي آثرتُ الرجوع إلى مكة.. دونما أقطع صلتي بالحبشة، ودون أنْ أخسر الآصرة -بيني وبين النجاشي- التي أينعتْ لي ثمارها.

جَهَّزتُ هدايا قيمة.. وهيَّأتُ نفسي قائلاً لها: (أدخل على المَلِك.. فأستأذنه في الرحيل إلى مكة؛ ثم العودة بتجارةٍ أعظم!!؟)، وبينما أنا عند القصر -أسأل الحرس أنْ أقابل النجاشي- إذ رأيتُ عمرو بن أمية الضمري[1]؛ حدَّثتُ نفسي:
(هذا –والله- فاتك بني ضمرة الذي خذلنا يوم أُحُد.. وقتل مِنّا رجالاً.. وحاول اغتيال أبي سفيان، وما جاء إلى هنا.. إلا لشرٍ يُصيب به قريش!).
تربَّصتُ حتى انصرف، ثم احتلتُ على بعض الحرس.. وعرفتُ منهم أنَّه رسولٌ إلى النجاشي مِن لدن محمد.

[1]: هو الصحابي الجليل: عمرو بن أمية.. مِن قبيلة ضمرة من كنانة، كان مشهوراً -في الجاهلية- كأحد أنجاد العرب ورجالهم الشجعاء الفاتكين، حضر مع المشركين غزوة أحد.. ثم تخلّى عنهم.. وانضم –بعدها- إلى صف المسلمين، وجاهد مع رسول الله ﷺ.

وفيما انتظر أنْ ألج إلى المَلِك.. جعلتُ أتفكَّر: (لو دخلتُ على النجاشي.. وسألتُه هذا الفاتك الصابئ؛ فأعطانيه.. فضربتُ عنقه!؟ فإذا فعلتُ ذلك.. لسُرَّتْ قريش.. وكنتُ قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد؛ وحينئذ.. أكون قد حفظتُ لنفسي مكانةً عزيزةً بين أسياد قريش.. لا يُنازعنيها أحدٌ أبدا!!؟).
استحسنتُ الفكرة.. وأُستُدعِيتُ لمقابلة المَلِك.

دخلتُ على النجاشي فعظَّمتُه.. وسجدتُ له كما كنتُ أصنع، ثم قرَّبتُ إليه هديتي؛ فأعجبته، رأيتُ طيب نفسه بهديتي وبلقائي.. فاستأذنتُ أنْ أتكلَّم؛ فأذن لي.. ثم قلتُ: "أيها الملك! إنّي قد رأيتُ رجلاً خرج مِن عندك.. وهو رسول رجلٍ عدوٍ لنا؛ قد وَتَرَنا.. وقتل أشرافنا وخِيارنا؛ فأعطنيه.. فأقتله..." .. !!
لم يدعني أُكمِل حديثي؛ وثب إليّ غاضباً.. ورفع يده فضرب بها أنفي ضربةً.. ظننتُ أنَّه كسره، وابتدر منخاري[1]، فجعلتُ أتَلَقَّى الدم بثيابي، وأصابني مِن الذُّلِّ ما لو انشقتْ بي الأرض لدخلتُ فيها رهبةً مِن غضبته، ارتبكتُ تَهيُّباً له.. ثم استجمعتُ نفسي.. وقلتُ في خضوع: "عذراً.. أيها المَلِك! لو ظننتُ أنَّك تكره ذلك؛ ما سألتُك!!".
استحيى.. وخاطبني مُعاتِباً: "يا عمرو! تسألني أنْ أُعطيك مبعوثَ رسولِ الله: مَن يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى.. والذي كان يأتي عيسى؛ لتقتله؟!!".
باغتني قوله.. فسألتُ –باستعظام- مُندهِشاً: "أ تشهد له بهذا.. أيها المَلِك؟؟!"، أجابني بيقينٍ ثابت: "أجل!! أشهد به عند الله!"، ثم أردف مُحضِّضاً: "ويحك.. يا عمرو! أطعني.. واتَّبعه، والله.. إنَّه لعلى الحق، وليظهرنّ على كل دينٍ يخالفه.. كما ظهر موسى على فرعون وجنوده!".

[1]: أي: سال الدم من منخاري، والمنخار هو: ثقب الأنف.

بسط يده –مشيراً إليّ أنْ أُصافحه-.. فاستلمتُ يده، شَدَّ على يدي.. هاتفاً: "بايعني على الإسلام.. يا عمرو!"، لم أجد مهرباً.. فبايعتُه.
تَهلَّل وجه.. وسُرَّ بذلك سروراً عظيماً، ثم دعا بطست[1].. فغسل عني الدم، وكانت ثيابي قد تَلَوَّثتْ مِن الدماء؛ فكساني ثياباً غيرها، ثم خرجتُ مِن عنده.. ذاهلاً عَمّا حولي!!

لقيني إخواني القريشيون.. بعدما علموا أنَّ المَلِك.. كساني؛ ابتدروني مُهنِّئين: "واللات والعزى.. قد أصبتَ حاجتك لدى النجاشي!!؟"، أجبتُهم باقتضابٍ: "ليس بعد!!"، وأخفيتُ عنهم ما وَقَع بيني وبينه، وأضمرتُ في نفسي أمر الإسلام.

عرفتُ –بعد أمدٍ قصير- أنَّ الضمري.. جاء إلى النجاشي ليرسل معه جعفرَ ومَن بقي في الحبشة مِن المسلمين، ولأمرٍ آخر.. ازددتُ منه عَجَباً؛ وذلك أنَّ محمداً بعث يدعو النجاشي إلى أنْ يُزوِّجه رملةَ بنت أبي سفيان.. بعد أنْ مات عنها زوجها؛ تَعجَّبتُ: (رغم العداوة التي بينهما.. يُكَرِّم ابنةَ أبي سفيان ويتزوَّجها، يُحسِن إلى بنت عدوه.. فلا يتركها بلا بعل؛ والأولى به أنْ يُضيِّعها نكايةً في أبيها؟!! هذا خُلقٌ حسنٌ.. لم أعرف مثله لدى الأعداء!!؟).
ثم علمتُ أنَّ النجاشي أجابه إلى ما دعا إليه، وأصدق[2] العروسَ عنه.. أربعمائة ديناراً، وأَوْلَم لهم وليمة الزواج؛ فأكلوا منها.. وأكل معهم!!؟ ما برحتْ الدهشة تجول في خاطري: (النجاشي يعامل أصحاب محمد.. كأنَّهم أهله؟؟!).
ثم بلغني أنَّ الضمري حمل جعفر وأصحابه –وبنت أبي سفيان.. التي تزوَّجها محمد- في سفينتين.. وسلك بهم -في البحر- قافلاً إلى محمد.

[1]: الطست: إناء كبير مستدير من النحاس يوضع فيه الماء للغسل ونحوه.

[2]: أي دفع لها صداقاً.. وهو المهر.

- ٣٨ -

رحل الضمري بجعفر وأصحابه عن الحبشة، واعتزلتُ قصر النجاشي.. وشغلتْه عني شئونُ دولته، وبقيتُ مع رفقائي القرشيين.. وقد أكننتُ عنهم أمر البيعة التي بايعتُه عليها، بيد أنَّ قلبي تَغيَّر؛ لم أعد عمرو الذي كان آنفاً.

أصبحتُ أشعر بالغربة بين إخواني وأصحابي، حُبِّبتْ إليّ العزلة.. وكثيراً ما كنتُ أنزوي بعيداً عنهم.. وعن الناس أجمعين، نسيتُ رفاقي.. وتجارتي التي جِئتُ مِن أجلها؛ جئتُ –إلى هنا- لأُنمِّيها.. وأسترجع بنمائها مكانتي بين أسياد قريش!؟
نسيتُ قريش.. وأبا سفيان.. وخالد بن الوليد، نسيتُ صراعنا مع محمد؛ نسيتُ كل شيءٍ.. وما أصبح يشغلني سِوَى البيعة التي بايعتُها النجاشي.

تعاقبتْ أيامٌ.. ومَرّتْ أسابيعٌ؛ وغدوتُ أهيم على وجهي.. أغادر أبواب المدينة، وأسير -حيناً- في شِعاب الجبل، وأحياناً.. أُمعِن في الابتعاد؛ فأمشي وسط أعشابٍ صفراءٍ طويلة، وأحياناً أُواصل المَشْي تحت الأمطار.. دونما أنتبه لقدميّ اللتين تخوضان في الأوحال.
الشهور.. كَرّتْ؛ وتَبدَّل الصيف.. شتاءً، وانقطع.. المطر، أقبل مَوسم الجفاف، وتَحَوَّل صيف هذه البلاد المَطير إلى شتاءٍ قاحل؛ ودرجتُ على السَيْر فوق أرضٍ سوداءٍ جرداء.. تشقَّق وجهها اشتياقاً لماء المطر.
ودأبتُ على هذه الحال.. ليلاً ونهاراً؛ أرقب الشمس والقمر.. يتعاقبان على احتلال رقعة السماء، تجتالني[1] الحَيرة والظنون.. وتتقاذفني الهواجس والأفكار:

[1]: اجتاله: استخفه.. وذهب به كل مذهب.

(هل أشك في عقل النجاشي.. أو في حكمته؟! لم أعهده إلا رجلاً راشداً، وهو ذو علمٍ بدين المسيح.. وكُتُب اليهود والنصارى؛ ها هو ذا يعترف –أمامي- بإيمانه بدين محمد، بل.. ويشهد بأنّ الناموس الذي كان يأتي موسى وعيسى.. يأتي محمدا!!؟).

(هل النجاشي رجلٌ أحمق؟؟! هل يستطيع محمد –أو أحدٌ من أصحابه- أنْ يخدع النجاشي عن دينه؟؟!)، (لا أظنّ أنَّ أحداً منهم يستطيع ذلك! إذاً.. كيف لم أفطن –مِن قبلُ- لِمَا فطن له النجاشي.. ومِن قبله: أخي هشام.. وأمثاله مِمَن آمنوا بدين محمد؛ كيف لم أَرَ ما رأوه؟؟ كيف لم أعقل ما عقلوه؟؟).

(أيهما أفضل: دين العاص بن وائل، أم.. دين النجاشي أصحمة؟!)،

(لا جرم.. دين العاص؛ دين قريش.. خيرٌ مِن دين الحبشة!!)، (لا دليل أوضح مِن الطير الأبابيل.. وما جرى لجيش الفيل –قديماً- عندما جاء يهدم الكعبة!!؟).

(إذاً.. لا تثريب على النجاشي أنْ ينخلع مِن ذاك الدين، لكنّه.. لم يدخل في دين قريش؟! دخل في دين محمد!!)، (وهل محمدٌ إلا رجلٌ -مِن عبد مناف- مِن قريش؟!)، (كلا!! دين محمد.. ليس دين العاص بن وائل، ليس.. دين قريش!!؟).

(ماذا كان ينقم العاص.. مِن دين محمد؟!)، (كثيراً!! لقد أوغل محمد في الإلحاد: جعل الآلهة إلهاً واحداً، وكذا.. زعم أنَّ ثَمَّة بعثاً ونشوراً.. بعد الموت؛ ومِن ثَمّ.. حسابٌ.. ونعيمٌ وعذابٌ، وهل عاقلٌ.. يؤمن بهذا؟!!).

(لكن.. إذا كان دين العاص خيراً مِن دين النجاشي: فكيف تكون حياة العاص أبأس مِن حياة النجاشي؟! كيف يُنعَّم النجاشي كما هو مُنعَّم بملكه؟!! وكيف يشقى العاص أكثر منه؟؟! الأَوْلَى أنْ يكون أهل دين الرب أحب إليه -وأحسن تَنَعُّماً بعطاياه- مِمَن سواهم؛ وقريش ومكة.. ليستْ أنعم مِن النجاشي وأكسوم، ولا حتى كسرى والمدائن.. ولا قيصر والشام؟!!).

(إذا كان دين النجاشي.. خيراً مِن دين العاص؛ فما الطير الأبابيل.. إذاً؟!! إلا أنْ تكون حياةٌ أخرى يُدخَر فيها النعيمُ للأرشد ديناً؛ وهذا ما يقول به محمد!!؟ وكان يطعن فيه العاص بن وائل!!؟).

(ليس العاص وحده؛ بل.. الوليد بن المغيرة.. وأبو الحكم.. وأبو سفيان.. وغيرهم مِن ذوي الأحلام؛ جميعهم طعنوا في دين محمد.. وكذَّبوه، وجميعهم لهم فضلٌ وسنٌ ومكانةٌ.. لهم حلومٌ كالجبال؛ كانوا لا يسلكون فجاً.. إلا وجدناه سهلاً!!؟)، (ماذا لو كان أولئك الآباء.. خاطئين؟؟! كيف نُقلِّدهم فيما ذهبوا إليه مِن عداوة محمد.. دون أنْ نتفكَّر؟!! كيف ننكر عليه مِن غير أنْ نسمع منه.. ونُعمِل العقل فيما يقول؟؟!!).

(قد سمعتُ –رغماً عني- مِن أخي هشام، ولم أُنكِر مما سمعتُ شيئاً؛ إنَّه دينٌ يحُثُّ على النجاح والفلاح.. ومكارم الأخلاق، لم أجد فيه ما يسوؤني.. سِوَى أنَّه جعل الآلهةَ إلهاً واحداً!!؟)، (لكن.. أ إلهٌ واحدٌ خير.. أم أربابٌ مُتفرقون؟!!).

(تالله.. لإنْ تدبَّرتُ.. لأيقنتُ أنَّ الآلهة يجب أنْ تكون إلهاً واحداً!!)، (أ رأيتُ لو اجتمع أربابٌ شركاءٌ في عبدٍ واحدٍ؛ ألن يتخاصموا فيه؟؟! كيف –إذاً- لا يتشاكس كل أولئك الأرباب في الشمس والقمر؟!! والذي يُحلَف به.. إنَّه لإلهٌ واحد؛ لم أعد أرتاب في هذا!!).

(لكن.. كيف يكون بعثٌ بعد الموت؟؟ كيف يُنشر الناس –مرة أُخرى- بعد أنْ صاروا رميما؟؟! هذا ما لا يستوعبه عقلي، وهذا.. ما لا إجابة له!!؟).

مكثتُ -أمداً آخر- حائراً!!؟ أعرضتُ عن استدعاء ملأ قريش لي، وحاولتُ أنْ أُعنى بشئوني ومالي.. مُستأنِفاً التجارة في أسواق الحبشة؛ لكن.. ما بارح قلبي شعورٌ

مقيت بالغربة والانقباض، وما انفكتْ السآمة تلازمني أينما تَوَجَّهتُ، والحيرةُ.. ما فتئتْ تفترس عقلي!!

لم أزل قلقاً مُضطرباً.. ولم تزايلني السآمة، وربما أصابني القنوط.. ولا سيما إذا جَنَّ الليل وغطى بسكونه أهلَ الأرض، في ليالي كثيرة.. كان الأرق يستبد بي.. ويُطبق الضجر واليأس بأصابعهما البغيضة على قلبي.. حتى يضيق صدري!!

ودارتْ الأيام.. وحَلَّ مَوْسم الأمطار، اختنقتْ أنفاسي.. وثقل هواء تلك البلاد اللزج على صدري، بيد أنّي أبصرتُ -ذات صباح- بعيني وأدركتُ بعقلي؛ رأيتُ الأرض الجرداء تنشقّ.. وينبت فيها الزرع، أبصرتُ الحياةَ تدبّ في الأرض الميتة مِن جديد، شاهدتُ الأوابد تُقبِل إليها.. بعدما فارقتها إِبَّان الجفاف؛ كيف حدث ذلك؟!! هل السماء هي التي سكبتْ مطرها؟؟ وهل الأمطار هي التي أحدثتْ تلك الحياة الجديدة؟!! أم.. هل الأرض هي التي أخرجتْ نباتها؟! ربما كنتُ أرى هذا المشهد مِن قبلُ، بل.. لقد رأيتُه كثيراً؛ على أنّي لم أتبصَّر فيه قبل اليوم:

(مَن الذي أنزل هذا المطر مِن هذي السماء؟!! مَن الذي أحيّا به الأرض.. وأحيّا به هذه الكائنات؟؟! لا جرم أنَّه الإله الذي خلقها!! ولا مراء أنَّه قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم.. كما أحيّا هذه الأرض؛ أليس هو الذي أوجدهم أول مرة؟!).
(وأيم الله.. إنَّه للحقُ، ولا حق غيره؛ إنَّ الخالق واحد.. والإله واحد، والذي أحيّا أول مرة.. قادر على الإحياء مرةً أخرى، وإنَّ محمداً لصادقٌ، وإنَّه يأتيه ناموس السماء.. كما شهد له النجاشي!!).
(قد ظهر الحق.. واستقام المَنْسِم؛ علاما الانتظار.. إذاً؟؟! لِمَ أبقى -ها هنا- غريباً.. شريداً؟؟! عليَّ أنْ ألحق برسول الله!!).

(مَهْلاً.. يا عمرو!! ليس الأمر هَيْناً.. هكذا!!؟ إنَّ لي –في مكة- أهلاً.. وداراً.. ومالاً؛ تحفظهم قريش لأنّها تعلم أنّي على دينها، أمّا إنْ علمتْ قريش أنّي فارقتُ دينها.. وواليتُ عدوها؛ فلا آمن أنْ يسلبوا مالي.. ويُضيِّعوا أهلي!! فما العمل؟؟!).

قرَّرتُ أنْ أكتم إيماني.. مُتسلِّلاً إلى مكة؛ فأنظر: ما سيكون.. ولا سيما بعدما تصالحتْ قريش مع رسول الله!؟

تَهرَّبتُ مِن رفقائي القرشيين، وحملتُ معي نفقةً.. وانسللتُ –خُفْيَة- عامداً إلى مَوْضع السفن؛ فعثرتُ على سفينةٍ.. قد شُحنتْ برُقَع[1]، استبشرتُ بها.. وسألتُ أصحابها أنْ أركب معهم إلى مرفأ الشعيبة، حملوني معهم إلى الشعيبة، ومِن هناك.. سلكتُ طريقاً إلى مكة.

- ٣٩ -

انتهيتُ إلى مكة.. وحرصتُ أنْ أدخلها مُتخفِّياً، ولجتُ دارنا.. وتفاجأتْ ريطة بي أمامها؛ بهتتها المفاجأةُ.. لكن أسعدتها، فرحتي بلقائها أنستني حيرتي واضطرابي.. إلى حين، سألتُها عن ولدنا العاص، وأحسب أنَّها أَوْحتْ إليّ أنَّه بين أصحابه.

[1]: رُقَع.. جمع رُقَعَة: وهي الشجرة العظيمة.. ذات الساق الضخمة.

ألحتْ عليّ أنْ أغادر الدار لسويعات.. كي تَتهيَّأ وتُهيِّئ البيت لعودتي، رغم شوقي الجارف.. استجبتُ لها.
لا مناص –إذاً- مِن إعلان عودتي.. على الملأ، قصدتُ إلى البيت الحرام.. وطُفتُ بالكعبة، مثلي لا يخفى على أهل مكة.. فعلم بقدومي كثيرٌ مِن الناس؛ رحَّبوا بي.. وصافحتُهم وصافحوني، ثم دلفتُ إلى نادي بني سهم، التقيتُ ببني عمومتي، أحسنوا استقبالي.. واحتفوا بي احتفاءً عظيماً.

في نادي القوم.. سألوني عن النجاشي؛ أجبتُ باقتضاب: "أصحمة.. يزعم أنَّ صاحبكم نبيٌ.. يأتيه الناموس الذي كان يأتي موسى وعيسى!!؟".
سألتُهم عن أنباء مكة والأحداثِ التي وقعتْ أثناء غيابي، تَبدَّلتْ ملامحهم.. وبدتْ لي أمارات الحسرة والتندُّم على وجوههم.. وأجابوا: "تفاءلنا بصلح الحديبية، وظنّنا أنَّ الحرب وضعتْ أوزارها، وقلنا نعكف على أموالنا.. فنُصلحها، وتجارتنا.. فنُروِّجها؛ لكنّا.. كنّا خاطئين!!؟"، سألتُ مُندهِشاً: "و لِمَ؟؟!".
أجابوا: "اشترطتْ قريش على محمد أنْ يَرُدَّ إليها مَن جاءه مِنها بغير إذن وليه؛ ويا ليتنا ما فعلنا!!؟ فقد هرب رجالٌ كثيرون مِن الصباة.. مِمَن كانوا في سجون قريش وحلفائها، ولم يلتحقوا بمحمد في يثرب؛ إنَّما التجؤوا إلى جبالٍ بناحية العيص، واستتروا بها.. مُتربِّصين بقوافل تجارتنا الغادية إلى الشام؛ فأغاروا عليها.. حتى قطعوا علينا السبيل وأهلكوا أموالنا!!".
تساءلتُ مُتأفِّفاً: "وماذا فعلتم؟؟!"، أجابوا بخنوع: "لم نجد مفراً من إلغاء ذلك الشرط؛ فارتحل أبو سفيان -بنفسه- إلى يثرب.. ليلتمس مِن محمد أنْ يَضُمّ أولئك الصعاليك إليه، وأكَّد له أنَّ قريش.. تنازلتْ عن شرطها!!".
"وهل أجابكم محمدٌ لِما طلبتم؟؟!": تساءلتُ باهتمام.
قالوا: "نعم!! وها هو ذا.. قد ضَمّهم إليه، ومنعهم عن الإغارة علينا!!".

علَّقتُ –رغم حرصي على إخفاء إسلامي- بإعجابٍ: "تاللّه.. إنَّه كريمٌ.. واصلٌ للرحم!".
وجاء رجلٌ.. يهتف: "ألا أُخبرك.. بالأدهى مِن ذلك؟!!"، قُلتُ: "وما ذاك؟؟!".
أجاب: "لقد غزا محمدٌ وجنوده خيبرَ، وكسر اليهودَ –فيها- شر كسرة، ومَلَكها منهم، وأيم الله.. إنَّ أمره ليعلو علواً مُنكراً، ولولا أنّنا عرفناه لا ينقض العهد.. لقلتُ: أنَّه –لا ريب- سيغزو مكة!!؟".

بارحتُ نادي القوم.. آيباً إلى الدار، وقد تأكَّدتْ قناعتي بأنَّ محمداً على الحق، وإنَّه رسول الله.. وإنَّه لمنصور؛ تساءلتُ.. والحيرةُ تَعصُر ذهني: "ماذا ينبغي أنْ أفعل؟!! هل ألحق بالنبي.. وأتخلَّى عن قومي.. وأهلي.. ومالي؟!!".

لا جرم.. أبو سفيان أنبه مِن أنْ يغفل عني؛ استدعاني!!

تَوَجَّهتُ إليه.. تَطلَّع إليّ مُعاتِباً: "ما أبطأك علينا.. يا أبا العاص؟!!"، جلستُ.. ولم أُجبه، تحادث معي ملياً.. وكانت كلماتي مُقْتضبة، على أنّي قلتُ: "لقد زوَّج النجاشي بنتك (رملة).. إلى محمد!!؟"، أجاب بأسى: "قد علمتُ! وقلتُ: ذلك الفحل لا يُقْدع أنفه[1] !!؟"؛ قلتُ في نفسي: (وأبو سفيان –أيضاً- لا يُنكر إحسان محمد.. وكرم خُلُقه!).

هممتُ بالإنصراف.. فقال: "لا أحب أنْ أفتقدك –في مجلسي- بعد اليوم.. يا عمرو!؟؟"، أجبتُه: "أمهلني بضعة أيامٍ –يا سيد مكة- ريثما أتعافى مِن عناء رحلتي الطويلة، وقد علمتم أنَّ غيبتي طالتْ على أهل بيتي.. هذه المرة!!".
وَدَّعني.. هاتفاً: "كما تحب!؟ واعلم أنّا لا نحب أنْ تغيب عن مجلسنا!!؟".

---

[1]: فحلٌ لا يُقْدع أنفه: أي.. كريم، و قدع الفحل: أي.. ضرب أنفه بشيءٍ ليرتدّ.

لبثتُ أياماً.. أنتظر عودة ولدي، وكلما سألتُ أمه عنه.. تهرَّبتْ مِن إجابتي حتى فارقني حلمي، فسألتُها زاجراً: "أين ولدك.. يا أم العاص؟!! ألم يعلم –بعدُ- أنَّ أباه رجع بعد غيابٍ طويل؟؟! ألم تُرسلي إليه بنبأي؟؟! مَن أصحابه الذين غاب معهم؟؟ وأين ذهبوا؟!!"، سكتتْ.. وامتدّ سكوتها حتى استفزّ غضبي، أقسمتُ عليها أنْ تتكلَّم وتُفصِح.. وإلا فارقتُها –أنا.. أيضاً- بلا رجعة.

استعبرتْ.. وبكتْ، ثم قالتْ بصوتٍ كسيرٍ أسيف: "لقد اتَّبع ولدُك محمدا، ورحل إلى يثرب، هجرني -وهجر مكة كلها- بعدما تنازلتْ قريش عن شرط الصلح!!".

بُغتُّ.. وانخرستُ مصدوماً بما سمعتُ؛ مَجَّتْ ريطة كلماتها في وجهي، ثم تشاغلتْ عني.. وخَلَّفتْني –وحيداً- مشدوهاً، تَحيَّرتُ: (هل أفرح لولدي أنْ اتَّبع الهدى.. أم أحزن لأنَّه سبقني؟!!).

(ويحك.. يا عمرو! قَمِينٌ بك أنْ تحزن؛ قد سبقك ولدك إلى الهدى.. ومِن قبله أخوك!!؟)، (ماذا دهاك.. يا ابن العاص؟؟! إلى متى تتأخَّر عن الركب؟!!)،

(بئس الرجل أنت.. لو تخاذلتَ عن مبايعة رسول الحق على دين الحق.. خشيةً على دارك ومالك!!؟)، (ألا ترى؟! ألا تسمع عن الذين سبقوك.. وضحوا بأموالهم وأهليهم وأنفسهم؟!! ألا تحب أنْ تسابقهم؟!! إنْ كنتَ ترغب في اتِّباع الحق؛ فذاك أوانه!!)، (وإنْ رغبتَ عن اتِّباعه؛ فانقض بيعتك للنجاشي الذي –دائماً- كان ناصحاً لك، واعمد إلى أبي سفيان.. فبايعه على الباطل، وابقَ في مكة.. تتخبَّط في الضلال.. مع مَن بقي مِن قريش، وإنَّهم -وأيم الله- لقليلون!!؟).

انقطعتُ عن نادي بني سهم.. وسامرهم، وعن أبي سفيان ومجلسه، وأضمرتُ في نفسي العزم على الهجرة إلى رسول الله، وشرعتُ أتأهَّب لها.

(لا شك أنَّ أبا سفيان استبطأني، وربما يظنّ فيّ الميل إلى محمد.. حيث أنّي لم أُعلن للناس عن نقمتي على أخي أو ولدي.. الذَيْن جئتُ فوجدتُهما فَرَّا إلى يثرب!!).
(عليَّ أنْ أُعجِّل بالهجرة.. قبل أنْ يعرض لي عارضٌ يؤخِّرني، أو ينتبه إليّ أبو سفيان.. فيعرقلني)؛ جمعتُ نفقةً ضئيلة.. وابتعتُ بعيراً.

أجلستُ ريطة بين يديي.. وهمستُ: "أيا زوجتي الحبيبة! تعلمين أنَّك أحب الناس إليَّ، وأنَّ فراقكِ أشقّ عليَّ مِن فراق روحي لجسدي؛ لكنّي.. قد عرفتُ الحق.. كما عرفه ولدك، وإنَّه ليسوؤني أنْ يسبقني هو وهشام إلى رسول الله.. وألّا ألحق بهما!!"، ثم أردفتُ بحسم: "إنّي مُرتحلٌ الليلة إلى يثرب؛ فلا تمنعيني!!".
أجابتْ والدموع تنساح على وجنتيها: "والذي يُحلف به.. ما منعتُك عن شيءٍ أحببتَه قط؛ فهل أمنعك الآن.. وقد استبان لنا الحق؟!!".
انشرح صدري لمقولتها: (تالله.. إنّ الإسلام يداعب شغاف قلبها؛ الحمد لله أنْ هداني وأهل بيتي إلى الدين الحق!!).

طرق باب الدار، نهضتُ لأفتحه.. وانسحبتْ ريطة لتستتر عن الطارق، كان أحد أخلائي مِن بني سهم، حيَّاني.. وأدخلتُه بترحاب، أجلستُه.. فابتدرني قائلاً: "يا أبا العاص! ما أبطأك عمّا كنتَ تسرع فيه مِن عَوْن أبي سفيان؟! إنَّ قومك قد ظنّوا بك الميل إلى محمد!!؟".

أسررتُها في نفسي: (قد علمتُ أنَّ أبا سفيان لن يُخلِّي سبيلي؛ ينبغي أنْ أحذر، والأحوط أنْ أهاجر سراًا!).
أجبتُ الأخ السهمي.. قائلاً: "يا أخي! إنْ كنتَ تحب أنْ تعلم ما عندي؛ فموعدك الظل.. في حراء!!".

قبـل أنْ يحـين موعـدي معـه.. كنـتُ قـد تجهَّـزتُ للهجـرة.. وتهيَّـأتُ للرحيـل، ثـم التقيتُـه في ظل حـراء، كاشـفتُه بالحقيقـة.. هامسـاً: "يـا أخي!! إنّي أنشـدك الله.. الذي هو ربك ورب مَن قبلك ورب مَن بعدك؛ أ نحن أهدى.. أم فارس والروم؟!". قال.. مُستغرِباً السؤال: "بل.. نحن!!".
قلتُ: "فما ينفعك فضلنا عليهم في الهدى.. إنْ لم تكن إلا هذه الدنيا؟! وهم فيها.. أكثر منّا أمراً؟!!"، ثم أردفتُ بها صراحةً: "قد وقع في نفسي أنَّ ما يقول محمد حق.. مِن البعث بعد الموت؛ ليُجزَى المحسنُ بإحسانه.. والمسيءُ بإساءته!! هذا -يا أخي- هو الذي وقع في نفسي؛ ولا خير في التمادي.. في الباطل!!".

ثم افترقنا.. ولستُ أدري: ماذا ستفعل بي قريش بعد أنْ يبلغهم قولي هذا، على أنّي انسللتُ –خُفْيَّة- حين جَنَّ الليل، وسلكتُ في طريقي إلى رسول الله!!

- ٤٠ -

خرجتُ على مر الظهران، ثم مضيتُ حتى كنتُ بالهدة[1]؛ فإذا رجلان -قد سبقاني بغير كثير- يريدان منزلاً، أحدهما داخل خيمة.. يُعِدّها لمستراحهما، والآخر.. قائمٌ -خارجها- يمسك راحلتين؛ نظرتُ إليه.. فإذا هو: خالد بن الوليد المخزومي!!؟

قلتُ: "أبا سليمان؟!!"، قال: "نعم!!"، قلتُ: "أين تريد؟؟"، قال: "محمداً!!"، ثم أردف: "والله.. **لقد استقام المَنْسِم**.. وإنَّ الرجل لنبي، أذهب –والله- أُسلم.. فحتى.. متى؟!!"، قلتُ: "وأنا -والله- قد أردتُ محمداً.. وأردتُ الإسلام!!".

ثم جاء إلينا الرجل الذي في الخيمة؛ فإذا هو عثمان بن طلحة العبدري، رحَّب بي.. ونزلتُ معهما في منزلهما، ثم ترافقنا.. حتى قدمنا المدينة.

أنخنا ركائبنا في ظاهر الحَرَّة.. ولبسنا مِن صالح ثيابنا، علم بنا بعض أخوة خالد مِن مسلمي مخزوم.. الذين هاجروا قبلنا؛ أَتَوا إلينا.. وقالوا: "أسرعوا!! إنَّ رسول الله ﷺ.. قد أُخبِر بكم؛ فسُرّ بقدومكم.. وهو ينتظركم!!".

أسرعنا المشى.. حتى طلعنا عليه.. وإذا وجهه مُتهلِّلٌ، والمسلمون –حوله- قد سُرّوا بإسلامنا، ما زال يبتسم لنا.. حتى دنونا منه، وقفنا بين يديه.. وسلّمنا عليه بالنبوة؛ فرَدَّ علينا السلام.. بوجهٍ طلق.

ثم تقدَّم خالد.. فبايع قائلاً: "إنّي أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّك رسول الله!"، ثم تقدَّم عثمان.. فبايع مثل خالد.

---

[1]: الهدة: وادي يمر شمال مكة المكرمة، على يمين الطريق إلى عسفان، في الطريق إلى المدينة المنورة.

ثم اقتربتُ، فوالله.. ما هو إلا أنْ جلستُ بين يديه؛ فما استطعتُ أنْ أرفع طرفي إليه حياءً منه، ثم قلتُ: "يا رسول الله! إنّي أُبايعك على أنْ يُغفَر لي ما تقدَّم مِن ذنبي، ولا أذكر ما تأخَّر!!"، فقال: "يا عمرو! بايع.. فإنَّ الإسلام يَجُبّ ما قبله، وإنّ الهجرة تَجُبّ ما قبلها!"، فبايعتُ.. هاتفاً:

"أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأشهد أنَّ محمداً رسول الله"

****